

تَنْبِيْهُ الْأَطْفَالِ
فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ



تَرْبِيَةُ الْأَطْفَالِ

فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

الجزء الأول

إعداد

مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ قَارُوطٌ

يُوسُفُ بَدِيُوي

دَارُ الْمَكْتَبِ

الطبعة الأولى

2016 - 1437

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التيسيل المرفي والمسرّع أو الاعتزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكترب من دار الكتب .



دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email: almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

دار الكتب والنشر

الطبع والنشر والنوشت



* إلى الجيل الناشئ المتعطش إلى المعرفة
الصحيحة ، والتخلق بالقيم النبيلة ، وهو يتهيأ للقيام
بأعباء المسؤولية ، وتكاليف الحياة .

* إلى كل أب وأم يهدفان إلى شحذ العزائم ؛ لإقامة
المجتمع الفاضل ، والأمة المثلى .

* إلى أبائنا ، فلذات أكبادنا ؛ ليكون هذا الكتاب
غرساً في نفوسهم ، يحمل معاني التربية ،
والإعداد ، والتوجيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده . والحمد لله حمداً تدوم به النعم ، وتُصرف به النقم ، ويُستجاب معه الدعاء .

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

اللهم فجّر ينابيع الحكمة من قلوب أبنائنا ، وأجرها على ألسنتهم ، والطف بهم في قضائك ، وعافهم من جميع بلائك ، ووفّقهم لما يُرضيك ، وباعد بينهم وبين جميع معاصيك ، ونوّر أبصارهم وبصائرهم ، وارض عنهم يا أرحم الراحمين .

أمّا بعد :

فإنّ القرآنَ عقيدةً وعبادةً وتشريعاً للنفس الإنسانية ، يعمل على تنشيط الأخلاق الإيجابية بالتربية الموجهة ؛ لإقامة مجتمع صالح ونظيف في مشاعره ، وعلاقاته ، وتحركاته ، وهذا لا يكون إلا بالعودة إلى الفطرة السليمة ، وتدريب الإنسان على الخلق الفاضل ، والمُثل القيّمة ، وتربية المجتمع كلّهُ على مرتكزات المحبة والعدل والتكافل .

كذلك فإنّ التربية النبوية سمّت بالنفوس نحو معارج الكمال ، ورَسَخَتْ مبدأ الطاعة لله ورسوله ، وحثّت على العلم ، والتفقه ، ومحاسبة النفس ، والتضحية ، وتصحيح المعتقدات والأخلاق والميل ، وعزّزت الثبات أمام المطامع والشهوات ، فكانت وازعاً قوياً يمنع من الجموح ، والسُّمُوس ، والتهافت ، والارتكاس .

فالقرآن والسنة هما المصدران الأساسيان اللذان تعتمد عليهما الأسرة المسلمة؛ لتوجيه الأولاد، وعمارمة المجتمع، وبناء الحضارة في ميادينها كلها.

وكان المجتمع الذي رباه النبي ﷺ طاقةً زهر عطرة، عبت بشذا العرف الندي، وقام ذلك المجتمع على قواعد تربوية تتركز في: تلاوة القرآن وفهم معانيه، والاندفاع إلى التعلم والتعليم، وتمثل الحكمة؛ للوصول إلى الإحسان والتركية النفسية.

وما أحرى المسلمين أن يطلعوا على منهج القرآن والسنة في التربية؛ لينهلوا من المصدر التشريعي ما يرثون به نفوس أطفالهم، وينشئونهم على الأخلاق الصالحة المستقيمة، وفق قواعد التربية الصحيحة السليمة؛ استناداً إلى آيات القرآن، وأحاديث رسول الله ﷺ، فيأخذوا بأيدي فلذات أكبادهم إلى طريق الخير والصالح بتؤدة؛ وصولاً إلى الإتقان والتميز.

وبفضل الله تعالى وحسن توفيقه، عقدنا العزم على إخراج كتاب يصلح لكل أسرة، حيث يجد فيه الوالدان والمرثون مبتغاهم في تربية الأطفال، ويقفوا على الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التربوية؛ فينهلوا من هذا المعين الصافي تربيةً صحيحة، واقعية، واضحة، تتمثل في أهداف محددة، جليلة السمات؛ لإعداد الإنسان الصالح، وتحديد مواصفاته وفق المنهج الأتقى والأرقى والأنقى؛ فيكون الاستمداً من منهج القرآن، وهُدًى السنته، على الأصعدة كافة، وبالتالي تتفرد التربية الإسلامية بالهداية في المنهج، والسلوك، والتلقي.

ومضت الأيام، وتالت الشهور، ونحن نُقَلِّب الصفحات، ونجمع المادة العلمية، ونستقرى الأفكار، ونربط بين المسائل، فكانت النتيجة ثروة تربوية ثمينة، متفردة في نوعها، عجيبة في نتائجها... ونحن نتحدث بنعم الله علينا؛ أن وقفنا لخوض غمار تربية الأطفال في ضوء الكتاب والسنة، وكان فضلُ الله عظيماً، حيث تبين أن التربية الحققة هي تربية الإسلام بشمولها وتكاملها... بتوازنها وإيجابيتها... بواقعيتها وهُداها.

هذا ، وقد اقتضى البحث أن نقسم الكتاب إلى قسمين :

الأول : التربية الإسلامية في القرآن والحديث .

حيث عرضنا لمعنى التربية الإسلامية ، وأسسها ، وخصائصها ، وعرّجنا على التربية في القرآن الكريم ، وبيّنا أصول التربية في نداء القرآن ، وعرضنا لمنهج كتاب الله في التربية ، مع إطلالة على بعض المفاهيم القرآنية الضرورية للطفل .

وكان للتربية في الحديث النبوي طابع خاص ، حيث وضّحنا قواعد المنهج النبوي في التربية ، وخصائصه ، ووسائله ، مع الأمثلة الموضّحة .

أمّا القسم الثاني من الكتاب فكان حول تربية الأطفال في رحاب الأسرة والمجتمع ، وهو أوسع من القسم الأول ؛ لأن التربية تحتاج إلى عرض واقعي ، وحلول عملية ، وشواهد داعمة .

وقد تمحور القسم الثاني في ثلاثة أبواب هي :

✽ دور الأسرة في تربية الأطفال .

✽ حقوق الأطفال وواجباتهم .

✽ مشكلات الطفولة والمراهقة وحلولها .

ولا ندّعي الكمال ؛ فالكمال لله وحده ، بل نستطيع أن نقول : لقد بذلنا جهدنا ، وكلّنا أملٌ أن يجد هذا الكتابُ مكانةً مرموقةً في عالم التربية ، وتستفيد منه كلّ الأسر ، ويكتب الله عز وجل ثواب ذلك في صحائفنا ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم .

اللهم علّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علّمتنا ، وزدّنا علماً يا أرحم الراحمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

يوسف محمد

دمشق في ١/ رمضان/ ١٤١٨ هـ

القسم الأول

التربية الإسلامية

في القرآن والحديث

الباب الأول: معنى التربية الإسلامية وأسسها
وخصائصها

الباب الثاني: التربية في القرآن الكريم
الباب الثالث: التربية في الحديث النبوي

الباب الأول

معنى التربية الإسلامية وأسسها وخصائصها

الفصل الأول: معنى التربية الإسلامية

الفصل الثاني: أسس التربية في الإسلام

الفصل الثالث: خصائص التربية في الإسلام

الفصل الأول

معنى التربية الإسلامية

لا بُدَّ أن نُعطِّر أسماعنا بمعاني التربية من خلال المعاجم اللغوية ، ونقتطف من جناها أزهير خلابة ، ونستروح في أفيائها ، بينما تخفق المعاني بين حنايا الضلوع؛ لتغرس في القلوب الصافية غراس الخير الوفير ، والاهتداء إلى أسرار الألفاظ الذهبية .

ويحلون بنا أن نلجَ حديقةَ «لسان العرب» فنجد ابنَ منظور يقول :

«رَبَا الشيءُ يَرْبُو: زاد ونما. وأربيته: نمَّيته. وقد رَبَوْتُ في حجره ، ورَبَيْتُ: نشأتُ فيهم. قال مسكين الدارمي :

ثَلَاثَةُ أَمْلاكٍ رَبَوُا فِي حُجُورِنَا فَهَلْ قَائِلٌ حَقًّا كَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ؟!

وأنشد ابنُ الأعرابي :

فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فَإِنِّي بِمَكَّةَ مَنْزِلِي وَبَهَا رَيْبُتُ

وقال الجوهري: رَبَّيْتُهُ تربيةً ، أي: غَذَوْتُهُ. وهذا لكلُّ ما يَنْمِي كالولد والزرع ونحوه»^(١).

فالتربية: الزيادة والنماء وتغذية الجسم وتربيته .

وذكر الإمام البيضاوي بعض معاني التربية ، فقال :

(١) لسان العرب ، مادة: ربا (١٤/٣٠٤).

«الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً»^(١).

أمّا العلامة الراغب الأصفهاني فقال :

«الربُّ في الأصل: التربية ، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام»^(٢).

وذكر الفيروز أبادي أن التربية تحمل معنى الإصلاح ، فقال :

«رَبَّ: جمع وزاد ، وربَّ الأمر: أصلحه. والصبي: ربَّاه حتى أدرك. والربيبة: الحاضنة»^(٣).

وُستعمل كلمة التربية بمعنى التهذيب وعلو المنزلة ، وقد ذكر ذلك الزمخشري ، فقال : «ومن المجاز: فلان في ربّابة قومه: في أشرفهم»^(٤).

ونلاحظ أن للتربية عدة معان ، هي :

※ الزيادة والنماء. وذلك حين يتزوّد الطفل بأنواع المعرفة ، وألوان الثقافة ، فيتغذّى عقله ، وتكبر مداركه ، فيزكو ويسمو. علاوة على نماء جسمه ، بسبب تغذيته ورعايته صحياً ، وتأمين ما يحتاج إليه من مأكّل ومشرب؛ ليعرّع بعافية جيدة ، ويشبّ عن الطوق بقوة ، فيتحمّل تكاليف الحياة ، وتبعاتها ، وقد تربّى جسمه ، ونما عقله ، وصفت نفسه ، وزكت روحه.

※ ومن معاني التربية: الإصلاح والتهذيب ، حيث تُبذل جهودٌ كبيرة ومستمرة لرعاية الطفل ، وإصلاح أحواله ، وعدم إهماله . بدءاً من الأسرة ، مروراً بالمدرسة ، والمسجد ، ودور العلم ، ووعظ العلماء ، وقراءة

(١) تفسير البضاوي (٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٣٣٦).

(٣) القاموس المحيط ، مادة: الرب (٧٠/١).

(٤) أساس البلاغة ، مادة: ربو (٢١٩).

الكتب ، وسماع البرامج الهادفة . . . وهذا وغيره يساعد في إصلاح الطفل ، وإثراء نفسه بالعلم المفيد ، والنهج السديد ، إذ يرتبط طَلْبُ العلم بمناهج التربية ، مما يعطي الأطفال مع مرور الوقت خبرات ومهارات وتوجيهات ، تساعد على تحقيق أهدافهم في الحياة ، فللتربية دورها الرائد ، وأثرها العميق في توجيه ميول الطفل ، ورَبْطه بالأخلاق الحميدة ، والعلاقات الإنسانية الراقية ، وكبح جماح الشهوات ، ورَفْع القوى نحو الخير والصواب .

وللمعلمين مجال رحب في إصلاح الأطفال ، وحُسن توجيههم ، ولذلك سُمِّي العلماء بالربانيين ؛ قال ابن حجر : «سَمُّوا بذلك لعلمهم بالرب سبحانه وتعالى ، وقيل : الرباني : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره ، أي : بالتدريج . والتربية : القيام على الشيء وإصلاحه»^(١) .

«وقد فسّر ابنُ عباس الرباني بأنه : الحكيم الفقيه ، ووافقه ابنُ مسعود . . . وقال الأصمعي والإسماعيلي : الرباني : نسبة إلى الرب ، أي : الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل . وقال ثعلب : قيل للعلماء : ربانيون ؛ لأنهم يربُّون العلم ، أي : يقومون به . . . والمراد بصغار العلم : ما وضح من مسائله ، وبكباره : ما دقَّ منها . وقيل : يُعَلِّمهم جزئياته قبل كليّاته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدّماته قبل مقاصده»^(٢) .

وقد أوردنا الأقوال السابقة كدليل على ارتباط التربية بالعلم ، وضرورة توجيه الطفل التوجيه الرشيد الصحيح ، على مقدار تقبُّله ، ووفقاً لقدراته النفسية ، وصولاً به إلى مدارج الكمال ، ومراقي الفلاح .

❖ ولا بُدَّ من أن ترتبط التربية بمفهوم التدريج ، وذلك أن التثقيف يخضع لمراحل عديدة ، وكميات متباينة من المعلومات ، وكل مرحلة يمرُّ بها الطفل

(١) فتح الباري ، المقدمة (١٢١) .

(٢) فتح الباري (١/ ١٦١ - ١٦٢) .

تحتاج إلى رعاية خاصّة ، ومعرفة بقدرات الطفل ، ومدى استيعابه للعلم والتربية ، فهذا يتطلب دقة في التنظيم ، والضوابط ، والمهارات في تلقين الطفل ما يحتاج إليه ، وجعله عنصراً فاعلاً لا منفعلاً ، وذلك بإثارة تفكيره ، والعناية بروحه ، وتحقيق حاجاته العلمية والنفسية وغيرها .

وإلى جانب ذلك لا بُدّ من مراعاة الفروق الفردية بين الأطفال ، سواء في مرحلة ما قبل المدرسة أو مرحلة ما بعدها .

وجاء الإسلام منعطفاً مهماً في التربية ، حيث ركّزت التربية الإسلامية على عدّة نقاط ، أهمها :

أ - تحقيق التوازن بين حاجات الإنسان على مختلف الأصعدة : المادية والروحية والاجتماعية ، فتلقى الإنسان تربية متوازنة ، منضبطة .

ب - التركيز على الجانب العملي ؛ ليتمّ تأهيل الفرد تأهيلاً سلوكياً ، وبالتالي ينطلق في رحاب الحياة يحقق المسؤوليات الملقاة على عاتقه ؛ بكل جدارة واقتدار ، فمسؤوليات الحياة والدعوة تقتضي تشكيل شخصية عملية ، قوية الجسد ، صافية الروح ، عميقة التفكير ، راجحة العقل ؛ لتجسيد متطلبات الإسلام في حيّز الواقع ، تجسداً يحقق المأمول ، وفيه بالهدف المقصود .

ج - الاستفادة من منطق التطور الإنساني ، واختلاف مظاهر الحياة عبر الأزمنة وتعدّد الأمكنة ، فلم تكن التربية متوقعة على ذاتها ، فالمفاهيم العامة التي تلقّاها المسلمون أهّلتهم للتكيف مع المطالب الجديدة ، فكان الاجتهاد أمراً مُتممّاً ، لا يخرج عن نطاق النظرية الإسلامية التربوية ؛ فالتربية عملٌ منسجم مع قوانين الحياة والفطرة والتطور ، وتناسق لا تنفصم عراه مع الكون والحياة والأحياء ، فعملت التربية الإسلامية على توفير المعطيات اللازمة للفرد المسلم ، وساعدته على أداء دوره المنوط به في خلافة الأرض .

د - انطلقت التربية في الإسلام من أصليْن اثنيْن ، هما : الكتاب والسنة ،

فكان المنهج التربوي ربّانياً ، يقوم على مرتكزات العقيدة في تكوين الفكر ، وتهيئة السلوك ، حيث لا وثنية ولا شرك ، بل إقرار الله سبحانه بالألوهية ، واختصاصه بالربانية ، بعيداً عن الركाम المتكّسد من الزّبد الطافي الذي كان يسود العالم لحظة انبلاج فجر الإسلام .

وقد آتت هذه التربية أكلها طيبة مثمرة ، فكان جيلُ الصحابة الكرام - الذين تربّوا على فكر القرآن وفي مدرسة رسول الله ﷺ - جيلاً فريداً من نوعه ، إذ تحدّى الصعوبات على اختلاف أنواعها ، وتعدّد أشكالها ، وحقق مفهوم الخيريّة ؛ التي ذكرها الخالق العظيم في نص القرآن الكريم ، فقال عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وقد واجهت الدعوة الإسلامية الضلالَ وهو يستشري في نواحي المجتمع ، ويضرب أطنابه هنا وهناك ، فتمّ التركيز على تنشئة الفرد وفق عقيدة سليمة ، وحصل تغيير كبير وواسع في المفاهيم ، والعادات ، والأفكار ، والتوجّهات ، حيث انفصل المسلمون بشكل بيّن عن الضلال والجاهلية ، في : الأحاسيس ، والولاء ، والتناصر ، والتعامل .

وهكذا كانت التربيةُ تهذيباً للإنسان في فكره وسلوكه ، وتغذيته بالمعرفة الصحيحة ، وتعزيز ثقته ، وتنمية شخصيته ، والارتقاء بمداركه ؛ ليكون وارثاً صالحاً ، وفزّاداً مُستخلفاً في الأرض .

وعملت التربية الإسلامية على إعداد الطفل إعداداً متألّفاً ، فبنّت فكره ، واعتنت بجسمه ، وصحّحت نظره ، ونقلت إليه الثقافة الهادفة ، وأرست فيه القيم والمثل ، وغرست المبادئ والأخلاق ، فنتج عن ذلك جيلٌ راقٍ في عقله ونفسه وجسمه وخُلُقِه .

وتعمل التربيةُ في الإسلام على ربط الدنيا بالآخرة ؛ لتكتمل جوانب الحياة بمختلف الأنشطة والفعاليات ، وهذا يساعد على تعزيز القوة الروحية في المتعلّم .

وقد أشار « سيربرستن » إلى هذه الفكرة ، فقال : « لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً ؛ أنَّ التربية هي الجهد الذي يقوم به آباءُ شعبٍ ومربُّوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها . إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية جيدة »^(١) .

وبذا تتحقَّق للنشء الحياة الكاملة ، والتربية الحسنة ، والإعداد الجيد ، إذ تعمل التربية على تكوين النظرة الشاملة للعقيدة والحياة والكون ؛ ليؤدي كل فرد في الجيل دوره المرسوم له ، ويتغلب على العقبات التي تواجهه مهما كانت كأداء ، وبذا يتحقق للمجتمع الإنسان الكامل في شخصيته ، وتفكيره ، وأخلاقه ، من خلال التكثيف والتلاؤم بين الفرد وبيئته التي يحيا في ربوعها ، وهو يقوم بوظيفته في الحياة .

وهكذا يتلقَى الطفل في الإسلام معلومات واضحة عن العبادة والأخلاق والمعاملات والآداب ، ويتحرك لتجسيد أهدافٍ مرجوة متكاملة ، بحيث تعمل التربية على تركية النفوس ، وتحقيق معانٍ فاضلة في النفس الإنسانية ، كالأخوة ، والمودة ، والمحبة ، وكل ذلك يعمل بشكل متضافر في إطار العملية التربوية المستمرة .

إنَّ من أهم تطلُّعات التربية في الإسلام : أنها تعمل على تغيير الواقع ، وتطوير الحياة ، ومواجهة التحديات ، ومحاربة التقاليد الموروثة التي تستعبد الناس القائلين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أُولَٰئِكَ حَتَّكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [الزخرف : ٢٣ - ٢٤] .

فليست التربيةُ عملية تلقين ، ومحاكاة ، واعتماد على الغير ، بحيث

(١) التربية الإسلامية الحرة ؛ لأبي الحسن الندوي (٧٥) .

تضعف قوّة الابتكار في الأفكار والآراء ، بل التربية طريقة جادّة ، تُثير قوّة التفكير ، وتُحرّك الدوافع النفسية ، فينتبه المتعلّم ، ويفكر ، ويعمل بجِدّ ونشاط .

والتربية بناءٌ للإنسان من مختلف جوانب حياته ، وتهذيبه بالعقيدة الصحيحة ، والأخلاق القويمة ، فأمةٌ بلا أخلاق تحيا بعبثية وضياع . قال الشاعر :

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإنْ همُ ذهبَتْ أخلاقُهم ذهبُوا
إن إنشاء جيل واع مثقف ، يتطلب من المجتمع أن يرعى أبناءه الرعاية المثلى ، ويؤهلهم التأهيل الصالح ؛ ليقوموا بتبعات الأمانة ، ومسؤولية الدعوة إلى الله عز وجل .

ومنْ يستقرئ القرآن الكريم والسنة النبوية يجد المبادئ التربوية ، وضوى معالمها ؛ تترى ، وتتأصل ، وتشعّب ، فالتربية القرآنية تُعنى بالفكر الإنساني ، والسلوك الحيوي ، والمعاملات المتداخلة في الواقع .

وقد أرسل الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ ليربّي الناس على الخير والحق والفضيلة ، ويزكّي نفوسهم ، ويطهرها من أدران الجاهلية والضلال ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ^(١) .

وأدرك سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أهمية التعليم والتربية ، ودورهما في بناء الفرد والمجتمع ، فدعا للأمة المسلمة أن يبعث الله سبحانه فيهم رسولا يقرأ عليهم ، وينشر العلم بينهم ، ويبلّغهم ما يُوحى إليه من دلائل وحدانية الخالق ، وصدق الأنبياء والرسل ، ويعلمهم الكتاب المنزل ، ويفهمهم معانيه ، ويطهرهم من الشرك والمعاصي ، فقال : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ

(١) ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ : العرب المعاصرين له ﷺ .

فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٩﴾ .

ولذا قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم»^(١).

وقد أصبح جيلُ الصحابة مضرب المثل في كل شيء خَيْرٌ ، وما ذلك إلا للدور التعليمي والتربوي الذي قام به رسول الله ﷺ ، حيث وجَّه سلوك الكبار ، وعزَّز تعلُّم الصغار ، وساعد على إيجاد الانسجام الكامل بين الإنسان والإسلام ، فكان الإشراف النبوي يُعنى بال ضبط السلوكي ، والإيضاحي ، واتباع منهج معقول ، مع الهدوء والرفق ، فإذا بالتربية النبوية تُعلِّم الطاعة والنظام .

والملاحظُ على دعوة النبي ﷺ في تربية الأولاد: «الرحمة والحنان؛ في أسلوب جذَّاب وشيِّق للتعليم ، يأخذ بأيدي الصَّغار برفق ، ويدلُّهم على طريق الخير بتؤدة؛ وصولاً للإتقان ، وتحقيق الأهداف المرسومة»^(٢).

وها هو القرآن الكريم يؤكد على تربية النفس ، وضرورة تزكيتها ، وتطهيرها ، كأثرٍ من آثار التوازن؛ الذي دعا إليه الإسلام ، أما مخالفة الحق ، والنأي عن الوسطية ، وإتباع النفس هواها وشهواتها ، فإنما هو انفلات من الانضباط ، وإخلاقٌ إلى الأرض .

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿۱﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿۲﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿۳﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿۴﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]^(٣).

ومن أجل ذلك كان التركيز على التوازن في التربية ، ومراعاة الجانبين:

(١) رواه أحمد (١٢٧/٤) وابن حبان (٦٤٠٤) والحاكم (٦٠٠/٢) والبزار كما في كشف الأستار (٢٣٦٥).

(٢) حق الوالدين على الأبناء ، ليوسف علي مديوي (ص ١٠).

(٣) ﴿زَكَّاهَا﴾: طهرها وأنماها بالتقوى. ﴿دَسَّاهَا﴾: نفَّسها وأخفاها وأخملها بالفجور.

المادي والروحي ، فالإسلام كتلة واحدة ، ووحدة مترابطة داخل النفس ، وخارجها في الواقع ، وليس من عمل يقوم به الإنسان مستقلاً وحده ، بل كل عمل يؤدي إلى عمل آخر ، فالارتباط وثيق بين مختلف الأفعال والأنشطة ، وكل جانب يؤثر على بقية الجوانب .

إن السمة الواضحة في التربية الإسلامية هي التوازن بين المادية والروحية ، والعمل والعبادة ، والفرد والجماعة ، والواقع والمثالية . . .

ومن سمة التوازن ينبثق الفرد المنتج ، ذو التصور الشامل لدقائق الحياة وأهدافها ، ولتقدير القيم ، والموازنة بين الروح والعقل ، والدنيا والآخرة ، ومن خلال الشعور برقابة إلهية لكل ما تخفي الصدور ، فالكل مشمول بالخضوع لله الواحد القهار .

كما نجد أن التربية الإسلامية تُعَدُّ الإنسان ليكون راقياً ، صادقاً ، ذا سلوك إيجابي ، يتحمل مسؤولياته ، ويقوم بواجباته ، ويناصر الفضيلة ، وينأى عن الرذيلة ، وهو يرنو ببصيرته إلى الآخرة ، حيث الثواب والأجر من الله عز وجل ؛ القائل : ﴿ إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّهُ مُجْرِمًا فَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۚ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ ﴾ [طه : ٧٤ - ٧٦] .

فنظام التربية في الإسلام يجعل الإنسان يحيا في سلوك متوازن ، فهو لا يحيا لدنياه وحدها ولا يدعها هملاً ، بل يبني الحياة ، ويجعلها مزرعة للآخرة ، وجسراً يعبر عليه وهو مليء بالخير والحسنات ، فالتوازن هو سبب الفوز في الآخرة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وأكدت السنة النبوية ضرورة التوازن في التربية ، فالحياة وحدة متكاملة ، لا تصح إن وقع خللٌ ما فيها ، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه : أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ ، فَقَالَ

بعضهم: لا أتزوَّج النساء ، وقال بعضهم: لا آكلُ اللحم ، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فَحَمِدَ اللهَ ، وأثنى عليه ، فقال: «ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟! لَكُنِّي أَصْلِي ، وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأتزوَّج النساء ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنتي فليس مِنِّي»^(١).

فَمَنْ خَالَفَ سُنَّةَ المصطفى ﷺ فقد ضلَّ طريق الصواب ، وحاد عن التربية النبوية الفضلى؛ التي تجمع بين الدنيا والآخرة ، والتمتع بطيبات الحياة وحلاوة العبادة.

وعَلَّقَ الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت ٦٥٦هـ) على الحديث السابق فقال: «إِنَّ عِبَادَةَ الله إِنَّمَا هِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ الْوَاجِبَةِ وَالْمَنْدُوبَةِ ، واجتناب نواهيه المحظورة والمكروهة. وما مِنْ زَمَانٍ مِنَ الْأَزْمَانِ إِلَّا وَتَوَجَّهَ عَلَى الْمَكْلَفِ فِيهِ أَوَامِرُ أَوْ نَوَاهٍ ، فَمَنْ قَامَ بِوُضُوءِ كُلِّ وَقْتٍ فَقَدْ أَدَّى الْعِبَادَةَ ، وقام بها. فإذا قام بالليل مُصَلِّياً فقد قام بِوُضُوءِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فإذا احتاج إلى النوم لدفع ألم السَّهَرِ ، ولتقوية النفس على العبادة ، ولإزالة تشويش مدافعة النوم المشوشة للقراءة ، أو لإعطاء الزوجة حقَّها من المضاجعة؛ كان نومه ذلك عِبَادَةً كَصَلَاتِهِ. وقد بَيَّنَّ هَذَا الْمَعْنَى سَلْمَانُ الْفَارَسِيُّ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ بِقَوْلِهِ: لَكُنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ ، وَأَحْتَسِبُ فِي نَوْمَتِي مَا أَحْتَسِبُ فِي قَوْمَتِي. وكذلك القول في الصيام. وأمَّا التزويج فيجري فيه مثل ذلك ، وزيادة نِيَّةِ تَحْصِينِ الْفَرْجِ وَالْعَيْنِ ، وسلامة الدِّينِ ، وتكثير نَسْلِ الْمُسْلِمِينَ. وبهذه القصود الصحيحة تتحقق فيه العبادات العظيمة»^(٢).

وَتُعْنَى التَّربِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ بِأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ ، هُمَا:

(أ) الْإِنْسَانُ.

(ب) الْمَجْتَمَعُ.

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٨٦/٤ - ٨٧).

فتعمل التربية على إيجاد الإنسان المتكامل ، القوي ، المهدّب ،
المتصف بالخلق الحميد ، كما تعمل على إيجاد المجتمع السعيد ،
المستقر ، الرائد في كل المجالات .

وهذه التربية تقتضي تغييراً على الأصعدة كافة: الفكرية ، والاجتماعية ،
والاقتصادية . . . ومفتاح هذا التغيير يرتبط بالعلم ؛ الذي أشار إليه القرآنُ
الكريم في أولى آياته المنزلة على قلب سيدنا محمد ﷺ ، فقال الله عز وجل :
﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

فإذا أقفر المجتمع من العلم ، وساد الجهل ، واستشرت عقاربُ الفتنة ،
فعندئذ تلوح علائم الخرافة ، وتتضح نُذُر الضياع والتلاشي وذوبان
الشخصية . قال رسولُ الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ
الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبِضِ الْعِلْمَاءِ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ
رُؤُوساً جُهَالاً ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » (١) .

فالتربية والعلم صنوان لا يفترقان ، ووجهان لدرّة واحدة ، حيث
يتضافران لتكوين الفرد الصالح ، وفق التوجيهات الإيجابية ، لإنشاء
الحضارة ، وإعداد المجتمع المأمول .



(١) رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) .

الفصل الثاني

أسس التربية في الإسلام

من المفيد أن نستقرئ القرآن والسنة؛ لنستمدَّ منهما أسس التربية الإسلامية؛ التي تُمثِّل المرتكزات الأساسية لبناء التربية ، وتشيد صرحه العتيد ، بعيداً عن الأقوال أو النظريات ، فالتربية بالآيات والأحاديث هي الأصل لتوجيه الإنسان ، وتحديد مساره ، وتوجيهه في سلوكه بناءً ، يتنامى مع الزمن ، فيبني معالم الإنسان ، ويرسم جوانب المجتمع .

وأهم تلك الأسس التي تقوم عليها التربية في الإسلام :

(أ) أساس العقيدة الصحيحة والإيمان العميق :

ترتبط التربية بالعقيدة ، حيث إنّ الإسلام حقائق ثابتة ، تتمثّل بجملة مبادئ تقوم عليها ، وتُبنى وفقها ، من خلال مناهج عملية ، لتحقيق أهداف مأمولة ، ولذلك يتبدى الإيمان مقترناً بالعمل في كثير من الآيات القرآنية . يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] ^(١) . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة : ٢٥] .

فالعمل في الإسلام مظهرٌ للإيمان الصحيح ، وتجسيد عملي له ، ومعيار حقيقي يتجلى من خلاله الإيمان الصادق ، المنبعث من القلب المخلص ؛

(١) ﴿وُدًّا﴾ : مودة ومحبة في القلوب .

ولذلك ذمَّ الله تعالى الذين يفرِّقون بين القول والعمل ، ولا يُترجمون إيمانهم حقائق تنداح في الواقع ، فقال عز وجل : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٣] ^(١) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

وأكد القرآن الكريم على فلاح المؤمن العامل ، الذي يقرن بين إيمانه وسلوكه ؛ إذ الإيمان الحقيقي والعمل الصالح أمران مترابطان لا ينفصلان . قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرَ ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر] .

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ضرورة الربط بين الإيمان الصادق والسلوك المترجم لذلك الإيمان ، فيقول ﷺ من خلال توجيهاته الحكيمة ، وتربيته المستقيمة : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ^(٢) .

وجعل رسول الله ﷺ أذية الجار من كبائر الذنوب ، ومن الشرور العظيمة ؛ التي تُخرج مرتكبها من حظيرة الإيمان ، وتُحبط ثواب أعماله الصالحة ؛ فقال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » ^(٣) .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » قيل : مَنْ يا رسول الله ؟ قال : « الذي لا يأمن جاره بوائقه » ^(٤) .

(١) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ : عظم بغضاً بالغ الغاية .

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٣٥ و ١٥٤ و ٢١٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١) وابن حبان (١٩٤) والبخاري كما في كشف الأستار (١٠٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٨٤٩ و ٨٥٠) والبيهقي (٦/ ٢٨٨ و ٩/ ٢٣١) .

(٣) رواه البخاري (٦١٣٦ و ٦١٣٨) ومسلم (٤٨) .

(٤) رواه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٤٦) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع »^(١).

والإيمان الجيد له أثر كبير في حياة الإنسان وسلوكه ، مما يدفعه إلى اجتناب الرذائل ، والبعد عن الشرور والغوائل . قال رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف ، يرفعُ الناسُ إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ، ولا يغُلُ حين يغُلُ وهو مؤمن ، فإياكم إياكم ، والتوبة معروضة بعد »^(٢).

قال ابن عباس : يُنزع منه نورُ الإيمان^(٣).

ونلاحظ أن التربية في الإسلام تربط ربطاً محكماً بين العقيدة والإيمان وبين الفعل والسلوك ، فالعقيدة هي المرأة التي ينعكس كل فعل فيها ، فبمقدار إيمان الإنسان تتجلى أعماله الصالحة والطالحة ، ويبرز سلوكه واضحاً للعيان . وكلما أحسن المرء بمراقبة الله تعالى له ، وأنه - عز وجل - مطلع عليه ، ناظر إليه ، عالم بكل ما يقوم به ، وما يدور في خَلده ، كُلُّما تحسَّن سلوكه ، وثرَّجَم أعمالاً صائبةً ، وأفعالاً خيرةً ، فالإيمان له فعالية لا تُحَدُّ في توجيه السلوك الإنساني نحو الأفضل والأجدي والأَنفع ، وتُبذ كل ما هو شرٌّ وانحراف عن جادة الصواب .

وها هو القرآن الكريم كتابٌ مفتوح للجميع ، فيه النور الباهر ، والهداية الجليلة ، والطريق المستقيم إلى خالق الكون والحياة والأحياء ، يقول عز وجل : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٦٧/٨) وأبو يعلى (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري (٥٥٧٨) ومسلم (٥٧).

(٣) رواه البخاري تعليقاً (٥٨/١٢).

وفي نصوص القرآن أحكام وتكاليف ، وأوامر ونواهٍ ، وقوانين مسطورة ، وقد جاءت كلها لتربي الإنسان ، وتحقيق العبودية الصحيحة لخالق الحياة .

وها هي الآيات القرآنية تحثُ على اتباع ما جاء في الكتاب الحكيم ، وتمثله في الواقع ، لينتشر الحق ، ويعلو الخير ، وتسري الطمأنينة في النفوس ، وفي نواحي المجتمع ، فيسعد البشر بنعمة الله تعالى ؛ إذ يتبعون أوامر الخالق ، وينتهون عما نهى عنه وزجر . قال سبحانه : ﴿ أَتَبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣] .

ثم إنَّ القرآن الكريم هو الحكم الفصل في أمور الحياة كلها ، فهو يبيِّن مقاييس الخير والشر ، ويوضح مسائل الحلال والحرام ، ويرسم حدود المنهيات . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْنُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوتِيَكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] (١) .

ومن آمن بالقرآن الكريم كتاباً مُنَزَّلاً من عند الله عز وجل ، وأنه هو الهدى والنور الواضح ، وطبق أحكامه ، واتَّخذه نبراساً لحياته ، واحتكم إليه ، فإنه يفوز بخيري الدنيا والآخرة ، إذ يسير وفق الطريق الحق ، والهداية المنيرة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . قال عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (٢) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [النساء : ١٧٤ - ١٧٥] .

(١) ﴿ إِصْرَهُمْ ﴾ : عهدهم بالقيام بأعمالٍ يقال : ﴿ وَالْأَغْلَالُ ﴾ : التكاليف الشاقة في التوراة .

= ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ : وقروه وعظموه .

وآيات القرآن الكريم كلها وسائل تربوية ، تُوجّه الإنسان نحو التأمل والتفكير والاعتبار ، وتُحدّد السلوك المستقيم ، وتبني العقيدة الصحيحة ، وتغرس الإيمان العميق ، ومن تلك الآيات ما هو دليل على قدرة الله عز وجل ، وبرهانه ساطع على منته العظيمة ، وفضله الذي لا يُحَدُّ ، قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۚ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۚ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۚ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٣ - ٣٦] (١) .

وثبّه عز وجل على ضرورة التفكير في مخلوقاته ؛ التي تدل دلالة لا مريّة فيها على وجود الله تعالى ، وتفوّده - سبحانه - بخلقها وإيجادها ، وهذه المخلوقات توحى بالتدبر والتأمل ؛ كخلق آدم من تراب ، ومراحل خلق الإنسان ، وجعل بني البشر أزواجاً ، وهياً الزواج على أساس المحبة والرافقة ، كما أنّ خلق السموات والأرض واختلاف اللغات والألوان ، وجعل الليل للنوم والراحة ؛ والنهار لا تبغاء الرزق ، إلى جانب رؤية البرق ، ونزول المطر ، وإحياء الأرض بعد أن كانت هامدة ، كل ذلك آيات تربوية . تغرس العقيدة الصحيحة ، وتدعو إلى الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۚ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنْدُكُمُ وَاللُّوْنُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ۚ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ۚ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۚ

(١) ﴿ الْأَزْوَاجُ ﴾ : الأصناف والأنواع .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥-٢٠﴾ [الروم: ٢٥-٢٠] (١).

وهذه الآيات وغيرها دعوة صريحة للعقل البشري كي يتملأ ما حوله ، ويبحث في الآيات الكونية؛ ليدرك نشأة الحياة ، وتطوراتها ، وغايتها ، ومصير الكون... وكل ذلك له أهمية كبرى في تحديد النشاط الإنساني ، والسلوك البشري ، فإذا أدرك المرء أن الله عز وجل خَلَقَ كل شيء ، وأن هناك يوماً آخر للحساب ، وكل قول أو فعل له جزاؤه يوم القيامة ، فإنه يستشعر رقابة الخالق المولى ، ودوام اطلاعه ، وأزلية علمه ، فإذا به يتَّجه بقلب خاشع ، ولسان ضارع ، واعتقاد لا يشوبه الريب ، إلى الله تعالى ، الواحد الأحد ، وعند هذه النقطة تتضح عقيدة التوحيد ، والاتجاه الإيماني الصحيح ، واعتقاد أن الأمور تجري وفق المشيئة الإلهية في جميع الاتجاهات والنشاطات .

إِنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَرْبِي الْإِنْسَانَ بِشَكْلٍ فَعَّالٍ عَمَلِيٍّ ، بقصد تزكيتِهِ ، وتعزيز سلوكه وتحقيق الأهداف المنشودة . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى: ١٤] (٢).

ومن ألوان هذه التزكية :

✽ تزكية النفس : فعلى الإنسان أن يجاهد نفسه؛ كيلا يقع في حماة الانحراف ، أو مستنقع الجنوح عن القيم الفاضلة ، وينظر إلى المعصية على أنها جرحٌ كالأخدود ، له آثاره ونتائجه ، إذ تجلب المعاصي ووخيم العواقب في الدنيا والآخرة ، بينما ترتقي الطاعةُ بصاحبها إلى معارج الخير والصواب ، إذ يستقيم على الجادة ، ويرى بأم عينيه مثوبة عمله الطيب خيراً وفلاحاً في الدنيا ، وحسنات وجنات عند رب العالمين .

(١) ﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ : لتميلوا إليها وتأنفوها .

(٢) ﴿ تَزَكَّى ﴾ : تطهَّر من الكفر والمعاصي .

ولا تتحقق تزكية النفس إلا بالحب لله تعالى ، ولرسوله المصطفى ﷺ ،
فمن ثمار التربية القرآنية: سِمة الحب بين العبد والرب. قال عز وجل:
﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن
عبدٌ حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١).

✽ تزكية العقل^(٢): وتتكوّن عملية تزكية العقل من أمرين:

الأول: تزكية العقائد والأفكار ، وذلك بتفريغ العقل من كل الخرافات
والأوهام والمعتقدات؛ التي لم تقم على برهان أو دليل ، مثل: نفي تعدّد
الآلهة ، وتزويده بالمعتقدات الصحيحة عن نشأة الخلق والإنسان والكون
والحياة والمصير .

والثاني: تزكية أساليب التفكير ، مثل:

- تدريب المتعلّم على النقد الذاتي بدل التفكير التبريري .

- تدريب المتعلّم على التجديد بدل التقليد .

- تدريب المتعلّم على التفكير العلمي بدل الظن والهوى .

- تدريب المتعلّم على التفكير الجماعي بدل الفردي .

✽ تزكية الجسم: حيث أباح الله تعالى للإنسان أن يتمتع بالطيبات ، ويهتأ
بالزينة المباحة وفق مقاييس الشرع واعتباراته ، قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ
زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

كما بيّن الله تعالى أن النكاح عبادة حين يكون قائماً بشكله الصحيح ،
فقال سبحانه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]^(٣).

(١) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

(٢) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ، للدكتور ماجد الكيلاني (٤٤).

(٣) ﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾: مَزْرَع الذرية لكم. ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾: كيف شئتم ما دام في القُبُل.

كما أوضح القرآن الكريم ضرورة الابتعاد عن الإسراف ، فقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وإن التزكية بألوانها الثلاثة : النفس والعقل والجسم ؛ تهدف إلى تكوين الفرد المتزن ، ذي السلوك الجيد الجديد ، فيتم إعداد الإنسان نفسياً وفكرياً وجسدياً ، بما يتناسب مع قضية الاستخلاف في الأرض ، ونشر عقيدة التوحيد ، والدعوة إلى الله عز وجل ؛ على هدى ونور ، حيث تقوى غراس الإيمان ، وتثمر ثمراتها اليانعة ، فيقوم المجتمع الصالح الرشيد المتوازن .

وَيُرَبِّي الْقُرْآنُ النَّاسَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، ويهتم بسلوكهم اهتماماً كبيراً ، لإرساء دعائم الطاعة لله ولرسوله ، وذلك من خلال الخطوات الثلاثة التالية :

❖ دعوة المؤمنين إلى العمل بالكتاب المبين ، واقتفاء السُنَّة النبوية ، واتخاذهما سلوكاً للناس في هذه الحياة . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وهذا الإيمان الراسخ يقود إلى التحرر من ربة التقليد ، والشيطان ، والطاغوت ، ومناهج الضلال . قال عز وجل : ﴿ يُرِيدُونَ أَنِ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] بينما الإيمان الصحيح بالله تعالى رباً ، وبالنبي محمد ﷺ رسولاً ؛ يهب العزة والثقة والطمأنينة ، قال تباركت أسماؤه وتعالى جده : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن : ١٣] ^(١) .

❖ إقامة علاقة وشيجة بين الإيمان وإحساس الإنسان بمراقبة الله تعالى له مراقبة دقيقة دائمة ؛ وذلك لضبط السلوك ، وتصحيح مسار الحياة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

(١) ﴿ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا ﴾ : فلا يخشى نقصاً من ثوابه . ﴿ وَلَا رَهَقًا ﴾ : غشيان ذلّة له . =

ومتى استشعر الإنسان هذه المراقبة، فإنَّ الوازع الديني، والرادع الداخلي يقوى ويشتد، ويعتدل السلوك نتيجة الثبات على طاعة الله عز وجل، وصولاً إلى مرتبة الاستقامة؛ التي هي بمثابة عهد وعقد متأصل في القول والعمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

ولا يستقيم الإنسان على طريق الإيمان إلا بعد أن يذوق حلاوته، ويتحسَّن مذاقه الطيب، ويفعل باندفاع وتلقائية ما يُوجب الارتقاء في عالم الاستقامة والإحسان والكمال. قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(١).

وقال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(٢) وحلاوة الإيمان «عبارة عما يجده المؤمن المحقق في إيمانه، المطمئن قلبه به من انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة مِثَّةِ الله تعالى عليه في أن أنعم عليه بالإسلام، ونظَّمه في سبيلك أمة محمد خير الأنام، وحبَّ إليه الإيمان والمؤمنين، وبغض إليه الكفر والكافرين، وأنجاه من قبيح أفعالهم، وركاكة أحوالهم. وعند مطالعة هذه المنن، والوقوف على تفاصيل تلك النعم؛ تطير القلوب فرحاً وسروراً، وتمتلئ إشراقاً ونوراً»^(٣).

✽ الربط بين العلم والإيمان، وبيان التوافق والتكامل بينهما، وذلك أن القرآن الكريم دعا إلى التفكير في الكون والحياة والأحياء، وأشار إلى مكانة

(١) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).

(٢) رواه أحمد (٢٠٨/١) ومسلم (٣٤) والترمذي (٢٧٥٨).

(٣) المفهم؛ للقرطبي (١/٢١٠).

العقل ، وقدرته على إيجاد واقع جديد علمي ؛ لعمارة الأرض ، وتجسيد الأمانة واقعاً حياً ، يشع بمناخ واسع من التأمل والكسب العلمي . والإيمان يهدي النفوس ، ويحقق الحياة الروحية المتألقة ، والعلم يوجّه السلوك ، ويقوّم مسيرة الحياة ، وقد ربط القرآن الكريم بينهما ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] .

وإن دعوة القرآن إلى الكسب العلمي قفزة سلوكية تربوية ؛ لتغيير نمط التفكير ، وأسلوب الحياة ، فلا ارتقاء إلا بإثارة التفكير وإصلاح الضمير ، وقد نزل القرآن الكريم ليعزّز نشوء الأمة الصالحة ، ويحثّها على التأمل والنظر والبناء ، وفُتِحَ آفاق العلم ، والاعتماد على ركائزه المتمثلة بالمشاهدة ، والتجارب العملية ، أو التقدم العلمي .

ويربط القرآن بين ركائز العلم والإيمان ، فالمشاهدة لآيات الله تعالى في الكون وسيلة لتحقيق المعرفة الإيمانية ، وتأمل نظام الحياة البديع ، وإحكام الصنعة الربانية . قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩١] .

ومن هنا يتبيّن السبب في ذكر العلماء ، وأنهم أكثر خشية من غيرهم ، في معرض الحديث عن دلائل قدرة الله ، وحكمته في إنزال المطر ، وخلق الأشياء على اختلافها . قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ الْأَتَعَمُّ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٧ - ٢٨] ^(١) .

(١) ﴿ جُدَدٌ ﴾ : طرائق وخطوط مختلفة الألوان . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ : متناهية في السواد كالأغربة .

العلم يصادم الدِّين ، وينازع الإيمان ، فإن نظرتهم غير صائبة ، وقد أقاموا نتائج أقوالهم على ظنون وهمية لا تستند إلى الحقائق ، علاوةً على أنهم لا يدركون أن العلم أساس الإيمان ، فإن أصروا على موقفهم فإنَّ الخسران مآلهم ، وعليهم أن يعيدوا النظر من جديد ، ويقرؤوا صفحات التاريخ ، ويدرسوا متأملين كتاب الكون ، ومصير الأمم السالفة؛ التي شردت عن الحق ، وأعلنت عداءها للعلم . قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر : ٨٢ - ٨٣] (١) .

(ب) أساس الفطرة وخصائصها المادية والروحية :

مما لا شكَّ فيه أنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أطوار مختلفة ، من مرحلة التكوين من طين إلى مرحلة النشأة في الأرحام ، ومن ثم تشكُّل الإنسان كائناً متكاملاً القوام ، مُكْرَماً في أصل الخلقة ، ثم يتدرَّج من طور الطفولة إلى الشباب فالشيخوخة . قال الله عز وجل : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : ١٣ - ١٤] (٢) .

وأوضح القرآن الكريم بعضاً من هذه الأطوار ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

وتحدَّث القرآن عن أصل الإنسان وعن النفخة الروحانية فيه ، فقال

-
- (١) ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ﴾ : فما دَفَعَ عنهم وما نَفَعهم . ﴿ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ : بأمور الدنيا مستهزئين بالدين . ﴿ وَحَافَ بِهِمْ ﴾ : أحاط ، أو نَزَلَ بهم .
(٢) ﴿ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ : لا تخافون عظمة الله . ﴿ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ : مُدرِّجاً لكم في حالات مختلفة .

سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَمَّا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَلٍ مَّتَّسُونَ﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿[الحجر: ٢٨ - ٢٩]﴾^(١).

وخلق الإنسان وله ضرورات لا يستغني عنها لمتابعة حياته ، كالطعام والشراب واللباس ، إضافة إلى الشهوات المتأصلة في نفسه ، والنزعات بمختلف ألوانها ، كالنزعة الجنسية ، والنزعة الذاتية .

وينشأ عن تلك الغرائز رغبات عديدة ، كالتمني ، والأمل ، والطموح .
ويبرز إلى جانبها بعض المطامع كالميل إلى تجميع الثروة ، وحبّ الوجهة ، والتسلط ، والشهرة .

وكل هذه الأمور - الميول والدوافع والغرائز - ما لم تنضبط وفق معايير الخلق القويم ، والتربية الإسلامية ، فإنها تتأى عن الصواب ، وتشرذ عن المنهج السديد ، فتظهر السلبيات واضحة لكل ذي عينين .

وخصائص الإنسان المادية والروحية تُسمّى الفطرة ، فلكل إنسان استعداد نفسي لتقبل الأشياء أو رفضها ، واتخاذ الموقف المناسب إزاءها ، سواء أكان ذلك الموقف يتصف بالسلبية أم بالإيجابية .

كما أنّ لكل إنسان دوافع داخلية أو خارجية ، تجعله يُغيّر سلوكه وفق الرغبات والحاجات ، فيقوم بجملة أعمال لمواجهة تلك المواقف . وبمقدار حيّزة المرء لأسس الفطرة السليمة ؛ فإنه يتخذ مواقف أكثر إيجابية ، مدفوعاً بنزعة الإيمان والقيم الثابتة .

وعندما نتدبّر رسالة الإنسان في الحياة ، وأنه مخلوق لعبادة الله عز وجل ، وإعمار الكون ، وضرورة العودة الدائبة إلى الفطرة السليمة ، ندرك معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧] .

(١) ﴿صَلْصَلٍ﴾: طين يابس كالفخار. ﴿حَمَلٍ﴾: طين أسود مُتَغَيَّر. ﴿مَّتَّسُونَ﴾: مصوّر صورة إنسان أجوف.

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن مواجهة النزعات والميول ينبغي أن تتساقط وتتناغم مع الرؤية الدينية الإيجابية ؛ لئلا يحدث شَرَحٌ أو شَدْحٌ في الفهم أو التطبيق ، وبالتالي تُصاب العبادة - بمعناها الواسع - بنوعٍ من التحريف والوَأْد .

ولنأخذ دافعاً فِطْرياً ؛ كحُبِّ تَمَلُّكِ المال وغيره ، فإن القرآن الكريم أشار إلى هذا الميل ، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٨] . قال ابنُ كثيرٍ : «أي : وإنه لحب الخير - وهو المال - لشديد . وفيه مذهبان :

أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال .

والثاني : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال .

وكلاهما صحيح»^(١) .

ولم ينفخ الله عز وجل من روحه في الكيان الآدمي ؛ ليجري لاهثاً خلف تحصيل المال وحسب ، وكَنُزَه ، والحرص عليه ، فيتحول الإنسان من جامع للمال باعتباره نعمةً يجب أن يشكر خالقه عليها ، بإخراج الزكاة ، ودَفْعِ الصدقات ، وصِلَةِ الأرحام ، وإعطاء المحتاج ، ومساعدة المسكين والفقير . . . فيتحول المالُ إلى غِلٍّ يُقَيِّدُ صاحبه ، وينحدر به إلى مرتبة منحطة ، يجدر بالعاقل ألا يرتكس في حماتها ، أو ينتكس في بؤرها ، فاللهُ تعالى قد خَلَقَ الإنسان ليعمر الكون ، ويشكر النعم ، ويعبد الخالق ، فرشَّحه لمكانٍ عالٍ كريم . قال الشاعر :

قد رَشَّحوكَ لأمرٍ لو فطنتَ له فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل

ولا يهدم هاتيك المكانة إلا مصرٌّ على الإسفاف ، وجاحدٌ لِنِعَمِ الله عز وجل ، وهو يبتعد عن أساس التربية القرآنية والنبوية ؛ حيث كان المالُ قوةً لإحقاق الحق ، وتأمين الحاجات ، وبناء الحضارة ، والسعي لتحقيق رسالة الوجود الإنساني .

(١) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (٤/٦٤٩) .

ومن هنا أنكر الله تعالى على الإنسان موقفه من كثر المال ، فإن وُسَّع عليه اعتبر تلك التوسعة إكراماً له ، وإن ضُيِّق عليه اعتبر ذلك الضيق إهانة وذلاً .
 فالأول مخطيء ؛ لأن زيادة المال ابتلاء وامتحان ، كما قال الله تعالى : ﴿ اَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ۖ نُّسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦] . والثاني مخطيء أيضاً ؛ لأن التضيق في المال على بعض الناس امتحان وابتلاء ، ليعرف الشاكر والصابر .

وقد بيَّن الله عز وجل هذين الموقفين بقوله : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۖ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴾ [الفجر : ١٥ - ١٦] ^(١) .

وهنا تتجلى التربية القرآنية فتوضح المعاصي والآثام التي يقترفها بعض الناس ، وتكون سبباً للاعتداء ، واستباحة حقوق الآخرين ، وإيقاع الظلم بهم ، ويتجلى حبُّ المال ، والحرص على تملكه ، كآفة تبطل الخير ، وتنحدر بصاحبها إلى درك الانانية ، والعكوف على تحقيق المآرب الهشة الدنيا ، يقول الله عز وجل : ﴿ كَلَّا بَلْ لَّا تَشْكُرُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحْضُوتُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ أَمْوَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ١٧ - ٢٠] ^(٢) .

فإذا كانت النفس تنقاد لانفعالات ضحلة ، ولا تستند إلى قاعدة إيمانية متينة ، فإنها تُسرُّ بامتلاك بعض النعم ، فإذا بها تتكبر ، وتجبر ، وتظن أن المال وسيلة للطغيان والعدوان ، وتفريغ المآزق النفسية ، والأمراض العصبية ، والكبت الداخلي ، حسداً ، وبطراً ، ورياءً .

(١) ﴿ ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ﴾ : امتحنه واختبره بالنعم أو النقم . ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ : فضيَّقه عليه ، ولم يبسطه له .

(٢) ﴿ وَلَا تَحْضُوتُ ﴾ : لا يحث بعضكم بعضاً . ﴿ الثَّرَاثَ ﴾ : ميراث النساء واليتامى . ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ : جَمْعاً بين الحلال والحرام . ﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾ : كثيراً ، مع حرص وشره .

أَمَّا إِنْ حُوصِرْتُ بِيَعُضِ الْإِبْتِلَاءَاتِ ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهَا خَنَاقُ الشَّدَّةِ ، فَإِنَّهَا تَحْسُنُ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ ، فَتَجَارُ بِالْإِدْعَاءِ إِلَى خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؛ أَنْ : يَارَبِّ ، يَارَبِّ . وَكَأَنَّ تِلْكَ النُّفُوسَ لَا تَدْرِكُ أَنْ لَهَا رَبًّا إِلَّا وَقْتُ الْحَاجَةِ وَالْعَوَزِ !! يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [١٣] لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَلَيْنَاهُمْ فْتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [١٤] أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [١٥] وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتَبُونَ ﴿ [الروم : ٣٣ - ٣٦] (١) .

أَمَّا إِذَا تَوَجَّهْتَ الْمَيُولُ الْفَطْرِيَّةَ ، وَالِدَوَافِعِ النَّفْسِيَّةِ ، وَالْغَرَائِزِ الْحَسِّيَّةِ إِلَى الْخَيْرِ ، وَانْتَهَاجِ طَرِيقِ الْهَدَايَةِ ، فَإِنَّ الْفَطْرَةَ تَتَحَقَّقُ بِاسْتِقَامَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى مَنْهَجِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَثَبَاتِهِ عَلَى الْقِيَمِ الرَّشِيدَةِ ، وَالْمُثُلِ الْعَتِيدَةِ .

وَقَدْ رَبَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَلِمَاتِهِ النَّبَوِيَّةِ ، وَإِشْرَافِهِ الْمَتَالِقِ ؛ أَصْحَابَهُ الْكِرَامَ ، فَكَانُوا رَعِيلاً مُتَقَدِّمًا فِي دَوَافِعِهِمُ وَالْمَيُولِ وَالْغَرَائِزِ ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَقْتَطِفَ مِنْ حَدِيقَةِ النَّبَوَةِ زَهْرَاتِ يَانِعَةٍ ، تَفُوحُ بِشَذَاهَا الْعَبْقُ ، فَتُوحِي لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ بِضُرُورَةِ الْقِيَامِ بِعِبَادِيَّةِ اللَّهِ ، وَالشُّعُورِ بِرِقَابَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وَفَضْلِهِ الْعَظِيمِ الْأَعْلَى ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ كُلِّ مُسْتَقَرٍّ . يَقُولُ ﷺ : « نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ » (٢) .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا » وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا (٣) .

(١) ﴿ سُلْطَانًا ﴾ : كِتَابًا ، حُجَّةً . ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ : بَطَرُوا وَأَشْرَوْا . ﴿ يَقْتَبُونَ ﴾ : يَأْسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢٠٢/٤ - ٢٠٣) وَالبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) وابن حبان (١٠٨٩/١ موارد) .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٥) وَأَبُو دَاوُدَ (٥١٥٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩١٨) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تُصيب المسلم إلا كفر الله عنه بها ، حتى الشوكة يُشاكُّها »^(١).

ولو أخذنا دافعاً فطرياً روحياً ؛ كغريزة حب البقاء ، لرأينا أشياء جديدة بالتأمل والبحث ، فحياة الإنسان لا تنتهي بالوفاة الدنيوية ، فهو سيلاقي بعثاً بعد الموت ، ويحاسب على ما جنت يده ، إن خيراً فخيرٌ وجنة ، وإن شراً فشرٌ ونار . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن حَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِن رَّبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مُجْدُورٍ ﴾ [هود : ١٠٣ - ١٠٨] ^(٢).

وإذا أدرك الإنسان هذه الفكرة - وجود يوم آخر ، وحياة سرمدية - فسرعان ما يجنح للأعمال الصالحة ، والاستزادة منها ، والاستفادة من العمر المعاش في الحياة ، وتوظيفه لما بعد الموت ، لأن الموت الدنيوي ليس نهاية للبشر ، بل بداية للحياة الأخروية ، وانتقالاً من الفناء إلى البقاء .

وتأتي التربية القرآنية تحذّر المعرضين عن الله تعالى ؛ بأنهم سيعانون من الانقطاع عن ربهم ، والاطمئنان إلى جماء العظيم الرحيم ، فيحيون في ضيق نفسي ، وحيرة قاتلة ، وقلق مستمر ، وشك لا ينتهي ، ويحرصون على حياتهم الدنيا ، ويطمحون للمطامع ، فنهارهم ضلال ، وليلهم انفصام ، وجزاؤهم في الآخرة شقاء وضنك . يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

(١) رواه البخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) ﴿ غَيْرَ مُجْدُورٍ ﴾ : غير مقطوع عنهم .

أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَأَيُّنَا فَانْسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لُنْسَى ﴿١٦﴾

[طه : ١٢٤ - ١٢٦] (١).

ويمكن أن نشير إلى دافع فطري روحي آخر ، وهو دافع التدئين ، فقد نشأ الإنسان بفطرته وهو يميل إلى الاعتصام بملاذ الله تعالى ، ويشعر بأن له رباً خلقه فسوّاه وهداه ، وبعث إليه المرسلين مبشرين ومنذرين ، فكل شيء في الكون ينطق بوجود الله تعالى .

وعرّض القرآن الكريم قضية التوحيد من زاوية الفطرة ، إذ أخذ الله سبحانه الميثاق على الناس في ذات أنفسهم ، وهم بعد في عالم الذر ، فاعترفوا بربوبية الله ، وألوهيته عز وجل ، واستشعروا في أعماق نفوسهم هذه الحقيقة ، فالتوحيد والتدين ميثاق بين الفطرة البشرية وخالق البشر ، منذ أن وجدت كينونتهم في تشكيلها الأول . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤] .

ولا حُجَّةَ للبشر إن نقضوا هذا الميثاق ، ولو لم يبعث الله تعالى إليهم الرسل ، لكنه - سبحانه - برحمته وفضله العميم ؛ أرسل الأنبياء والمرسلين إنذاراً وتبشيراً ، فلم يكل الناس إلى فطرتهم فقد تنحرف ، ولم يكلهم إلى عقولهم فقد تضل ، فكان إرسال الأنبياء دحضاً لكل زعم وظن وتقول .

ومن عوامل الانحراف التي تتعرض لها الفطرة البشرية : شياطين الإنس والجن ؛ الذين يتصيدون نواحي الضعف ، ويركزون على نقاط هشّة ، ويرزونها ، ويعزفون على وترها الحساس نغمات شاذة ، فيأتي التنبيه النبوي تربية منهجية ؛ لإنقاذ الناس من عطالة الفكر ، وركام التقاليد ، وانحراف

(١) ﴿ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ : ضيقة شديدة .

الفطرة. يقول ﷺ في الحديث القدسي: «إني خَلَقْتُ عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(١).

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن الكفَّ عن الإنفاق ، والحرص على تخزين المال ، إنما ينشأ عن دافع سيِّئ ، وإيمان قلق ، وخوف من الحاجة والإملاق ، ويبقى الشيطان يوسوس للإنسان ، فيُخَوِّفه مرحلة الافتقار ، ويُحرِّك فيه دافع التكالب على جمع الثروة وتخزينها. وإلى هذا يشيرُ قوله عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالشيطان يَعِدُ الشر ، والله تعالى يَعِدُ الخير ، والبون بين الوعدين شاسع ، والهوة بينهما عميقة ، وصاحب العقل الراجح هو الذي يتنبَّه للأسلوب الشيطاني ، فلا يلج في دائرة الضلال ، بل يُقَوِّي إيمانه ، ويُعَزِّز اتصاله بالله سبحانه ، فإن وسوس إليه الشيطان استعاذ بخالقه ، واستجار بحوله وقوته ؛ ليدفع عنه عقبات الطريق. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَمَةً ، وَلِلْمَلِكِ لَمَمَةً ، فَأَمَّا لَمَمَةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَادُ الشَّرِّ ، وَتَكْذِيبُ الْحَقِّ. وَأَمَّا لَمَمَةُ الْمَلِكِ فإِيعَادُ الْخَيْرِ ، وَتَصْدِيقُ الْحَقِّ. فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ». ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ...﴾ [البقرة: ٢٦٨]^(٢).

وتبقى التربية هي الوسيلة الأنجع لإيقاف نزيف الانحراف عن الفطرة السليمة؛ ولذلك أرسل الله عز وجل الرسل هداية للناس ، وإعادةً لهم إلى سواء السبيل.

وإلى جانب هذا تقوم التربية على أساس توجيه الدوافع والميول والغرائز

(١) رواه أحمد (٤/١٦٢) ، ومسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٥١) وابن حبان (٩٩٧).

نحو الخيريّة ، والإيجابية ؛ لإيجاد سلوك موجّه ، بعيداً عن الزيف والدجل
والثرهات ، فعلاجُ النفس البشرية يكون بكبح جماحها ؛ لتحقيق زكاتها ،
وتكاملها ، وثّقائها ، وبالتالي يفوزُ المتقيّ بالجنة ، وهي الهدف المرجو من
عمل الصالحات. قال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ - ٤١] . إنّ في ذلك لعبرة لمن ألقى
السمع وهو شهيد .

ج - أساس التزكية والتعليم :

أشرنا فيما مضى إلى أن من الأهداف العامة للتربية القرآنية : تزكية
النفس ، والرقىّ بها في معارج الكمال ، فهي تربّي في الإنسان كل ما يستطيعه
من كمال ؛ وصولاً إلى الأفضل ؛ لأنّ بذور الارتقاء موجودة لدى الإنسان ،
والكمال معراج روحي وعقلي وأخلاقي ، فتتطلع التربية في الإسلام إلى
تحقيق جوهر الكائن الإنساني المتمثل في عقله وخلقه ؛ من خلال عمليات
التنمية ، والتوجيه .

وصحيح أن الإسلام دعا إلى العلم ، وأولاه عناية كبرى ، لكنّه قدّم
التزكية عليه ، باعتبار أنّ التزكية مرحلة تعزّز التعليم ، وتسهّل طلبه ،
وتدفع المتعلّم لحيازة أكبر قدر ممكن من المعرفة والمعلومات . قال الله
عز وجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى : ١٤] وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾
[الشمس : ٩] .

ولابأس بإطلالة على معنى التزكية في اللغة ، ففي لسان العرب أشار ابنُ
منظور إلى أن التزكية تعني : الإصلاح والتطهير والتنمية ، فقال : « الزَّكَاةُ :
النَّاء . وكلُّ شيء يزدد وينمي فهو يزكو . والزكاة : ما أخرجته من مالك
لتطهره به ، فالزكاة طُهرة للأموال ، وزكاة الفِطر طهرة للأبدان . وقوله
تعالى : ﴿ وَتَزَكَّيْهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] قالوا : تُطَهِّرُهُمْ بِهَا . وقيل لما يُخْرِجُ من

المال للمساكين من حقوقهم: زكاة؛ لأنه تطهيرٌ للمال ، وتثمينٌ ، وإصلاح ، ونماء»^(١).

ويُوضَّحُ الراغبُ الأصفهاني معنى التزكية فيقول بأن الزكاة تُطْلَقُ «لِما يُخْرِجُ الإنسانُ مِنْ حقِّ الله تعالى إلى الفقراء ، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة ، أو لتزكية النفس ، أي: تنميتها بالخيرات والبركات ، أو لهما جميعاً؛ فإنَّ الخيرَينِ موجودان فيها. وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسانُ بحيث يستحقُّ في الدنيا الأوصافَ المحمودة ، وفي الآخرة الأجرَ والمثوبة. وهو أن يتحرَّى الإنسانُ ما فيه تطهيره»^(٢).

وتنسب التزكية في القرآن الكريم:

(أ) إلى الإنسان؛ لكونه مكتسباً للتزكية والتطهير. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

(ب) وإلى الله عز وجل؛ لكونه فاعلاً للتزكية في حقيقة الأمر. قال سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَشَاءَ﴾ [النساء: ٤٩].

(ج) وإلى النبي ﷺ؛ لكونه واسطة في وصول التزكية إلى الناس ، قال تبارك وتعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال عز وجل: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمُ﴾ [البقرة: ١٥١].

(د) وإلى العبادة، لكونها آلة التزكية ، قال تعالى: ﴿وَحَسَنَاتِنَا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةُ طُ﴾ [مريم: ١٣] وقال سبحانه: ﴿لَا هَبَ لَكِ غُلَمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. وهذه التزكية وُجِدَتْ بتوفيق إلهي؛ لا بتعلُّم وممارسة.

والذي يعنينا هنا هو التزكية الكائنة بالتعلُّم والتربية وتعديل السلوك؛ بانتزاع كل شيءٍ غير مرغوبٍ فيه ، وإحلال الأفضل والأكثر إيجابية ، ويكون ذلك بطريقتين:

(١) لسان العرب ، مادة: زكا (٣٥٨/١٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٣٨١).

الطريق الأول: الحِمْيَة التربوية.

والطريق الثاني: تعديل السلوك وتربية النفس.

ونعني بالطريق الأول أن «تبدأ التطبيقات التربوية بالابتعاد بالفرد عن البيئات التي تتنكر للقيم الإسلامية ، وعن مؤسساتها الثقافية ، والتوجيهية ، والوظيفية ؛ ابتعاداً يستهدف توفير نوع من الحِمْيَة الفكرية ، والروحية ، والسلوكية ، ويُمكن التربية الإسلامية من الانفراد بإعادة تشكيل سلوكه»^(١).

والناظر في السنة النبوية يجد مصداقاً ما أشرنا إليه ، ويمكن أن نؤمىء إلى بعض المعالم ؛ كي تتضح صورة الموقف ، وتبدو جليّة للعيان.

✽ عن جابر بن عبد الله: أنَّ عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب ، فقرأه النبي ﷺ فغضب ، فقال: «أمتهوكون فيها يا بن الخطاب؟! والذي نفسي بيده ، لقد جئكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق ، فتكذبوا به ، أو يبطل فتصدّقوا به . والذي نفسي بيده ، لو أنَّ موسى ﷺ كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني»^(٢).

✽ عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: كان أهل الجاهلية لا يفيضون حتى يروا الشمس على ثبير ، فخالفهم النبي ، فدفع قبل طلوع الشمس^(٣).

✽ وعن أبي موسى قال: كانت يهود تَتَّخِذُ يومَ عاشوراء عيداً ، فقال رسول الله ﷺ: «خالفوهم ، صوموا أنتم»^(٤).

(١) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ؛ للدكتور ماجد الكيلاني (٤١ - ٤٢).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧). «أمتهوكون»: التهوؤ كالتهوؤ ، وهو الوقوع في الأمر بغير رويّة.

(٣) رواه أحمد (١/ ١٤) والبخاري (١٦٨٤) والترمذي (٨٩٦) والنسائي (٥/ ٢٦٥) وابن ماجه (٣٠٢٢).

(٤) رواه البخاري (٢٠٠٥) ومسلم (١١٣١).

* وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «خالفوا اليهود والنصارى؛ فإنهم لا يُصلُّون في خفافهم ، ولا في نعالهم»^(١).

* وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «غَيَّرُوا الشَّيْبَ ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»^(٢).

* وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبِغُونَ فِخَالِفُوهُمْ»^(٣).

وهذه الأحاديث النبوية غيضة من فيض التربية الإسلامية؛ التي تحث أفرادها على التفرد ، وتدعوهم إلى مخالفة غيرهم في كل مظاهر حياتهم؛ ل يبدو المسلم دُرَّةً مُتألِّقة تشعُّ بنور أخاذ ، ولا تتأثر بأي إشعاع مهما كان مصدره .

والطريق الثاني للتركية هو الشروع بنبذ السلوك اللاإيجابي ، وتعزيز السلوك الجيد الرشيد ، وفق التربية الإسلامية المستمدة من نصوص القرآن والسنة ، فكل تطبيق لمنهج الله عز وجل ، وكل اتباع لأحكام رسول الله ؛ هو تعديل للسلوك ، وتقويم لمسار الحياة ، وأنماط التفكير ، وألوان التصورات . قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .

ويمرُّ تعديل السلوك الإنساني بثلاث مراحل هي :

(أ) مرحلة الإسلام ، وهي الامتثال والانقياد لما جاء به رسول الله ﷺ ممَّا عُلِّمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، أو قام عليه الدليل اليقيني .

وقد جاء تفسيرُ الإسلام في حديث جبريل : وقال : يا محمد ، أخبرني عن

(١) رواه أبو داود (٦٥٢) وابن حبان (٢١٨٦) والحاكم (٢٦٠/١) والبيهقي (٤٣٢/٢) .

(٢) رواه أحمد (٢/٢٦١ و ٤٩٩) وابن حبان (٥٤٧٣) .

(٣) رواه البخاري (٣٤٦٢) ومسلم (٢١٠٣) .

الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»^(١) .

والإسلام انقيادُ بالأفعال الظاهرة الشرعية ، بدليل حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «الإسلام علانية ، والإيمان في القلب»^(٢) .

(ب) مرحلة الإيمان ، وهو التصديق بالقواعد الشرعية ، ويكون باجتماع ثلاثة أشياء : تحقيق القلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٩] .

وقد جعل رسول الله ﷺ أصل الإيمان ستة أشياء في حديث جبريل حيث سأله فقال : أخبرني عن الإيمان . قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(٣) .

وفي مرحلة الإيمان هذه يُدعم السلوك الظاهر بالإيمان الباطن ، ويُطابق المخبر المظهر ، وقد ميّز القرآن الكريم بين الإسلام والإيمان في قول الله عز وجل : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] .

قال الإمام الواحدي : «نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة ، قدموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة مجدبة ، فأظهروا الشهادتين ، ولم يكونوا مؤمنين في السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأنفال والعيال ، ولم نقاتلك كما

(١) رواه أحمد (٥١/١) ومسلم (٨) وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٣) والنسائي (٩٧/٨) وابن ماجه (٦٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١/١١) .

(٣) انظر تخريجه قبل الحديث السابق .

قاتلك بنو فلان ، فأعطينا من الصدقة . وجعلوا يمتُّون عليه ، فأُنزل الله تعالى فيهم هذه الآية»^(١) .

فالإيمان تصديقٌ لا يداخله شك بالله عز وجل وبرسول الله ﷺ ، ويتَّصف هذا التصديق بالثبات والاستقرار ، فلا يتزعزع ، ولا يتلجج ، بل ينمو ويزداد ، وينبثق عنه الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، وبالتالي تتوازن شخصية المسلم بين قوله وفعله ، وبين حقيقة إيمانه والواقع الذي ينداح بين جنباته ، فلا مفارقة بين الصورة الإيمانية وما ينساب في الحياة من مجريات ووقائع ، فالكل يصبُّ في خليج التكامل والاستقامة والثبات على الطريق ؛ لأن الصدق في العقيدة ليس ادِّعاءً ، بل واقعاً مُحَقَّقاً ، لا يقبل الريب ، ولا يخضع للاضطراب . ومهما اشتدَّ الأمر ، وادلهمَّ الخطب ، وتزلزلت الأحداث ، فإن المؤمن يبقى واثقاً بدينه ، ثابتاً على مبدئه ، ويظل موصولاً بخالق السماء والأرض ، ناهلاً من السُّنة النبوية ، بينما يتابع رحلة الحياة بخطى مستقيمة على درب الهداية .

وهذه التربية الإسلامية تُنبِّه القلوب المؤمنة إلى خطورة المزالق ، وأخطار المسير ، ولذا قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

فحدَّرت الآية من الارتياب نتيجة ما يلاقيه المؤمن من الصعوبات ، والألأقي ، والشدائد ، والابتلاءات ، فلا بُدَّ من عَقْد العزم ، والتهيؤ للدخول في عالم الإيمان بقوة وثبات وصبر ، مع الإصرار على الاستقامة ، وتحقيق السلوك القويم .

(ج) مرحلة الإحسان ، وقد فسَّره رسولُ الله ﷺ بقوله : «أن تعبدَ الله كأنك

(١) أسباب النزول ، للواحدي (٤٥٧) .

تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١). قال ابن الأثير: «أراد بالإحسان: الإخلاص ، وهو شَرْطُ في صحة الإيمان والإسلام معاً ، وذلك أَنَّ مَنْ تَلَفَّظ بالكلمة ، وجاء بالعلم من غير نية الإخلاص لم يكن مُحْسِناً ، ولا كان إيمانه صحيحاً. وقيل: أراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقبة ، وحُسن الطاعة ، فإنَّ مَنْ راقب الله أَحَسَّنَ عَمَلَهُ»^(٢).

وفي مرحلة الإحسان ترتقي مهارات التفكير الإنساني ، وينطوي التطبيق العملي على أفعال غاية في الرفعة ، والتغلب على المشاعر الآنية والانفعالات المتوترة.

وقد امتدح الله عز وجل المحسنين بقوله: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ أَلْفِظْ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ويتجلى جهاد النفس في القدرة على كَظْم الغيظ ، وقد بيّن رسول الله ﷺ أن القوي هو القادر على كبح جماح غضبه ، والعفو عند المقدرة ، فقال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٣).

وهذا الرقي في التفكير لا يتم بين عشية وضحاها ، بل يحتاج إلى تدريب ومِران ، وكلما اقتدر الإنسان على التحكم بانفعالاته ، كلما ارتقى في سُلَّم الرفعة ، وامتلك ناصية الأخلاق الكريمة ، وبالتالي بلغ مرتبة الإحسان ، وفي ذلك غاية الرقي الروحي ، وكمال السلوك ، وبالتالي يتكوّن المجتمع من أفراد صالحين ، يراعون الحقوق ، ويؤدّون واجباتهم بطوعية وتلقائية ، مبتغين الأجر ممّن لا تخفى عليه خافية.

وثمة سؤال يُطرح مفاده: كيف تتم عملية التزكية في النفس الإنسانية؟

(١) رواه أحمد (٥١/١) ومسلم (٨) وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٣) والنسائي (٩٧/٨) وابن ماجه (٦٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٨٧/١).

(٣) رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).

وللجواب نقول :

تمرُّ مراحلُ التهذيب والتشذيب والتقويم للنفس الإنسانية أمام صعوبات أربعة ، هي : النفس والشیطان والدنيا والهوى . ولا يبلغ المرءُ درجة حبِّ الخير ، والشعور بحلاوة العمل الصالح ؛ إلا بعد مرانٍ طويل ، يتسامى فيه على الدوام ؛ حتى يصل إلى محبة الفضيلة ، ويلتقي جهادُ الإنسان مع توفيق الله عز وجل ، فتبلغ النفس مكانتها المرموقة ، وتحظى بنتائج سعيها المنشود .

وترتبط محبةُ الخير بنعمة الإيمان ، وذلك أن الله عز وجل يهدي الموقنين إليه ، ويجعل قلوبهم تهفو لمحبتة ، فيكره المرءُ المعاصي والكفر والفسوق ، وهذا من آثار رحمة الله ، ونتائج فيض توفيقه . قال تعالى : ﴿ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۚ فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٧ - ٨] .

وإذا كان الله عز وجل يتفضّل على طائفةٍ من عباده ، فيهديهم إلى أقوم السبل ، ويخلص أفئدتهم من مصادر الشر ومنايع المعصية ، فمن باب أولى أن يستسلموا لشرعه تعالى ، وتديبره ، وتوجيهه ، وتربيته .

ورحم الله الإمام ابن عطاء الله السكندري إذ يقول : «أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة : عدَمُ الرضا منك عنها . لأنَّ تصحبَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيراً لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ، فأئني علم لعالم يرضى عن نفسه؟! وأئني جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!»^(١) .

وتستقيم النفس بتصحيح السريرة ، واستقامة الإرادة ، وصدق النية ،

(١) المنهج الأتم في تبويب الحكم ، تبويب : المتقي الهندي ، اعتنى به : حسن السماحي (٦٢) .

ونقاء الضمير ، والندم على ما مضى من الآثام ، وتوائب القلب ، واقتران الجوارح لهاتيك المعاصي .

وتأتي التربية القرآنية تدعو النفس إلى ترك الآثام ؛ ظاهرها وباطنها ؛ لأن الاستمرار في تلف النفس ، وسباقها في اجتراح السيئات ؛ يقودها إلى هوة الغفلة ، وفقد الشعور بوضاعة الذنب ، والإحساس بفقد الأمل من المغفرة ، فيزداد الإقبال على النقائص والعيوب . وهيهات لمن استمرأ هذا الطريق أن ينجو ، أو يصل إلى الكمال !

قال الله عز وجل : ﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] ^(١) .

ويرتبط العلم بالتركية والمجاهدة ، فأئى نفع لمن تحوّل عقله إلى مخزن للمعرفة ، ومستودع للمعلومات ، ولكنه يحمل طبعاً غليظاً ، ونفساً وثابة لارتكاب الآثام ، فلا بُدَّ من التهذيب مع العلم ، والتخلّص من آفات الخشونة والغلظة وعلل النفس ، والتنقيب عما يعيب ؛ كي يرتقي الإنسان في معارج التزكية والترقية ، فما أشقَّ الغفلة ، والرضا عن النفس ، والتريث في إصلاحها !

ومن الأمور ذات الأهمية : محاسبة النفس على الدوام ، ومعرفة قربها من العبودية ، أو شرورها في عالم الخطيئة ، وركام المعاصي .

ولا بُدَّ أن يتَّجه الإنسان مُخلصاً في أعماله ، يبتغي بها وَجْهَ رَبِّهِ ، ولا يكثرث بما يلاقيه من صدودٍ ، وغمط ، وإنكار ، فليست الكثرة دليلاً على الصحة واليقين . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ^(٢) .

وعندما تكون الصلة بالله سبحانه قوية ، لا تتزعزع ، وعندما لا يتضابق

(١) ﴿ يَقْتَرِفُونَ ﴾ : يكتسبون من الإثم .

(٢) ﴿ يَخْرُصُونَ ﴾ : يكذبون فيما ينسبونوه إلى الله .

الإنسان المؤمن ولو مادته الأرض ، أو أنكره الناس ، وعندما يردد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ مِنْ دُونِهِ. فَيَكْذِبُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] عندئذ تَقَرُّ الْعَيْنُ ، وينشرح الصدر ، وتُسَرُّ النفس بفضل الله عز وجل .

ومن قواطع التزكية : الشيطان ، في خداعه وتلبسه وتسويفه . وإن نظرة متأملة في آيات القرآن الكريم تجعل الإنسان ينفر من خطوات الشيطان ، ويفر من إضلاله ووسوسته إلى الله العزيز الأجل ، إذ لا يأمر الشيطان إلا بالشر والفساد . قال الله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَكِنْ فَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [الأنعام : ١٤٢] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] .

وما أكثر الآيات القرآنية التي تُبَيِّن خداع الشيطان ، وتزيينه ؛ ليقع الإنسان في أحابيل الشر ، ويهوي في مستنقع المعصية . وتأتي التربية - وصولاً إلى التزكية - ببيان علاقة الشيطان بالإنسان ، فهو قرين سوء ، ويوقع العداوة والبغضاء ، وقد أخرج آدم وحواء من الجنة بفتنته وإغوائه ، فهو عدو لدود لبني الإنسان ، كافر بربه ، لا يعد إلا غروراً ، وهو يأمر بالفحشاء والمنكر ، ويصد عن سبيل الخير والحق ، ويُشِي ذِكْرُ اللَّهِ تعالى . فإذا أدرك المتعلم ملامح هذه الصورة الشيطانية ، تحرك شعوره لتنمية أفعال الخير والصلاح ، وتعلق بما يُحِبُّهُ اللَّهُ عز وجل ، ومارس الإيمان ، وحرص على أداء السلوك الحسن ، وبالتالي تركوا نفسه ؛ إذ تنأى عن الانحراف ، ويصبح مُهَيَّئاً للهداية والتوفيق . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

أما الثالثة الأثافي من قواطع التزكية فهي : محبة الدنيا ، ولا بُدَّ - كي تزكو النفس - من تربية المتعلِّم ، وإعطائه صورة حقيقية عن معالم الحياة الدنيا ، فهي موقوتة بأجلٍ محدَّد ، ولا بد من نهاية لها ، حيث يموت الصالحون والطالحون ، ويذهبون بأعمالهم - مهما تنوّعت - إلى ربهم ، حيث الحساب والميزان ، ففريق في الجنة وفريق في السعير .

والدنيا متاع الغرور ، تخدع الكثير من الناس ، فيحرصون عليها ، ويتشاجرون على متاعها ، ويتعدون عن الحق والحقائق ، ويتناسون أنها مزرعة للآخرة ، وطريق إلى الجنة أو النار ، فإذا تربى المتعلِّم على هذه الفكرة ، فإنه سينهض لإعمار الكون ، والقيام بالتكاليف الملقة على عاتقه ، فتخرج مكنونات الخير ، وأصداف الجمال ، ويتعزَّز السلوك الإيجابي ؛ وتقوى الرغبة لتطبيق التعاليم الإسلامية ، والنفرة من الضلال والصالين .

وعبادة الله تعالى لا يرقى إليها أحلاس الدنيا ، وعشاق المادية ، ومنْ التصق بالدنيا ، وأخلد إليها ، فإن الدنيا تؤرُّه إلى النار ، حيث يعترف بأسباب استحقاقه للارتهان والقيد في يوم الحساب ، قال تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَنُكَفُّنَّكَ مِنَ الْمُسْلِينَ ۚ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمُسْكِينَ ۚ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ خَالِيضِينَ ۚ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۚ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۚ فَمَا نَفْعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٨] .

أما الذين آمنوا ، وزكّوا نفوسهم ، وتكلّفوا مشاق الرحلة إلى الله ، بالتهذيب ، وتعديل السلوك ، ومحاولة بلوغ الكمال الإنساني ، وتخلّصوا من أدران الشرك والمعاصي ، وتبعات الآثام ، فإنهم يُقال لهم في الجنة : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الدَّالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

ولا بُدَّ من تحقيق التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، إذ الدنيا دار الابتلاء والامتحان ، والآخرة دار الجزاء والحساب ، والمؤمن لا تخدعه مغريات الحياة ، ولا رغباتها ، كما أنه لا يزهد فيها زهد التاركين للعمل ،

فيكون عالةً على غيره ، ويحيا على سرابٍ خادع ، وآمال كاذبة ، بل يضلُّ المؤمن يجاهد في دنيا ، ويكافح في دائرة الوسطية . قال الله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

ويبقى دعاءُ المؤمن على الدوام : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

ولا بُدَّ من الإشارة إلى قاطع التزكية الرابع ، وهو : الهوى والشهوة ، فبمقدار ارتقاء النفس إلى الفضائل والكمالات ، تنكمش الأهواء ، وتندثر الشهوات .

وقد حذّر القرآن الكريم من اتباع الهوى ، باعتباره دافعاً إلى الطغيان ، ومجاوزة الحد ، واقتراف المعاصي ، ومعاينة الشرور ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ ﴾ [النساء : ١٣٥] وقال عز وجل : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْهَوَىَّ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] .

والمطلوبُ من المتعلِّم ألاَّ يرتكس في مهاوي الهوى ، بل عليه أن يمسك بزمام الأمر ، وينهى نفسه عن دفعات الهوى العنيفة ، وهذا يحتاج إلى جهادٍ مستمر ، ومغالبة شاقة طويلة الأمد ، ولكن النتيجة تسرُّ الخاطر ، وتثلج الصدر . فما دام خوفُ الله تعالى يعلو في نفس الإنسان ، وهو يتوجّه في معارج التهذيب والتقويم والرفعة ، فيحظى بنيل مراده ، بعد أن يقاطع المعاصي ، ويتغلّب على الضعف البشري ، فيندم ، ويستغفر ، ويتوب . قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىَّ ۖ إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : ٤٠ - ٤١] .

وإنَّ الانتصار على هوى النفس ، وأسر الشهوة ؛ لهو النصر المبين ، والتصرف الحكيم ، أما الهزيمة فتعني أن يقع الإنسان تحت سيطرة

عبودية الشهوة ، وإن ارتدى ثوب الإنسانية المزيف ؛ لأنَّ الانطلاق حرية ، والانتكاس عبودية .

ومن استرضى غرائزه الدُّنيا ، وأشبع هواه ، طاشت به نوازع الشر ، وطُمِست حواسُّه ، وسار في شرود الضلال ، وتلك آفة تستأصل الإيمان ، وتبَرِّم بالدين . قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ٢١ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ [محمد : ٢٢ - ٢٣] .

وتكون التربية عنايةً بالإرادة الإنسانية ، فهي الدافع الأول للعمل الصالح ؛ لما تحتوي عليه من الرغبة والاختيار للتوجُّه إلى قصدٍ ما ، فيتولَّد الميل إلى الشيء الحسن ، والنفور من الأمر السيِّء .

وحين تنمو الإرادات في النفس الإنسانية ، فإنها تتكامل ، وتقف في وجه القواطع كالهوى وغيره ، ويصبح توجيهُ الإرادة نحو الخير ذا أثرٍ إيجابي فعَّال في تهذيب النفس ، ورفقيها في مراتب الفضائل .

ويُعَدُّ القرآن الكريم جملة إرادات كثيرة ، منها :

- إرادة الإحسان ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٢] .

- وإرادة الإصلاح : ﴿ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [هود : ٨٨] .

- وإرادة النصِّح : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] .

كما نفَّر القرآن الكريم من بعض الإرادات إيجابية السلبية ، ومنها :

- إرادة محبة الدنيا : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

- وإرادة طمس الحق : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الصف : ٨] .

- وإرادة الجبن : ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وهذه الإرادات السلبية تجعل الإنسان يهبط إلى مستوى سقيم ، مُتْنِن ، لا قيمة له ، وينبغي على المتعلم أن يتجنبه بإرادة حازمة جازمة .

ولكي تتأكد تركية النفس لا بُدَّ أن يحيا المتعلم وسط جوٍّ مناسب ، وإليك - عزيزنا القارئ - بعضاً من الأمور المساعدة على التزكية :

✽ قراءة القرآن الكريم ، للتمتع ، والتدبر ، والعمل بالأحكام .

✽ امثال سيرة رسول الله ﷺ ، ومطالعتها ؛ لأخذ العبرة ، والتقاط الدروس .

✽ دراسة السمائل المحمدية ؛ التي تمثل الشخصية النموذجية للإنسان المسلم ؛ تطبيقاً لقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

✽ مداومة ذكر الله تعالى ؛ لشغل القلب بإشعاعه ، وإنارة الفكر بأحواله ، وعقد الصلة مع الخالق .

✽ الحرص على الصحبة المتقاة الحسنة ؛ لما لها من أثر في تعديل السلوك ، وتركية النفس .

✽ المحافظة على نوافل العبادات ، لنيل محبة الله عز وجل وتوفيقه .

ولا تبلغ التزكية منتهاها ، ما لم تُثمر محبة الله وإجلاله ^(١) ، قال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] . فالحب بين العبد والرب ، والرضا المتبادل يكونان أواصر الصلة القوية بين الروح النوثابة ، والنفس الزاكية ، وبين الرب الرحيم الودود .

وإن أهمَّ رباط بين العباد وخالقهم هو الحب الساري ، والحديث الصادق ، والتصور الصحيح .

(١) يُنظر كتاب : «محبة الله عز وجل» أعدّه : يوسف علي بديوي . نشر دار اليمامة بدمشق ، سنة ٢٠٠٠م ، الطبعة الأولى .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ وَعَمَلٌ وَالصَّالِحَاتُ سَجَعَلْ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا ﴾
[مريم : ٩٦] ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] وقال سبحانه : ﴿ قُلْ
إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١].

وفي غضون مراحل التزكية ، يضطلع المرء بجهدٍ شاق ، ويلاقي متاعب
جمّة ، ويحسُّ بعبءٍ ثَقِيل ، لكنه يندفع نحو الأفضل والأكمل ، في رحلة
حب بينه وبين ربّه ، فيناديه خالقه : أَنْ أَقْبِلْ ، فيسعى بخطى حثيثة ،
ويستجيب للنداء العلوي بانطلاقة متفرّدة ، وطواعية سمحة ، وهو يتحسّس
الإنعام والتفضّل الغامر الجزيل .

وفي طريق التزكية يتعلّم المرء التفكير العلمي الموضوعي ، وقد بنى
القرآن الكريم الموضوعية في التفكير بناءً محكمًا ، فمن ذلك :

❖ الدعوة إلى الدراسات النفسية ، وضرورة معرفتها ؛ لإدراك مكونات
الدوافع ، والأمزجة ، والميول ، قال تعالى : ﴿ سَرُّهُمْ أَيْنَمَا فِي أُلُوفٍ وَفِي
أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وهذه الآيات الكونية
والنفسية لها آثارها في تحديد موضوعية التفكير ، وعدم الرجم بالغيب
والهوى والظنون .

❖ ويأتي الحوار انفتاحاً للتفكير الموضوعي ، وتواصلًا مع الآخرين ؛
إثارةً للفكر ، وتجليّةً لصيغ المشاركة ، والنقاش ، دون الاعتماد على أحكام
مسبقة ، قد تضمُّ في أبعادها شيئاً من الخطأ أو التحيز . وقد علّمنا القرآن
الكريم أسلوب الحوار ، فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سبا : ٢٤] .

❖ ومن وسائل التفكير الموضوعي : عدم الإصغاء إلى الأفكار والآراء
والعادات الشائعة ، وترديد المقولات السيّارة . وجاء الإسلام يجتثُّ تلك
الموازين الخاطئة ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ
نَتَّبِعُ مَا أَفْلَحْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوَّلَوْ كَانُوا عَابِكُمْ لَهُمْ لَا يَحْكُمُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾
[البقرة : ١٧٠] .

❖ ونعى القرآن الكريم على الذين يتبعون الظن ، ويجرون خلف أهوائهم بلا حُجَّة ، ولا علم ، ولا يقين ، فهم يستمدُّون عقائدهم من سبخة ظنونهم ، ويمتحنون من جموح أهوائهم . قال الله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [النجم : ٢٣] . وقال رسولُ الله ﷺ : «ياكم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث»^(١) .

❖ كما حذَّر القرآن الكريم ممَّن يماري في الحق ، ويتبع الهوى دون الاعتماد على حقيقة ما ، فلا حُجَّة له ، ولا دليلَ عنده ، بل يتَّبِع ميوَله المغرِضة ، ويصدُّ عن البحث لجمع الأدلة والبراهين . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] .

❖ والعقيدة الإسلامية واضحة ، والتربية القرآنية ناصعة ، فلا شيء يقوم على الوهم أو الشبهة ، بل المنهج العلمي ، والتفكير المنطقي الموضوعي هو طريق المعلمين والمتعلِّمين ، فلا مكان للأحكام السطحية ، أو الأقوال المبتسرة ، أو الفروض الوهمية . والإنسان مسؤول أمام واهب السمع والبصر والفؤاد ، ولا يجوز تبديد شيء منها ، فهي طاقات تخدم طريق العلم ، ويقين الحقائق ، وكل ذلك يُقرَّر بالمنهج المتكامل ، الثابت في استقراره ، والصادق في أحكامه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦]^(٢) .

❖ وتُصحَّح التربية القرآنية منهج التفكير ، فتستنكر قولاً لا دليلَ له ، أو اعتقاداً لا برهان عليه ، ومنذ القِدَم نذد أصحابُ الكهف على قومهم ؛ الذين يقولون ما ليس لهم به علم ، ولا يأتون بالحجج الدامغة على صحة ما يذهبون إليه ، فقالوا : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ

(١) رواه البخاري (٦٠٦٤) ومسلم (٢٥٦٣ و ٢٥٦٤) .

(٢) ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ : لا تتبع .

عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيْنٌ ﴿ [الكهف: ١٥] . فإمّا دليل قوي له سلطان على النفس والعقل ، وإلا فهو لوّنٌ مقيت من ألوان الكذب والبهتان .

(د) أساس تحمّل المسؤولية وانتظار الجزاء :

لا يمكن أن نتصوّر قاعدة أخلاقية من غير إلزام ، وهذا يقتضي وجود الاستعداد الفطري لدى الإنسان ، وقدرته على الوفاء بما يُطلب منه ، وبالتالي تبرز مسؤوليته سواء أختَرَمَ القاعدة الأخلاقية ، أم قصّر في تطبيقها ، وهو حرٌّ مختار ، ومن ثم يتحمّل الجزاء والحساب بعد خضوعه للتكليف .

وتتعدّد المسؤوليات ، وتنوّع ؛ بحيث نجد المسؤولية الدينية ، والأخلاقية ، والاجتماعية ، وغير ذلك .

ولا بُدّ من الإشارة إلى أن كل مخلوق عاقل مسؤول عما اسْتُرْعِي ، وسيقف يوماً ما أمام ربه عز وجل ؛ ليحاسبه عما جَنَتْ يده ، حيث يقف كل إنسان إزاء عمله ، ويطلّع عليه بنفسه ، وفي اللحظة الحاسمة تقوى محكمة الضمير ، ويكون الاعتراف بعد المواجهة . يقول الله عز وجل : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمِنَهُ طَيْرُهُ فِي غُفَّتِهِ وَنُحِرَ لُوحُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [١٣] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿ [الإسراء: ١٣ - ١٤] ^(١) . ويقول سبحانه : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥] .

وتحضّر جميع الأعمال ، صغيرها وكبيرها ، ويُنشر سجلُّ الأعمال الشامل الدقيق ، بينما المجرمون يخافون سوء العاقبة من ذلك السجل الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها . يقول الله تعالى : ﴿ وَحَسَرْتَهُمْ فَلَمْ تُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [١٦] وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿ [١٧] وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَالٌ هَذَا

(١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ : عمله المقدّر عليه لا ينفكّ عنه . ﴿ حَسِيبًا ﴾ : حاسباً وعاداً ، أو محاسباً .

الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٧ - ٤٩].

وأشار القرآن الكريم إلى أن الله عز وجل سيحاسب عباده على أعمالهم الظاهرة والخفية ، فعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قال : دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ . قال النبي ﷺ : «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم^(١).

وستكون المساءلة يوم القيامة شاملة لجميع الملكات والقدرات والتعم الموهوبة في الحياة الدنيا ، وطريقة استخدام الإنسان لها ، وتوظيفها . قال رسول الله ﷺ : «لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه»^(٢).

وتستند هذه المساءلة على مبدأ المسؤولية ، حيث يتم غرسها في نفوس الناشئة والمتعلمين ، حيث يترتب في دواخلهم حس المسؤولية ، وأنهم يتحملون نتائج أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم أمام أنفسهم ومجتمعهم وأمام ربهم يوم العرض الأكبر ، فكل إنسان حافظ مؤتمن ، وتقع عليه مسؤولية صلاح ما التزم به في دينه ودنياه ومتعلقات ذلك ، قال رسول الله ﷺ : «ألا كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع ، وهو مسؤول عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسؤول عنهم . والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسؤولة عنهم . والعبد راع على مال سيده ، وهو مسؤول عنه . ألا فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٣).

(١) رواه مسلم (١٢٦) والترمذي (٢٩٩٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٧).

(٣) رواه البخاري (٨٩٣) ومسلم (١٨٢٩).

ويربط القرآن الكريم بين المسؤولية والأمانة ، وذلك في قول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

قال ابن عباس : الأمانة : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد ، يعني : الفريضة^(١) .

والفرائض كثيرة ، وكلها أمانات ينبغي الحفاظ عليها ، فالإسلام منهج متكامل ، وحياة شاملة ، تتطلب إقامة الحق ، وتعمير الأرض ، والنهوض بالتكاليف ، وبناء النفوس على التوحيد ، وكلها تقتضي صبراً طويلاً ، وتستلزم توضحيات جسام ، واستعلاء على الفتن ، فالأجر عند الله جزيل ، يذخره عز وجل للأمناء من عبادة .

وتستند المسؤولية الأخلاقية والدينية إلى عدة شروط ، أهمها^(٢) :

* أن المسؤولية ذات طابع شخصي . وهاهي نصوص القرآن تقر هذا المبدأ ، فيقول الله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وقال عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [النساء : ١١١] . وقال سبحانه : ﴿ مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأَزْرَ وَزَرًا أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء : ١٥] .

* والمسؤولية ذات أساس قانوني ، فلن يُحاسب أحدٌ على أفعاله دون أن يكون قد علم مسبقاً أحكامها . وقواعد القانون الأخلاقي مُسجلة في النفس ، وعلى المكلف أن يستخدم قدراته وملكاته الفطرية ليكتشفها . ومع ذلك فقد أرسل تعالى الرسل الكرام ليقيم الحجة على الناس ، قال عز وجل : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ بِمَا ذُكِّرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٨ - ٢٠٩] .

(١) تفسير ابن كثير (٢/٣٧٦) .

(٢) دستور الأخلاق في الإسلام ؛ للدكتور محمد عبد الله دراز (١٤٨) .

❖ ويُشترط في المسؤولية أن يكون المسؤول عاقلاً ، بالغاً ، حراً . قال رسول الله ﷺ : «رُفِعَ القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الغلام حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق»^(١) .

ولا يُفهم من الحديث أنَّ الأطفال - من حيث عدم مسؤوليتهم - جزء مهمل ، بل على العكس تماماً ، فلهم نظامهم الخاص تحت إشراف آبائهم ، ومربيهم ، ومُعلميهم ، وأساتذتهم . وهذا يلقي تبعة المسؤولية على الأسرة والمجتمع ، ويتطلب بذل أقصى المستطاع لتنشئة براعم الجيل تنشئة تتوافق مع القاعدة الأخلاقية العامة ، فيراعى الطفل من خلال التربية مراعاة خاصة ، بحيث يكتسب سلوك الكبار في علاقته الشخصية ، والاجتماعية ، والدينية .

ولنأخذ مثلاً يوضح المسألة ، فنقول : لقد بيّن القرآن الكريم عدم جواز دخول أحدٍ إلى بيوت الآخرين دون أن يستأذن ، ويُسلم عليهم في أدب . قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور : ٢٧] .

أما فيما يتعلق بالخدم والأطفال ، فإنَّ القرآن الكريم يمنحهم نوعاً من التساهل في بعض القيود ، لا على سبيل الإعفاء منها ، فهو يُقيّد وجوب هذه الأوامر بأوقات الراحة ؛ حين نكون غالباً مستترين . قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنتَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوُّهُنَّ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النور : ٥٨] .

وبمقدار طاقة الإنسان ، وتحمُّله ، وقدرته ؛ تكون مسؤوليته ؛ وبُريِّي القرآن الكريم الناسَ على تصوُّر رحيم ، فالتكاليف تدخل ضمن طاقة

(١) رواه أحمد (١٤٤/٦) وأبو داود (٤٣٩٨) والنسائي (١٥٦/٦) وابن ماجه (٢٠٤١) .

الإنسان ، وتمكُّنه ، وقدرته على العمل ، فيقول الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الإمام أبو العباس القرطبي : «هذا خبرٌ من الله تعالى أنه لا يأمرنا إلا بما نطيعه ، ويمكننا إيقاعه عادة... والله تعالى بلطفه بنا ، وإنعامه علينا - وإن كان قد كلَّفنا بما يشقُّ علينا ويثقل ؛ كثبوت الواحد للعشرة ، وهجرة الإنسان ، وخروجه عن وطنه ، ومفارقة أهله وولده وعادته - لكنه لم يُكلِّفنا بالمشقَّات المثقلة ، ولا بالأُمور المؤلمة ، كما كُلِّفَ مَنْ قَبْلَنَا ؛ إذ كُلِّفَهم بقتل أنفسهم ، وقرض موضع البول من أبدانهم ، بل سهَّل ، ورفق بنا ، ووضع عنا الإِضر والأغلال التي وضعها على مَنْ كان قبلنا ، فله الحمد والمِنَّة ، والفضل والنعمة»^(١).

والإنسان مسؤولٌ عما يقترف من سيئات ومعاصٍ ، لكنَّ تَرْك السيئة خوفاً من الله يُكتب حسنة ، باعتبار أن ذلك الترك إنما هو بمثابة التوبة ، وهي تُذهب السيئات ، وتُعقِّب الحسنات .

فعن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : «قال الله تعالى : إذا تحدَّث عبدي بأن يعمل حسنةً ، فأنَا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ، فإذا عَمِلَها فأنَا أكتبها له بعشر أمثالها . وإذا تحدَّث بأن يعملَ سيئةً فأنَا أغفرها له ما لم يعملها ، فإذا عَمِلَها فأنَا أكتبها له بمثلها»^(٢).

وصحيح أنَّ الإنسان مسؤول عما يصدر عنه من أقوال ، وهي مسجَّلة له أو عليه ، غير أنَّ ما يجري به اللسان عفواً ، ومنْ غير قَصْد ، فالله تعالى لا يُحاسِب عليه ، ولا تجب فيه الكفَّارة . قال عز وجل : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ولا تنحصر مسؤولية الإنسان على نفسه ، بل تمتدُّ امتداداً عريضاً يشمل

(١) المفهم (٣٢١/٧ - ٣٢٢).

(٢) رواه أحمد (٣١٥/٢) ومسلم (١٢٩).

الأسرة والمجتمع ، فالمسؤوليات كثيرة ، كالأولاد ، والزوجة ، والوالدين ، والأقارب ، والجيران ، والآخرين . . . وللوالدين حق واجب على أبنائهما ، فأمر الله عز وجل بالإحسان إليهما ، والبرّ بهما ، وقَرَن شكرهما بشكره ، فقال تعالى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ [لقمان : ١٤] .

ومن المسؤولية المناطة بالأولاد تجاه والديهم :

(أ) حُسْن صحبة الوالدين ؛ لاسيما الأم ، إذ أولاها الإسلام بدرجات ثلاثة فوق درجة الأب ، فعن أبي هريرة قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال : «أُمُّكَ» . قال : ثُمَّ مَنْ؟ قال : «أُمُّكَ» . قال : ثُمَّ مَنْ؟ قال : «أُمُّكَ» . قال : ثُمَّ مَنْ؟ قال : «أَبُوكَ»^(١) .

(ب) بِرُّ الوالدين بعد وفاتهما ؛ فعن مالك بن ربيعة السَّاعدي - رضي الله عنهما - قال : بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ من بني سَلَمَةَ ، فقال : يا رسول الله ، هل بقي مِنْ بِرِّ أَبِي شَيْءٌ أَبْرُهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قال : «نعم ، الصَّلَاةُ عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما مِنْ بَعْدِهِمَا ، وَصِلَةُ الرَّحْمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا ، وإكرام صديقهما»^(٢) .

(ج) قضاء النَّذْرِ عن الوالدين ؛ فعن ابن عباس قال : استفتى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نَذْرٍ كَانَ عَلَى أُمِّهِ تُوفِّيَتْ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَهُ ، فَقَالَ : «اقْضِهِ عَنْهَا»^(٣) .

(د) الحج عن الوالدين الميتين ، أو أحدهما ؛ فعن ابن عباس قال : كان

(١) رواه البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨) .

(٢) رواه أحمد (٤٩٧/٣) وأبو داود (٥١٤٢) وابن ماجه (٣٦٦٤) وابن حبان (٤١٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٥) .

(٣) رواه البخاري (٦٦٩٨) ومسلم (١٦٣٨) .

الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ رَدِيفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَتَمِهِمْ ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشَّقِّ الْآخِرِ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكْتُ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا ، لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، أَفَأَحْجُّ عَنْهُ؟ قَالَ : «نَعَمْ» . وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوُدَّاعِ^(١) .

(هـ) صِلَةُ الْوَالِدَيْنِ الْمَشْرُكَيْنِ ؛ فَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ : قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي ، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قُلْتُ : قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ : «نَعَمْ ، صِلِي أُمَّكِ»^(٢) .

أَمَّا مَسْئُولِيَّةُ الْوَالِدَيْنِ نَحْوَ أَبْنَائِهِمَا فَكَبِيرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَهْمُهَا حُسْنُ التَّرْبِيَةِ ، فَيَقْرُمُ الْوَالِدَانِ بِعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ الْمُسْتَمَرِّ ، وَالتَّوْجِيهِ الدَّائِمِ ؛ لِتَكْوِينِ النَّشْءِ تَكْوِينًا صَالِحًا ، وَفَقْ مَنِهْجٍ إِسْلَامِيٍّ أَصِيلٍ ، عَلَى مُخْتَلَفِ الْأَصْعَدَةِ : الْفِكْرِيَّةِ ، وَالرُّوحِيَّةِ ، وَالْجَسْمِيَّةِ . . .

«وَلِلْوَالِدَيْنِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي عَنَائَتِهِمْ بِأَبْنَائِهِمْ ، وَتَحْدِيدِ خِصَالِ السَّلُوكِ ، وَمُسْتَوَى النِّشَاطِ ، وَحَسَّاسِيَّةِ الْإِثَارَةِ ، فَكَثِيرًا مَا نَلَاظُ تَفَرُّقَ بَيْنِ الْأَطْفَالِ فِي مَعَامَلَتِهِمْ ، وَهَذَا رَاجِعٌ بِالدرَجَةِ الْأُولَى إِلَى الْأَهْلِ . وَأَهْمُ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ الْوَالِدَانِ هُوَ الضُّبْطُ السَّلُوكِي ؛ الَّذِي يَتْرَكُ آثَارَهُ وَاضِحَةً عَلَى الْأَبْنَاءِ ؛ لِأَنَّهُ يُوْدِي لِلتَّوْجِيهِ فِي سَلُوكِ الطِّفْلِ ، وَفِي شَخْصِيَّتِهِ ؛ مِمَّا يَحَافِظُ عَلَى احْتِرَامِ الذَّاتِ ، وَإِشْعَارِ الطِّفْلِ بِأَنَّهُ يَفْعَلُ الْخَيْرَ وَالصَّوَابَ»^(٣) .

وَمِنْ الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْوَالِدَانِ تَجَاهَ أَبْنَائِهِمَا : التَّسْمِيَةُ الْحَسَنَةُ ، وَإِرْضَاعُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ ، وَتَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ بِالرَّحْمَةِ وَالْعَطْفِ ، وَمَدَاعِبَةُ الْأَوْلَادِ ، وَالتَّرْوِيحُ عَنْهُمْ ، وَتَعْلِيمُهُمُ الرِّيَاضَةَ ، وَإِكْرَامُهُمْ ، وَتَأْدِيبُهُمْ ،

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٥١٣) وَمُسْلِمٌ (١٣٣٤) .

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٧٩) وَمُسْلِمٌ (١٠٠٣) .

(٣) حَقَّ الْوَالِدَيْنِ عَلَى الْأَبْنَاءِ ، لِيُوسِفَ عَلِيٌّ بِدِيُونِي (٩ - ١٠) .

وتعليمهم آداب الطعام وغيرها من الآداب العامة ، وتوجيههم لأداء الصلاة ، والتحلي بمكارم الأخلاق كالصدق ونحوه ، مع ضرورة الإنفاق عليهم ، والعدل بينهم ، وضرورة تجنيبهم الظواهر القبيحة ؛ كالسباب والشتائم ، والميوعة ، والتدخين .

ويسعى الإسلام لبناء الأسرة السعيدة الصالحة ، فشرع الله تعالى الزواج ، ووضع الأسس الصحيحة لاختيار الزوجة والزوج على مرتكزات من التقوى والخلق القويم ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٢] .

وحدد القرآن الكريم حقوق وواجبات الزوجين على أساس التساوي ، انطلاقاً من مبدأ المسؤولية فقال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وتقوم مسؤولية الرجل تجاه المرأة على إعطائها حقوقها كاملة ، سواء أكانت مادية أم معنوية . ومن الحقوق المادية : المهر ، والنفقة ، والسكن ، ومن الحقوق غير المادية : حقها في اختيار شريك حياتها ، ومعاشرتها بالمعروف والإحسان والرحمة ، وضّونها عن كلّ ما يُدّئسها ، والغيرة عليها ، ومجامعتها بقصد العفة له ولها ، وبالتالي ترتفع لتكون عبادة ، مع ضرورة تطيب خاطرها ، وإدخال البهجة إلى نفسها ، وإكرامها ، والابتسام لها ، وممازحتها باعتدال ، مع التزيّن والنظافة من قبل الرجل .

أمّا مسؤولية المرأة تجاه زوجها فتتمثّل في طاعته في الخير ومن غير معصية ؛ لما وهبه تعالى من حق القوامة عليها ، كما عليها حفظ ماله ، وتدبير شؤون البيت ، وتربية الأولاد ، وتهيئة أسباب الراحة ، وعليها ألاّ تُدخل أحداً إلى بيته إلاّ بإذنه ، كما نهى ﷺ أن تصوم المرأة وزوجها مقيم عندها إلاّ بإذنه ، ويُستحبُّ للزوجة أن تزيّن لزوجها دون مبالغة أو شطط ، مع إعانته على خيري الدنيا والآخرة .

وقد أجمل رسولُ الله ﷺ مسؤولية الزوجين في حَجَّة الوداع فقال : «أَلَا

واستوصوا بالنساء خيراً ، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً
غير ذلك ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهِجَرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ،
وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً . إِلَّا إِنْ لَكُمْ
عَلَى نِسَائِكُمْ حَقٌّ ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ
فَلَا يُؤْطِئَنَّ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بَيْوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ . إِلَّا!
وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»^(١).

وتتوزع المسؤولية الاجتماعية على نطاق واسع ، يشمل أفراد المجتمع
كلهم ، القريب منهم والبعيد ، وستتحدث عن مسؤوليتين اثنتين ، هما:
مسؤولية الجار ، ومسؤولية المسلم تجاه المسلم الآخر .

فعندما تحدَّث القرآن الكريم عن حقوق الجيران ، أكد على
أهميتها ، وحرص على أن تكون حسنة ، فقال : ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ
الْجُنُبِ ﴾ [النساء : ٣٦] .

والأحاديث حول الجار كثيرة ، ومنها :

❖ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ
مُؤمناً»^(٢).

❖ وعن ابن عمر وعائشة قالا : قال رسول الله ﷺ : «ما زال جبريلُ يُوصيني
بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه»^(٣).

❖ وعن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ كَانَ يَوْمُنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ»^(٤).

(١) رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١).

«عوان عندكم» : أسرى بين أيديكم .

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣١٠) والترمذي (٢٣٠٥) وابن ماجه (٤٢٣٧).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٤ و ٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٤ و ٢٦٢٥).

(٤) رواه البخاري (٦١٣٦ و ٦١٣٨) ومسلم (٤٨).

※ وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»^(١).

وتأتي المسؤولية الاجتماعية لتمتّن صلات المودة ووشائج التآخي بين المسلمين ، كما أنّها تُوثّق الروابط بين الناس ، وتُظهر المجتمع وحدة متكاملة ، تُؤدّي فيها الحقوق ، وتُنفذ الواجبات ، من خلال مسؤولية كل فرد تجاه الآخرين .

وللمسلم على المسلم حقوق كثيرة ، من: إفساء السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدّعوة ، وتشميت العاطس ، والنصحية ، وإبرار القسم ، ونُصر المظلوم ، وغير ذلك من الحقوق الواجبة في حق المسلم على أخيه المسلم .

قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ المسلم على المسلم ست» قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلّم عليه ، وإذا دعاكَ فأجبه ، وإذا استنصحك فانصَح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمّته ، وإذا مَرَض فعُدّه ، وإذا مات فأتبعه»^(٢).

وكل المسؤوليات السابقة وغيرها يترتّب عليها جزاء معين بحسب نوع العمل والموقف الذي اتخذهُ الإنسان ، وهو يراقب ربّه عز وجل فيما يأتي ويذر ، وفي مختلف الأحوال والأوقات ، وفي السّر والعلن ، فيعلم أنه مُثاب على ما يفعله من الخير ، ومعاقب على ما يجني من الشر ، وهذا الشعور هو الذي يضبط السلوك ، ويوجّهه عند المؤمن الذي يدرك أن الله تعالى مُطّلع على كل صغيرة وكبيرة ، قال الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]^(٣).

(١) رواه الطبراني والبخاري (١٢٤٠) ومسلم (٢١٦٢).

(٢) رواه البخاري (١٢٤٠) ومسلم (٢١٦٢).

(٣) ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾: النظرة الخائنة إلى ما لا يحلّ.

وفصل القرآن الكريم بين الأبرار والأشرار؛ انطلاقاً من مبدأ العدل الإلهي ، قال عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] (١).

ويمكن أن نميز بين نوعين من الجزاء ، أحدهما في الدنيا ، والثاني في الآخرة . وأهم جزاء دنيوي يتلقاه المؤمنون هو معية الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩] . ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] . ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨] .

أما الكافرون فموعودون بالذل ﴿ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠] . ومشمولون بالخزي ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢] ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] .

كما رتب الله عز وجل الرشد للذين حملوا أعباء الوصول إلى الله تعالى ، فلم ينكصوا ، ولم يياسوا: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وهؤلاء سوف يهدي الله قلوبهم ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] وسوف يبدد ظلماتهم ، ويوصلهم إلى النور: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

ولا يقتصر الأمر على الجزاء الدنيوي ، بل يمتد ليشمل الجزاء الأخروي السرمدي الدائم ، حيث تتوقف السعادة والشقاء على مدى الالتزام بمنهج الله ، وتربية القرآن ، وأوامر الشارع العظيم ، مراعاة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . قال عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقْتُ وَسَعِيدٌ ﴿۝۱۰﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَسَهْقٌ ﴿۝۱۱﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿۝۱۲﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ ﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٨] .

(١) ﴿ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ : اكتسبوها .

بينما عصاة المؤمنين يخرجون من النار ويدخلون الجنة ، كما في حديث رسول الله ﷺ : «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً»^(١).

وإذا استقرَّ أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، وأُعلِنَ أن حياتهم باقية على هذا الشكل ، فَيَسُرُّ المؤمنون ، ويزداد حزن الكافرين . قال ﷺ : «إذا صار أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، جِيءَ بالموت حتى يُجْعَلَ بين الجنة والنار ، ثم يُذْبَح ، ثم يُنادى : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ وَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلُودٌ وَلَا مَوْتَ ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»^(٢).

وعندما يشعر الإنسان بأنه مسؤول يوم القيامة على ما قدَّم من خير أو شر ، فإن هذا الشعور يحفزه إلى إتقان عمله ، وجعله أكثر جودةً ، وأخلص هدفاً ، وأنبِل مقصداً ، وأشدَّ استحضاراً لأحوال يوم القيامة ؛ انذِي يُنْصَبُ فِيهِ مِيزَانُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَتُنْشَرُ صُحُفُ الْأَعْمَالِ ، وَيُسَاقُ النَّاسُ زَمَراً إِمَّا إِلَى ظِلَالِ الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى عَذَابِ النَّارِ . وكل هذا يدفع المؤمن ليحاسب نفسه ، ويتقي ربَّه ، وهو يتلو قول الله عز وجل : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

كما أن الجزاء في اليوم الآخر يُقَوِّمُ السلوك الإنساني ، ويُربِّي النفس لِثَقِيلِ نحو الخير ؛ مهما اشتدت الخطوب ، وَغَلَّتِ التَّضَحِّيَاتُ ، وبالتالي يُحْجِمُ عن ممارسة الشرور والآثام ، مهما بدا طريقها سهلاً معبداً . فمن فَعَلَ الْخَيْرِ نَالَ الْجَزَاءَ الْوَفِيرَ ، وقال يوم القيامة : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبُ ﴾ إِنْ ظَنَنْتُ أَنَّ مَلَكِي حَسَابِيَّةٌ [الحاقة : ١٩ - ٢٠] فيرفل في أثواب السعادة ، ويحمد ربَّه عز وجل

(١) رواه البخاري (٤٤) ومسلم (١٩٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠) .

أَنْ وَفَّقَهُ لَصْنَعِ الْخَيْرِ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿[الحاقة: ٢١ - ٢٢].

ويبقى الإنسان يتهاذى بين الأمل والرجاء ، وبين الخوف من الله عز وجل والشفقة من كونه لا يعرف أيّاً من أعماله قد قُبِلَ ، وأيّاً منها قد رُفِضَ ، فالأمرُ يتعلّق بالنية ، وحُسن التوجّه ، وسلامة القصد ، وإخلاص القلب لله عز وجل ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يخضع لتزعّات الشيطان ، وأهواء النفس ، وضلالات الطريق ، ومتاهات الغفلة عن الخالق ، فمن صفات المؤمن أنه يحيا في جهادٍ مستمر ، ومدافعة دائبة ، تملؤه الشفقة من خشية الله ، ويتعاوره الحذر إلى جانب الاستشراف والتطلع لبناء حياة أفضل ، وأعمال أذكى ، وحياسة مرتبة أعلى . قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَشَفِّقُونَ﴾ ٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِثْنَيْتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿[المؤمنون: ٥٧ - ٦١] (١).

ومن هنا تقوم تربية المؤمن على الخوف من الخالق ، والرجاء فيه ، والرغبة في نيل الجنة ، والرغبة من عذاب النار ، وقد أفلح مَنْ بذل جهده ، وأخلص قلبه ، وشكر ربّه .



(١) ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ : خائفة ألا تُقبل أعمالهم .

الباب الثاني

التربية في القرآن الكريم

الفصل الأول: التربية بالنداء في القرآن الكريم

الفصل الثاني: أصول التربية في نداء القرآن

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في التربية

الفصل الرابع: مفاهيم قرآنية ضرورية للطفل

الفصل الأول

التربية بالنداء في القرآن الكريم

تمهيد:

إنَّ القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الكبرى ، وهو ينبوعُ الثَّر الذي ينهل منه البشرُ في كلِّ آنٍ ، فيجدون في ظلاله الأمنَ والسكينة ، ويقتبسون من أنواره كبيرَ المعرفة ، وجليلَ الفائدة .

وقد رأينا - بتوفيق الله تعالى - أن نضعَ هذه الدراسة حول التربية القرآنية من خلال أسلوب النداء ؛ نظراً لدوافع كثيرة تُبرز أهمية الموضوع ، فمن ذلك :

✽ إثارة العواطف ، وحث الانفعالات ؛ لتوجيهها ، وتعميق الفكرة في الضمير الإنساني .

✽ دَفْع السامع والقارئ إلى معرفة ما سيأتي من أمر أو نهْي ، مما يجعله في حالة تأهُّب نفسي .

✽ تربية الأحاسيس الربانية كال تقوى ، والعبادة ، والإخلاص . . .

✽ التعبير الموحى بِنَبْذ سلوك الكافرين والمنافقين وآرائهم .

✽ تربية العقل والتفكير المنطقي ، فأغلبُ النِّداء في القرآن الكريم خطابي .

✽ تعزيز العقيدة الدينية ، والحبِّ لله تعالى ، ودَعْم الموقف بالحجج القاطعة .

❖ إيقاظ الانتباه عند السامع والقارئ للتأمل في المعنى ، والتدبر في المواقف ، والتأثر بالموضوع .

❖ النداء في القرآن الكريم يتعامل مع النفس الإنسانية ، فهو واقعي ، مُثَرِّن ، يهتم بالصدق والبعد عن الغلواء والجنوح .

❖ إثبات فكرة أنَّ الله تعالى مع المؤمنين ، يرحمهم ، ويغفر لهم ، وينجيهم من الأزمات ، وأنه تعالى يخذل الكافرين ، ويدحض ما يأتون به .

❖ تذكير المؤمنين بأهمية الدور الذي يقومون به ، ووعظهم ؛ ليبقوا على جادة الصواب .

❖ تربية عواطف الخضوع لله تعالى ، والخوف منه ، والإذعان لأوامره ، والانقياد لتشريعہ .

❖ جعل المؤمن يتجنب الضرر ، ويسعى لما يُحقِّق له السعادة في الدنيا والآخرة .

إلى ما هنالك من أسباب تدفع الباحث للدراسة؛ إرضاءً لله عز وجل ، وخدمةً للقرآن الكريم ، وعوناً لشدة العلم وطلاب المعرفة ، وهم يغدُّون السير على الطريق الحق . وقد أدرك الصحابة الكرام هذه المعاني إدراكاً جيداً ، فعملوا على تمثيلها في واقع حياتهم ، في العهد النبوي ، وعهد الخلفاء الراشدين ، وما بعده ، فكانوا خير صُحْب مؤمنين ، ودعاة عاملين .

وفيما يلي دراسة لنداء القرآن ، والأصول التربوية فيه .

(أ) نداء الرب عز وجل :

يُشكِّل نداء الرب عز وجل حيِّزاً واسعاً في القرآن الكريم ، حيث نجد الإنابة والخشوع ، والالتجاء إلى الركن المتين بقوته وعزته ، دُعاء يُعبِّر عن التأثر العميق ، وإعلان الإيمان بالخالق العظيم : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] .

فالدُّعاء مُخَّ العبادَة ، ففيه تضرُّع وخضوع لله تعالى ، وذكر صادق ،

وطلب قضاء أمر من الأمور ، وقد أمر الله عز وجل عباده بالدعاء والذكر ، فقال عز من قائل : ﴿ اَدْعُوْنِيْ اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

ولا نجد أجمل ولا أروع من ساعة إنابة ، يتوجه فيها المؤمن بقلبه إلى ربه ، يرفع يديه إلى السماء ، بفؤاد واجف ، ولسان ضارع ، في لحظة كرب وضيق ، فإذا بالنداء يتوالى هاتفاً : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ثم جاء قوله تعالى مرشداً المؤمنين كي يدعوا ربهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] (١).

فهذا الدعاء رحلة الإنسان الضعيف ، الملتجئ إلى قوة ذي العرش المكين ، أن يمحو الذنوب ، ويخفف الأعباء ، ويعفو ، ويصفح ، ويرحم ، ومن أجدر من الله استجابة لعباده المؤمنين؟!

وفي الدعاء اتصال بالرب عز وجل ، واعتراف بالذنب ، وندم على ما بدّر من الإنسان ، واستعانة بالقوة الإلهية على مشاق الطريق ، وطلب الرحمة ، مع الاعتقاد الجازم بأنه لا معين إلا الله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وحين يشتد الطغيان محارباً الذين آمنوا ، فإذا بأصحاب العقيدة يدعون خالقهم ، طالبين منه منحهم الصبر على الصعاب ، والتجالد في الأزمات ، ومهما اشتد الوعيد؛ فإن المؤمن يحتمي بخالق السماء والأرض ، ولسان حاله يقول : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. كذلك فإن المؤمن يتجه إلى الله يطلب الرحمة والمغفرة ، في خشوع وتبذل ، راجياً

(١) ﴿ إَصْرًا ﴾ : عبئاً ثقيلاً ، وهو التكليف الشاق. ﴿ لَا طَاقَةَ ﴾ : لا قدرة.

الْفَلَاحَ مِمَّنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وَمِنْ سِمَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَنْ قُلُوبُهُمْ مُعَلِّقَةٌ بِاللَّهِ ، مَمْتَلِئَةٌ بِتَقْوَاهُ ، تَخْشَى الْعَذَابَ ، وَتَأْمَلُ الْغُفْرَانَ ، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]^(١).

فَالْخَوْفُ مِنَ النَّارِ دَلِيلُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ ، وَهَاهِي جَمْعُ الْمُؤْمِنِينَ تَنْجِيهِهِ إِلَى اللَّهِ فِي ضَرَاةٍ وَتَوْشُّلٍ ؛ لِيُبْعِدَ عَنْهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ ، وَيُنْجِيَهُمْ مِنْ هَوْلِهَا ، بَيْنَمَا أَفْتَدَتْهُمْ تَخَشُّعُ فِرْعَانَ مِنْ قُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَغَضَبِهِ .

وَمِنْ سِمَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَيْضًا أَنَّهُمْ يَتَتَوْنُ ذُرِيَةً صَالِحَةً ، تَنْهَجُ نَهَجَهُمْ ؛ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ ، وَيَسْتَمِرَّ خَطُّ الْإِيمَانِ فِي الْأَرْضِ ، فَهَمْ يَرْجُونَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]^(٢).

وَهَذَا الدُّعَاءُ فَطَرِيٌّ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، رَغْبَةٌ مِنْهُ فِي الْخَيْرِ ؛ لِتَقَرُّ عَيْنُهُ بِرُؤْيَا الْعَقِيدَةِ تَنْدَاحَ فِي نَفُوسِ الصَّالِحِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ الطَّيِّبَةِ .

وَيُفَوِّضُ النَّبِيُّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرَهُ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَيُنِيبُ إِلَيْهِ ؛ خَاشِعًا ، رَاجِعًا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] .

وَهَذَا الدُّعَاءُ تَسْلِيمٌ لِلَّهِ ، وَتَوَكُّلٌ عَلَيْهِ ، وَإِبْرَازُ لَوْشِيجَةِ الْإِيمَانِ الْمَتَمِّيزَةِ بِالْيَقِينِ ، وَالِاتِّجَاءُ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ بِشُعُورِ إِيْمَانِي فَيَأْخُذُ ، يَنْسَرِحُ فِي رَحَابِ الْعَقِيدَةِ الْمَتَغَلِّغَةِ فِي أَطْوَاءِ النَّفْسِ .

وَالْمَتَّبِعُ لِنَدَاءِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ يَجِدُ أَنَّهُ تَكَرَّرَ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَخَمْسٍ وَعِشْرِينَ مَرَّةً ، وَهَذَا عَدَدُ ضَخْمٍ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا إِبْرَازُ لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَضَرُورَةُ الْإِتِّجَاءِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَمُنَادَاتِهِ فِي مُخْتَلَفِ الْأَوْقَاتِ ،

(١) ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ : لَا زِمًا أَوْ مَمْتَدًا ؛ كَلْزُومِ الْغَرِيمِ .

(٢) ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ : مَسْرَّةٌ وَفَرَحًا . ﴿إِمَامًا﴾ : قُدْوَةٌ وَحُجَّةٌ ، أَوْ أَيْمَةٌ .

فالله قريب من عباده؛ يسمع ، ويرى ، ويحب أن يُنادى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولمَّا كان المؤمن لا يستطيع بلوغَ الكمال في عبادة الله تعالى ، فإنه يدعو ربَّه ليغفر له ذنوبه ؛ فالله سبحانه قد أعطى الإنسان النعم الوفيرة ، وفُضِّلَ عليه بآلائه الكثيرة ؛ لذا لا تبلغ العبادة - مهما سَمَتْ - درجةً توافي نِعَمَ الله تعالى ؛ ومن هنا يرجو المؤمن من ربِّه الاستغفار : ﴿ وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٥].

وفي هذا تربية للاستسلام لرب العالمين ، وحنين مُلِحٍّ دائم ودود بين الرب عز وجل ، وبين عبده المؤمن الذي لا يفتأ يذكر الله تعالى ، تائباً إليه ، راجياً أن يُكَفِّرَ عنه السيئات ، ويدخله الجنة برحمته .

وقد دعا الأنبياء ربَّهم ، وطلبوا منه أشياء متنوعة ، فلتَسِرْ معهم في رحلة الشوق إلى الله ، والإنابة إليه سبحانه ، ففي ذلك تربية للمتعلم ، وأيما تربية .

فها هو النَّبِيُّ إبراهيم عليه السلام يدعو ربَّه أن يجعل مكة بلداً آمناً ، لا يُسْفَك فيه دمُ إنسان ، ولا يُظْلَم فيه أحد ، ولا يُصَاد صَيْدُهُ ، وأن يرزق أهله الرزق الطيب : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ثم دعا ربَّه - بعد أن فرغ من عمارة الكعبة - أن يجعله الله تعالى متقاداً لأوامره ، مستسماً لطاعته ، وأن يُعلِّمه شرائع العبادة ، ويتوب عليه وعلى ذريته : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨] ^(١).

ودعا النبي موسى عليه السلام ربه ؛ حين عصاه بنو إسرائيل ، ورفضوا

(١) ﴿ مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ : متقادين خاضعين مخلصين لك . ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ : عَرَفْنَا معالم حجَّنا ، أو شرائعه .

الانصياع لأحكام الدين ، فأناوب النبي إلى ربه ، وطلب منه العون والمساعدة؛ ليقود القوم إلى الطاعة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥].

وحين استضعف بنو إسرائيل هارون عليه السلام؛ غضب موسى: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وساعتئذ دعا موسى ربه ، وندم على فعلته بأخيه ، وطلب المغفرة والرحمة: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وحين حدث الطوفان ، أبى ابنُ للنبي نوح عليه السلام أن يؤمن ، ﴿ قَالَ سَوَاءٌ إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِي مِنِّي أَلَمَاءُ ﴾ [هود: ٤٣]. فلما أمطرت السماء ، ونبتت الأرض ، وصار الموج كالجبال ، دعا نوحُ ربه أن ينجي ابنه ، فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] وهنا صحَّح الله تعالى وجهة نظر نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَنْفُخُ فِيهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] وهنا أدرك نوحُ عليه السلام سوء ما طلب ، فدعا ربه ، واستعاذ به ، وسأله المغفرة والرحمة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

ويعرض القرآن الكريم تربية العفة من خلال محاولة امرأة العزيز مراودة النبي يوسف عليه السلام عن نفسه ، ﴿ وَعَلَّقَتِ الْأَبْؤُوبَ ﴾ [يوسف: ٢٣] فيأبى النبي الشاب ، ويستعصم بإيمانه ، فما كان منها إلا أن هدَّدت بسجنه وإذلاله ، وهنا بين النبي الكريم أن السجن أحب إليه من ارتكاب الذنب ، ودعا ربه أن يصرف عنه كيد النساء: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]^(١).

(١) ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾: أمل إلى إجابتهنَّ.

وفي جوف الليل دعا النبي زكريا عليه السلام ربّه ، شاكياً حاله ، يطلب أن يرزقه ولداً صالحاً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۚ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٤ - ٥]^(١) فاستجاب الله تعالى دعاء عبده المؤمن ، فقال تعالى: ﴿ يَنزَكِّرْنَا إِنَّا نُنْشِرُكَ بِعِلْمِ أَسْمُؤُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٧].

وفي مكة المكرمة نادى رسول الله ﷺ ربّه أن يشهد حاله ؛ إذ لم يقصّر في دعوة قريش للإيمان ، ولم يأل جهداً في إنذارهم ، لكنهم أعرضوا وأدبروا: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ ﴾ [الفرقان: ٣٠].

وقد تفضّل الله تعالى على النبي سليمان عليه السلام ، وأعطاه ملكاً عظيماً ، فدعا النبي سليمان ربّه ، شاكراً نعمته ، سائلاً رحمته ، وفي هذا تربية على ضرورة شكر النعم: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ آلِي وَإِلَئِي ۖ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۖ ﴾ [النمل: ١٩]^(٢).

(ب) نداء الملائكة:

نادى الله تعالى الملائكة ليُطلعنا على طاعتهم المطلقة ، وخصائص طبيعتهم المنفذة لأوامر الله عز وجل ؛ إذ قال لهم الله سبحانه: ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ۖ ﴾ [الأعراف: ١١]... أمرهم فنقذوا ، ودعاهم فلبوا ، وتلك طريقتهم التي أنشأهم الله تعالى من أجلها ؛ عدم عصيان الله فيما يأمرهم به ، خلافاً لإبليس الذي ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١] فطبيعته مجبولة على التمرد ، والعصيان ، والامتناع.

(١) ﴿ وَهَنَ ﴾: ضعف ورق. ﴿ شَقِيًّا ﴾: خائباً في وقتٍ ما. ﴿ الْمَوَالِيَ ﴾: أقاربي

العصبة ، وكانوا شرار اليهود. ﴿ وَلِيًّا ﴾: ابناً يلي الأمر بعدي.

(٢) ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾: ألهمني وحرّضني واجعلني.

ومن خلال تتبُّع نداء الملائكة في القرآن نجدهم مثال الطاعة ، ونموذج التسليم ، وعدم الاعتراض على ما يُؤْمرون به من قِبَل الذات العلية الإلهية ، فعندما أَرَادَ اللهُ تعالى أن يخلق آدم ؛ لتنفيذ أحكام السماء في الأرض ، أحسَّ الملائكة بأنَّ بني آدم سيعصون الله ، ويُعْرِضُونَ عن ذِكْرِهِ ، بينما الملائكة خُلِقَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ ، ويُثَنِّهُ الخالقَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ، فكأنَّ الملائكة شعروا أنهم أحقُّ بحمل الأمانة ، والقيام بأعياء تكاليف الاستخلاف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وجاء في تفسير الجلالين: ﴿﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾﴾ من المصلحة في استخلاف آدم ، وأنَّ ذريته فيهم المطيع والعاصي ، فيظهر العدل بينهم ، فقالوا - أي: الملائكة -: لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ، ولا أعلم ؛ لسبقنا له ، ورؤيتنا ما لم يره ، فخلق الله تعالى آدم من أديم الأرض - أي: وجهها - بأن قبض منها قبضة من جميع ألوانها ، وعُجِنَتْ بالمياه المختلفة ، وسَوَّاهُ ، ونفخ فيه الروح ، فصار حيواناً حسَّاساً بعد أن كان جماداً^(١).

وهكذا تمَّ خَلْقُ آدم ؛ الذي علَّمه الله تعالى أسماء الأشياء ، ثم طالَبَ تعالى الملائكة أن يخبروه بأسماء المسمَّيات ، فإذا بهم يرفعون لواء الطاعة ، ويدركون أنَّ الله عز وجل يعلم ما لا يعلمون ، وهو سُبحانه حكيم يضع الأمور بدقة وإحكام: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿قَالَ يَتْلُوا آيَاتِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٣].

وفي هذا وغيره من الآيات دلالة واضحة على عظمة الله تعالى ، وأن الملائكة لا يستكبرون عن طاعة مولاهم ، فبمجرد أن يأمرهم ربُّهم يُبَادِرُونَ

(١) تفسير الجلالين (٦).

مسرعين لتنفيذ ما أمر به ، وهذا هو منهجهم ، وتلك هي طريقتهم لا تختلف .
(ج) نداء الذين آمنوا :

جاء الإسلام ليبين الحياة بشكل كامل ، ويُنظّم واقع الإنسان تنظيمًا دقيقًا في مراحلها المختلفة ، فأكد على العلاقات ، والآداب الاجتماعية ، والتكليف . . . وجمع بينها في اتجاه سليم يرتقي إلى الله تعالى في خاتمة المطاف .

ولمّا كان المؤمنون مؤسّسي نظام المجتمع الإسلامي ، كان لا بُدّ من خطابهم ، وإرشادهم ، وتوجيههم ، ورسم الحدود لهم ، وتعليمهم ، وبعث الوازع الأخلاقي في نفوسهم ، وتربية الضمير الديني في صدورهم .

وأخلاق الإسلام عملية ، وعلاقاتها اجتماعية ، وتكاليفه معتدلة ، وآدابه تطبيقية ، ترسم نشاط الإنسان في ميادين الحياة المتعدّدة ، بينما يشعر المؤمن بالواجب المُلقى على عاتقه ، وهو يغدو السير على طريق الله بإخلاصٍ ووفاء .

وقد خاطب القرآن المؤمنين ، وأرشدهم ، وبيّن لهم الأحكام ، واهتمّ كثيراً بتربية أخلاقهم ؛ عن طريق الأمر ، والنهي ، وبيان المباحات .
أولاً : الأوامر :

ومنها :

❖ الثبات والصبر : ﴿ يَتَآيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

❖ القدوة الحسنة : ﴿ يَتَآيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [الصف : ١٤] .

❖ التحفظ في الأحكام : ﴿ يَتَآيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَنَّمَ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَذِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

ثانياً: النواهي:

ومنها:

❖ أفعال تُناقض الأقوال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣] (١).

❖ النهي عن أكل الربا: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

❖ عدم موالة الكافرين: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: ١٤٤].

ثالثاً: المباحات:

ومنها:

❖ التَّمَتُّع بالطيبات: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

ومن الأخلاق التي اهتمَّ بها القرآنُ بشكل عملي؛ ما يتعلقُ بالأسرة ، ومن ذلك:

❖ التربية الأخلاقية للأسرة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقد انطلق الإسلامُ إلى ميدان الواقع ، فأرسي دعائمه القويمة؛ التي انتشرت في عدَّة محاور ، ومن ذلك:

أولاً: المحظورات:

ومنها:

(١) ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: عَظُمَ بُغْضًا بِالْغَايَةِ.

❖ القرض بالفائدة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾
[البقرة: ٢٧٨].

❖ خيانة الأمانة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ﴾
[الأنفال: ٢٧].

❖ السخرية والتنايز بالألقاب: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا ضِرَاءٌ مِّنْ ضِرَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]^(١).

ثانياً: الأوامر:

ومنها:

❖ أداء الشهادة الصادقة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

❖ الوفاء بالعقد: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

❖ تشمير أموال اليتامى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ثالثاً: الآداب العامة:

ومنها:

❖ الاستئذان قبل الدخول على الغير: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ [النور: ٢٧].

❖ حُسن الجلسة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: لا يعبب بعضكم بعضاً. ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾: لا تداعوا بالألقاب المستكرهة.

﴿ استعمل أطيب العبارات : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [الإسراء : ٥٣] ^(١) .

وقد أكد القرآن على الأخلاق الدينية ، وأعطاهما بُعداً عملياً ، وهي أخلاق كثيرة ، منها :

﴿ الإيمان بالله وبما أنزل : ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنَّبِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

﴿ دوام ذكر الله وتسيحه : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٢] .

﴿ التوبة إلى الله تعالى : ﴿ وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وهكذا نلاحظ أنَّ القرآن الكريم نزل ليكون منهج حياة كاملة ، ومنهج تربية صالحة ، وفق معايير ثابتة ، ومقاييس مضبوطة ؛ انطلاقاً من الفطرة الإنسانية ؛ حين يتصل القلب بالنبع الأصيل ، فيهتز الكيان الإنساني ، وتوجُّهاً خالصاً نحو المعرفة الحقة ، فيخالط الإيمانُ النفوسَ ، ويدرك الإنسانُ التعليمات العظيمة للقرآن ؛ مما يؤدي إلى صُنْع الحياة وفق نُظْم الكتاب العزيز ، وآدابه ، وهدايته .

(د) نداء الناس :

ثُمَّ آيات في القرآن الكريم فحواها : نداء الناس كافة ، حول موضوع العقيدة ، وتثبيتها في نفوس البشر ، وما ذلك إلاً للفصل الجازم بين مبدأ التوحيد وعنجهية الباطل ، واستعلاء الحق على قوى الشر ، وتحدياً للمشركين في مواجهتهم بالدعوة الربانية ، وتوجيه النبي ﷺ إلى ترك

(١) ﴿ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ : يُفْسِدُ وَيُهَيِّجُ الشَّرَّ بَيْنَهُمْ .

المشركين يواجهون مصيرهم بعد أن كذبوا دعوة الله . قال عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

[يونس : ٥٧ - ٥٨].

فالقرآن الكريم يعرض فضل الله تعالى بإنزال الفرقان ؛ رحمة للناس ، ونعمة عليهم ، وفي ذلك بيان لجوهر الرسالة السماوية ، وتقرير مسألة الألوهية ، وضرورة عبادة الله وحده .

وتأتي رحمة الله بالناس بإنزال القرآن شفاء لما في الصدور من غلٍّ وحسد وضغينة ، وتحريراً للبشر من عبودية البشر ، وتوجُّهاً خالصاً للخالق عز وجل ، وإعلاءً للقيم الأساسية الإنسانية عند الإنسان ، وهو ينقاد لما جاء من أحكام وتوجيهات إلهية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] أي : لا يشكرون الله على نعمائه ؛ إذ أنزل منهجاً مستقيماً يهدي الناس إلى الحق ، ويُعزِّز مشاعرهم ، ويدفع قواهم للتوازن بين الدنيا والآخرة ، في منهجية فطرية ، تتعامل مع شريعة الله حسب مقتضيات الدين القويم .

وقد نزل القرآن الكريم يخاطبُ الناسَ جميعاً في دعوته ، وُيُبَيِّنُ النبيُّ محمداً ﷺ على يقينه وعبادته ، على الرغم من عناد المشركين وتكذيبهم ، وأتباعهم منهمجهم الضال في عبادتهم من دون الله ؛ ذلك أن عبادة الله ضرورة لازمة ، لا غنى لأيِّ إنسانٍ عنها ، فالخالق عز وجل هو المستحق للخضوع ، والاستسلام ، والتَّوَجُّه ، فلا يجوز الابتعاد عن منهج الله ، بل يتوجَّب الوقوف عند حدود التشريع ، في توجُّه خالصٍ لله ، ووفاء بالعهد ، بينما ينهى القرآن الإنسان عن الشرك بعد الإيمان . قال عز وجل : ﴿ قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٧﴾

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٥﴾ [يونس : ١٠٤ - ١٠٦] ^(١).

وَيُيِّنُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ مُوَكَّلًا بِهَدَايَةِ النَّاسِ ، فَهُوَ رَسُولٌ مَبْلَغٌ عَنْ رَبِّهِ ، وَأَمْرُ الْإِيمَانِ رَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ النَّاسِ وَإِرَادَاتِهِمْ ، فَإِنْ كَفَرَ النَّاسُ ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ ، فَالصَّبْرُ وَاجِبٌ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بِقَضَائِهِ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قُلْ يَتَايَأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٨﴾ [يونس : ١٠٨ - ١٠٩] .

وَفِي مَقَابِلِ النِّعَمِ يَتَوَجَّبُ الْإِيمَانُ . وَلَكِي يَتَغَلَّغِلُ الْيَقِينُ فِي النُّفُوسِ ؛ لَا بُدَّ مِنْ تَذْكِيرِ النَّاسِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالْخَوْفِ مِنْ عَذَابِهِ ، وَمِنْ أَهْوَالِ الْيَوْمِ الْآخِرِ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، وَلَا تُقْبَلُ شَفَاعَةٌ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ نَسِيبٍ ، بَلْ تُوزَنُ الْأَعْمَالُ ، وَيَتَمُّ الْحِسَابُ دَقِيقًا ، فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَقَدْ فَازَ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَتَايَأُ النَّاسُ أَتَقُؤْا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] .

وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي نِدَاءِ النَّاسِ ؛ إِلَى تَذْكِيرِهِمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ بِأَنَّهُ الرَّاغِقُ ، وَيَتَمُّ التَّعَجُّبُ مِنْ انْصِرَافِ بَعْضِ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ الْبَيِّنِ لِكُلِّ ذِي قَلْبٍ ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَتَايَأُ النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] ^(٢) .

وَهَذَا التَّذْكِيرُ تَرْبِيَةٌ تَدْعُو إِلَى الْعِبَادَةِ ، وَشُكْرِ الْمَوْلَى عَلَى نِعَمَائِهِ ،

(١) ﴿ وَأَنْ أَقْدِرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ : اصْرَفْ ذَاتَكَ كُلَّهَا لِلدِّينِ الْحَنِيفِيِّ . ﴿ حَنِيفًا ﴾ : مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ كُلِّهَا .

(٢) ﴿ فَآفَ تُؤْفَكُونَ ﴾ : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِهِ ؟ !

والتوجه إليه وحده بالحمد ، والامتنان ؛ لما أنعم الله به وتفضل ، فلا بُدَّ من الاعتراف بالجميل ، وشكر الإحسان .

ثم إن الإسلام دعوة عالمية للناس كافة ، فقد أمر القرآن النبي ﷺ بإبلاغ دعوته للناس جميعاً ، فدعوة الإسلام لا تختصُّ بجيل ، ولا بعهد ، ولا بقوم ، ولا بأرض ، ولا بزمان ، فهي صافية ، منسجمة مع النفوس ، ملائمة لكل الطبائع ، خالية من الشوائب ، مُبرِّئة من النواقص ، فيها تعليم الناس وإرجاعهم إلى الفطرة السليمة .

ويعرّف القرآن الناس بالخالق ، ويبيّن خصائصه لكل البشر ، فهو الذي يُحيي ويميت ؛ لذا يستحقُّ أن يطيع الناس أوامره ، ويتبعوا منهجه بعبودية خالصة ، صادقة . قال عز وجل : ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

ويذكر الله تعالى الناس بمسألة الخلق ، وأن أصلهم من آدم ؛ الذي خُلِقَ من تراب ، وخُلِقَت ذرّيته من نطفة ، ثم من دم جامد ، ثم من مضغة ، ثم صُوِّر الإنسان تصويراً تاماً ، وكلُّ ذلك ليبيّن الله تعالى كمال قدرته ، وليستدلّ الناس أن القادر على الخلق قادرٌ على الموت ، ثم الإعادة يوم القيامة .

والله سبحانه خلق الإنسان ضعيفاً ، طفلاً يخرج من بطن أمه ، فيعطيه الله القوة والعمر ؛ ليبلغ مرحلة الكمال والنضج والقوة ، فمن الناس من يموت قبل الرشد ، ومنهم من يُعَمَّر فيهرم .

ثم إن الله تعالى قادرٌ على جعل الأرض يابسة ، ثم مزدهرة ، ثم إرجاعها يابسة ، وهو سبحانه قادرٌ على خلق الإنسان ، وإماتته ، وإحيائه يوم القيامة للحساب .

وهذه المعاني ينبغي أن يدركها كلُّ الناس ، قاصيهم ودانيهم ، فيتقوا الله ربّهم ، ويعبدوه مخلصين له الدين . قال عز وجل : ﴿ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي

رَبِّ مَنِ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ
وَعَبْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً
ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ
لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٣﴾
[الحج: ٥ - ٧] (١).

ويُذَكِّرُ الْقُرْآنُ النَّاسَ جَمِيعاً أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُمْ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، وجعلهم
شعوباً وقبائلَ من أجل الاجتماع والتعارف ، وعمارة الكون ، وإقامة
الحضارة ، لا مِنْ أَجْلِ الْفَخْرِ بِالنَّسَبِ وَالْحَسَبِ ، فحقيقة الفخر في الإسلام
بالتقوى ، وبهذا الميزان يتمُّ الفَصْلُ بين الناس ، وتكريمهم عند خالقهم
تبارك وتعالى ، فهو سُحْبَانُهُ الْخَبِيرُ بِهِمْ . يقول عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا
خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ ، ثُمَّ خَلَقَ مِنْهُ حَوَّاءَ ، وبعد ذلك نَشَرَ النَّاسَ
منهما ؛ عن طريق الزواج والتكاثر ، فلا بُدَّ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ ؛ الَّذِي يَرِاقِبُ النَّاسَ
عَلَى أَعْمَالِهِمْ ؛ لِيَجْزِيَهُمْ بِمَوْجِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قال عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ
أَتَقْوَاهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

ولا بُدَّ مِنْ تَذَكُّيرِ النَّاسِ جَمِيعِهِمْ بَعْدُوهُمُ اللَّذُودُ «الشَّيْطَانُ» وَضَرُورَةُ
الابْتِعَادِ عَنْ طُرُقِهِ ، فَهُوَ يُزَيِّنُ الْأُمُورَ ، وَيُوسِسُ فِي الصُّدُورِ ؛ لِيُبْعِدَ الْخَلْقَ

(١) ﴿ عَلَقَةٍ ﴾ : قطعة دم جامدة . ﴿ مُضْغَةٍ ﴾ : قطعة لحم قَدَّرَ مَا يُمَضَّغُ . ﴿ هَامِدَةً ﴾ :
مَيْتَةً ، يَابِسَةً ، قَاحِلَةً . ﴿ وَرَبَّتْ ﴾ : ازدادت وانتفخت . ﴿ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ : صِنْفٌ حَسَنٌ
نَضِيرٌ .

عن عبادة الله تعالى ، ويجعلهم في ضيق وحرَج . قال عز وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨ ﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩] .

وإذا تذكَّر الإنسان أنَّ وَعَدَ الله بالبعث حقَّ وواقع ، حينها يؤمن ، ولا تغرُّه الدنيا بمباهجها ومفاتيحها ، ولا يغرُّه حلم الله تعالى وإمهاله ، وأنه لا يستعجل عباده بالعقوبة ، بل يُعطيهم الأمل ، ويفتح أمامهم الفسحة ؛ ليتوبوا ويُنِيبوا إليه سبحانه . قال عز وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: ٥] .

وحين يؤمنُ الناسُ بالله تعالى ، ويُفردونه بالعبادة ، فإنه غنيٌّ عن خلقه ، لا يحتاجهم ، ومحمودٌ في صنعه وإبداعه ، والناسُ هم المحتاجون ، الفقراء إلى عطاء الله القادر . قال عز وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنَّهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ١٥ ﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ [فاطر: ١٥ - ١٧] .

إذا فخطابُ القرآن للناس كافة إنما المقصود منه تذكيرهم بنِعَمِ الله الكثيرة ، ودفعهم إلى عبادة خالقهم ، والإيمان بعقيدة اليوم الآخر ، وحثهم على تقوى مولاهم ، فالقصد من خلق الإنسان واستخلافه في الأرض ؛ إنما هو العبادة ؛ بدليل قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥١ ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٥٢ ﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] .

إن تربية القرآن للناس هي تربية متنوعة ، تقوم على العناية بتربية خلقهم ، ووجدانهم ، وإرادتهم ، وعبادتهم ، مع تربية أرواحهم ، وبث الفضيلة ، وتعويدهم الآداب السامية ، وتقريبهم من المولى الخالق جلَّ في علاه .

(هـ) نداء بني آدم :

يُذَكِّرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بني آدم بنعمة الله تعالى في اللباس الذي يوارى

العورات ، والرياش المَخَذة للزينة ، ثم يُحذّرهم من الشيطان الذي فَتَنَ أبوي البشر من قبل ، فهو عدوّ لدود عنيد ، فليحذره أبناء آدم لتلا يضلّوا عن منهج الله تعالى .

ونداء بني آدم فيه تذكير بالنشأة الأولى ، وبالضعف الإنساني في مسألة التكليف ، وفي المواجهة مع قوى الشر المتمثلة بالشيطان ، وفيه كذلك الرحلة المديدة من الجنة إلى الهبوط على الأرض . قال عز وجل : ﴿ يَبْنَئْ أَدَمَ فَدَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] (١) .

ويُحدّثنا التاريخ أنّ المجتمع العربي قبل الإسلام كانت فيه سيئات ، ومنها مشاهد العري في الطواف حول البيت العتيق ، فقرش سمّت نفسها حُمسًا ، ويحقّ لهم أن يطوفوا في ثيابهم ، أمّا باقي العرب فيطوفون عُراة ، فمن أعاره الأحمس ثوباً طاف به ، ومن كان عنده ثوبٌ جديد طاف به ، ثم رماه ، فلا يحقّ له أن يأخذه ، وإلاّ طاف عرياناً ، هكذا بلا ثياب ، لا فرق بين رجل وامرأة !

ومشهد العري فاحشة كبرى ؛ لذا لا بُدّ من التنبيه عليها ، والتحذير من الإقدام على ارتكابها ، ولا بُدّ من مناداة بني آدم تذكيراً بأنّ آدم عليه السلام حين عصى ربّه بدّث سواته ، والمجتمع الجاهلي عندما عصى الرحمن ، واتبع خطوات الشيطان بدّث سواته ، فالتاريخ واحد ، والمشهد واحد ، والأسباب واحدة ، والنتائج لا تتغيّر .

ويُذكّر الله تعالى بني آدم بأنّه عز وجل أنزل اللباسَ نعمةً من لدنه ؛ لستر العورات ، ومواجهة لمشهد العري الفاضح المخزي ، وهذا تشريع محكم في نصّ القرآن : ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ أي : فرضنا وشرعنا .

(١) ﴿ يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ ﴾ : يستر ويؤاري عوراتكم . ﴿ وَرِيشًا ﴾ : لباس زينة ، أو مالا . ﴿ وَلِبَاسُ الْقَوَى ﴾ : الإيمان وثمراته .

وفي هذه المسألة تربية ودعوة إلى الحياء والستر والزينة ، واستقباح للعري وعدم الحياء ، فالحشمة دعوة سماوية ، وحُكْم ديني منصوص عليه ، وارتفاع بني آدم عن عالم الحيوان البهيمي ، وكل ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ .

ثم يُنادي القرآن بني آدم: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْمَآ إِنَّهُ يَرْسُكُم هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَنَهُمْ إِنَّا جَمَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلَىٰكَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] .

وهذا النداء رحمةً ببني آدم ، وتحذيرٌ لهم من فتنة الشيطان ، وطرائقه ، وأحابيله ، ودعوةٌ لهم ألاَّ يستسلموا للغواية والشر؛ فالشيطان له وسائله الخفية ، فلا بُدَّ من اتخاذ الحيطة والتوقي واليقظة؛ لمواجهة فتنة العري والتكشُّف .

والشيطان وليُّ الذين لا يؤمنون؛ يستهويهم ، ويطغيهم ، ويؤثر في تصوُّراتهم ، ويتغلغل في حياتهم ، وهذه حالة واقعية ، نجدها عند كثيرٍ من الناس .

ويؤكد القرآن الكريم نداءاته التربوية لبني آدم ، فيقول عز وجل: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ٢١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٢٢ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١ - ٣٣] .

وهذا النداء يخاطب بني آدم جميعاً ، ويدعوهم لأخذ الزينة ، والتمتع بها ، وبالطيبات ، وعدم العري ، وعدم تحريم اللباس الذي يُطاف به حول الكعبة ثم يُرمى ، ويدعو الله تعالى بني آدم لعبادته ، والوقوف عند تشريعه المحكم ، والبعد عن الفحش والمزاعم الباطلة .

كذلك يستنكر سياق النص القرآني تحريم الزينة ، التي أنزلها الله تعالى

استمتاعاً بالطيبات ، وحلالاً من لدنه ، فتحريمها أمراً مُستقْبَح ، لا يجوز لأحد الإدلاء بشيء ما دام الله عز وجل قد أنزل حُكْمه ، وشرع منهجه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وفي هذا ردُّ جازم على مشهد العُري ، والطواف بلا لباس ، وهذا الذي قد حرَّمه الله ، مُتمثلاً فيما يزاوله الجاهليون البعيدون عن المنهج ، وعن الاستقامة ، وهو انحرافٌ عن الفطرة ، وانتكاسٌ في حمأة الجاهلية العارية من القيم الراشدة ، والموازين الصائبة .

ومسألة اللباس قضية شرعية ، فالله تعالى قد شرع لبني آدم ما يصلحهم ، ويقود حياتهم نحو الكمال ، فأنعم عليهم باللباس ؛ مِنْ باب إبراز العنصر البشري ؛ بعيداً عن طوابع عالم الحيوان ، وسماته .

ثم إنَّ اللباس يتعلَّق بفطرة الإنسان ، والحُلُق الرفيع ، ويقبول التشريع من السماء ، وتنفيذ أحكام القرآن ، وكل ذلك يتعلَّق بالعقيدة والربوبية .

وهناك نداء آخر لبني آدم يتعلَّق بقضية تلقي الأوامر ، وأتباع الشرائع ، وتحديد الجهة والمصدر . قال عز وجل : ﴿ يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٥ - ٣٦] .

وفي هذا دعوةٌ إلى اتباع منهج الله ، وما جاء به الرسل من تحريم الفواحش ، والدعوة إلى تحليل الطيبات ، فالله تعالى هو المشرِّع ، فمن آمن وأصلح فله الجنة ، ومنْ أعرض وكفر فالنار أولى به .

وقد أمر الله تعالى بني آدم على لسان الرسل أن يعبدوه ، ويُطيعوه ، ويعرضوا عن الشيطان ، فهو يُوقِع بينهم العداوة ، فمن واجب الإنسان أفراد الله بالوحدانية . قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَیْ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۚ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١] .

وهذا وغيره مما يتعلّق بالعقيدة والتشريع ، وأنهما من اختصاص الله عز وجل ، وما على البشر إلّا اتباع الحق ، والأخذ بالمنهج القويم ، وبمعطيات التربية القرآنية .



الفصل الثاني

أصول التربية في نداء القرآن

إنَّ المتَّبِعَ لآيات النداء في القرآن الكريم ، والموجَّهة للمؤمنين ، يلاحظ أنها تضمَّنت أصولاً تربوية بليغة ، تغذي العواطف ، وتؤثر في المشاعر؛ مما يدفع بالنفس المؤمنة للارتقاء والشُّمو في مجال التفكير السليم ، والتصرف الحسن ، والتعامل السَّديد .

وإنَّ دَلَّ هذا الأمر على شيء ، فإنما يدلُّ على عظمة الإسلام ؛ كرسالة نور تشعُّ بضياء المعرفة ، وتحرِّر النفوس من التقليد والتبعية والأوهام ؛ وصولاً إلى التَّعلُّم المتقن ، ورَفْع جاهزية المرء في ظلِّ التعاليم الإسلامية .

وستتَّبَع - بإذن الله - نداء القرآن في المجالات التالية :

١ - النداء القرآني .

٢ - التذكير الوعظي .

٣ - العبرة بالقصص .

(١) النداء القرآني :

ونلاحظ فيه عدة أنواع :

أ - النداء التعبدي : والقصدُ منه توجيهُ سلوك المؤمنين للعمل بما تتطلبه أوامر القرآن ؛ في مجال العقيدة ، وإثارة التفكير ؛ للتحرك في إطار التشريع ، والاتجاه بقلبٍ صافٍ للتعامل مع الدين ، وفَهْم طبيعته ، والقيام بالأمانة

الكبرى؛ أمانة العقيدة في الضمير وفي السلوك؛ بمنهج مبارك يحقق مستلزمات الألوهية والتوحيد.

وقد جاء النداء التعبدى في القرآن الكريم على عدّة أنواع ، ويأتى في المقدمة: نداء الذين آمنوا. وسنقتصر على إيراد طائفة من الأوامر والنواهي التي حُوِطَ بها المؤمنون ، ومن ذلك:

* القيام بالتكاليف:

- نداء أمر المؤمنين بالصلاة يوم الجمعة ، وتعليمهم ما يتعلق بهذا اليوم المبارك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩٠ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩ - ١٠].

- نداء أمر المؤمنين بقتال الكفار وجهادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

- نداء أمر المؤمنين بالثبات عند لقاء الأعداء ، والتزود ب زاد النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦] (١).

- نداء أمر المؤمنين للاستجابة لله والرسول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

* نداء أمر المؤمنين ليطيعوا الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

(١) ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: تتلاشى قوتكم أو دولتكم.

- نداء لفرض الصيام على المؤمنين ؛ لما فيه من اتقاء المعاصي وكسر حدة الشهوة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ تَنَفُّونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

وهذه التكاليف وغيرها دعوة تربية للقيام بها ، وتمثلها واقعا عمليا ، وتنفيذ مضامينها ، فالعمل في الإسلام يقوم أولاً على الطاعة لله عز وجل ، وإظهارها استسلاماً مطلقاً للخالق المولى ، ثم تأتي الأوامر لتحريك وجدان المسلم ، وإلقاء التبعات على كاهله ؛ لتكون النهاية فلاحاً في الدنيا ، وفوزاً في الآخرة .

✽ اجتناب النواهي :

- نداء نهى المؤمنين عن موالاة الأعداء ، وتبصيرهم بحقائق موقفهم ، وتحذيرهم من حبال الأعداء : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَقْعِلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۚ إِن يَتَقَفَّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ نَكْفُرُوا ﴾ [الممتحنة : ١ - ٢] ^(١) .

- نداء نهى المؤمنين ألا يكونوا كالمنافقين في تهريبهم من القتال ، وفهمهم الأمور على غير حقيقتها : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] ^(٢) .

- نداء نهى المؤمنين عن تحريم الطيبات والاعتداء : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزِنُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْدُوا ﴾ [المائدة : ٨٧] .

- نداء نهى المؤمنين ألا يُبْطِلوا صدقاتهم بالمن والأذى ، وعدم مراعاة

(١) ﴿ يَتَقَفَّوْكُمْ ﴾ : يظفروا بكم ، أو يصادفوكم . ﴿ وَيَبْسُطُوا ﴾ : يمدوا .

(٢) ﴿ ضَرَبُوا ﴾ : سافروا للتجارة أو غيرها فماتوا . ﴿ غُرًى ﴾ : غزاة مجاهدين فاستشهدوا . =

الناس: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُطْلَوْنَ أَصْدَقَتْكُمْ يَالْمَنَ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

- نداء نهى لإثارة الحذر النفسي ، واليقظة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

إن مسألة النهي في الإسلام تدفع المؤمنين للطاعة؛ إذ تجعلهم يقفون على التحريم ، بعد أن أعلنوا إذعانهم لله وحده ، فلا يسعهم الاختيار بعد أمره ونهيه ، وبالتالي يأتي النهي لاستجاشة قلب المؤمن ، وتذكيره بالإيمان ، والتزامه بالطاعة. وكل ذلك يأتي في سياق مؤثر ، له إيقاع رائق؛ ليفتح القلوب ، ويبدد عتمة الضلال.

❖ الحث على التخلق بالصفات الحميدة:

- نداء أمر المؤمنين بتقوى الله ، والإيمان برسوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]^(١).

- نداء أمر المؤمنين بالتقوى ، واليقظة الدائمة ، والحذر من نسيان الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨ - ١٩].

- نداء أمر المؤمنين بالتقوى ، والقول السديد الصادق ، وطاعة الله والرسول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

وهذه الأخلاق ، وتلك الصفات وغيرها؛ تحث المؤمنين على الشمو بتفكيرهم ، وتعاملهم ، وسلوكهم ، فإذا بهم يخلصون في توجههم نحو

(١) ﴿كِفْلَيْنِ﴾: نصيبين.

الحق ، ويستوفون شروط الإيمان ، فيكون تحرُّكهم عقيدة ربانية ، ومشاعر
سمحة ، وروابط ودّية ، فالمسلم نموذجٌ كامل للفطرة الإنسانية ، ابتداءً من
الإيمان الفطري وانتهاءً بالإيمان المدرك الواعي .

(ب) النداء التذكيري :

وهو أنواع :

- تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم : ﴿ يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧] .

- تذكير المؤمنين بنعم الله عز وجل ، وفضله عليهم : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾
[المائدة : ١١] .

- تذكير الناس بنعم المولى عليهم ، كرزقهم المتواصل من السماء
والأرض : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٣] .

وللتذكير أثر عميق في قيعان النفس ، حيث يقف المرء أمام النعم التي
أولاه الخالق إيّاها ، فيتمعّن ويتدبّر فضل الله تعالى ، فيندفع إلى العمل
الصالح ؛ لأنّ النعمة تستوقف القلب ليستشعر إيقاعها الموحى ؛ حين تتصل
النفسُ بخالقها ؛ من خلال الحسّ الإيماني .

فمنهج القرآن في النداء التذكيري واضح ؛ في تتبّعه للمشاعر والانفعالات ،
وتأكيدها على دورها في إيجاد حالة من التأثّب النفسي ، والاستعداد للتخلّي
بمكارم الأخلاق ، والاندفاع نحو التطبيق والاستقامة .

(ج) النداء التنبيهي :

وهو عبارة عن سؤال من قِبَل الخالق تعالى ، ثم تأتي الإجابة عليه ؛ تنبيهاً

لأهمية السؤال ، وإثارة الانفعالات النفسية لتتبع أطواء الجواب ، ومن ذلك :

- نداء هتاف يدعو المؤمنين إلى أرباح تجارة في الدنيا ، وهي تجارة الإيمان والجهاد : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّقِ شُجَيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ۖ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ [الصف : ١٠ - ١٣] .

- نداء أمر للمؤمنين باجتناب الظن ، والتجسس ، والغيبة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

- نداء نهى المؤمنين عن موالة الكفار ، والضالين ، ودعوتهم للانفصال عن أعداء الله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ ۖ ﴾ [المائدة : ٥١] .

(د) النداء العاطفي :

وهو كثير في القرآن الكريم ، ومنه :

- نداء أمر بالتقوى ؛ التي هي زاد القلوب : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۖ ﴾ [الأنفال : ٢٩] ^(١) .

- نداء نهى عن اليأس من رحمة الله : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَاسَرُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۖ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

(١) ﴿ فُرْقَانًا ﴾ : نورا ، أو نجاة ، أو مخرجاً .

- نداء أمر للمؤمنين بتقوى الله ، وتخويفهم من أهوال مشاهد البعث : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج : ١] .

- نداء أمر للمؤمنين بالتوبة ، وتصوير الجنة التي يستحقها الثابون : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم : ٨] .

٢ - النداء الوعظي :

«وهو أن يعيدَ الواعظُ إلى الذاكرة معاني وذكريات ، تستيقظ معها مشاعر ، ووجدانات ، وانفعالات ، تدفع للمبادرة إلى العمل الصالح ، والمسارة إلى طاعة الله وتنفيذ أوامره ، وهذا يقتضي أن يكون في ذكريات الموعوظ ووجدانه ما يعتمد عليه الواعظ من إيمان بالله ، وخوفٍ من الحساب ، ورغبة في الثواب .

وللتذكير وسائل أهمها :

* التذكير بالموت .

* التذكير بالمرض .

* التذكير بيوم الحساب»^(١) .

أ - التذكير بالموت :

قال الله عز وجل :

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠] .

- ﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدِينَ﴾ [النساء : ٧٨]^(٢) .

(١) أصول التربية الإسلامية ؛ للنحلاوي (٢٨٣) .

(٢) ﴿بُرُوجٍ﴾ : حصون وقلاع ، أو قصور . ﴿مُسَيَّدِينَ﴾ : محكمة ، أو مطوَّلة مرتفعة .

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء : ٣٥].

- ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ تَحِيدُونَ﴾ [ق : ١٩].

ب - التذكير بالمرض والمصائب :

قال الله تعالى :

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة : ١٥٥].

- ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٨٦].

- ﴿وَنَبْلُوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥].

- ﴿وَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ [محمد : ٣١].

ج - التذكير بالآخرة ويوم الحساب :

قال سبحانه وتعالى :

- ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنْفُسًا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان : ٣٣].

- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسًا مِّمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة : ٢٥٤] (١).

- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران : ٩].

والتذكير الوعظي يوقظ الانفعالات النفسية ؛ كالخوف من الله تعالى ، ومن عذابه ، وتفهم حقيقة الحياة ، فإذا بالعواطف الإنسانية تتربى في مدرسة التهذيب القرآني .

(١) ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ : لا مودة ولا صداقة .

كذلك يفيد التذكير في التأثير في النفوس ، فتزكو النفس ، وتطهر من الشوائب والأدران ، وتنبأ عن اقتراف الفواحش والموبقات ، وفي ذلك تربية حسنة أولًاها القرآن الكريم أهمية بالغة .

(٣) - العبرة بالقصص:

تُشكّل القصصُ في القرآن ظاهرة تربوية فريدة ، تُحرّك العواطف ، وتُثمي الفكر ، مُثيرة التأمل والنَّظَر والاعتبار؛ من أجل التذكّر ، والتفكير السليم ، وتربية النزوع الأخلاقي في السلوك والحياة .

وفي قصص القرآن عبرٌ ودروس بالغات. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فقصة النبي موسى عليه السلام تحكي كيف يقف الإيمان في وجه الطغيان ، وكيف تتدخل العناية الإلهية لتأخذ بأيدي القلة المستضعفة ؛ لتربيهم ، وتمكن لهم الدين الذي ارتضاه المولى لهم . يقول الله عز وجل : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ١ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ٢ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ ٣ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٠ - ٤٣] .

وقصة النبي نوح عليه السلام تقصُّ مواجهة الإيمان مع الكبراء الكفار في نظرتهم الضيقة ، ونفوسهم الضئيلة ، وقلوبهم المتحجرة ، وعندها يتوجه نوح إلى خالقه قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونُ ﴾ [المؤمنون : ٢٦] ففي هذه القصة ألوان من العبر والتقويم والتوجيه . يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٠] .

وقصة النبي إبراهيم عليه السلام فيها نبأ المشركين الذين بقوا على دين آبائهم ، فقلّدوهم ، وعبدوا الأصنام ، وحاربوا الفئة المؤمنة ، فجاءت

القصة تتَّجه بالعبادة إلى الله وحده ، وتجاوز الكفار حول مسألة العقيدة ، ففي ذلك عبرة واضحة . قال عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ . . . الآيات [الأنبياء : ٥٢] .

وقصة ثمود فيها تخويف من سلب النعمة التي وهبها الله تعالى لعباده ؛ كي يؤمنوا به ، ويُخْلِصُوا له الدِّينَ ، لكنهم يَحْيَوْنَ في غفلة ، ورخاء ، ودعة ، فيأتيهم الإنذار من النبي صالح عليه السلام ، بَيِّنْدَ أنهم لم يؤمنوا . وفي هذا عبرة للمعتبرين . قال الله تعالى : ﴿ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ وَفَرَعُونَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرْصَادٍ ﴿ [الفجر : ٩ - ١٤] .

وقصة قوم النبي لوط عليه السلام تربية ضد الخطيئة الشاذة يأتیان الذكور وترك النساء ، فهذه القصة تحارب الانحراف عن الفطرة ، وتردُّ الشاردين إلى جادة الحكمة والصواب . وفي هذا عبرة بالغة . قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ طَاءَ آيَنُنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحَّيْنَاهُ مِنْ آلِ قَرْيَةٍ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٤] .

وقصة عاد تحكي وقائع المفاصلة بين المؤمنين والمشركين ، وأنَّ النصر حليف الذين آمنوا ؛ حين أعطوا ولاءهم لخالفهم ، وانقادوا لأوامره ، ودانوا له . قال تعالى في معرض التهديد والإنذار لهم ، ونجاة المؤمنين ، وعذاب الكافرين : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود : ٥٨] .

إلى ما هنالك من قصص قرآنية ؛ تجعل الإنسان المتأمل يتوصَّل لمعرفة الحق من خلال الاعتبار والتدبُّر ، فيخشع قلب المؤمن ، ويتوجَّه السلوك نحو الغاية المرجوة .

وكانت التربية القرآنية تطهيراً لنفوس الصحابة ومن جاء بعدهم ، وتركبة لقلوبهم وأرواحهم ، وهذا ما دفعهم إلى اتباع رسول الله ﷺ ، فكانوا قمماً سامقة ، وذروة في الإيمان ، والخُلُق ، والعبادة ، والسلوك ، وفرغت

نفوسهم من حظوظها ، وبذلوا جهدهم لإعلاء كلمة الحق ، فحدّثنا التاريخُ أنهم كانوا أمناء على العقيدة ، وأمناء على السلطان الذي وُضِعَ في أيديهم ، فعمروا الدنيا ، وآثروا الآخرة ، وصاغوا الإسلامَ نظاماً في شعائهم ومشاعرهم ، فحكّموا شرعَ الله في حياتهم ، وأخلصوا الله عز وجل في نياتهم وسلوكهم ، وخاضوا معركة الحياة على كل الأصعدة؛ ببسالة ، وقوة ، وقدرة على المواجهة والتحدي والثبات .

وأدّت التربية القرآنية إلى إيجاد أسر مسلمة ، تُجسّد مفاهيم الإسلام في حالها وأقوالها وأفعالها ، وما الفتوحات الإسلامية إلا نتيجة لتربية عظيمة ، آتت أكلها يانعة في كل حين ، فساد الأمن والأمان ، وانتشرت المعاهد العلمية ، وانطلقت جحافل المسلمين تدكّ عروش الظلم والمعتدين ، وخفقت راية لا إله إلا الله عالية في الآفاق .



الفصل الثالث

منهج القرآن الكريم في التربية

إنَّ أهمَّ ظاهرة يتَّسم بها منهجُ القرآن في التربية هي: الشمولية ، فتربية القرآن لا تختصُّ بجانب واحدٍ من جوانب الإنسان أو الحياة . وإنَّ إلقاء نظرة على معنى التربية عند بعض المفكرين يدُلُّ على اختلاف مناهجهم ومنطلقاتهم ، كما يوحى بعناية كل مفكر بجانب ما ، وبناء النظرية التربوية وفُقهه . فـ «بيترز» يوجِّه نحو الأفضل ؛ إذ التربية عنده توجيه نحو الأفضل من منطلق أخلاقي مثالي ، يشمل النواحي العقلية والأخلاقية والجسدية .

وتجاوز «كانط» «بيترز» حيث ذكر أنَّ بذور الكمال موجودة لدى الإنسان ، وتأتي التربية لتنمِّي كل ما تستطيعه من كمال روحي وعقلي ، مع مسحة أخلاقية .

والتربية عند «فيخته» هي الأعمال التي تحقق جوهر الكائن الإنساني ، فلدى الإنسان صفات تجعله يتميَّز بها عن الكائنات الأخرى ، ويعني بجوهر الإنسان: العقل والأخلاق .

أما «جولي» فقال: إن التربية هي الجهود التي تُيسِّر للفرد الامتلاك الكامل لمملكاته . فهو يركِّز على ما في الإنسان من استعدادات ؛ للسيطرة عليها ، واستخدامها استخداماً تاماً . فالتربية تُحسِّن استخدامنا للعمليات أو الوظائف العقلية .

وعرَّف «دوركهيم» التربية بأنها عمَلُ جيل الراشدين في الصغار لإعدادهم

لحياة المجتمع. أي: يتصوّر أن الحياة الاجتماعية فيها أجيال ، ويمكن التمييز بينها على أساس معيار النضج. وهناك فئات لم تبلغ مرحلة النضج ، ولا يمكن أن تُسيّر أمورها ، ولا أن تتكَيّف ، فهي بحاجة إلى عون ، وتأتي عمليات التربية لتقدّم هذا العون ، ويستمر النضج مع الحياة.

وجعل «ديوي» التربية نمواً وتوجيهاً وتكثيفاً ، فالتربية عملٌ يُوجّه النمو نحو أهداف مناسبة للحياة والمجتمع ، ويكون دور التربية في توجيه نماء الفرد^(١).

أمّا التربية في القرآن الكريم فهي فريضة ربانية ، يحملها الجيل السابق إلى الجيل اللاحق، ويؤدّيها المربون للناشئين ، فهي تربية على الإيمان بالله تعالى ، والاستسلام لأوامره سبحانه ، وتهذيب النفس الإنسانية على الأعمال الصالحة ، وتربية المجتمع على التواصي بالخير والحق والعبادة. ولئن أخفقت الفلسفات التربوية الغربية في إنقاذ الطفولة من شقائها وضياعها ، فإن التربية الإسلامية تخلّص الطفولة من مظاهر الضياع ، ومن الذل والاستبداد؛ بما تخرسه في نفوس بني الإنسان من معاني العزة والكرامة والإباء.

وتربية القرآن شاملة ، فهي تجمع بين العبادة الحقّة والسلوك القويم ، وتهتم بالفرد وبالمجتمع ، وتُعنى بالعقيدة الصحيحة ، وتدعو إلى العمل لعمارة الكون ، وتشيد صرح الحضارة البنّاءة ، من خلال الاهتمام بجوانب النفس كلها ، وعبر كل الميادين الحيوية ، إضافة إلى اتصاف التربية الإسلامية بالاستمرار وعدم التوقف ؛ لمواجهة تحديات الواقع ، والعمل على إعداد الإنسان للحياة الدنيا وللحياة الآخرة؛ من خلال توازن سلوكي يحقق قضية الاستخلاف في الأرض والفوز في الدار الآخرة.

(١) هذه الأقوال والتعريفات التربوية؛ موجودة عند يوسف بدوي في أوراق خاصة ، كتبها سنة ١٩٨٥ م ، نقلا عن أستاذ التربية ، عندما كان طالباً في كلية التربية ، قسم «الدبلوم» - جامعة دمشق.

ويقوم المنهج التربوي في القرآن على أساس الشمول ، فهو يُعنى بالتربية العقلية والوجدانية والاجتماعية والنفسية والعاطفية والجسمية . . . لإخراج الشخصية المسلمة المتكاملة .

وسنأخذ بتوضيح جوانب منهج القرآن في التربية ، وَفُق الركائز التالية :

(أ) التربية العقلية .

(ب) التربية الروحية .

(ج) التربية الوجدانية .

(د) التربية العاطفية .

(هـ) التربية الجسمية .

(أ) التربية العقلية

نزل القرآن الكريم مُحَرَّراً للعقول الإنسانية من ظلمات التقليد والتبعية والكهانة ، ودعاها إلى التفكير السليم ، والتدبُّر الأمل ، والتمعُّن في خَلْق الله عز وجل ، فكانت دعوة القرآن إلى استخدام العقل استخداماً جيداً لكل عمليات التفكير من : إدراك ، وانتباه ، وحفظ ، وتذكُّر ، وتخيل ، وتجريد ، وتعميم ، وتحليل ، وتركيب ، ومحاكمة ، وإبداع . . .

وكانت المحاور التي اعتمدها القرآن للتربية العقلية متنوعة ، وأهمها :

❖ القصة :

استخدم القرآن معظم أنواع القصص ، كالقصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها ، ويمثل هذا النوع : قصص الأنبياء ، وقصص المكذِّبين بالرسالات ، وما أصابهم من هذا التكذيب ، كقصة النبي موسى وفرعون ، والنبي عيسى وبني إسرائيل ، والنبي صالح

وثنمود ، والنبي هود وعاد ، والنبي شعيب ومدين ، والنبي لوط وقريته ،
والنبي نوح وقومه . . .

كما استخدم القرآن القصة الواقعية ؛ التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية ،
فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين ، أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك
النموذج ، كقصة ابني آدم .

أمّا القصة المضروبة للتمثيل ، فهي لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها
يمكن أن تقع في أية لحظة ، وأي عصر من العصور ، كقصة صاحب
الجننتين^(١) .

وهي قصص تربوية توجيهية ؛ لإنشاء حياة إنسانية كاملة . ويلاحظ المطلع
على تلك القصص أن لها طريقتين :

الأولى : طريقة عرض الأحداث والمشاهد بشكل تقريرى .

والثانية : طريقة الحوار بين شخصيات القصة . وهو حوارٌ فيه نقاش
 وجدال ، وعرض وجهات النظر لكل الشخصيات ، من خلال الأدلة
 والحجج والبراهين . ومن مزايا هذه الطريقة : تربية العقل على التفكير
 الموضوعي . ولنأخذ مثلاً على ذلك من القرآن الكريم ، من خلال قصة النبي
 إبراهيم مع الملك المتعنت ، المنكر لوحداية الله في ألوهيته وربوبيته . قال
 عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
 رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ
 الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
 [البقرة : ٢٥٨] ^(٢) .

فهذا الملك يجادل في الله جدال المتكبرين ، وقد آتاه الله سبحانه القوة
 والسلطة ، فطغى وبطر ، وتسلب وتجبّر ، وكان من الطبيعي أن يؤمن بربه ،

(١) منهج الفن الإسلامي ؛ لمحمد قطب (٢٣١) .

(٢) ﴿ فَبُهِتَ ﴾ : غلب وتجبّر وانقطعت حُجَّتُهُ .

ويشكر النعم ، ويعترف بألوهية الله عز وجل وحده ، لكنه استخدم نِعَمَ الله من أجل الحجاج والجدال في الله ، فادّعى أنه يملك حقيقة الحياة والموت وسرهما ، فجاء التعبير القرآني يُنكر عليه هذا الادعاء ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ۖ إِنَّهُ ﴾ .

وأمام تعنت الملك ، وجداله بالباطل ، ونقاشه العقيم ، بين النبي إبراهيم أن الله عز وجل هو الذي يملك سرَّ الحياة والموت ، وبيده نواصي المخلوقات ، ولا يشاركه في ذلك أحد ، فقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

إلا أن الملك ادّعى أنه المتصرّف في العباد ، يقتل من يشاء ، ويعفو عمن يشاء ، فهو قادر على إنفاذ أوامره ، وما على الناس إلا أن يذعنوا لرغباته ، ويحققوا متطلباته ، فقال : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ . وهنا قطع النبي إبراهيم عليه السلام هذا الجدال بحجة دامغة ، وبرهان ساطع ، جعل الملك المتعنت يسقط في يده ، وتعلوه مقارع الحجة التي لا ترد ، فلفت انتباهه إلى ظاهرة كونية ساطعة ، إنها الشمس في طلوعها وغروبها ، فتحدّاه أن يغيّر مجرى السنن الكونية ، والنواميس الثابتة ، فقال إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ .

وأمام هذا التحدي ، حار الملك المتعنت ، ولم يستطع أن يفعل شيئاً ، بيّد أنه استمرّ في جبروته وجداله وبُعده عن الحق ، فلم يتلمّس طريق الهداية ، ولم يقصد الوصول إلى سواء السبيل ؛ لذا بقي رمزاً للجدال والضلال والعناد ، وبقيت هذه القصة زاداً للدعاة إلى الله ، وحجة عقلية لمواجهة المنكرين ، وتدريباً للعقل على تفتيق الحجج ، وإيراد البراهين ، والآيات الدالة في حقيقة الأنفس ، حيث يوجد سرُّ الحياة والموت ، وفي حقيقة الكون ، حيث تنهادى حقيقة طلوع الشمس وغروبها .

وفي موقف آخر يستخدم القرآن القصة الحوارية للبرهنة العقلية ، حيث أخبر الله عز وجل أن قوم النبي إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام ؛ التي لا تنفع

ولا تضر ، فعطّلوا عقولهم عن مهمتها الأساسية وهي التفكير الحر ، والنظر في آيات الله ، وخلقّه العظيم ، وصولاً إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، ومن هنا جاء دورُ النبي إبراهيم عليه السلام يُنكر على عبّاد الأصنام اتجاّهم الضال ، وعبادتهم المنحرفة ، وعقيدتهم الزائغة ، فكان أسلوبُ النبي الكريم فتحاً لمغاليق الفكر ، وثورةً على شلّل التفكير ، وحجر العقول ، وفساد الفطرة وانحرافها عن العجادة السوية ، وكانت المناظرةُ الإبراهيمية موعظة بالغة لمن شاء أن يستقيم ، أو يهتدي بهدى الخالق العظيم .

بدأ النبي إبراهيم عليه السلام بإنكاره على قومه عبادة الأوثان ، وصعّر شأنها ، وتعجّب من تعطيل العقل لمصنوعات لا تنفع ولا تسمع ولا تعقل ، فبيّن عدم صلاحيتها؛ قائلاً: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] . فما كان جواب قومه إلا حُجّة داحضة ، وهبوطاً إلى درك التقليد ، وإغلاق منافذ المعرفة والنور ، فقالوا: ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٣] وهنا حَمَلَ القرآن بشدّة على الغافلين ؛ الذين أوقعوا أنفسهم في دائرة التحجر الضيقة ، وضمن قالب التقليد العقيم ، وبيّن أنّ الأصنام مجرّد تماثيل ، وليست بآلهة ، فعبادتها مُستنكرة ، والانكباب المستمر عليها لا خير فيه ، وهؤلاء القوم وآباؤهم كانوا ضالين ، بعيدين عن الحق والخير والصلاح والصواب ، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَتْرَوْا أَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤] .

إن موقف النبي إبراهيم عليه السلام إزاء الأصنام ، وتنقّصه لها ، وتبرّؤه من عبادتها ، لهو خير دليل على بطلان ادعاء عبّاد الأصنام بكونها آلهة تنفع وتضر ، فهي لم تؤثر في النبي إبراهيم ، وهذا برهان على سوء ما يعبدون ، وحجة قاطعة تؤيد الحوار العقلي ، والبرهنة الفكرية .

وانطلقت أسئلة عبّاد الأصنام تترى ، تدل على حيرتهم ، وتقليدهم ، وموقفهم الذي يخبط خبط عشواء ، فسألوا إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥] وكان جواب النبي إبراهيم جواب

الواثق برّبه ، المطمئن إلى صحة الفكر الحق : ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٦] ^(١) . فبيّن أن العقيدة الصحيحة هي الإيمان بالله ، واليقين بوحدانيته عز وجل ، فلا يستحق العبودية أحدٌ إلا الله ، فاطر السموات والأرض ، فكل شيء ينطق بوجود الله الخالق المدبّر المنظّم ، الذي أتقن صنعه ، تبارك وتعالى رب العالمين .

لكنّ قوم إبراهيم عليه السلام أغلقوا بصائرهم عن اتباع الحق والصراط المستقيم ، ولجّؤا في شركهم المقيت ، وبقوا على تقليدهم الجامد؛ الذي لا يقوم على علم ، ولا يستند إلى دليل أو برهنة عقلية ، فما كان من النبي إبراهيم إلا أن أعلن مواجهته للأصنام وعبادها؛ فقال : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوهُم مَّدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧] فأراد إبراهيم عليه السلام أن يُقيم عليهم الحجة الفعلية بعد أن أعرضوا عن الحجة العقلية ، إذا كسر أصنامهم ، وجعلها حطاماً ، إلا الصنم الكبير ، فقد أبقى عليه ؛ لعلهم عندما يعودون إليه يسألونه عما حلّ بهم ، وهو حاضر لم يستطع أن يدافع عن التساثل الصغيرة ، أو لعلهم يعودون إلى صوابهم ، فيفكرون ويدركون أن تلك الأصنام لا خيرَ فيها ، وعبادتها تهافت وتناقض ؛ إذ كيف تُعبد وهي لا تدفع عن نفسها الأذى؟! قال عز وجل : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٨] ^(٢) . وفي هذا تفرّيع لهم ، وتوبيخ لأفعالهم ، وتبكيّت لها .

وعاد القوم ليروا ما حلّ بمعبوداتهم ، وهالهم المنظر ، فغضبوا ، وكثر اللغظ والتساؤل ، وقالوا : ﴿ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٩] وهذا دليلٌ جهلهم ، وقلة عقولهم .

(١) ﴿ فَطَرَهُمْ ﴾ : خلقهن وأبدعهن .

(٢) ﴿ جُودًا ﴾ : قطعاً وكسراً .

وتناهت أصوات تقول : ﴿ سَمِعْنَا فَنَقُولُ لَكَ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٠] أي : يذكر الأصنام مُعِيباً لها ، مُتَنَقِّصاً من قدرها ، مزرياً عليها ، فلا شك أنه هو الذي كسرها وفتتها .

﴿ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦١] وعندما جيء إبراهيم ووجه بقولهم : ﴿ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلهًا فَهَؤُلَاءِ يَسْتَفِيزُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٢] . وتعجب إبراهيم من سؤالهم ، ومضمونه ، فما زالوا يعتبرون تلك التماثيل آلهة بعد أن صارت فئاتاً صغيراً ، وجذاذاً مهشماً ، فتهكّم بهم ، وسخر منهم سخرية لازمة ، وعاب عليهم طريقة تفكيرهم ، فردّ عليهم ردّاً يناسب مستوى عقلهم وتفكيرهم السخيف : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلُوا كَبِيرُهُمْ هَذَا فَفَسَلُوهُمْ أَنْ يَبْهَتُوا بِمَا قِيلَ لَهُمْ مِنْ عَدُوٍّ لَهُمْ ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وأراد بقوله هذا أن يعترفوا بأن تماثيلهم لا تنطق ، وبالتالي يُقرّوا بعجزها ، فهي جماد لا تحسّ ولا تفكر . لكنهم أعرضوا عن التدبر والتمعن ، وقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٥] وعجبوا كيف يدعوهم إبراهيم كي يسألوا التماثيل عن حقيقة ما جرى لها ، وهي لا تنطق ، ولا تملك من أمرها شيئاً .

وأمام قول المشركين واجههم إبراهيم عليه السلام بالحق ، واستنكر بُعْدَهُم عن عبادة الخالق المولى ، المستحق للعبادة ، وخضوع الناس له ، واستسلامهم لأوامره ونواهيه تبارك وتعالى ، فقال : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٦٦ - ٦٧] فالتماثيل مصنوعة ، فكيف يعبد الناس شيئاً صنعوه بأيديهم؟! وكيف يؤلّهُون منحوتاتٍ يُشكّلونها كما يريدون؟! إن هذا لهو السخف بعينه ، والضلال بذاته ، والبعد عن التفكير السليم ، والتعقل القويم .

وهذه القصة تربية بالحوار ، وهي أكثر ما تكون في القصص الطويلة التي تتسع للجدال . والقرآن يختار من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحية ، فيصوغها في عبارات موجزة بليغة ، تفيض حكمة ورشداً؛ فيما يجري على

ألسنة الهداة ، ودعاة الحق ؛ الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء ، أو ضلالاً وزيفاً فيما تنضح به القلوب المريضة ، والنفوس المنحرفة^(١) .

وفي الحوار نجد تحرّي الصواب ، والآراء السديدة ، ورغبة المناقش في إيراد الحجج الدامغة ؛ وتربية العقل على المحاكمات الصائبة ، والتفكير السليم ، وصولاً إلى كُنه الحقيقة بأسلوب سديد ، ينضح بالحق ، ويتفجر بالصدق .

إنّ تربية القرآن بالحوار تُنمّي القدرات العقلية ، وتساعد على التفكير المجرّد ، والانتقال بالمفاهيم البسيطة إلى المفاهيم الأكثر تعقيداً ، مع تسهيل عرضها ، وتقديمها بسلاسة ويُسر ، من خلال التدرّج ، وتعزيز الاستجابات ، والاعتماد على استقراء الملاحظات ، واستنتاج الأهداف .

كما يُبيّن الحوار القرآني تناقضَ المشركين ، وحيرتهم ، وتخبّطهم ، ونأيهم عن الحقائق ، واعتمادهم على التفكير المشوّه ، والمعايير الخاطئة ، إنها معايير الهوى والظن . قال عز وجل : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ [النجم : ٢٣] فانصرفوا عنه ، وجعلوه وراءهم ظهيراً ، فجاء الحوار يستنكر أعمالهم ، ويتهكم بطريقة تفكيرهم . قال تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ۚ فَلِلّٰهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ [النجم : ٢٤ - ٢٥] .

وبالمقابل يوضح الحوار في القرآن سلامة المناقشة من قِبَل الأنبياء ، وبيانهم للحق ، وإرشادهم إلى الخُلُق الكريم ، وإنقاذهم من مهاوي الضلال ؛ التي يقودها الشيطان وأعوانه .

ففي قصة النبي نوح عليه السلام مع قومه نلاحظ عدة نقاط :

أ - طبيعة العقيدة ؛ حيث دعا النبي قومه إلى عبادة الله تعالى وحده ، بلا شريك ، ولا نظير ، ولا مثيل ، وهي عقيدة واضحة ، تتجاوب مع الفطرة السليمة ، وتتلاءم مع المنطق السديد ، والتفكير السليم ، فقد حثَّ

(١) سيكلوجية القصة في القرآن؛ للتهامي نفرة (٥٨٥) .

عليهم ردّاً منطقياً ، بأنه عاقل لم يُعرف عنه أيُّ تردّد في مضلّات الفتن ، أو جهالات الحمق ، وهو رسولُ رب العالمين ، ومُكلّف بتبليغ رسالة السماء إلى أهل الأرض .

وقد ذكّرهم بنعم ربّهم عليهم ، من القوة والبسطة ، وهذا يستوجب شكر الفضل والنعمة ، فمن بطر خيف عليه أن يصير مع الضالين الغابرين ، عندما انحرفوا عن الفطرة ، وعطلوا تفكيرهم ، ونأوا عن التدبر ، وصمّوا آذانهم عن التذكّر ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فحاربوا الحق ، وسخروا من إنذار الأنبياء .

وكان ردُّ أولئك المنحرفين ردّاً سفيهاً ، يقاطع العقل ، ويغرق في تيه الضلال ؛ إذ أوقعوا أنفسهم في قالب جامد لا يتغير ، ولا يقبل التصحيح ، فأبطلوا حرية التفكير والتعبير ، وقيدوا اعتقادهم بصلاح آبائهم ، دون أن يُعملوا تفكيرهم ، أو يتفحصوا مصداقية عبادة الأقدمين ، فكانت العادة تطغى عليهم ؛ جائمة بكلّكلها ، كما تفرض عليهم أهواؤهم شتى التصورات البعيدة عن المعرفة الحقة ، والنور المبين .

وأبى أولئك الضالون أن يستجيبوا لنداء النبي هود عليه السلام ، وأمام جحودهم ، وإنكارهم ، وتماديهم في انحرافهم ، تحدّاهم النبي عليه السلام بثقة مطلقة ؛ بأن عذاب الله سيقع عليهم لا محالة ، وما هو إلا وقت قصير حتى يستأصل الله شأفتهم ، ويصبحوا كأمس الدابر ، وتنطوي صفحة من صفحات المكذّبين ، المعطلين لعقولهم ، والجانحين بها عن جادة الصواب .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۚ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۚ قَالَ يَنْقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۚ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَإِنَّا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ۚ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ

فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ ۖ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٦٧﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢] (١).

ويعرض القرآن الكريم قصة النبي صالح عليه السلام مع قوم ثمود؛ الذين كذبوا بالحق ، وانتكسوا إلى حضيض الضلال ، ومنحوا عقولهم إجازة مفتوحة؛ إذ ربطوا أنفسهم بأغلال التكبر والغلو والجنوح عن الفطرة السليمة ، مع استهتارهم بدعوة الحق ، ونداء الله عز وجل .

وكان منهج الدعوة واضحاً ، يتمثل في ضرورة إيمان الناس بالله تعالى ، وإخلاصه بالوحدانية ، وعبادته الدائمة ، وطاعته التامة ، والخوف من عقابه ، ورجاء رحمته ، مع الاستقامة والثبات على الإيمان والطاعة ، والتدرُّج في معارج الكمال .

ولا بُدَّ من المواجهة بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، فطاغوت الضلال لا يقبل أن يرى الحق يتحرك في الواقع ، أو أن يشيد صرحاً له ، أو أن يكون مجتمعاً يحيا بين جنباته ، بل يشنُّ عليه مختلف أنواع الحروب ؛ وينازله في كل ميدان ، فإذا بالحق ثبت في المعصية ؛ مُتسلِّحاً بعدة الإيمان ، والثقة بالله تعالى ، والاطمئنان إلى نجاح الدعوة ، ومعية الله للمؤمنين ، ونصره لهم ؛ مهما طال الزمن ، وتباعدت الآماد .

وفي ذلك الثبات ، وتلك الوقفة ؛ يشتدُّ الحوار بين طائفة المؤمنين ،

(١) ﴿سَفَاهَةً﴾ : خِفة عقل وضلالة عن الحق . ﴿بَصْطَةً﴾ : قوة وعِظم أجسام . ﴿ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ : نِعَمه وفضله الكثير . ﴿رِجْسٌ﴾ : عذاب ، أو زِين على القلوب . ﴿وَعَظْبٌ﴾ : لغز وطُرد . ﴿دَائِرَ﴾ : آخر ، والمراد : الجميع .

وطائفة الضالين ، كلّ يعرض بضاعته ، ويدافع عنها... وتختلف
المواجهات ، وتعدّد المناهج ، ويبرز أسلوب الحوار والجدال والنقاش
والتفكير المنطقي والأدلة الدامغة ؛ في مواجهة التعنت والتكبر والانحراف
والعنجهية والتفكير الجانح والأدلة الهشة غير الثابتة .

وكان النبيّ صالح من جملة الأنبياء والمرسلين ؛ الذين بلّغوا الرسالة ،
وأدّوا الأمانة ، ودعوا إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان معه الناقة
معجزة خارقة ، وأوصى قومه أن يذروها تأكل في أرض الله ، وأنذرهم عاقبة
الاعتداء عليها .

وذكّر صالح قومه بأهمية التدبر ، ولفت أنظارهم للتمعن في مصائر
الأقوام الماضية ، وضرورة شكر الله عز وجل على نعمة الاستخلاف بعد فناء
الغابرين . بيّد أنهم اغتروا بقوّتهم ، ولم يشكروا الله على تمكينهم في
الأرض ، ولم يستفيدوا من عبّر الماضين ، فانطلقوا يعيشون فساداً ، فسخروا
من المؤمنين ، واستنكروا توحيدهم ، وهذّدهم ، لكنّ تلك المحاولات
باءت بالإخفاق ، إذ لم يزدد المؤمنون إلا صلابة وثباتاً وثقة .

واعتدى المنحرفون على ناقة النبي صالح ، فعقروها ، واستكبروا ،
وجاوزوا حدّهم ، وبالغوا في ركوب الآثام والمعاصي ، وتمرّدوا على دين
الله عز وجل ، واستعجلوا العذاب ، فكان أن جاءهم بين عشية وضحاها ،
وتحوّلوا من العتوّ والتبجّح إلى الجثوّ والتأرجح .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَحُدُّكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٢ ۝ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَلَتَجْنُونَ
الْجِبَالَ يُبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَفْنَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٧٣ ۝ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَ لَمُوتَ أَنْتَ صَالِحًا
مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ٧٤ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ. كَفَرُوا ۖ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ
 أَتَيْنَا بِمَا بَعَدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ فَآخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جَاثِمِينَ ۖ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوُا لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا
 تَنصَحُونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ [الأعراف: ٧٣ - ٧٩].

وتبرز قصة النبي شعيب عليه السلام مع قومه تُركّز على عدّة قضايا ،
أهمها:

أ- قضية التوحيد ، والخروج من عبودية الطغيان والجبروت ، والخضوع
لوحداية الله تعالى ، والثبات على ملة الخير ، مهما استشرى الباطل ،
وانتفخت أوداجه ، وقوي سُلْطانه . فعندما دعا النبيُّ شعيب قومه إلى الله ،
والولوج في حظيرة الدين ، أَصَرَ المنحرفون والطغاة على موقفهم المتمتت ،
وأبوا الاستسلام لخالق السماء والأرض ، ولم يكتفوا بذلك ، بل تحرّشوا
بأهل الإيمان ، وحاولوا إيذاءهم ، فعندما رفض الضالون أن ينتظموا في
سلك الإيمان ، قال لهم النبي شعيب : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا
بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٧] فدعاهم النبيُّ شعيب إلى إعلان عَقْد هدية بين
الإيمان والكفر ، وعلى الجميع أن ينتظر قضاء الله تعالى ، وينزل حكمه
فيهم ، وفي مدة الهدنة يكون التعايش السلمي ، وإبقاء الأمور على حالها ،
فمن اعتنق الإيمان يُسَمَّح له بممارسة شعائره التبعدية دون أذى ، بينما يسرح
الضالون في أعمالهم .

ب - كان موقف الكافرين عنيداً ، سافراً ، فقد أبى الضالون أن يتعايشوا مع الطائفة المؤمنة ، وفرضوا عليها بالتهديد والوعيد أسلوب الطرد إن استمر الحال على الإيمان ، وإن تراجع المسلمون عن موقفهم ، وعادوا إلى ربة الشرك ؛ ازدادت سعادة الضالين . قال عز وجل : ﴿ قَالِ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلِيسًا ﴾ [الأعراف : ٨٨] .

ج - تجلّت طبيعة الإيمان واضحة بلا حُجُب ، وتمسّك المؤمنون بلواء التوحيد ، ودأبوا في أداء التزاماتهم تجاه قضية التوحيد ، فلم يخضعوا لتهديد الضالين ولا لتوغّدهم ، فصدعوا بقول الحق ، وتمسّكوا بموقفهم تمسّكاً لا يريم عنه أيُّ مؤمنٍ منهم . قال شعيب عليه السلام : ﴿ أُولُو كُنَا كَرِهِينَ ﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَتًّا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨ - ٨٩] .

د - تتجلى التربية القرآنية في توجيه المؤمنين نحو الاعتزاز بالإيمان ، وضرورة حرصهم عليه ، وتمسّكهم به ، وعليهم أن يشعروا بالمسؤولية المناطة بهم ، وهي مسؤولية مبنية على الإيمان ، ولا بُدُّ من العمل الموافق لها ، والمنسجم معها .

كما تبدو الحاجة إلى تذكير المنحرفين بنعم الله عليهم ، وبذنوبهم ، وبيان خطأ الطريق الذي يسرون فيه ، وشططهم عن الصواب ؛ ممّا يربي في المؤمن عاطفة الانقياد لأوامر الله تعالى ، ويدفع الآباء والمربّين لبيّئنا للمتعلّمين والأطفال أهمية الإيمان ، وضرورته ، ومحبة الأنبياء ؛ الذين دعوا الناس إلى توحيد الله عز وجل ، وطاعته ، وكانوا الأسوة الحسنة ، والنموذج الأمثل في التطبيق العملي للدعوة إلى الله ، ولكل ما جاؤوا به من العبادات والتشريعات والآداب والأخلاق . ومن هنا يدرك المتعلّم أهمية الإصلاح في تنوير العقل ، وإثارة الهمم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونصيحة الآخرين ؛ ضمن حدود الاستطاعة ، ومحبة الخير لكل الناس ، وضرورة تلمّس طريق الإيمان ، وغرس العقيدة الصحيحة وتوضيحها ، فالإنسان ما لم تصلح أفكاره ، وتستقيم عقيدته ، لا يمكن أن يسلك جادة الصلاح والخير والحق .

وعلى المربّين أن يوجّهوا المتعلّمين إلى الأخذ بمقاليد الأدب مع الله تعالى ، فالنبيّ شعيب عليه السلام فوّض أمره إلى ربّه ، فالتزم بأوامره ، واتجه إليه واثقاً به سبحانه ، ومُتَوَكِّلاً عليه ، مُعَلِّناً خضوعه للمشيئة الإلهية ،

وتصميمه مع المؤمنين على التثبت بالحق ، وعدم العودة إلى مرحلة ما قبل الإيمان .

ويأتي الدعاء بلسماً للجراح ، وطمأنينة إلى جانب الله ، مصدر كل قوة ، ومنبع الأمان ، ومركز التفويض والتوكل ، فالدعاء يدفع المكروه ، ويعالج البلاء ، والله تعالى يحبُّ الملحين في الدعاء ، فلا يهلك معه أحد ، وهو سلاحُ المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض .

※ الأمثال :

المَثَلُ عبارة عن قولٍ في شيء يُشَبِّه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره^(١) .

وَصَرَّبَ اللهُ عز وجل الأمثال في القرآن الكريم توضيحاً وبياناً في ثلاثة وأربعين موضعاً ، تعددت فيها الأغراض والأهداف ، ويمكن إيجازها في الأغراض التالية^(٢) :

الغرض الأول : تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَخُورَ عَيْنٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴾ [الواقعة : ٢٢ - ٢٣] .

الغرض الثاني : الإقناع بفكرة من الأفكار قد يصل إلى مستوى الحجة البرهانية ، وقد يقتصر على مستوى الحجة الخطابية ، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] . وكقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨] .

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٧٥٩) .

(٢) الأمثال القرآنية ؛ لعبد الرحمن حبنكة (٣٩ وما بعدها) .

الغرض الثالث : الترغيب بالترزين والتحسين ، أو التنفير بكشف جوانب القبح ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝ [إبراهيم : ٢٤ - ٢٦] .

الغرض الرابع : إثارة محور الطمع والرغبة ، أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ [البقرة : ٢٦١] . وكقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ [البقرة : ٢٦٤] ^(١) .

الغرض الخامس : المدح أو الذم ، والتعظيم أو التحقير ؛ كقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ زُكَّاءُ سَخِدَا يَتَتَّبِعُونَ فُضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ شَطْلُهُمْ فَتَارِزُهُمْ فَاغْلُظْ فَاَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝ [الفتح : ٢٩] ^(٢) . وقال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيغُ فَرْنَهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطْلَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ ۝ [الحديد : ٢٠] .

(١) ﴿ صَفْوَانٍ ﴾ : حجر كبير أملس . ﴿ وَابِلٌ ﴾ : مطر شديد عظيم القطر . ﴿ صَلْدًا ﴾ : أجرد نقياً من التراب .

(٢) ﴿ سِيمَاهُمْ ﴾ : علامتهم . ﴿ شَطْلُهُمْ ﴾ : فراخه المتفرعة في جوانبه . ﴿ فَتَارِزُهُمْ ﴾ : قواه . ﴿ سُوقِهِ ﴾ : أصوله وجذوعه .

الغرض السادس : شَحَذَ ذهن المخاطب ، وتحريك طاقاته الفكرية ، أو استرضاء ذكائه ؛ لتوجيه عنايته ؛ حتى يتأمل ويتفكر ، ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير ؛ كقوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُمْ خَشْيَةً مِّنْ حَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : ٢١] .

ومما تقدَّم نلاحظ أن ضَرْبَ الأمثال في القرآن الكريم يستخدم للتربية العقلية ، وإثارة التفكير وصولاً إلى نتيجة ما هي المرادة من ضرب المثل ، إلى جانب توجيه السلوك نحو الخيرية ، وتهذيب النزعات الشريرة ، مما يدفع الإنسان إلى إصلاح حاله وتعديل أحوال مجتمعه ، فتستقيم حياة الأفراد ، ويُشاد صرح الصلاح والإصلاح ، فعلى المربيين استخدام الطريقة القرآنية بذكر معنى المثل ، وبيان أهدافه المأمولة من إirاده ، وتوضيح النتائج السلوكية ، والآثار الطيبة ، بما يُعدِّل الحياة الإنسانية ، والنشاط الفكري للمتعلِّمين .

وأشار القرآن الكريم إلى أنَّ الهدفَ من إيراد المثل هو توجيه السلوك ، وتذكير الإنسان بالفكر الخيِّر ، والتصوُّر المنسجم مع العقيدة الصافية ، قال تعالى : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم : ٢٥] . وقال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر : ٢٧] .

وفي الصفحات التالية سنعمد - بتوفيق الله - إلى إيراد بعض الأمثال ، ونستروح معانيها ، ونبيِّن كيف تساعد على التربية العقلية لدى المتعلِّمين .

قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۖ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مُنُّو قُدُونَ ۖ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

[يس : ٧٧ - ٨٢].

تعرض الآيات السابقة قضية البعث والنشور؛ عن طريق جعل الإنسان ينظر في نفسه ، ويدرك تكوينه ، ويتأمل في نشأته الأولى ، وهذه أمور مشاهدة بالعين ، مدركة بالحواس ، والعقل مَنْ استجلاها ، وتملاها ، وأدرك مغزاها المتمثل في تصديق وَعْدِ الله عز وجل ببعث الناس من قبورهم ، ونشرهم بعد موتهم للحساب والجزاء .

ويلفت المثل القرآني نظر الإنسان إلى أصل الخَلْق البشرية ، وهي النطفة في صغر حجمها ، وقوامها الذي لا يُلتفت إليه ، فهي نقطة من ماء مهين ، تحتوي على خلايا كثيرة ، وإحدى تلك الخلايا هي التي تتشكل فيما بعد لتصبح جنيناً يَضُجُّ بالحياة ، ومن ثم يتكون الإنسان المخاصم لربه ، المجادل بالباطل ، فيطلب الأدلة ، ويلهث خلف البراهين التي تُثَبِّتُ أن الله موجود بالحجة الدامغة ، والقياس الصحيح .

إنَّ وقفة تذكُّر واحدة تدعو ذلك الخصيم كي يتملّى ذاته ، ويدرك القدرة الإلهية عبر المسافات بين النشأة الأولى والمصير الأخير ، من خلال رحلة من الأحداث الكثيرة ، بينما يكون الأصل مجرد نقطة ضعيفة ، تقودها العناية الربانية لتجعل منها إنساناً سوياً .

وهذا يدعو إلى الإيمان بالخالق المبدع ، وأنه سبحانه أعطى المخلوق كل ما يحتاجه من قدرات حتى استوى وترعرع ، ثم يعطيه القدرة على التمييز بين الخير والشر ، فإذا به يجادل بشدة ، ويُسكِّك في إعادة الحياة بعد الموت ، ويغفل عن آثار القدرة الإلهية في النشأة الأولى ، وخلق الكائن الحي من نطفة صغيرة .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء العاص بن وائل إلى

رسول الله ﷺ بعظم حائل^(١) ، ففَّته ، فقال : يا محمد ، أبعث الله هذا بعدما أرم^(٢) ؟ قال : «نعم ، يبعث الله هذا ، يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم» . فنزلت الآيات : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . . . ﴾ [يس : ٧٧] إلى آخر السورة^(٣) .

فالله تعالى قادر على خَلْق الإنسان السوي من نقطة صغيرة ضعيفة ، وهو قادر على إماتته ، وبعثه من جديد ، بل الإعادة أهون ، قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم يُبَيِّنُ الله سبحانه القدرة الإلهية فيما نراه بحواسنا ، من خلال الشجر الأخضر المشبع بالماء ، إذ يحتك بعضه ببعض فيولّد ناراً تشتعل ، ثم يتحول إلى خشب صالح للوقود . وذلك أن الشجر يمتص الحرارة من الشمس ، ويظل محتفظاً بها وهو مليء بالماء ، ريثان به .

إنَّ هذه القدرة الإلهية في الجمع بين النقيضين : النار والماء ، في الشيء الواحد ؛ لهو دليل حي وملموس على عظمة الخالق ، ودافع للإنسان كي يبحث أسرار الخليقة ، ويستدل على قوانين الطبيعة ، ويدرك نواميس الكون ، ويتفكر في خَلْق الله تعالى ، فيسلّم بالقدرة العظيمة لفاطر السماء والأرض ؛ الذي أبدع صنعه ، وأوجد دلائل قدرته في الكواكب السيّارة ، والمجرات الكثيرة ، والكتل الضخمة من السُّدُم^(٤) ، إضافة إلى الشمس والقمر .

إن الله تعالى الذي أوجد كل هذه المخلوقات وغيرها ؛ لهو قادر بلا شك على إعادة الخَلْق من جديد ، بلا جهد ولا تعب ، وكل شيء يتكون بكلمة «كن» فإذا به كائن كما أراد الله تبارك في عليائه .

(١) «حائل» : متغير باليلي .

(٢) «أرم» : بلي .

(٣) رواه الحاكم (٢/٤٢٩) .

(٤) «السُّدُم» : جمع السِّديم ، وهو بُتْع سحابية متوهجة ، أو مُغِيمة في الفضاء ، ناشئة عن تكاثف عدد لا يحصى من الأجرام السماوية ، أو تصادمها ، ومنه : المجرة .

وإن نظرة فاحصة في الأرض وما فيها ، والسماء وما تحتوي عليه ؛ ليدلّ دلالة قاطعة على وجود الصانع الخبير ؛ جلّ في علاه ، وهذا يقود إلى تربية العقل على القياس الصحيح ، والنظر في الخلق ، واستخلاص الدروس ومعرفة النتائج ، وبالتالي تتربى قدرة التفكير عند المتعلّم منذ الصّغر .

وتستمر التربية القرآنية للعقل من خلال الأمثال ، ونتابع الحديث حول قضية الخلق والإعادة ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الحساب والثواب والعقاب ، يقول الله عز وجل : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۖ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۚ ۝١٨ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْلًا وَرَفْنَا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۚ ۝١٩ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۚ ۝٢٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۚ ۝٢١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُ كُلُّ مَحْمُودَةٍ وَتَنْظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۚ ۝٢٢ [الإسراء : ٤٧ - ٥٢] (١) .

وتتجلّى التربية العقلية في الآيات السابقة في طريقة مناقشة عقائد الشرك ، حيث تهاوت تحت شمس الحقيقة ، وبرزت الذات الإلهية منفردة في التصرف والقدرة ، فقد كذب المشركون بالحياة بعد الموت ، وكفروا باليوم الآخر ، ولكن لا بُدَّ من وقوعه ، وإليك - عزيزنا القارىء - بعض الأدلة العقلية على وقوعه :

١ - كمال الربوبية والألوهية ؛ حيث يبعث الله تعالى الناس من قبورهم ، ويحشرهم للحساب والجزاء ، ولا يتحقق ذلك إلا بوجود حياة بعد الموت ،

(١) ﴿ هُمْ نَجْوَى ۚ ﴾ : متناجون في أمرك فيما بينهم . ﴿ مَّسْحُورًا ۖ ﴾ : مغلوباً على عقله بالسحر ، أو ساحراً . ﴿ وَرَفْنَا ۚ ﴾ : أجزاء مفتتة ، أو تراباً ، أو غباراً . ﴿ يَكْبُرُ ۚ ﴾ : يعظم عن قبول الحياة كالسموات . ﴿ فَطَرَكُمْ ۚ ﴾ : أبداعكم وأحدثكم . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ۚ ﴾ : يحركون استهزاء . ﴿ مَحْمُودَةٍ ۚ ﴾ : منقادين انقياد الحامدين له .

وإلا ما معنى الأوامر والنواهي ، والمحرمات والمباحات ، إن لم يكن هناك ثواب وعقاب ؟!

٢ - تحقيق العدالة الإلهية المطلقة؛ فكثير من الناس يموتون ظالمين ، ومنهم من يموت مظلوماً دون أن يأخذ حقه من ظالمه ، أو ينتصف لنفسه ، فلا بد من وجود يوم آخر لتحقيق العدالة الإلهية ، فيتم القصاص . قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۚ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٥ - ٣٦] .

٣ - استحالة العبث؛ فحياة الإنسان دون وجود عاقبة له صالحة أو طالحة؛ نوع من العبثية والضياع ، وفي اليوم الآخر تترتب العواقب حسب الأعمال في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

٤ - عدم التسوية؛ بين المطيع والعاصي في النعم الظاهرة ، ووجوه الإحسان ، وسلامة البدن وحياسة الأموال ، وفي اليوم الآخر يقع التفاضل بينهما ، وهذا أمر يحبذه العقل السليم ، والتفكير المنطقي ، فوجود الآخرة بمثابة أخذ كل واحد حقه إن لم يستطع الظفر به في الدنيا . قال عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيِيهِمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وبعد هذا اتهم كفار قريش وغيرهم رسول الله ﷺ بأنه مسحور وساحر ، فأخطؤوا في محاكماتهم العقلية ؛ لأنَّ رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ؛ فكان موقف المشركين مريباً ، وبعيداً عن إصابة كبد الحقيقة .

واشتدَّ الجدلُ بين النبي الكريم ﷺ وبين المشركين ، وأخذ حيزاً كبيراً من النقاش ، والأخذ والرد ، مع أن هذه المسألة معروضة وفق منظور الإسلام عرضاً سهلاً ميسوراً واضحاً ، لا غبار عليه ، ولا تعقيد في فهمه ، لكنَّ المشركين بتصوراتهم الخاطئة ، وتفكيرهم المتهافت لم يستطيعوا تصوُّر البعث بعد الموت ، ولم يدركوا أسرار الآخرة ، ومتطلباتها ، وبواعثها ،

وضرورتها ، في حين أن القدرة الإلهية لا يصعب عليها شيء ، فَخَلَقُ الإنسان من ماء مهين دليل العظمة الربانية ، وإيجاد الآخرة كالنشأة الأولى من حيث القدرة والتصور والإرادة الإلهية .

ويأتي الرُّدُّ القرآني يربي العقل على التفكير المنطقي ، ويُقدِّم البراهين تلو البراهين على صحة وجود اليوم الآخر ، ويدحض توهم المبطلين ؛ الذين لم يتصوَّروا عودة العظام والرفات مرة أخرى إلى الحياة .

وليفترض المشركون أنهم قد خُلِقُوا من حجارة قاسية ، أو من حديد صُلْب ، أو من أي شيء آخر ليس فيه حياة ، وليكن شيئاً كبيراً في التصور كالسموات مثلاً . . . وإذا كان ذلك كذلك فإن الله عز وجل قادر على خَلْق البعث من جديد ، وإيجاد اليوم الآخر .

ولا يستطيع المشركون أن يكونوا حجارة أو حديد ، لكن الآيات جاءت في معرض التحدي ، والبرهنة العقلية لكل متعلِّم ؛ كدليل على القدرة الإلهية في إحيائها ، وإنشائها ، وبَعْثها .

ويبقى الله عز وجل هو القادر وحده على إعادة الحياة بعد أن تصير الكائنات رفاتاً وعظاماً ، فهو تعالى قد فطرها أول مرة ولم تك شيئاً مذكوراً ، وسيعيدها خَلْقاً جديداً تدب فيه الروح .

وأمام هذه التربية العقلية ، والأدلة الواضحة ، لا يزال المشركون يستنكرون متسائلين : متى يكون البعث؟ وفي أي زمانٍ سيكون اليوم الآخر؟ وهذا التساؤل ، وذاك الاستنكار دليل استبعادهم للأمر ، وعدم تحققه أو وقوعه .

وأمام هذا السؤال الاستنكاري يقرر الله عز وجل أن يوم القيامة آتٍ لا محالة ، وعلى الناس ألا يفكروا متى يقع؟ وفي أي سنة ، وفي أي شهر ، وفي الليل أو النهار . . . وكل هذا لا يفيد ، أما الشيء المهم فهو الاستعداد للرحيل عن الدنيا ، فكل يوم نرى أفواجا يموتون ، زرافات ووحدانا ، فهنيئاً لمن استعد للقاء الله ، وعمل صالحاً ، وكل الويل لمن أضاع عمره سدى .

والحياة قصيرة ، والعمر محدود ، والدنيا فانية ، إنْ هي إلا لحظات عابرة ، ولمحات قليلة ، ومتاع قليل ، ثم يُرَدُّ الناسُ إلى ربهم ، فمن أحسن فقد فاز ، ومن أساء فعليها ، وإلى الله عاقبة الأمور .

وقد جعل المشركون لله تعالى شريكاً في ربوبيته ، وهو أشدُّ أنواع الشرك وأكبرها ؛ لما فيه من إثبات الشريك لله الواحد القهار ، ومنحه القدرة على التصرف والنفع والضرر .

ويواجه القرآن الكريم المشركين بمثل ضربه الله تعالى فقال : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقَتْكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨] .

فالمشركون لا يرضون أن يشاركهم مواليتهم في شيء مما يملكون ، فهم شيء وعبيدهم شيء آخر مختلف جداً ، في الحرية والسيادة والتصرف والتملك ، ومع ذلك تنحدر بهم عقولهم ، فيجعلون لله تعالى شريكاً مهماً اختلف نوعه وجنسه وحجمه .

وهنا يقعون في تناقض عجيب غريب ، فهم لا يقبلون مشاركة غيرهم معهم ، وبالمقابل يجعلون لخالقهم شركاء له ، كالحجر والمدر ، والجن والصنم ، والتمر والشجر . . . وهم لا يقبلون مشاركة العبيد لهم ؛ إذ يخافون منهم أن يجوروا عليهم ، ويصبخوا قوة مخيفة ضد السادة الأحرار ، ولو قاس المشركون هذا الأمر على الذات العلية - مع شاسع التشبيه ، والله المثل الأعلى - لأدركوا تناقض أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم .

ولا بُدَّ أن نشير إلى أن السؤال في المثل السابق له هدفه ومنحاه ، إذ يحمل معنى التحدي ، ويثير العقول المشتركة الخادمة ، ويوقظ القلوب الجاحدة ، ويحضُّ على التفكير والتعقل^(١) .

(١) القرآن والتفكير ؛ لأحمد محمد الحوفي (٦٦) .

فقد سألهم: هل لأحد منكم شركاء من عبيده يهابهم فيما يريد أن يفعل ، أو يستقل بتصرفه من شؤون؟ وهل لهؤلاء العبيد أن يستبدوا بعلم لا يرضاه سيدهم؟ وهل يهاب الأحرار عبيدهم كما يهاب بعضهم بعضاً؟

الجواب على هذا كله بالنفي ، فكيف يعقل إنسان أن يكون لله تعالى - وهو خالق الأحرار والعبيد ومالكهم - شركاء من خلقه؟! (١).

وهذا المثل سينتج دليلاً على تهافت دعاوى المشركين ، وبطلان ظنونهم ، وسوء تفكيرهم ، وأنّ البديل المنطقي ، الذي يرافقه العقل السليم يتمثل في ضرورة الإيمان بعقيدة التوحيد ، وأنه لا نِدَّ لله تعالى ، ولا شريك ، ولا مثل .

وتقود التربية العقلية في القرآن من خلال المثل السابق إلى نَبذ الشرك ومظاهره وخفائاه ، فهو ظلم عظيم ، ومنافاة للوحدانية الإلهية ، واستكبار عن الخضوع للخالق الأعظم ، وجهل مطبق بحقيقة الذات الربانية .

فمن واجب الإنسان أن يعبد الله عز وجل ، ويمثل أوامره ، ويجتنب نواهيه؛ ويتقدم على طريق الاستقامة بإخلاص ويقين وصدق ، دون إشراك بالله ، أو تعطيل لصفة أو فعل يتصف به الخالق المولى .

وإلى هذا أشار القرآن الكريم ، فقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

※ التفكير المنطقي :

اهتمَّ القرآن الكريم اهتماماً بالغاً بالفكر الإنساني ، وأعطاه مكانته اللائقة به ، وفتح النوافذ أمام النظر العقلي ، فلا حجر على التفكير ، ولا تعطيل لوظائف العقل .

وجاء القرآن حافلاً بالآيات التي تحثُّ المسلمين على التفكير والتأمل

(١) بحوث في التربية الإسلامية؛ للدكتور سعيد إسماعيل علي (٧١).

والتدبر، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

وفي الشريعة الإسلامية تصوّر فكري سليم عن الكون بأسره ، والحياة برمتها ، والإنسان بجميع جوانبه ، من خلال نظرة كلية معمّقة ، تشمل علاقة الإنسان بالكون والأحياء ، وهي ترسم صورة منطقية ، بحيث يدرك المرء منشأه ، ومصيره ، ومنزله ، ووظيفته ، والتكاليف المطالب بها ، وحقوقه التي يتمتع من خلالها ، فيصاغ عقله صياغة منظّمة ، تجعله أكثر قدرة على العطاء ، وتوسّع مداركه ومدى تفكيره المنطقي .

كما تقدم الشريعة الإسلامية للإنسان جُملة قواعد فكرية ، وطائفة من النظم السلوكية ، تقوده نحو الدقة والتنظيم والوعي المنهجي ، مما يجعله يفكر قبل الإقدام على أيّ عمل ، فإذا تهيّأ العمل ، وانخرط فيه ، انضحت الأهداف ، وبدا الإتقان ، وفشا الإخلاص .

ومن هذا المنطلق يتدرب ذهن المتعلّم على المحاكمات العقلية ، والتفكير الموضوعي ، والربط بين الأشياء ، بقدرة مرنة حيوية ، تدفعه للحفظ والاستذكار ، وثقوّي عنده إمكانياته على المحاكمة والاستدلال .

فإذا تعلّم كل يوم بضع آيات من القرآن ، وشيئاً من أحاديث رسول الله ﷺ ، فلا شك أنه سيفهم معانيها ، ويفكر في أسلوب تطبيقها ، ويقوي عنده الاستنتاج ، وربط الآية بالواقع ، حيث يقوم العقل بهذه العمليات دون تكلف أو تصعّب .

وعندما يقرأ المتعلّم آيات القرآن الكريم يتربّى عنده العقل الصحيح القائم على النظرة الشمولية ، والوعي الفكري ، والتفكير المنطقي ، والمحاكمة ، والاستنتاج ، والاستقراء .

ونعني بالتفكير المنطقي: قياس أمر مجهول على آخر معلوم لرؤية ما بينهما من تشابه أو تضادّ ، فإذا اتفقا كان حكمهما واحداً ، وإن اختلفا

اختلف الحكم بمقدار ما بينهما من خلاف. وقد يكون التناقض التام أساساً للحكم على المجهول؛ كالتناقض بين الحياة والموت ، والليل والنهار ، والعمى والإبصار^(١).

ومن أمثلة القياس المنطقي قوله عز وجل: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَخَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فبدأت الآية بالحكم في القضية ، وهي الوجدانية المطلقة ، المنزهة عن الشريك ، وكأنها أمرٌ واضح لا لبس فيه ولا غموض ، ولكنها مع هذا الحكم جاءت تحمل معها البرهان القاطع والدليل الساطع ، فكأنها حُكم في قضية أصدره القاضي ، وشفعه بحيثيات الحكم؛ التي لا مجال معها لنقض ولا إبرام^(٢).

ويلاحظ المتأمل في الآية السابقة أنه جيء بالدليل الذي ينفي ادعاءات المشركين ، ويبطل دعواهم بأن الله تعالى له ولد وشريك ، وبعد النفي يُبين الله عز وجل استحالة ذلك القول؛ إذ لو كان هناك أكثر من إله ، لاستقل كلٌ منهم بملكه وخلقه ، وتصرف حسب إرادته ومشيتته ، فينقسم الكون على الآلهة المتعددة ، ويضطرب النظام المبدع ، ويضاد كل إله الإله الآخر؛ لاختلاف الرأي والإرادة والتدبير ، لكن الواقع يناقض ادعاء المشركين حيث نجد نظاماً واحداً ، وقوانين واحدة ، وصبغة واحدة ، وتصرفاً واحداً في الحياة والأحياء والكون ، فالإله واحد لا يتعدّد ، وكل شيء يشهد بوحدانيته عز وجل ، وتزُهره عما ينعته به الجاهلون المشركون ، فالله واحد؛ وبذا ينتفي ادعاء الضالين بالتفكير المنطقي وحيثياته.

ويوضح القرآن مسألة الوجدانية الإلهية في موضع آخر ، قال عز وجل:

(١) فلسفة المعرفة في القرآن الكريم؛ لعلي عبد العظيم (٢٣٣).

(٢) المصدر السابق (٢٣٦).

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ [الأنبياء: ٢١ - ٢٤].

وتبدأ الآيات باستنكار تعدد الآلهة ، فهي لا تستطيع أن تفعل ما يفعله الله تعالى من إحياء الأموات ، ونشرها من الأرض ، فهي تفتقد صفة من صفات الإله القادر ، وهي إحياء الموتى .

وهذا الكون الفسح يشهده الناس مترابطاً ، متناسقاً ، منظماً ، يخضع لنواميس محدّدة لا تختل ولا تزيج قيد أنملة ، تحوطها العناية الإلهية ، وهي مظهر للإرادة الربانية المدبّرة ؛ التي أعطت كلّ شيء تنظيمه وتنسيقه ، فلا فساد ولا اختلال .

وبعد هذا يأتي المنحرفون في تفكيرهم ليدعوا بوجود شركاء لله تعالى في خلقه وتنظيمه ، وهذا لا يصح عقلاً ولا مشاهدة ، ويخالف القوانين والواقع الحي ، ويتعارض مع القياس الصحيح ، والتفكير المنطقي ، فالله سبحانه وحده هو المدبّر والمقدّر ، تبارك وتعالى .

وإضافة إلى ما سبق فإنّ الديانات القديمة جاءت بتوحيد الله عز وجل ، فمن أين جاء المشركون بأقوالهم المنحرفة ، وأدّعاءاتهم الباطلة؟! فما شيء من الأشياء ، ولا أحد من البشر يستطيع الارتقاء إلى مرتبة الألوهية ، ولا يستحق أن يكون شريكاً للإله العظيم ، فكل شيء في هذا الكون يخضع للمشيئة الإلهية ؛ بالقهر والجبروت ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ كُلَّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنِّي أَرْحَمُ عَبْدًا ﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُم وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْفِتْمَةِ قَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] .

وما دام كل شيء في الكون يشهد بالوحدة المتناسكة ، ويخضع لقوانين محكمة لا تختل ، ويجري عبر نظام دقيق لا يتغيّر ، فإنّ الإرادة الإلهية الحكيمة تمثّل أمام الأبصار والبصائر ، ويأتي التفكير المنطقي ليثبت

القضية ، وهي وحدانية الإله عز وجل ، فلا مجال للشرك ، ولا صحة لظنون المشركين ، وتوهُماتهم ، فالقاعدة الثابتة هي وجود الخالق الأعظم ، وأحقّيته سبحانه بالعبادة ، وتفرّده بالتدبير والخلق والإيجاد .

ومن هنا تُركّز على دور المربيّين في تعليم الأطفال العقيدة الصحيحة ، ووجود إله واحد ، خلق السموات والأرض ، ونظّم الكون ، وتفرّد بصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ، وأن الشرك ظلّم عظيم ، تعالى الله عن اتخاذ الشركاء والأنداد .

والشرك ذنب كبير ، لا يغفره الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] وقال سبحانه : ﴿ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

✽ عَرَضُ المشاهد الحسية في الكون :

دعا القرآن الكريم الناسَ إلى أعمال عقولهم بقراءة صفحات الكون ؛ بكل ما فيه من دلائل الإيمان ، وآيات الوجدانية ، وبراهين القدرة الحكيمة المدبّرة ؛ مما يوحي بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، وأن هناك حساباً وجزاء ، فمن ركائز التصوّر الإسلامي والتربية العقلية دَفَع الإنسان ليدرك عظمة الله من خلال خلقه ، وما يصاحب ذلك من معرفة الغاية مِنْ خَلْق الإنسان ، وموقفه من الكون والأحياء ، وخالق الكون وموجد الأحياء .

إنَّ التأمل في آيات الله الكونية ، وما توحى به من توجّه إلى الله عز وجل ، والإقرار بوجود إله مدبّر ، أوجد الإنسان في الحياة ، وكلّفه بمقتضيات الإيمان ، وأمره بحمل تكاليف الاستخلاف من العمل الصالح بمعناه الواسع ، ولا يفعل ذلك إلا أولاً الأبواب .

وكثيرة هي آيات الكون ومشاهده في القرآن الكريم ، ومنها قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

ويقوم المرّبي بتعزيز ركائز التربية العقلية عند المتعلمين من خلال الأمور التالية :

أ- توجيه المتعلّمين إلى تمليّ آيات الله تعالى في السماء والأرض ، وأنها وُجِدَتْ ليفتح الناس أبصارهم وبصائرهم فيستقبلوا تلك الدلائل الكونية ؛ بقلب مفتوح ، وعقل متبصّر ، وإدراك صحيح ، فكل شيء مُنظّم ، السماء ، الأرض ، اختلاف الليل والنهار . . . وعلى المتعلّم أن يجتاز الإلف والعادة من رؤية تلك المشاهد كل يوم ، وأن يُفكّر من جديد بقدره الخالق العظيم ، وجميل إنعامه على المخلوق البشري ؛ حيث سخر له الطبيعة والكون بأسره ؛ ليستفيد منه ، ويؤمن بالله من خلال تأمّل آياته ، واستخلاص العبر والدروس من التناسق الكوني ، والتنظيم الرباني ، والدقة المسيّرة ، والإحكام الذي لا يختلّ .

ب- وليعرف المتعلّم أنّ التفكير في خلق الله ، والتمعّن في الكون وتدبّر ما فيه ، هو نوع من العبادة التي يُثاب عليها الإنسان ، وهو ذكّر الله من نوع خاص ؛ لأنّ معرفة العلوم الكونية ، وإدراك نواميس الطبيعة ، والوقوف على سُنن الحياة ، يقود إلى تذكّر الخالق ، والإحساس بفضلّه وعظيم صنعّه ، والشعور بالجلال والخشوع أمام الآيات الباهرة .

ج- ومن الجدير بالذكر أن آيات الكون ، وأسراره ، وقواه ، وتناسقه . . . لا يتّضح الوضوح المطلوب إلا للقلب الذاكر ، والفؤاد العابد . وفرّق كبير بين اكتشاف قانون طبيعي ، أو عجيبة كونية ، وإدراجها ضمن منظومة العلوم الدنيوية ، وبين الوصول إلى الحقيقة الموحية من تمليّ مشاهد الكون وقراءة صفحات الإبداع الدالة على وجود الصانع الخبير .

وهناك أمران لا بُدَّ من معرفة أبعادهما للوقوف على الفرق بين آلات العلوم وفلسفتها^(١):

الأول: يتمثل في تقنيات العلم ، وآلاته ، وهذا يقوم به الإنسان ، ويعده ، ويخترعه ، ويوظفه .

والثاني: الأهداف المرجوة من العلم ، ورسالته الخالدة؛ التي ينبغي أن تتوجّه لخير الإنسان ، وإشادة الحضارات . وهنا تتدخل العقيدة لتوجّه الأهداف ، وتحدّد المسارات ، وتركّز على الغرض المقصود من العلوم على اختلاف أنواعها وأصنافها .

وبمعنى آخر: نريد من العالم - أياً كان موقعه - أن يحدّد أخلاقيات العلم ، والأهداف التي يرمي إليها من وراء علمه . ولعل معظم العلماء يصبّون في خليج الصالح العام للبشرية جمعاء ، لكن تجار العلم ، وسماسرته ؛ هم الذي يجنحون بالعلم للشر ، والفساد ، والانحراف .

ولا نشكّ أبداً في أنّ العالم في المعمل ، أو الفضاء ، أو المخبر . . . إلخ إذا فكّر قليلاً - وهو لا بُدَّ أن يفكر - فإنه سيصل من دون ريب إلى تحقيق التفاعل بين العلم وثماره ، وآلاته والقيم العليا ، وبالتالي يعانق الإيمان بالله عز وجل ؛ الذي خلق الكون ، ونظّمه ، وتفرد بإبداعه .

ويوجّه القرآن الكريم القلب الإنساني إلى ضرورة رؤية الأشياء القريبة منه ، ذات التعامل اليومي معه ، كالطعام والشراب ؛ الذي يستفيد منه هو وحيوانه ، ويحثّه على إدراك تدبير الله ، وقدرته ؛ التي أخرجت ذلك الطعام ، وهيأته للاستخدام . يقول عز وجل : ﴿ فَلْيُنظَرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَبْنَا وَفَضًّا ۚ وَزَيَّنَّا وَمَخَلَّا ۚ وَحَدَّائِقَ عُلبًا ۚ وَفَلَكَهً ۚ وَأَنَّا ۚ مَنَّاعٌ لَّكَ وَلِأَنفُسِكَ ۚ ﴾ [عبس : ٢٤ - ٣٢]^(٢) .

(١) العلم رفعة وخشية ؛ ليوסף علي بدوي (٤٠) .

(٢) ﴿ شَقَقْنَا الْأَرْضَ ﴾ : بالنباب أو بالحرث . ﴿ وَفَضًّا ﴾ : علفاً رطباً للدواب كالبرسيم . =

وتدعو الآيات الكريمة إلى ضرورة تأمل الإنسان في قصة طعامه ، وكيف تمّ إنشاؤه وتهيئته ، إن ذلك معجزة إلهية ، لكنّ كثرة الألفة تنسي ، ويُسرّ الحصول على الشيء يجعل المرء يذهل عن ذكر حقيقة إبداعه .

وها هو الماء يعرفه كل إنسان ، يصبّه تعالى في صورة المطر ، فينزل إلى الأرض ، ويتسرّب فيها ، ثم تشقق الأرض عن النبات بقدره الخالق المولى ، وذلك النبات له صنوف كثيرة ، وأنواع متعددة ، وفوائد تكاد لا تنتهي . إلى جانب الحبوب والفواكه . . . وكلها تغيد الإنسان والحيوان ، وتبقى القدرة الإلهية وراء قصة الطعام ، وتنوّعه ؛ مما يدعو إلى التفكير فيما ينبئ في الأرض من منافع ، فيتّجه القلب للإيمان بخالق السماء والأرض ، ويتدبّر مشاهد الكون بوعي وتمعّن ، ويربط المعرفة بالعبادة ليؤدي متطلباتها ، وهو ذكّر الله عز وجل في كل آن ، وتحرير العقل من رواسب المبطلين في دعواهم أنّ كل شيء قد وُجد مصادفة بلا تدبير ولا تقدير ؛ بيد أنّ العلم يقود إلى الإيمان ، والمشاهدة المتصفّحة لكتاب الكون المفتوح تشهد بعظمة الله سبحانه ، وإنشائه المبدع والمثمر في آن واحد .

✽ تحرير العقل من التقليد ورواسب الماضي :

ندّد القرآن الكريم بمن يُعطّل عقله ، ويُقلّد دون تعقل أو إدراك ، ويُصرّ على التمسك بمأثور الآباء والأجداد دون النظر فيه ، أو تعريضه لمحكّ الحقائق ، ومقتضيات الشريعة . فمن تلقى شيئاً يتعلّق بالعقيدة من غير مصدره الأساس ، فقد أزرى بعقله ، وجعله يُصاب بداهية نكباء . قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوَّلَوْ كَانُوا أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

ثم يضرب الله تعالى مثلاً للكفار ؛ الذين يُعطّلون تفكيرهم ، ويغلّفون

= ﴿ وَمَذَآيِقَ غُلَا ﴾ : بساتين عظاماً متكاثفة الأشجار . ﴿ وَأَنَّا ﴾ : كلاً وعُشْباً ، أو هو التبن خاصة .

أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحق ، ويسدُّون منافذ الهداية . وصحيح أنَّ لهم عيوناً وآذاناً وألسنة ، لكنهم صم بكم عمي ، إذ لم يستخدموا تلك الحواس ، وهاتيك النعم فيما خلقت له ، فيكون مثل الذين كفروا ، وداعيتهم كمثل الغنم والناعق بها ، فهم لا ينتفعون بالمعرفة ، كالغنم التي تسمع صوت الراعي ، فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد ؛ الذي هو الدعاء والنداء . قال عز وجل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقُّ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

ثمَّ إِنَّ للشرك عوامل كثيرة ، منها^(١) :

أ - الجهل : وذلك أنَّ المقلِّد جاهل ، والجهل سبيل إلى الضلال ، فيُجادل ظناً بأنه امتلك ناصية الحقيقة ، لكنه في الواقع غير مؤهل للجدال . وقد شدَّد القرآن الكريم النكير ، وأعلن حملته على التقليد الأعمى الذي وقع فيه الجاهليون ، وتمسَّكوا بالشرك بسبب تقليد آبائهم ، قال عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۚ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج : ٨ - ٩] ^(٢) .

فهؤلاء الجهَّال المقلِّدون تقليداً أعمى يَحْيَوْنَ بلا عقلٍ صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرَّد الرأي والهوى ، فالواحد منهم يستكبر عن الحق إذا دُعي إليه ، ويُعرض تمادياً في الباطل .

ب - الهوى : حيث يشكل الهوى عائقاً كبيراً في ردِّ الناس عن قبول الحق ، واعترافهم بالخالق مُوجِداً ومُشرَّعاً ، فتراهم ينساقون مع شهواتهم ونزواتهم ، باحثين عن اللذة ، غير مباليين بالحق والتوحيد ، فكلُّ شيء يروونه حسناً في هوى أنفسهم يتخذونه دينهم ومذهبهم .

وعند ذلك يقترن الجهلُّ بالهوى ، والهوى بالكبر ، وبالتالي تتسع شقَّة

(١) حق الله على العباد ؛ ليوسف علي بديوي (١٦٣) .

(٢) ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ : لاوياً لجانبه تكبراً وإباء . ﴿ خِزْيٌ ﴾ : ذلٌّ وهوان .

الخلاف ، وتتضح الهوة ، يقول تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .

وإذا استولى الهوى على النفس ، فإن الإنسان ينقلب حيواناً ، تطغى عليه الشهوة ، وتتحكم به ذاته ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمَهُ أَهْلَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَهُ هَوْنَهُ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦] ^(١) .

وهكذا يحيا هؤلاء التعساء بعيدين عن الأدلة الصحيحة ، وعن الحجج الهادية ، فإذا بالشرك والكفر يحيط بهم من كل جانب .

ج - الكبر والعناد : فمن المشركين من يعاند الحق ، فلا يقبله ، ويجادل مستكبراً فينأى عن النصيحة ، ويستغرق في جهله وخطيئته . وهذه الأنفة الباطلة دليل البشرية الزائفة ، ففرعون أعلن أمام الناس قائلاً : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٤] فلما وقع في الأزمة والغرق قال : ﴿ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ ، بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

ويطالب المعاند بالخوارق ، فهو لا يقبل تحكيم العقل ، أو الوقوف على الحق ، بل يستكبر مطالباً بالمعجزات والأمور غير العادية . وقد قصَّ القرآن الكريم طرفاً من حكايتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] ^(٢) .

(١) ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ : فخرج منها بكفره بها . ﴿ الْغَاوِينَ ﴾ : الضالين الهالكين . ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ : ركن إلى الدنيا ، ورضي بها .

(٢) ﴿ يَبُوعًا ﴾ : عينا لا ينضب ماؤها . ﴿ كِسَفًا ﴾ : قطعاً . ﴿ قِيْلًا ﴾ : مقابلة وعياناً ، أو جماعة . ﴿ زُخْرِفٍ ﴾ : ذهب .

وهذا الجحودُ دليلٌ عنادهم ، وأثر خطير من آثار الاستكبار الذي خَرَقَ فيهم عقولهم وتفكيرهم .

إنَّ أسبابَ الشرك التي عدَّدناها تحارب التفكير السليم ، وتعادي أعمال العقل ، وتجمع باتجاه الهوى والظن ؛ الذي يؤدي إلى الضلال والانحراف ، وتقليد الآخرين تقليداً أعمى ، دون تثبُّت ، أو إدراك ، أو معرفة يقينية .

وذكر القرآن الكريم أن التفكير الموضوعي هو وسيلة لمعرفة الله تعالى ، وعبادته عبادة صحيحة ، وهذا ما أشار إليه القرآن بالحكمة ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢] .

ولا بأس بإعطاء المتعلِّم فكرةً عن الحكمة ، وتمثُّل لقمان لها ، فنقول :

إنَّ لقمان الحكيم كان عبداً كثير التفكير ، حَسَنَ اليقين ، أَحَبَّ الله تعالى فأَحَبَّهُ ، فمَنَّ عليه بالحكمة . وذكر المفسِّرون أنه كان طويل التفكير ؛ كي تنضج الفكرة ، ويحين موعدُ قطافها ، فلم يكن ثرثاراً ، ولا مهذاراً ، بل كان يُعْمِلُ عقله ؛ لينطق بالصواب . وكان عميق النظر ؛ وهذا دليلٌ على امتلاكه الأشياء من جوانبها ، يُدِيمُ بَصَرَهُ ، ثم ينطق بالحِكم .

وامتاز لقمان الحكيم بأنه كان ذا عبارة ، يُعْطِي السائل على قَدَر حاجته ، ويُفَصِّلُ الكلام على قَدَر السؤال . وكان ذا حكمة ، صائباً في القول والعلم والعمل والفكر .

ولو ذهبنا نستعرض ملامح حكمة لقمان ، لرأينا لها ثلاثة محاور :

المحور الأول: القول ، ويعني : الإصابة في الكلام ، والقول الموجَّه إلى الطريق القويم ، والذي لا خلل فيه .

والمحور الثاني: العلم والعمل ، ويعني : فعل الصواب الذي لا اعتراض لأحدٍ فيه ، في العلم والفقه ، مع الرشاد في الأمور ، والسَّداد في القضايا .

والمحور الثالث: الفِكر والدين ، ويعني : وَضْع كل شيء في محلَّه

المناسب ، والصواب في المعتقد ، وإعمال العقل ، مع الهدى المستقيم ،
والشكر لله عز وجل .

وتحوّلت حكمة لقمان إلى قَبَسٍ من حياته ، وجزء من أفعاله ،
فلا انفصال بينهما ، ولا انقطاع يُفَرِّقُهُمَا ، فلا الرجلُ يبتعد عن الحكمة ،
ولا هي تنأى عنه ، فكلاهما مندغم في الآخر ، سواء أكان هذا التداخل في
الخوارج النفسية أم في الترجمة العملية ، أم في تجسيد الفكرة بطوعية منقادة
واختيار حُرٍّ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] ومعنى ذلك أن
الحكمة عند لقمان ربّانية ، فهي ليست مختارة من قبله ، وإنما جاءت ،
وعُرِست في فؤاده نتيجة طاعته المستمرة ، ومواصلته العبادة ، وحُسن الظنِّ
بالله ، وإخلاص النية في المقاصد ، وتعلّق القلب بالآخرة ، مع جمال
العلاقات في الحياة الدُّنيا ؛ لذلك وهب الله تعالى الحكمة للقمان تفضُّلاً من
عنده ، وعطاء إلهياً لا ينقطع .

ومن هنا جَرَت الحكمة على لسان لقمان ، قولاً صادقاً لا يعرف الخَلَل ،
وكلاماً عَذْباً يتدفّق ليونة ، وينداح لطافة ، ويخرجُ سلسبيلاً يروي ظمأً
النُّفوس ، ويسقي عطشَ الطالب ، توجيهاتٍ سديدة ، وانعطافاتٍ تُغيّر دَقَّةَ
الحياة ؛ ليحيا العدل ، ويُعطى كلّ ذي حقّ حقّه ، وعند ذلك يعيشُ الناس
بطمأنينة الإيمان ، ويحيون بيزد اليقين .

وقد دخلت لام الابتداء على «قد» لأنّ الفعل الماضي «آتينا» قريب من
الحال الحاضرة ، فهو يُشَبِّهُ الفعل المضارع من ناحية الزَّمَن ؛ لذلك جاز
دخولها عليه ، وهذه اللام تعني : أنّ الله تعالى ابتدأ لقمان بالحكمة ، ليس
بمعنى أنه أوّل حكيم في الوجود ، إنما أوّل خاصيّة وهبها الله للرجل هي
الحكمة ، فَجَرَى لسانه بها ، وتضمّنت أفعاله بمؤثّراتها ، فنطق بالرشاد ،
وعمل الخير ، وتلك هي أصائل الحكمة ، وجذورها المتفرّعة على القول
والعمل .

ودخلت «قد» على الفعل الماضي «آتينا» لتوكيد الحكمة ، وأنها جاءت لقمان فعلاً ، وتحقق إرسالها إليه ، وها هي الوقائع تثبت ما نقول ، وتلك الانعكاسات الخيرة تفيّد في تقريب ما نذهب إليه من أنّ الحكمة حقٌّ مؤكّد اختصّ به لقمان ، فكفاه هذا الأمر حفظاً لنفسه ، ودعوة لمجتمعه كي يؤوب إلى أحكام الحق ومنهاج الصواب .

وتدخل «قد» على الفعل الماضي ، ويكون متوقّعا في السابق ، بمعنى أنّ لقمان اشتهر بالأعمال الصالحة ، والسجايا المُفْلِحة ، يتكلم بالصدق والحق ، ويسرّد الحديث كأحسن ما يكون ، ثم إنّ حالته كلها من الجوانب جميعاً تُثبِت أنّ لقمان أهل للحكمة ، وحرّيّ به أن يصيبها أو قيساً منها ، وهذا التّوقع إنّما يدل على التحرك اللقمانى الطاهر ، بشفافية الروح ، وعظمة العمل ، وسمو الأخلاق .

وجاءت كلمة «الحكمة» معرّفة بأداة التعريف «أل» لتطلق التعبير على المناحي الشّيء للحياة ، والكيان البشري بكامله ، سواء أكانت الحكمة تنساب على اللسان ، أم كانت تؤكّدها الأعمال ، فإنها وسيلة خيرة انبعثت سماوية خصبة في قلب عبّد صالح ، ووليّ مُستحق ، مما يُصلحُ النفوس ، ويدعو الناس إلى عبادة الله دونما شريك ، وبالتالي تُثقل النفوس على مشحذ الإيمان .

إنّ دعوة لقمان ابنه إلى التوحيد والإيمان بالآخرة وتحسين العلاقة مع الأبوين هي لبّ الحكمة ، وقلب الصواب ، ومما تقتضيه الفطرة السّديّدة .

ولم يقتصر لقمان على المعرفة والاستبصار ، بل انطلق إلى ميادين الواقع ، وبدأ بأهله الأقربين ، يناشدهم عهداً جديداً ، وفكراً حميداً ، وروحاً فريداً ، يتمثّل في عبودية الله ، والخضوع للخالق . وهذه دعوة صريحة إلى الإيمان ، وعلاقة بيّنة من ملامح الحكمة التي آتاها الله لقمان حين هيّأه على عَيْن منه .

ويظهر من حكمة لقمان ودواعيها الرشيدة أنّ الرجل امتاز بخصلة العقل

الراجع الذي شكّل متانةً ، وعُرى مكيّنة للحكمة المذكورة ؛ لأنّ العقل هو الأساس الذي يُميّز الإنسان المكلف ويفصله عن باقي الأشياء .

فالعقل تفهّم للأمور ، واستغراق في تفحص القضايا كي تكون النتائج ثابتة وصحيحة ، والعقل قدرة على استجلاء الأحداث ، وربط المقدمات بالنتائج ، وتدبّر المسائل بدقة . والعقل هو الحدّ الفاصل بين الهداية والانحراف ، وبين الإيمان والجاهلية . والعقل ملكة ربّانية تزعّ الإنسان عن الانخراط في صفوف المغفلين . والعقل تشريف وبصيرة ، وتؤدّة وإحكام ، ورشاد وإقناع .

وعلى هذا سار لقمان في مخاطبة ابنه ، مُنتزِعاً إيّاه من الأدواء النفسية ، والشرك بأنواعه ، فحاول لفته وتحذيره ، ثمّ أوصاه وصيّة المُحبّ للخير ؛ الذي لا يريد أجراً على دعوته ، سوى أن تقرّ عينه برؤية ولده في الجنة .

وتبدو حكمة لقمان متوازنة الخطوات ، متوازية القسمات ، تجمع بين النظرة الروحية ، والعلاقة السلوكية ، للارتفاع بالإنسان من الانفصام والحيرة إلى الاتّصال الرّباني ، وتحريك النفس البشرية صوب التجسيد الحيّ ، والتعامل المسؤول ، وتمييز الحقوق ، واتّخاذ العدّة للجمع بين أشواق الروح والحقائق السلوكية عبر وقائع الحياة .

وتدعو حكمة لقمان إلى إقامة المجتمع بمنهج جديد ، يخالف كلّ ما عُرف من الانفلات والانحراف ، يُناهض ما عاشه الناس من استيراد للحلول ، وإعطاء التشريعات الحيوية من عقول بشرية ، لا تسمو إلى الشمول والإحاطة ، وهذا المجتمع له سماته الخاصّة ، ودوافعه الذاتية ، وخصائصه المتفرّدة .

وأهم خاصيّة نلاحظها تتمثّل في ربّانية المجتمع ؛ لأنه يقوم على قواعد العقيدة التي تصوغ البشرية وفق قوالبها ، والتي تقرّر أنّ المجتمع من صنّع الشريعة .

ولقد بنّت حكمة لقمان المجتمع على أساس العدالة الاجتماعية حين

حرّرت الإنسان من عبودية البشر ، وأنقذته إلى عبودية خالق البشر ، فلا معبود سواه ، فهو المُحيي والمميت ، وهو الرزاق ، وهو القادر على كل شيء .

إنَّ ثَمَّةَ نقطة بارزة تتدفّق بغزارة في ثنايا الحكمة ، نجدها في شدّة الإقناع ، وقوة البرهان ، وتبرير الطلب ليتوافق مع الفطرة البشرية في أخصّ مظاهرها ، وجوهر مضمونها ، بحيث يُقدّم لقمان الأمر والزجر ، وكأنّه يُرسلُ الإقناع تِلْوَ الإقناع ، وذلك بسبب الأسلوب الحكيم الذي يوظّف المطالب في مركزٍ منطقي ، ينتهي بصدق المقولة ، وبراءة التعبير .

والقضايا التي ركَزتها حكمة لقمان تتمشّي مع القيم الخيرة والمثل العليا؛ التي تجنّح صوب الآفاق ، آخذةً بناصية الإنسان إلى الحالة الطبيعية؛ إذ تدفعه للتخليق في أجواء الفضيلة ، وعوالم الإيمان في اتّساع رؤياها ، وتفاعل أحداثها ، وتعبيرها المتناسق عن الكون والحياة ، وهذا التخليق يورث الإنسان قُرْباً من المشروعية ، ودنوّاً من حقيقة الوجود .

ويحدّثنا النص القرآني عن حكمة لقمان ، ثم يعرضها علينا مُفَصَّلة مُجَزَّاةً ، تتناول جوانب الحياة ، وتتفرّع على مختلف المستويات العقيدية والأخلاقية والتعاملية ، . . . إذاً فنحنُ أمام حكمة ، والتي تعني الصواب في كل شيء ، ووضع القضايا في مكانها اللائق ، وبالتالي فإنّ التصريح بمضمون الحديث عن الحكمة يقتضي الصدق في الأداء ، والإقناع ، مع إيراد الحجج التي تواجه النفس الإنسانية في أعماقها ، وتطلب منها الاستجابة الثابتة للنداء الخالد والمتمثل في توحيد الله ، وسلوك الاستقامة في معالم الحياة .

والويل لمجتمع أو أمة تنحرف بتفكيرها عن المنهج السديد ، وتناهى عن الفطرة السليمة ، مكثّفةً بالتقدم المادي لديها ، بينما يغرق الأفراد في حماة البعد عن الله ، والغفلة عن الآخرة ، فَمَنْ غفل عنها اختلّت لديه كل المقاييس ، واضطربت جميع المعايير؛ لأنه لم يستخدم عقله استخداماً يليقُ

به ، فبقي سطحيّ التفكير ، ضحل التأمل ، ناقص التصور ، زاهداً في التدبر ،
ويا له من زهدٍ مقيت . قال عز وجل : ﴿ يَلْمُزُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ
هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿ [الروم : ٧ - ٨] .

(ب) التربية الروحية

لا تتحقق إنسانية الإنسان لمجرد كونه ينتمي إلى فصيلة الإنس^(١) ،
ويأكل الطعام ، ويرتوي بالشراب ، ويمشي في الأسواق ، وإنما تتحقق
تلك الإنسانية بارتقائه في النواحي الروحية والأخلاقية ، وبمقدار امتثاله
لتبعات التكليف ، وأمانة الاستخلاف ، مع ما يتداخل في ذلك من تعرّض
الإنسان للابتلاء والفتنة ، وما يلابس حياته الدنيوية من الانتشاء والشعور
بالتعاضم والاعتداد ، بحيث ينسى كثيرٌ من الناس أنهم مخلوقون من
ضَعْف ، وأن رحلة الحياة تنتهي بحفرةٍ من تراب ، ثم تبدأ مرحلة الآخرة
وفيهما الثواب والعقاب . قال عز وجل : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَنِ مَا نَعَىٰ ﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ
وَالْأُولَىٰ ﴿ [النجم : ٢٤ - ٢٥] .

ولكي تتحقق مسؤولية الإنسان على أفضل وجه ، كان خَلْقُ هذا الكائن
يجمعُ بين الروح والجسد ، ويهتمُ بعقيدة الروح ، لكنه في الوقت نفسه
لا يُعْطَلُ عقول المؤمنين ، ولا يبخل الروحُ حقوقها ، ولا يهتم بمطالب
الجسد ليوفي الروح مقتضياتها ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا جنوح
ولا شطط ، وذلك من خلال حياة وسطية معتدلة ، وهي الفطرة التي فُطِرَ
الإنسانُ عليها ، وفيها تتحقق السعادة للفرد والمجتمع . قال عز وجل :
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦] . وقال عز
وجل : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤] .

ومن خلال الآيات القرآنية تتضح ملامح تلك الوسطية ، حيث ينهى القرآن عن تحريم المباح وعن إباحة المحرم ، فيقول عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَحَرِّمُوا إِتَّ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۚ ﴾ [٨٧- ٨٨] . ويتعلَّم الإنسان من نصِّ القرآن الكريم أن يكسب الطيبات ، وينفق منها دون إسراف ، وعليه واجب الشكر لمن أخرج تلك الطيبات ، وجعلها مستساغة للناس . قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] . وقال سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

فلا تناقض بين الروح والجسد ، ولا تنازع بين الدنيا والآخرة ، فالإنسان مُطالبٌ بتجسيد متطلبات المعيشة الأرضية ، والتمكين في الحياة الدنيا ، مع العمل لعمارة الآخرة ، فمن امتلك مقومات الحياة ، فعليه أن يسعى للتنمية والتجديد والارتفاع ، وأن تكون نيته مرتبطة بالآخرة ، فلا ينحرف عن طريق الخير ، ولا يشغل بمتاع الدنيا عن تحقيق التكاليف المناطة به ، فالحياة تقتضي شكر المولى ، وعبادته ، وتوجيه الأعمال لترتقي إلى مراتب العبادات ، وبذا يتناسق الدأب والجد والنشاط مع الارتقاء الروحي ، قال عز وجل : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

ولم يجعل الله تعالى التعادل بين الأخذ بمتطلبات الدنيا وتحقيق أشواق الروح ؛ لأنهما سواء في المنزلة ، لا ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الإسلام مبنياً على قواعد العلم ، ونواميس الطبيعة ، وقد قرَّر العلم أن العقل السليم لا يكون إلا في الجسم السليم ، وأن السمو الروحي لا يحصل من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات في دائرة

الاعتدال ، ولكن على الرغم من هذا يقرر القرآن أن الحياة الأخرى خيرٌ من الحياة الدنيا ، وأن الكمال الروحي هو الغاية التي يجب أن يتَّجه إليها كل مسلم ؛ ولهذا يُحذِّر الله مَنْ يركن إلى الحياة الدنيا دون أن يستعدَّ بالعمل الصالح للآخرة^(١).

قال الله عز وجل : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَشُونَ ﴾ [أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] [هود: ١٥ - ١٦]^(٢).

والناسُ فريقان : الفريق الأول : يهتم بالدنيا وحدها ، ويحرص عليها أشدَّ الحرص ، وينشغل طوال عمره بعلومها وزخرفها ومتاعها وجاهاها ، فلا فراغَ عنده للتفكير بغيرها ، قد امتلكت عليه مشاعره ، وخلبت لُبَّه ، حتى إنه إذا توجهَ إلى الله تعالى بالدعاء يدعو لدنياه فحسب ، وينسى آخرته .

والفريق الثاني : يجمع بين الدنيا والآخرة ، فهو يُبني دنياه ، ويرضى بما اختاره خالقُه ، ولا ينسى نصيبه من الآخرة ، فيصل القلبُ بخالق الأرض والسماء ، ويدعوه طالباً الحسنة في الدارين ، والخير في الدنيا ، والربح في الآخرة ، من خلال منهج معتدل ، وتصوُّر متزن ، فهو يملك أفقاً رحباً في تفكيره ، وانطلاقاً أوسع في اتجاهه ، فتعلو اهتماماته ، ويتصل بالأفق الأعلى ، وذلك الفوز العظيم . قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَّتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾ [وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] [أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢]^(٣).

(١) روح الدين الإسلامي ؛ لعفيف طيارة (١٣٣).

(٢) ﴿ لَا يُبْخَشُونَ ﴾ : لَا يُنْقَضُونَ شيئاً من أجور أعمالهم . ﴿ وَحَبِطَ ﴾ : بَطَلَ في الآخرة .

(٣) ﴿ خَلَقَ ﴾ : نصيب من الخير ، أو قَدْر .

وهذا هو المسلم العاقل المتزن؛ الذي يتجرّد من عبادة الشهوات ،
ويتمرّد على زيف الأهواء والمتاع الزائل ، فيربط وجوده بالإيمان الخالص ،
واليقين الذي لا يتزعزع ، فهو كالشجرة الطيبة ، أصلها ثابت وفرعها في
السماء .

وقد عبّر الشاعر محمد إقبال عن هذه الحقيقة فقال : «إنك أيها المسلم في
العالم وحدك ، وما عداك سرابٌ خادع ، ودرهم زائف»^(١).

وتتحقق التربية الروحية من خلال المرتكزات التالية :

* توجيه الإنسان إلى الفطرة :

أشار ابن منظور^(٢) إلى أنَّ الفطرة هي : ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة
به . قال عز وجل : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] . وقولُ
النبي ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة»^(٣) معناه : أنَّ الله فطر الخلق على
الإيمان به على ما جاء في الحديث : «أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر
آدم عليه السلام بنعمان - يعني : بعرفة - فلما أخرج من صلبه كل ذرية ذراها
نثرهم بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قبلاً فقال : ألسنُ بربكم؟ قالوا : بلى»^(٤) .
وكل مولود هو من تلك الذرية التي شهدت بأنَّ الله تعالى خالقها .

وكل مولود يُولّد على معرفة الله سبحانه ، والإقرار به ، فلا تجد أحداً إلا
وهو يُقرُّ بأنَّ له صانعاً ، وإنَّ سمّاه بغير اسمه ، ولو عبّد معه غيره .

قال الراغب الأصفهاني^(٥) : وفطرةُ الله : هي ما ركّز الله في الإنسان من
معرفة الإيمان ، وهو المشار إليه بقوله عز وجل : ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ

(١) روائع إقبال؛ لأبي الحسن الندوي (٨٨) .

(٢) لسان العرب؛ مادة (فطر) .

(٣) رواه البخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨) .

(٤) رواه أحمد (٢٧٢/١) والأسماء والصفات ؛ للبيهقي (٥٨/٢) .

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (٦٤٠) .

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴿ [الزخرف: ٨٧] . ويدعو القرآن الكريم الناس للتخلص من الأهواء الضالة ، والاتجاهات المنحرفة ؛ التي لا تستند إلى أسس الحق ، ولا مرتكزات الاستقامة ، إنما تلهث خلف الشهوات والأنانية والأثرة ، وتُعَلِّي من مكانة النزوات بغير قيد يعقلها ، أو ضابط يلجمها ، وحينها يكون الإنسان متفلتاً عن الفطرة ، شارداً عن ربّه ومنهجه المستقيم ، فيناديه الله عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ [الروم: ٣٠] وأتّجه إليه الاتجاه الصحيح المعهود ، فهو العاصم من الزلات ، والواقى من الضلال والانحراف .

وهذا الدين الحنيف يوافق الفطرة الإنسانية ، فكلاهما يصدر من منبع واحد ، ويوافق اتجاهها لا يتخلف ، وينسجم مع طبيعة لا تزيع .

وقد خلق الله تعالى الإنسان من أجل العبادة ، وجعل فطرته مترنة ، وهداه للحق الثابت ﴿ لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقِ اللَّهُ ﴾ [الروم: ٣٠] . فإن انحرفت النفس عن جادة الفطرة السليمة ، فإن الدين يرعاها الرعاية المثلى ، فيردّها إلى الاتجاه السليم ، وحينها تفيء إلى خالقها ، وتحظى بقربه بقوام سعادتها : ﴿ ذَلِكَ أَلْيَسُ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] .

إنّ العودة إلى الفطرة الربانية تعني أن يُنِيبَ الإنسان إلى خالقه ، ويعود إلى منهجه في كل شاردة وواردة ، مُتَمَسِّكاً بالتقوى ؛ فهي الرباط الأقوى ، مع مراقبة الله تعالى في السر والعلن ، وإقامة العبادات بإخلاص وحُسن توجّه . قال عز وجل : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١] .

وإن فطرة الله والعودة إليها تعني أن يتحكّم الإنسان برغباته ، ويسيطر على نزعاته ، بحيث يتعلم شيئاً فشيئاً الوصول إلى السمو الروحي ، وتعميق منهج الاستسلام لله تعالى .

إِنَّمَا الْجِسْمُ آلَةٌ وَبِنَاءٌ وَالسُّمُوءُ السُّمُوءُ لِلْأَرْوَاحِ
وقد ربّى القرآن الكريم الناس على الأفعال الحسنة ، ومكارم الأخلاق ،

واعتنى بالتربية الروحية؛ باعتبارها أساساً لكل عملٍ خَيْرٍ ، فَمَدَحَ الذين يتحكمون بأنفسهم ، ويضبطون مشاعرهم ، قال عز وجل: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وبَيَّنَّ أن المال اختبار للبشر ، فهو وسيلة الخير والشر ، فمن استخدمه في الطاعات فاز بمَرْضَاةِ الله . قال عز وجل: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدُكُمُ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] فبمقدار امتلاك الإنسان للقيم الأخلاقية ، فإنه يتخفف من شرور المال ، فيضحّي به في سبيل الله ، ويستعلي على شهوته ، مُتَطَلِّعاً لما عند خالقه من الأجر العظيم .

ولا ينهض المرء بهذا التكليف إلا بعدة تساعده على السير ، وهذه العدة تتمثل في زاد التقوى ، حيث يحيا القلب ، ويتيقظ لحقيقة الأمر ، فالمال فتنة ، وعليه الاحتياط والحذر؛ مادام في حياته الدنيا .

كما ينهى القرآن الكريم الإنسان عن الفرح المؤدّي إلى الكِبَر ، فيقصّر على المسامع قصة «قارون» الباغي الظالم ، الذي ابتعد بهواه عن الله تعالى ، وسيطر عليه حبُّ المال والزينة ، فتكَبَّرَ ، وطغى ، وتَجَبَّرَ ، حيث آتاه الله مالا كثيراً ، فبخل به ، وحرّم أصحاب الحقوق ، وحاول بعضُ قومه أن يردّوه إلى المنهج المعتدل ، وحذّروه غضبَ الله ، وعقابه ، لكنه أصمّ أذنيه عن سماع الحق ، فاعتزّ بماله ، وتكَبَّرَ بثرائه ، وتعلّق بكنوزه ، وتناول على العباد ، واستمر ينفق الأموال في غير الوجه المشروع ، ويمسكها عن المستحقين ، فكفر بالنعمة التي أولاها الله له ، وكانت النهاية تحطيماً للغرور في مهاوي الردى . قال عز وجل: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاحِهِمْ لَنُحْزِنُوهُ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ٦٦ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٦٧ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ٦٨ فَخَرَجَ

عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَأَوْا
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۚ فَخَسَفْنَا بِهٖ وَبِءَادِرِهِ الْأَرْضَ ﴿

[القصص: ٧٦ - ٨١].

أما السرور الحقيقي فهو الفرح بفضل الله وبرحمته ، المتمثلين فيما جاء
من موعظة وهدى وشفاء لما في الصدور ، لا بالمال الوفير ولا بمتاع الدنيا
الفاني ، قال عز وجل: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي
الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

وبعد أن بيّن القرآن الكريم أن المال فتنة ، والدنيا متاع زائل ، وذم
طغيان المال ، ونهى عن الفرح المؤدّي إلى الاستهتار بالنعمة ؛ وجّه
النفوس نحو البذل والعطاء ، ونهى عن البخل ، ووعد بالفلاح لمن تخلّص
من رذيلة الشح ، قال عز وجل: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وما يبذله الناس إن هو إلا رصيد مدّخر لهم في الآخرة ، يجدونه حسنات
كثيرة ، ودرجات رفيعة ، وغفراناً كبيراً ، أما البخلاء فلا رصيد لهم ،
وحُبُّهم للمال ، وجرّصهم عليه يجعلهم يبخلون عن البذل ، وبالتالي يقلُّ
رصيدهم ، إن لم ينعلم. قال عز وجل: ﴿ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ
وَاللَّهُ الْعَنِي وَأَنۢتُمْ أَفْقَرَاءُ ﴾ [محمد: ٣٨].

✽ الإيمان بالله تعالى :

يميل الإنسان إلى الإيمان بالله بفطرته ، ويهتدي إلى خالقه من خلال نعمه
المبثوثة في كل شيء في هذه الحياة ، وبالتالي تسكن الروح إلى ملاذ ربّها ،
وتجد عنده السعادة المثلى ، والطمأنينة النفسية التي لا تُحْدُ؛ وذلك أنَّ
الصلة بين الإنسان وخالقه تقوم على أساس الإيمان بالخالق العظيم ،
ومحبّته ، وشكره على ما أنعم به وتفضّل.

وأهمُّ غايةٍ للإيمان بالله عز وجل هي تربيةُ الحياة الروحية للإنسان ، وإيقاظ ضميره الحي ، والحصول على السعادة النفسية ، والتخلص من الأدواء والأسقام والشرور ، فللضمير دورٌ مُرشِدٌ لسلوك الإنسان وهو يغدُّ السير في حياته الدنيا .

وليست السعادة في جمع المال ، أو تثير المدخرات ، أو إشباع الشهوات ، فالمال يفنى ، والمدخرات تتلاشى ، والشهوات تضعف ، والكوارث تتوالى ، ويبقى الاتصال بالله تعالى قمة القمم ، ورأس كل سعادة حقيقية .

ولا يتخلَّص المرء من الهم الضاغط ، والقلق الماحق ، والحزن العميق ، والكبت المقيت ، وغير ذلك من الأمراض النفسية ؛ إلا إذا عمَّق صلته بالله سبحانه ، وآمن بالله الإيمان الصحيح ، وهذَّب سلوكه ، فأدى الحقوق ، وعلم أن الله يراقبه كل حين ، وهو ينصت إلى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَآئُوسٍ بِهِۦ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

والإيمان بالله تعالى يُطَلِّق النفس إلى آفاق واسعة ، ويفتح أمامها آماداً رحبة ، فينأى عن المعاصي ، ويستكبر عن النزعات الأرضية ، ويستعصي على الشهوات ، وهو يسعى بدأبٍ لا ينقطع لتحقيق غاية الحياة ، المتمثلة في عبادة الله ، والانصياع لصوت الحق .

إنَّ الإيمان بالله يتربَّب عليه العمل الصالح ، فليس الإيمان كلمات تتردَّد فحسب ، وتمتات شفهيّة وكفى ، بل الإيمان صنو العمل ، وليس أي عمل ، إنه العمل الصالح ، وهو « الترجمة العملية ، والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حدَّدتها فلسفةُ التربية الإسلامية بين الإنسان والخالق ، والكون ، والحياة ، والآخرة »^(١) .

ويتربَّبُ على الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح : مرضاة الله عز وجل ،

(١) أهداف التربية الإسلامية ؛ للدكتور ماجد الكيلاني (٤٧) .

وثوابه العظيم ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ حَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة : ٧] . وقال سبحانه : ﴿ وَيَسِّرْ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥] . وقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠] .

وأخبر الله عز وجل أنه يرعى المؤمن ، ويهديه هداية مطلقة ، فيطمئن قلبه ، وتستريح نفسه ، ويقر ضميره ، إذ يقف على المعرفة الحقيقية الواصلة بين الإنسان وربّه . قال عز وجل : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

فالإيمان وسيلة تربوية روحية ، يتغلب الإنسان من خلال هذه الوسيلة على مصاعب الحياة ، ويتخلص من آلامها ، إذ يلجأ إلى الله العزيز ، ويحظى بالملاذ الآمن ، وبالتالي تتسامى روحه ، وتعلو في ارتقاء متواصل ؛ إلى مرتبة المحبة والإحسان .

❖ ذكّر الله سبحانه :

ونعني بالذكر : استحضار الله تعالى في القلب ، ومراقبته كأنه يراه ؛ وهو الإحسان ؛ الذي هو أعلى مرتبة من الإسلام والإيمان .

وثمة آيات كثيرة تُرغّب بذكر الله ، وتحث عليه ؛ في جميع الأحوال . قال عز وجل : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ إِذْ كُنْتُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] . وقال تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة : ٢٠٠] . وقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] . قال الإمام النسفي : « أي : دوّموا على ذكر الله في جميع الأحوال »^(١) .

وتتجلّى آثار ذكر الله في غذاء الروح ، والشعور بالاطمئنان لحظة الذكر وبعدها ، حيث تسري الكلمات الندية في القلب ، فيحس لها سلاماً وخشوعاً وأنساً لا يُوصف .

(١) تفسير النسفي (١/٣٩٢) .

والفرق شاسع ، والهوة سحيقة بين ذاكرٍ لربه ، مطمئن إلى حماه ، مرتكن إلى قوته ، وبين شقي فاجر ، يعيش نكداً ، وانبتاتاً عن الذكر ، فيحرم الطمأنينة والسكينة والغذاء الروحي ، وبالتالي تكون حياته حياة الضنك والقسوة والبعد عن الله . أما الذاكر فله حياته الخاصة ، ومشاعره الثابتة ، واطمئنانه بالله الذي لا ينقسم عنه . قال عز وجل : ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

وتكون التربية الروحية بذكر الله تعالى قضاءً على مصدر الهم والقلق ، وتصوراً لعظمة الخالق المولى ، فلا يصدر المرء إلا عن فعل أو قول أو سلوك يرضي الله ؛ لأنه يعلم أن ربه مطلع عليه ، أما الذي لم يستجب قلبه بعد لذكر الله ، فما يزال يحسُّ بقسوة ممضة ، فإن الله تعالى يحض صاحب ذلك القلب كي يستجيب للشعور بجلال الله ، فيخشع لذكره ، ويطيع أوامره ، ويستسلم للمشاعر الفياضة ، ذات الإيقاع المؤثر . كما يحذر عز وجل من تقاعس المرء عن الاستجابة لنداء الحق ، وصوت الذكر ، وهتاف الحقيقة ، إذ يغفل القلب ، فيقسو ، ولا يخشع ، فتتطمس الإشرافات ، وتظلم الجنبات ، فيأتي قول الله عز وجل مذكراً ، مَوْظَئاً : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلَافٍ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٦] .

وتهدف التربية الروحية في الإسلام إلى إيجاد حقيقة الذكر ؛ من خلال «طاعة الله تعالى ، والتزام حدوده وشرائعه وأحكامه وآدابه ، والمراد بالطاعة : جميع أنواعها ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وتلاوة القرآن ، وتسبيح ، وتحميد ، وتهليل ، ونصيحة ، وغير ذلك ، فإن المطيع الذي أطاع الله ؛ هو الذي ذكر الله بقلبه ولسانه»^(٩) .

وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ قَوَّيْتُ صِلَتَهُ بِهِ سُبْحَانَهُ ، وَأُنِيرُ مَصْبَاحَ عِبَادَتِهِ ، وَلَانِ قَلْبُهُ ،

(٩) ذكر الله تعالى ، للدكتور وهبة الزحيلي (٩) .

وتوجّه نحو الخير ، وشعّ عنده الأمل ، وتجاوز الأزمات ، وتخلّص من الوسواس والعُقد .

❖ الحب بين العبد والرب :

من وسائل التربية الروحية : إقامة علاقة وثيقة بين العباد وربهم ، تقوم على أساس الحب والرضا المتبادل ، والرابطة الوشيعة الرائقة التي تعزّز رباط المؤمنين بالله الرحيم الودود . فالله تعالى يحب عباده المؤمنين ، المتقين ، الصالحين . وقد ذكر القرآن الكريم أصنافاً ممن يحبهم فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة : ٤٢] . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

ولا يدرك حبّ الله إلا مَنْ ذاقه ، وعرفه تمام المعرفة ، وسرى في أعماق شعوره ، وقيعان نفسه ، فاستشعر عظمة الله ، وقدرته ، وتفضّله ، وأدرك أسرار أسمائه الحسنى ، وإنعامه على عباده ، وفُضله الغامر عليهم .

وحُبّ الله لعباده أصل أصيلٌ في التصور الإسلامي ، يطبعه بطابع ندي ، ودود ، فالله تعالى يحبّ عباده المؤمنين ، ويستجيب لدعائهم وتضرعهم ، قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] فإضافة العباد إلى الله سبحانه دليل محبته ، وودّه الأنيس ، واستجابته الفورية دون وسائط .

والله سبحانه عندما ذكر أقوال المشركين ، كان جوّ الآيات مشحوناً بالغضب والارتعاش ، حتى إن الطبيعة الصامتة شاركت في رسم حركة الارتعاف من نُطق المشركين بأنّ الله ولداً ، قال عز وجل : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۚ تَكَادُ السَّعَوتُ أَنْ يَنْفَطَرَنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَيَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۚ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنَّ كُلَّ

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عِندَا ﴿١٢﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٣﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فََرْدًا ﴿١٤﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٥] (١).

وفي وسط هذه الرهبة تحدث القرآن عن المؤمنين ، فإذا هم مُحاطون بوَدِّ الله الشفيف ، الرخي ، الرضي ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] . والودُّ : الحب .

وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى : الودود (٢) ، وهو : المتوَدِّد إلى عباده بنعمه ؛ الذي يودُّ مَنْ تاب إليه ، وأقبل عليه ، وهو الودود أيضاً ، أي : المحبوب . والتحقيق أن اللفظ يدلُّ على الأمرين ، على كونه وادًّا لأوليائه ، ومودوداً لهم ، فهو الحبيب ، المحبُّ لأوليائه ، يحبهم ويحبونه ، وقال شعيب عليه السلام : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] .

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فإنَّ الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه ، وكذلك قد يرحم مَنْ لا يحبُّ ، والربُّ تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فإنه يحب التوابين ، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان .

وهو الودودُ يحبُّهم ويحبُّه
وهو الذي جعلَ المحبةَ في قلوبهم
وَجَازَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ
هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ حَقًّا لَا مَعَا
لَكِنْ يَحِبُّ شُكْرَهُمْ ، وَشُكْرُهُمْ
وَهُوَ الشُّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ
أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَثَانِ
بِهِمْ وَجَازَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ
وَضَةً وَلَا لِتَوْفَعِ الشُّكْرَانِ
لَا لاحتِاجَ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ
لَكِنْ يَضَاعِفُهُ بِلا حُسْبَانٍ
وَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَنْقُطُ ، وَإِحْسَانُهُ مُسْتَمِرٌّ عَلَى الدَّوَامِ ، فَيَعْلَمُ الْإِنْسَانُ
أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَيْهِ ، فَيَحِبُّهُ سُبْحَانَهُ ، وَيَصْبِحُ قَلْبُهُ مَشْغُولاً بِهِ ، وَيَتَوَجَّهَ

(١) ﴿ شَيْئًا إِذَا ﴾ : منكرًا فظيلاً . ﴿ يَفْطَرْنَ مِنْهُ ﴾ : يتشققن ويتفتتن من شناعته . ﴿ وَخَيْرٌ لِّبَالِ هَذَا ﴾ : تسقط مهدودة عليهم .

(٢) النبيان في أقسام القرآن ؛ لابن قيم الجوزية (٥٩) .

عمله خالصاً لوجهه الكريم ، وتتحول لذته إلى الإكثار من الطاعة ، وارتياحه في المزيد من الإيمان والعبادة والتقرب من المُنعم الجليل .

يقول العلامة الشيخ السعدي^(١) - رحمه الله - : محبة الله هي روح الأعمال ، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله . ومحبة العبد لربه فضلٌ من الله وإحسان ، ليست بحول العبد ولا قوته ، فهو تعالى الذي أحبَّ عبده ، فجعل المحبة في قلبه ، ثم لمَّا أحبَّ العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر ، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة ؛ إذ منه السبب ومنه المسبب ، وليس المقصود منها المعاوضة ، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم ، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد ، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين ، ثم لم يزل يُنمِّيها ويُقوِّبها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب ، وتسليهم عن الأحباب ، وتُهَوِّن عليهم المصائب ، وتُلدِّذ لهم مشقة الطاعات ، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات ؛ التي أعلاها محبة الله ، والفوز برضاه ، والأنس بقربه .

ويشير الدكتور زكي مبارك^(٢) إلى أنَّ حُبَّ الله من أهم القواعد في بناء الأخلاق ، وهو يُحوِّلنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شر ولا عدوان ، وقد يصل بنا إلى حُب كل شيء في الوجود حين نتمثَّل العالم كله من صنع المحبوب ، وهذا بالطبع لا يتيسَّر إلا حين يغلب علينا الصفاء ، فننسى البغض والحقد والانتقام والحسد وسائر الدسائس الصغيرة ؛ التي تفسد جمال الحياة ، وتُصَيِّر الأحياء أشقياء .

هذا ، ويقوم المرئي بتوجيه المتعلِّم إلى آثار محبة الله للعبد ، ومحبة العبد لله ، وذلك يتجسَّد في قيام الإنسان بطاعة مولاه ، وترك ما نهى عنه ،

(١) شرح القصيدة النونية (٩٦) .

(٢) التصوف الإسلامي ؛ للدكتور زكي مبارك (٦١/٢) .

والحرص على ما يوجب رضاه ، فالحب مرتبط بالعمل ، وأداء الحقوق ، واقتفاء آثار الحق ، ولنسمع قول الشاعر يحدد لوازم المحبة :

تعصي الإله وأنت تُظهِرُ حُبَّه هذا لَعَمْرِي في الفِعالِ بديعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعته إِنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مُطيعُ

فلا مكانَ لادِّعاء المحبة مع التفريط في العمل ، والاستهانة في القيام بالواجبات ، قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فمن أحب الله وصل إلى الكمال ، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

* خشية الله تعالى والإنابة إليه :

من مفردات التربية الروحية في القرآن الكريم : خشية الله تعالى ، وتحمل معنى الخوف المتَّصل بالأمل ، فالذي يخشى ربَّه يعتصم بحبله المتين ، ويلتجئ إلى جنابه المكين ، مستشعراً عظمة الخالق ، فينتج عن هذه الحالة رهبةٌ تحولُ بين الإنسان وبين الميل إلى الشر والفساد .

والمتمائلُ في القرآن الكريم يلاحظ أن الخشية مرتبطة بثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى ، وهي : الله ، الرب ، الرحمن .

قال عز وجل : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

وجَمَعَ الله سبحانه في آية واحدة بين طاعته وخشيته وتقاه ، فقال عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] . فالطاعةُ مصحوبة بخشية الله ، ومُزَيَّنة بتقواه ، وهذا يجعل الإنسان يحسُّ بمراقبة الله ، ويستشعر وجوده عند كل قول وعمل ، فيتحرَّج من اقتراف السيئات ، إجلالاً لله ، وخشية منه ، واستحضاراً لهيبته ، فتغلب الخشية

على الاندفاع لفعل المعاصي ، إذ يشرق القلب بنور الله سبحانه ، ويتصل بأدب الطاعة ، ويعلو صوت الضمير يُنْفِرُ المؤمن من الآثام ، فيستعلي عليها ، ويحني رأسه استشعاراً لعظمة الله الواحد القهار .

كما ربط القرآن الكريم بين الخشية والرب ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الرعد : ٢١] .

وقال جلّ في علاه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ولعلّ هذا الارتباط قد كان ؛ لأنّ الربّ هو الذي خلق فسوّى ، والذي قدّر فهدى ، وهو الذي ربّى وأرشد ، ومنّ أعطى الفضل برحمته ؛ قادر على سلّبه بقدرته ، فكان بذلك أهلاً لأنّ يخافه الناس ، ويخشوه^(١) .

كما نجد الاتصال وثيقاً بين الخشية واسم الله «الرحمن» ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ ﴾ [يس : ١١] .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ خِشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٣] .

والرحمن : ذو الرحمة ، والرحمة من الله : إنعام ، وإحسان وتفَضُّل . والرحمن هو الذي يرحم المضرور ، ويقدر على دَفْعِ الضَّرِّ عنه . وقيل لله عز وجل : رحمن ؛ لأنه يملك الرحمة ، ويقدر على كشف الضر ، ويُلْجَأُ إليه برحمته^(٢) .

ولعلّ سرّ الارتباط بين الخشية والرحمن هو : أنّ المتحلي بفضيلة الخشية يستحق الرضا والرضوان ، وهما من فضل الله الرحمن ، المنعم بدقائق النعم وجلالها ، ولعلّ من سرّ ذلك أيضاً : أنّ الله تبارك وتعالى يريد أن يُذَكِّرَ الْمُتَّصِفِينَ بصفة الخشية أنها ليست صفة رعب أو فزع ؛ لأنها موصولة الأسباب بمصدر الرحمة : الرحمن الرحيم^(٣) .

(١) موسوعة أخلاق القرآن ؛ للدكتور أحمد الشرباصي (٤٣/٣) .

(٢) الزينة ؛ للرازي ، حققه حسين الهمداني (٢٢ - ٢٣) .

(٣) موسوعة أخلاق القرآن (٤٤/٣) .

ولا يُكفى من الإنسان أن يعرف بعض الأحكام ، ويؤدي شيئاً من العبادات ؛ لينال درجات الله العلية ، ويحظى بثوابه الجزيل ، بينما ينضح قلبه بأنواع الشرور والكره والضعينة ؛ وتُحشى نفسه بالحسد والحقد والرياء ، وينطق فمه بالكذب والبهتان والنميمة ، فلا خشوع ، ولا إخلاص ، ولا رضا ولا خوف من الله تعالى ؛ ولذلك عندما وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات ، ويترتب على ذلك نيل الجنات ، ورضا الله وإنعامه عليهم ، احتاط لثلا يقع سوء فهم من بعض الناس ، فيظنون أن أداء الشكليات وحدها ، والاكتفاء بالمناسك الظاهرة ؛ يهيئ المرء للفوز بالجنة ، بئد أن القرآن الكريم ركّز على خشية الله ، وضرورة استشعارها أمام كل قول أو عمل ، فهي تصل القلب بخالقه ، وتنهى الإنسان عن الانحراف ، وتدفعه للإخلاص ، وتنقية السلوك من الشوائب والأدران ؛ قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝ ﴾ [البينة : ٧ - ٨] .

فلا يكون الجزاء الحسن ، إلا لمن خشي ربه ، واستشعر خوفه في فؤاده ، واستحضر عظمته في نفسه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ﴾ [النازعات : ٢٦] .

ويمكن للمربي أن يبين نتائج خشية الله ، وآثارها الإيجابية في نفس المتعلم ، فهي تحضه على الشجاعة ، ومواجهة المواقف ، وقول الحق ، والصّدق به . قال تعالى : ﴿ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ ۖ فَإِنَّ أَصْحَابَ الْإِيمَانِ لَمَنْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ ۖ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [التوبة : ١٣] . فالمؤمن لا يخشى أعداء الدين ، وليس للخوف منهم في قلبه مكان .

وقد مدح القرآن الكريم الرسل الذين بلغوا ما كُلّفوا به ، ونفذوا ما طُلب منهم ، ولم يخشوا أحداً وهم يتابعون رحلة التبليغ ، ويلاقون عنت الأداء ، ويواجهون المشقات والأواء ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

وطوبى لمن خشي ربّه ، وانتفع بالقرآن ، فأتبع ما جاء فيه من الأحكام والتكاليف ، والترغيب والترهيب ، وأدرك الدروس فاستفاد منها ، ووعى العبر فوظفها في حياته وسلوكه ، وخاف من الله بالغيب ، وعمل الصالحات ، واستقام على النهج القويم ، وذلك له مغفرة من الرحمن وأجر عظيم . قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا نُذِرُ مَنْ أَتَبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس : ١١] .

(ج) التربية الوجدانية

إن المقصود بالوجدان هو : تلك القوة الداخلية في الإنسان ، والتي تأمر بالخير ، وتنهى عن الشر ، وهي تسبق الفعل فتحرّضُ الفاعل على الإقدام لسلوك طريق الصواب والصالح ، أو تحذّره من اقتراف الخطايا والسيئات ، وتلك القوة الداخلية بمثابة النبراس الكاشف ، والقائد الحكيم ، والحاسة الغريزية الأخلاقية . وبمعنى آخر هي : إيجاد الحافز الذاتي المحرّك للعواطف ، والموجّه للإرادة ، بحيث يدفع لممارسة سلوك معين .

ولإيجاد هذا الحافز يتّبع المربّي الطرق التالية^(١) :

✽ طريق الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره :

فبناءً هذه القاعدة الإيمانية يعملُ على ربط إرادة المتعلّم بما يرضي الله تعالى ، ويترجّى اليقينُ المهيمن بأن الله لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر ، وأنّ مصلحة الإنسان مرتبطة بفعل ما يأمرُ اللهُ به ، وترك ما ينهى الله عنه ، كما يرتبط به اليقين بأن الله تعالى يجازي على الخير خيراً وعلى السوء سوءاً ، وفّق قانون الحق والعدل والفضل الرباني .

فالحافز الذاتي المتولّد من الإيمان بالله وباليوم الآخر وبقضاء الله وقدره هو حافز مؤثّر وفَعّال في دَفْع المتعلّم إلى فِعْل الخير ، والالتزام به . وهو في

(١) الأخلاق الإسلامية ؛ لعبد الرحمن حبنكة (١/ ١٩١) .

الوقت نفسه رقيبٌ ذاتي ، يصاحب الإنسان في جميع أحواله ، وحيث لا تراقبه رقابة قانونية بشرية .

وهذا الحافز يقبض على زمام العقل بالحق والبرهان ، ويهيمن على ناصية القلب بعاطفة محبة الله ، وابتغاء رضاه ، ويلجم النفس بالخوف من العقاب والطمع بالثواب ، وبالتالي تتربى الثقة بالخالق العظيم ؛ مما يقود إلى اتباع منهجه ، وطاعته ، والتسليم لما يأمر به ، دون شعور بأيّ عقبة نفسية ، أو نزاع داخلي ، فإذا بالإنسان يتحلّى بمكارم الأخلاق ، ويُقوّم حياته بسلوك الجادة القويمة المتمثلة بالإيمان بالله ، والرضا بالقضاء والقدر .

* طريق الإقناع الفكري :

ويتكوّن هذا الطريق بتعليم المتعلّم الفضائل الأخلاقية ، وأهميتها في حياة الفرد والأمة ، وأنّ لها ثمرات يانعة ، ونتائج طيبة ، وفوائد حسان في الدنيا والآخرة ؛ مما يؤلّد في النفس الرغبة الصادقة للتحلي بها ، واعتمادها سلوكاً حياً واقعياً .

كما أنّ توضيح النقائق الأخلاقية ، وبيان نتائجها السلبية السيئة ، له دورٌ كبير في تنفير النفس منها ، ومن ثم تكوين الرغبة الصادقة باجتنابها .

ولكي تتفاعل التربية الوجدانية في النفس لا بُدّ من الإقناع الفكري ، واتباع منهج حكيم منطقي سليم هادىء ، تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ آدُعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وعندما أراد القرآن الكريم أن يربّي في المؤمنين طَلَبَ الْعُلَا ، ويحثّهم على أداء الأمانة المنوطة بعواقبهم ، أدخلهم في تجربة جليّة ؛ لتعميق هذا الشعور ، وتربية ذاك الوجدان ، فإذا ببعضهم يترقّب الخير الكثير من الجهد القليل ؛ فالخلاف بين المشركين والمؤمنين يجرّ متاعب وآلاماً ، ولا بُدّ من تحمّل الضّر والشدة والمشقة ، والثبات في المحنة والفتنة ، وعندها يستحقون النصر ، والجنة ، والثواب الجزيل .

وكانت هذه التربية الوجدانية عن طريق الإقناع العقلي ، إذ ضَرَب القرآنُ مثلاً بتجارب الجماعات المؤمنة السابقة؛ التي تعرَّضتُ للبأساء والضراء ، لكن ثباتها حَقَّق لها النصر ، والتأييد من الله سبحانه . قال عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

❖ طريق الترغيب والترهيب :

مما لا يخفى أن الترغيب والترهيب له أثره الفعَّال في تحريك محوري الطمع والخوف في النفس الإنسانية ، فالترغيب يشجّع ويحث ويحضّ ، والترهيب يُثَبِّط ويُعَوِّق ويمنع . وقد اعتمد القرآن الكريم في منهجه التربوي على الترغيب والترهيب ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء : ٩ - ١٠] .

ومنهج الرسل هو تبشير المؤمنين الطائعين بالحياة السعيدة في دنياهم ، وبالجنة ورضوان الله في أخرهم ، مع إنذار العصاة والكفرة والفاستين بالشقاء في حياتهم الدنيا ، وبتصلية النار في الآخرة . قال عز وجل : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٨] .

ولهذا حفلت آيات القرآن الكريم بحشد هائل ، وصور كثيرة من الترغيب والترهيب ، وتنوّعت أساليب العرض؛ للتأثير في الناس على مختلف أفكارهم ومستوياتهم ، فكان هذا الأسلوب أسلوباً تربوياً رفيعاً ربانياً حكيماً .

❖ تربية الوجدان الأخلاقي :

وتكون هذه التربية بتعريض الوجدان لخبرات ومشاهد ، يحسُّ فيها المتعلّم حلاوة الفضائل ومرارة الرذائل .

فإذا عرضنا مشاهد من العطاء أمام المتعلّم ، فإن وجدانه يشعر بحلاوة هذه الفضيلة ، ويتبيّن آثارها الطيبة في الفرد والمجتمع . وبالمقابل فإنّ عَرَض مشاهد البخل والشح أمام المتعلّم ، يجعل وجدانه ينفر من تلك الرذيلة ، وتُضَح أمامه نتائجها السيئة .

ويمكن أن يعرّض المرَبّي المتعلّم لمشهد من مشاهد الشجاعة ، كي يشعر بجلالها وجمالها وحلاوتها ، فيترى وجدانه بالتقرُّز من الجبن ، والاشمئزاز منه .

ويقرن الوجدان في التربية الإسلامية بكلمة القلب ، باعتباره أنه مَثْوَى الإيمان والكفر ، ومستقر التقوى والمعصية ، ومكان الاطمئنان والخوف .

يقول الله تعالى عن المنافقين بأنّ قلوبهم انتابها الشك ، وأصابها عِلَّةٌ خطيرة هي عِلَّةُ النفاق والانحراف عن الطريق الواضح المستقيم . يقول عز وجل : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] ^(١) .

ويعرّض القرآن الكريم موقف المؤمنين والمنافقين في تلقي آيات الله ، واستقبال تكاليف الدعوة والعقيدة ، فالمنافقون يشكون في مصداقية التنزيل ، وأثره في القلوب والتغيير نحو الأفضل ، ففي قلوبهم رجس النفاق والبعد عن الحق . قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] . ولما كان القلب مركز الإيمان ، فإن الله يختم على قلوب الكافرين وعلى سمعهم وأبصارهم جزاء استهتارهم بالإنذار عن طريق الرسل ، فقلوبهم صلدة عن الحق ، جامدة عن سماع الإيمان ، وكل

(١) ﴿ مَرَضٌ ﴾ : شك ونفاق ، أو : تكذيب وجحْد .

شيء عندها مُغْلَقُ أمام دعوة الخير والصلاح . يقول الله عز وجل : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

ولما كان القلبُ منبع الإرادة الإنسانية ، ومصدر توجيه السلوك ، كان لا بُدَّ من الامتحان وتخليص القلوب من نزغات الإثم ، وعوامل الضعف ، فالإنسان والأُمم تحيا بين الشدة والرخاء ، وتُصاب بالأحداث والتجارب والمواقف المختلفة ، وعندها تظهر الحقائق مكشوفة على ضوء التجربة العملية ، قال عز وجل بعد أحداث غزوة أُحُد : ﴿ وَلَيَبْتَلِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وفي هذا التمهيد لونٌ من ألوان التربية القرآنية للنفوس البشرية ؛ لترتفع إلى المستوى المطلوب منها ، ولتتحقق السُنَنُ الإلهية ، ويتخلص المؤمنون من الشوائب والأوشاب ؛ وصولاً إلى النقاء والوضوح والاستقرار وفق منطلقات الحق .

وعلى المرَبِّي أن يلفتَ نظرَ المتعلِّمين إلى ضرورة تعظيم شعائر الله ؛ من خلال الربط بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب ، فالتقوى هي الغاية والمنطلق والهدف ، والشعائر والمناسك رموزٌ تدل على حُسن التوجُّه إلى الله عز وجل ، ودليلٌ على طاعته سبحانه ، قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] .

وينمو الإيمانُ في القلب نتيجة الإرادة الواعية الصادقة ، فإذا بالقلب يخشع لله الخالق ، أما القلب المريض بعلة القسوة ، وصداً الرّان ، وجمود الحسن ، وسرعة التقلُّب ، فإنه يتقاعس عن الإجابة ، ويتباطأ عن الشعور بجلال الله ، وما يليق به من الخشوع والتدبر والامثال والطاعة . قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٦] .

أما المؤمنون فإن قلوبهم تطمئن بذكر ربِّهم ، وتسعد بالثقة به ، حيث

تحسُّ بالصلة الأنيسة وهي تأمن في جانبه ، وتلوذ بحماه ، فتسري كلمات الذكر ندية في القلب ، فيستروحها ، ويهش لها ، ويدرك أنه غير منقطع الصلة مع الخالق العظيم . قال عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

ولكي يحافظ القلب على صحته ، ويحيا الوجدان في سلام وأمان ؛ لا بُدَّ من حالة صحوة مستمرة ؛ دَفْعاً للجزع والهلع ، وقضاء على القسوة والانبئات ، وتركز التربية القرآنية للوجدان الإنساني وَفْق المحورَيْن التاليين :

أولاً: البعد عن المعاصي : حيث يُصرف القلب عن صحته واستقامته في حال المعصية ، فلا يزال مريضاً معلولاً ، فتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان ، بل الذنوبُ أمراضُ القلوب وداؤها ، ولا دواء لها إلا بتركها .

وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تُعْطَى مُناها حتى تصل إلى مولاه ، ولا تصل إلى مولاه حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا يكون ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهوها مرضها ، وشفائها مخالفتها ، فإن استحکم المرض قَتَلَ أو كاد^(١) .

والمعاصي تُضعف إرادة الخير ، وتطبع على القلب ، وتُنسي الله ، وتخرج صاحبها من دائرة الإحسان ، وتزيل النعم ، وتلقي الرعب في النفس ، وتعمي البصيرة ، وتجلب الذم ، وتوجب القطيعة بين العبد ومولاه ، وتجلب الهلاك ، وتمحق البركة ، وتقود إلى العقوبة والعذاب .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض عقوبات المعاصي ، وذكر منها الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، قال عز وجل : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

(١) الداء والدواء ، لابن القيم ، تحقيق يوسف علي بدوي (١٤٥) .

ومن عقوبات المعاصي: جَعَلَ الْأَكْثَةَ عَلَيْهَا. قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] ^(١).

ومن عقوبات المعاصي أيضاً: صَرَفَ الْقُلُوبَ عَنْ الْهَدْيِ. قال سبحانه وتعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

كما أَنَّ المعصية تحجب القلب عن الرب في الدنيا ، ناهيك عن الحجاب الأكبر يوم القيامة . قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ] [المطففين: ١٤ - ١٥].

ثانياً: التَعَوُّدُ عَلَى الْفَضَائِلِ: فمن رام شيئاً وصل إليه ، وَمَنْ سار على درب الفضيلة ارتقى ربوة الخُلُقِ القويم ، وأُسر بالمكارم والخِلال الحميدة .

والفضائل كثيرة ، ومنها:

- التقوى: ﴿وَتَكَرَّوْا فِيهَا خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

- الصدق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩].

- العفة: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

[النور: ٣٣].

- كظم الغيظ: ﴿وَالْكُظْمِ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وبذا يتربى الوجدان في الإنسان ، ويستمر في رحلة العطاء ، والعمل الدائب ، يحمل قلباً مفعماً بالخير ، مريداً للصلاح ، يدفعه إيمان قوي عميق لرسم معالم الحق والواجب ، والتحريض على اكتساب الاستقامة ، والأخلاق الحميدة ، من خلال صحوة وجدانية لا تنقطع .

(١) ﴿أَكِنَّةٌ﴾: أغطية كثيرة .

(د) التربية العاطفية

العاطفة: استعداد نفسي ، ينزع بصاحبه إلى الشعور بانفعالات وجدانية خاصة ، والقيام بسلوكٍ معيّن حيال شيء ، أو شخص ، أو جماعة ، أو فكرة مُعيّنة^(١).

والعواطف مكتسبة ، حيث يخضع أمرُ تكوينها للبيئة التي تحيط بالطفل وغيره؛ وتشمل تلك البيئة المنزل ، والمدرسة ، والشارع ، والجامع ، والجيران ، والمسرح ، والسينما ، وكل مَنْ يتعامل الطفل معهم ، ومن المهم أن يعتني المرثون كل العناية بإصلاح هذه البيئة ، وإعدادها إعداداً طيّباً ، يكون له أثره الصالح في الأفراد؛ الذين يعيشون فيها ، ويتأثرون بها^(٢).

وقد اعتنى القرآن بالتربية العاطفية ، وأولاها منزلةً رفيعة ، حيث بدأت بوجوب حب الله ورسوله ﷺ ، فالحب يقتضي الاتباع والطاعة ، وتنفيذ الأوامر ، واجتناب النواهي ، وها هو القرآن الكريم يؤكّد أن الحب من صفات المؤمنين ، حيث تقوم العلاقة بين العبد والرب على أساس الرضا والود ، قال عز وجل: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وحبّ المؤمنين لله فرض واجب عليهم ، فهو المنطلق والغاية من العبادات ، ودليله ثابت بنصّ القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَقَرَنَ القرآن الكريم بين حب الله وحب رسوله ، فقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ

(١) المعجم المدرسي ، مادة (عطف).

(٢) الصحة النفسية؛ للدكتور مصطفى فهمي (٣٤٨ - ٣٤٩).

فَرَبِّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

والمحبة لها آثار ونتائج ، وهي تشير إلى وجوب الطاعة ، والافتداء بالهدي والتوجيه السديد ، فمن أحبَّ الله ورسوله ، وكانا أحب إليه مما سواهما ، نال حلاوة الإيمان ، ومعناها :

استلذاذ الطاعات ، وَتَحْمُلُ الْمَشَقَّاتِ في رضا الله عز وجل ورسوله ﷺ ، وإيثار ذلك على عَرَضِ الدُّنْيَا ومتاعها .

وإن محبة رسول الله ﷺ فيها الطمأنينة والأنس والسرور ، فمن لم يَسْعَ إلا في طريق الإسلام ، ولم يَسْلُكْ إلا ما يُوافق شريعة النبي محمد ﷺ ، فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه ، وذاق طعمه ، فصَحَّ إيمانه ، وسكنت نَفْسُهُ ؛ لأن الرضا بالله رباً ، وبالرسول محمد نبياً دليلاً على ثبوت المعرفة ، ونفاذ البصيرة ، ومخالطة تلك المحبة وذاك الرضا للقلب المؤمن ، وَمَنْ رَضِيَ شَيْئاً سَهَّلَ عَلَيْهِ اتِّبَاعَهُ ، ولأن عليه قبولاً وأوامره^(١) .

وحقيقة المحبة تتلخص في الطاعة ، قال عز وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال: ٢٠] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

وهذه المحبة تتولّد عنها اتجاهات سلوكية تتمثل في الصفات الأساسية الواجب الإيمان بها في كل رسول ، وهي : الصدق ، وانتفاء صفة الكذب ، والأمانة - أمانة القيام بحق التكليف - والفتانة ، ورجاحة العقل ، وأمانة الحجة ، والتبليغ بمضمون الرسالة إلى الناس ، وهذا هو القيام بحق الاقتداء بالرسول ﷺ ثم محبته^(٢) .

ويقوم المرَبِّي بإيضاح صور الفضائل ، وصور الرذائل ، وتحبيب المتعلّم بالأولى ، وتنفيره من الثانية ، وإليك - عزيزنا القارىء - صور حكمة لقمان

(١) حق الشهادتين ؛ ليوسف علي بدوي (٢٢٤) .

(٢) أصول الفكر التربوي في الإسلام ؛ للدكتور عباس محجوب (١٩٢) .

في القرآن الكريم . قال عز وجل : ﴿ يَبْنِيْ اَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَاَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْاُمُوْرِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْاَرْضِ مَرَحًا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ ١٨ وَاَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ اِنَّ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ ﴾ [لقمان : ١٧ - ١٩] .

وتؤكد الآيات السابقة على عدّة فضائل ، تربي العاطفة الإنسانية ، وتدفع لاتخاذ مواقف إيجابية ، وتكوين سلوكٍ خيرٍ ، يوجّه العاطفة نحو تجسيد الأوامر ، واجتناب النواهي .
ومن تلك الفضائل :

- الدعوة إلى الصبر على ما يُصيب الإنسان من المكاره .
- إقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهذا لا يتحقق إلا لمن كان في أمره عازماً ، وذاهمة عالية .
- كما تؤكد الآيات الكريمة على النهي عن بعض الخصال الذميمة ؛ ذات الآثار السلبية في المجتمع ، وهي :
- الإعراض عن الناس تكبراً .
- التبختر في المشية تعاضماً .
- رفع الصوت دون حاجة رعونة وإيذاء .

ويقوم المربي بتربية المتعلّم عاطفياً ، من خلال توضيح أبعاد صورة الذي يرفع صوته من دون حاجة ماسّة تدعو إلى ذلك ، والقرآن الكريم يُقَبِّح مشهد مَنْ يتكلف رفع الصوت والجهر به ، فيجعله كصوت الحمار .
قال القرطبي : والحمار مَثَلٌ في الذم البليغ والشتيمة ، وكذلك نُهاقه .
ومن استفحاشهم لذكره مجرداً أنهم يكونون عنه ، ويرغبون عن التصريح ، فيقولون : الطويل الأذنين ؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة .

وفي الآية دليلٌ على تشبيه قبح رَفْع الصوت في المخاطبة بقبح أصوات الحمير ؛ لأنها عالية . وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه

الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصباح جملة . ولو أنَّ شيئاً يُهاب لصوته لكان الحمار ، فجعلهم في المثل سواء^(١) .

كما يقوم المرثي بعرض الصور القرآنية الجميلة للجنة وأهلها ، فهي وسائل للتربية العاطفية ، ويمكن الرجوع إلى كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن قيم الجوزية ، حيث يجد الناظر فيه أسماء الجنة ، وصفاتها ، وأشجارها ، وبساتينها ، وظلالها ، وأنهارها ، وطعام أهل الجنة وشرابهم ، وآيتهم ، وملابسهم ، وخيامهم ، وأرائكهم ، وخدمهم ، وسماعهم ، وسوق الجنة

وكل ذلك جاء ترغيباً للمؤمن كي يزداد إيماناً ، وتشويقاً للعاصي كي يرجع إلى جادة الصواب ، ويتمثل شريعة الحق ، فيؤوب من رحلة الشك إلى رحاب الحقيقة واليقين^(٢) .

ويستطيع المرثي أن يُوجّه المتعلم عاطفياً من خلال السور ، كسورة الزلزلة؛ التي تؤكد على ضرورة الإيمان باليوم الآخر ، وتربط العمل - أيّاً كان صالحاً أم غير صالح - في الدنيا بنتائجه في الآخرة ، فيتربى عند الإنسان الدَّفْع الحثيث ، والانطلاقُ الرائد لتكوين العمل الصالح ، وفِعْل الإحسان والحسنات بكل أشكالها ، وعدم احتقار الأمور الصغيرة من الأعمال مهما بدت دقيقة؛ فإنَّ الإنسان سيُحاسَب على أعماله ، وسيُجازى عليها الجزاء المناسب ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . قال عز وجل : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۚ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۚ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَوَّحٌ لَّهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ ﴾ [الزلزلة : ١ - ٨] .

(١) تفسير القرطبي (١٤/٧١ - ٧٢) .

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح؛ لابن القيم ، تحقيق يوسف علي بديوي (١٢) .

ومن الوسائل التربوية للعاطفة: عَرَض القصص القرآني الداعي إلى فضائل الأعمال ، وجليل الصفات ، كالصبر ، والإيثار ، والثبات على المبدأ ، وحب الخير ، وكل هذا مشاهدٌ في قصص الأنبياء .

(هـ) التربية الصحية والجسمية

اعتنى القرآن الكريم بالصحة الجسمية والصحة النفسية ، قال عز وجل : ﴿ وَكَشَفَ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ ﴾ [التوبة : ١٤] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرَضْتُمْ فَهَرَوْا يَشْفِيكُمْ ﴾ [الشعراء : ٨٠] . وقال سبحانه : ﴿ يَخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ ﴾ [النحل : ٦٩] .

واهتمَّ القرآن الكريم بالطب الوقائي ، فنهى عن كثيرٍ من المحرّمات ؛ لما تجرّه من الأذى ، ولما ينتج عنها من الضرر ، فنهى عن تناول الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك لأنه يؤذي الإنسان ، وإن جهل حكمة التحريم . قال عز وجل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .

كما دعا القرآن العظيم إلى حِفْظ صحة الإنسان ؛ بأخذ جُملةٍ من التدابير للوقاية من الأمراض ، فأمر بالوضوء ، وغَسْل الأعضاء كالوجه والأيدي والأرجل ، وإزالة ما علق بها من الأدران ، وإزالة ما شابها من الأوساخ ، فقال عز وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] .

وهذه الآيات وغيرها دعوة واضحة إلى المحافظة على الصحة الفردية ؛ لأداء التكاليف الشرعية بجسم قوي ، وبالتالي تقوى الأمة ، وتقلُّ الأمراض ، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج .

وينادي الأطباء بعدم الإسراف في الطعام والشراب ، بل الوسطية هي

الأمر المندوب ، والمطلوب ؛ لما في ذلك من حفظ الجسم قوياً معتدلاً ،
ومن صيانة الحواس سليمة معافاة .

وقد بيّن القرآن الكريم أصول هذه الدعوة الطيبة ، فقال عز وجل :
﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] فالتخمة تتلف البدن ، وتُمرض
الجسم ، أما الوسطية فتُنشّطه ، وتدفعه للمزيد من العمل والسعي الدؤوب .

ومن شدة اهتمام القرآن بتكوين جسم سليم للمؤمن ، دعا إلى غَسْله
وتنظيفه ، فقال عز وجل : ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ [النساء : ٤٣] .

ولقد أثنى الله تعالى على الأنصار إذ كانوا يستنجون بالماء ، فقال : ﴿ فِيهِ
رِجَالٌ يَجْعَلُونَ أَنْ يَطَّهَرُوا ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

والنظافة مطلوبة في نظر الشرع ، ويدلُّ على هذا قوله تعالى : ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

وللمحافظة على صحة الطفل ، فإن الأم تُرضع طفلها ، وتزوّده عن طريق
حليبها بما يحتاجه من مواد أساسية ؛ فيقوى بدنه ، وتدبُّ الحركة في
جوارحه ، ويتخلّص من الأمراض والهزال . قال عز وجل : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ
يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ويحتاج الطفل إلى حليب أمه ، لاسيما في الأشهر الأربعة الأولى من
عمره ؛ ففيها ينمو الطفل نمواً جيداً ، وينشأ على الغذاء الطبيعي الصالح له .

ولم يترك الله عز وجل الخيارَ للأم في حال طلاقها ، بل أوجب عليها أن
تُرضع طفلها إذا لم يكن هناك عذرٌ مقبول ، وحُجّة دامغة ، فلا فكاك من
إرضاع الوليد ، ولا مفراً من احتضانه ؛ لأنه لا عائل له يهدد روحه ،
ولا معين يساعده على النمو ، سوى الأم بما فُطرت عليه من عاطفةٍ مؤجّجة ،
وإحساسات صافية ، ومشاعر حانية ، تُلامِسُ حياة الطفل فتحيله وردةً في
جنان الحياة ، مُتَفَتِّحاً بالنور ، مُشْرِقاً بالعتاء .

وهذا الإيجاب مفروضٌ إذا قام والد الطفل بالرزق والكسوة ، شعوراً منه

بالواجب مثلها تجاه طفله ، وأنه شريك الأم في تربيته ، ومُقاسِمُها في البذل ، ومسؤول مثلها تجاه الرضيع ؛ لتقوم الحياة بتكافل أسري ، كل حسب طاقته^(١) .

قال عز وجل : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

كما أشار القرآن الكريم إلى ضرورة تربية الجسم لمواجهة أعباء الدعوة ، وتكاليف الشرع ، وحمل الرسالة والقيام بما يقتضيه ذلك ، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا يتطلب جهداً ، وبالتالي يقتضي وجود جسم قوي . قال عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وأوماً القرآن إلى ضرورة إعداد القوة ، مُطلقاً القوة ، ومنها القوة الجسمية ، والتربية البدنية ، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ثم إن السعي في الحياة ، والكدح فيها ، يتطلب جسماً نشيطاً ، ومجاهدة كبيرة ، وقدرة على الحركة ؛ لإعمار الكون ، وإثراء الحياة ، وفي ذلك الفلاح المبين . قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠] . كما أنَّ عمَل الصالحات يقتضي جسماً قوياً ، يستطيع القيام بالأشياء الإيجابية ، وتحقيق معالم الخير في الواقع . وكثيرة هي الدعوات القرآنية لصنع الخير ، والعمل الصالح ، وبناء الحياة بما يرضي الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِينَ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتِخَبُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] .



(١) المرأة في الإسلام؛ لريم الخياط (١١٦) .

الفصل الرابع

مفاهيم قرآنية ضرورية للطفل

سنحاول - بعون الله وتوفيقه - في الصفحات التالية أن نورد بعضاً من الدروس القرآنية؛ التي تربي الطفل على مختلف الأصعدة؛ العقلية والفكرية والاجتماعية... وذلك لتكوين الشخصية السوية للطفل، فيكون مستقيماً مع خالقه في مجال العبادات المفروضة، وتنفيذ ما أمر الله تعالى به، واجتناب ما نهى عنه. وعلى الوالدين الأخذ بتلك المفاهيم، وتعزيزها في فكر الطفل.

فالعبادات تربط الإنسان بالخالق العظيم، وتُوقِظ فيه شعور المسؤولية، وتدركه بفضل الله، وضرورة شكره وحَمْدَه على ما أنعم به، فيقوم بالعبادة، وينال الثواب. قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

ومن استقام مع خالقه، لا بُدَّ أن يكون مستقيماً مع ذاته، إذ يعودُ إلى الفطرة السليمة الخيرة، فالإنسان مسؤول عن نفسه أمام الله سبحانه، وسيُحاسبه على جميع ما يصدر عنه من تصرفات.

وينطلق المرء بالاستقامة إلى المجتمع، فيترجم قيمه الصالحة، وأخلاقه الحميدة إلى سلوك اجتماعي ينساح عبر جنبات الواقع، وهو يُحدِّد ما وصل إليه كل إنسان من صدق العلاقة مع ربِّه، فالسلوك تقويم

للإنسان ، وتحديد لمنطلقاته. ومن تلك الاستقامة مع الناس قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَائِي ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]. وقال سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهذه الاستقامة لها أسس ومنطلقات تقوم عليها ، فإذا تمت تلك الأسس ، واستوى سوقها ، فإن النتيجة تتركز في بناء شخصية متزنة للطفل. وأهم تلك الأسس:

أ - التفكير العلمي الموضوعي .

ب - تأمل مظاهر الكون الدالة على قدرة الله وصفاته .

ج - القواعد الأخلاقية والسلوكية .

أ - التفكير العلمي الموضوعي ^(١):

يشعُ القرآن الكريم بالتفكير العلمي باعتباره نشاطاً يستهدف حلَّ المشكلات ، فهو غير تلقائي ، إذ يدرس الإنسان الظاهرة ، ويفهم أبعادها وحقائقها ، من أجل تفسيرها ، واستنباط القوانين التي تحكمها .

والتفكير العلمي كذلك هو نشاط منظم ، حيث يتم دراسة الظاهرة ، ومن ثم يقوم الاستنباط العقلي بدوره لاستخلاص النتائج المحددة .

كما أنه يتَّصف بالدقة والضبط ، والبحث عن الأسباب ، وضرورة الاستفادة من خبرات السابقين ؛ وصولاً إلى الكمال ما أمكن . وأشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال عز وجل: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] .

(١) فصول في التفكير الموضوعي ؛ للدكتور عبد الكريم بكار (٤١) .

فَمَنْ عَرَفَ بِدَايَةِ الْخَلْقِ أَدْرَكَ بِدَايَتِهِ ، وَوَعَى أَسْبَابَ نَشَأَتِهِ ، وَعَرَفَ مِنْ خِلَالِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَارَاتِ الْهَدَايَةِ ، وَجِزَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَاقِبَةَ الْكَافِرِينَ ، وَهَذَا يَأْمُرُنَا الْقُرْآنُ بِضَرُورَةِ الْإِعْتِبَارِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِيَ الْآبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] .

كما أن التفكير العلمي يقود إلى اليقين المرتكز على الأدلة المنطقية المقنعة ، ومن هنا نقول : إن الارتباط بين اليقين وبين البراهين هو ارتباط أبدي لا تنفصم عُراه . وإن الدِّاءَ أعداء التفكير العلمي يتمثل في الظن والهوى ، وقد أشار القرآن إلى ذلك ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١١٩] . وقال سبحانه : ﴿ أَتُؤْنَفِي بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُرْوَى مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الأحقاف: ٤] .

ولا بُدَّ من القول بأنَّ الموضوعية أهم سمة للتفكير العلمي ، وقد بنى القرآن الموضوعية من خلال أنشطة الأنبياء في تبليغ الرسالات ، وتحذث عن الحوارات التي تمت بين كل نبيٍّ وقومه ، فبنى التفكير الموضوعي لدى المسلم بناءً سليماً هادياً . ولا بأس بعرض بعض النماذج القرآنية ليكون المربي والمتعلم على اطلاع على موضوعية القرآن وتفكير الأنبياء في الدعوة إلى الله عز وجل ، وبالتالي يتربى التفكير الموضوعي ، ويستقيم المسار .

✽ معرفة حدود الذات :

يخبرنا القرآن الكريم عن النبي نوح - عليه السلام - عندما سأل الله تعالى نجاة ابنه من الغرق ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] .

وجاء الرد بتوضيح الحقيقة ، فالأهل - في دين الله وميزان الحق - ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة ، وهذا الولد نأى عن الإيمان ، فهو ليس

من أهل النبي المؤمن ، فقال تعالى : ﴿ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] .

وَيُنِيب النبي نوح إلى ربه ، ويخشع للتنبية الرباني ، فيعوذ بخالقه ، ويطلب غفرانه ورحمته ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧] .

وهذه الآيات تعليم لأن يعرف كلُّ حدودَ ذاته ، وقَدْرَ نفسه ، فإذا ما أخطأ ، أو قصُر ؛ فإن طريق التوبة مفتوح على مصراعيه .

※ التَّثْبُت :

رَكَز القرآن الكريم على هذا الجانب ؛ كيلا يقع المسلم في الأخطاء نتيجة الفهم القاصر ، وهامهم أهل الكهف يوضحون أن قومهم قادم من ههنا الخاطيء إلى اتباع ما لا دليل عليه ، ولا برهان له . ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ [الكهف: ١٥] .

وعندما كان النبي يوسف عليه السلام في السجن ؛ كشف عن فساد اعتقاد صاحبيّه هناك ، واعتقاد قومهما ، فهم يعبدون أرباباً ليس لها من حقيقة الربوبية شيء ، لكن أولئك العابدين أعطوها صفات المعبود ، ومنحوها خصائصه دون برهان بيّن ، أو سلطان مُقنع ، فقال النبي يوسف : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف: ٤٠] .

※ نَبْذُ الْآبَائِيَةِ الْمَعْطَلَةِ لِلْعَقْلِ :

ضَرَبَ النبي إبراهيم - عليه السلام - أروع الأمثلة في موالاته الله تعالى ، والانسلاخ عن ضلال مجتمعه ، وتخلّص من تقديس أقوال الأقدمين ؛ من الآباء والأجداد ، فالعقيدة هي العروة الوثقى التي تربط العلاقات ، وتشدّ الأواصر ، فإذا تفتتت تلك الوشائج فلا لقاء في نسبٍ أو صهرٍ أو

قوم أو أرض . . . وما هو النبي إبراهيم - عليه السلام - يتبرأ من أبيه بعد تأكده من إشرائه . قال عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارًا لِّإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

❖ نقد الذات :

إنَّ نَقْدَ الذات قمة الموضوعية ، فهو إقرار بالقصور والخطأ ، واعتراف بالمخالفة من أجل التغيير نحو الأحسن ، ويتوافق هذا النقد مع صحوه العقل والضمير ، فهو أمانة على النضج والرقى . وقد سنَّ النبي آدم وحواء فكرة نَقْدَ الذات ، عندما خالفا ربَّهما فأكلا من الشجرة ، وسرعان ما أنابا قائلين : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

أمَّا النبي يونس - عليه السلام - فقد أرسله الله تعالى إلى قرية ، فدعا أهلها إلى الإيمان بالله ووحدانيته ، فأبوا أن يؤمنوا ويقروا ، فضاق صدره بهم ذرعاً ، وغادرهم مغاضباً لهم ، فلم يصبر على المعاناة ، وذهب إلى شاطئ البحر ، وركب سفينة ، والتقمه الحوت ، وعانى من الظلمات : ظلمة جوف الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل ، فانطلق لسانه بكلماتٍ ضارعة ، ملؤها الاعتراف بالذنب ، والثناء على الله تعالى . قال عز وجل : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذِي فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وعندما يؤكِّد القرآن الكريم على ضرورة سلوك الإنسان لجادة الموضوعية ودروب التفكير العلمي ؛ فإنه يُبيِّن أنها طريق الأنبياء والمرسلين ، وهي جزء لا يتجزأ من تفكير المسلم ، وهو يدعو إلى الله تعالى وفَّق مرجعية قرآنية تدعو إلى تجذير نشاطها من خلال تفكير منطقي سار خيارُ الناس على شاطئه حتى وصلوا إلى بَرِّ النجاة .

ويقوم المربي بتعليم الطفل أسلوب التفكير العلمي من خلال آيات القرآن الكريم ، ويختار له النصوص التي تتحدث ، وتناقش موضوعات التوحيد والعقيدة بطريقة تشجذ التفكير ؛ للانطلاق نحو التصديق ، وبذلك يكون قد غرس في أذهان الأطفال أسلوب التفكير العلمي المناسب^(١) .

وسنقف عند نص قرآني من سورة الشعراء .

* النص القرآني :

قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ ﴿٦٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عِنْكِفِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٦٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٦٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ [الشعراء : ٦٩ - ٧٧] .

* معاني المفردات والتراكيب^(٢) :

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ﴾ : نبأه المشركين على فرط جهلهم ؛ إذ رغبوا عن اعتقاد النبي إبراهيم - عليه السلام - ودينه . والنبأ : الخبر . أي : اقصص عليهم يا محمد خبره ، وحديثه ، وعييه على قومه ما يعبدون . وإنما قال ذلك ملزماً لهم الحجة .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : أي : أي شيء تعبدون .

﴿ فَظَلُّ لَهَا عِنْكِفِينَ ﴾ : أي : فنقيم على عبادتها . وليس المراد وقتاً معيناً ، بل هو إخبار عما هم فيه .

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ ﴾ : أي : هل يسمعون منك ، أو : هل يسمعون دعاءكم .

﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ : أي : هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم ، أو

(١) أطفالنا والقرآن لحمود الحطاب (٢٩) .

(٢) تفسير القرطبي (١٣/١٠٩) .

تملك لكم خيراً أو ضرراً إن عصيتم؟! وهذا استفهام لتقرير الحجة ، فإذا لم ينفعوكم ولم يضروكم ، فما معنى عبادتكم لها ؟!

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ : نزعوا إلى التقليد من غير حُجَّة ولا دليل .

﴿ الْأَقْدَمُونَ ﴾ : الأولون .

﴿ فَأَتَتْهُمْ عُدُوهُنَّ ﴾ : وَصَفَ الجماد بالعداوة ، بمعنى : أنهم عدو لي إن عبدتهم يوم القيامة .

﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ : أي : إلا مَنْ عَبَدَ رب العالمين . أو : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدون إلا رب العالمين فإنهم عدو لي .
* معنى الآيات ^(١) :

اِثْلُ يا محمد ﷺ - على كُفَّار مكة ، وعلى غيرهم ، نبأ إبراهيم - عليه السلام - وخبره المهم ؛ ليعرف المشركون - خصوصاً أهل مكة - ما كان عليه أبوه إبراهيم ، وكيف كانت مواقفه مع قومه وبخاصة أبيه ، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب .

واِثْلُ عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون؟ سألهم عن عبادتهم ، وهو بها أعرف ؛ ليلفت نظرهم إلى ما يعبدون . قالوا : يا إبراهيم ، نعبد أصناماً ، فنظل لها عاكفين ، وعلى عبادتها مقيمين . قال إبراهيم مناقشاً لهم : عجبا لكم ، هل يسمعون دعاءكم إذ تدعون؟ وهل ينفعونكم في شيء أو يضرون؟! قالوا مجيبين له على سؤاله واعتراضه : بل وجدنا آباءنا لها عابدين . فيلفت إبراهيم نظرهم إلى هذه الأصنام ؛ التي لا تسمع دعاء ، ولا يكون منها نفع ولا ضرر مقصود ، يعني : ليس لهم حُجَّة أبداً في عبادتها وتقديسها ، وهم لا يرون لهم حُجَّة أبداً إلا التقليد الأعمى ، فيقولون :

(١) التفسير الواضح ؛ لمحمد محمود حجازي ، الجزء (١٩) (ص ٥٤) .

حُجِّتْنَا أَنَّا وجدنا آباءنا لها عابدين ، وأنَّا على آثارهم مقتدون . قال إبراهيم : أخبروني عن حال ما كنتم تعبدون ، هل هم يستحقون العبادة أم لا؟ وهذا استهزاء منه بعبدة الأصنام . أخبروني عن حالهم إن كانت لهم قوة حتى أحتاط لنفسي ؛ لأنهم أعداء لي ، لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو وليي في الدنيا والآخرة .

ما ترشد إليه الآيات :

✽ غَرَسَ أسلوب التفكير المنطقي العلمي القائم على الإقناع .

✽ بيان طريق الأنبياء في التفكير المنطقي .

✽ توجيه شخصية الطفل إلى اتخاذ التفكير السليم قاعدة في الحياة .

✽ الهداية إلى تجنُّب التقليد الأعمى ؛ حتى ولو كان من أقرب الناس .

✽ غَرَسَ روح الاستقلالية لاتخاذ القرار السليم ؛ مع عدم الإساءة إلى الأشخاص الآخرين .

✽ التوجيه إلى أسلوب مناقشة الخصوم بالمنطق دون تعسف ، أو ضيق .

ويستطيع المربي أن يطلع على المثال التالي ، وهو درس في العقيدة ، موضوعه : الله واحد لا شريك له ، فيكون أطلاعُه هذا بمثابة مثال تطبيقي يعزِّز التفكير الموضوعي عند المتعلِّم . ويجري الدرس وفق النقاط التالية^(١) :

✽ التمهيد :

ويكون قصصياً ، بحيث يحكي المربي للأطفال قصة كالآتي :

كان الناس في عهد رسول الله ﷺ يعبدون مع الله أصناماً ، يظنُّون أنها تُقرِّبهم إلى الله ، أو تنفعهم عند الخالق (وهنا يُصوِّر المربي المشركين وهم يسجدون للأصنام ، فيثير في نفوس الأطفال انفعالات الكره لهم ، والنفور منهم) .

(١) الطرق الخاصة للتربية الإسلامية ؛ لسليمان الخطيب ومحمد غسان طه (٧٦) .

وقد نهاهم رسول الله ﷺ عن عبادة الأصنام ، والسجود لها ، والخوف منها ، فلم ينتهوا ، بل آذوه ، وعدَّبوا أصحابه الكرام ؛ ليرجعوا إلى عبادة الأصنام.

تلا عليهم رسول الله ﷺ آيات القرآن (وهنا يبسط المربي معاني القرآن مستفيداً من عواطف المحبة لله ، والإعجاب ، والشكر ، وغيرها من عواطف الأطفال).

سألهم القرآن: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ [الملك: ٢١] فقالوا في أنفسهم: الله الذي يرزقنا ، ولا تستطيع الأصنام أن ترزقنا ، ولا أحد غير الله يرزقنا .

سألهم القرآن: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٦١] فأجابوا: الله الذي خلق السموات والأرض ، ولا أحد غير الله خلقنا وخلق الكائنات .

سألهم القرآن: ﴿أَمْ نَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ نُعِيدُهُ﴾ [النمل: ٦٤] فأجابوا: الله هو الذي يخلقنا في بطون أمهاتنا ، ويميتنا متى أراد ، ولا أحد غيره يحيي ويميت ، ثم يبعثنا أحياء بعد الموت .

سَأَلَهُمُ الْقُرْآنُ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾
[النمل: ٦٠] فَأَجَابُوا: اللَّهُ الَّذِي يُنْزِلُ الْمَطَرَ ، وَلَا أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ يُنْزِلُ الْمَطَرَ ،
وَوُثِنَتِ النَّبَاتُ .

اعترف الكفار بكل هذا في أنفسهم ، فسألهم القرآن : ﴿ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٦٠] كيف تعبدون مع الله معبوداً آخر ، تسجدون له ، أو تُعْظَمُونَهُ ، أو تخشون بطشه كما تخشون الله ؟ ! .

لم يُرِدِ الكُفَّارُ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَكَبِّرُونَ ، يُنْكِرُونَ فَضْلَ اللَّهِ ، وَلَا يَرِيدُونَ الاعْتِرَافَ بِالْحَقِّ . وَأَسْلَمَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ طَيِّبُونَ ، ثُمَّ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ .

أَمَّا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ أَسْلَمْنَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأَطَعْنَا كُلَّ أَوْامِرِهِ ،

ولا نعصي له أمراً ، وآمناً بأنه ليس معه إله غيره يستحقُّ العبادة ؛ لأنه هو وحده رازقنا وخالقنا ، فلا نعبد غيره ، ولا نسجد لغيره ، ولا نطلب الرزق من غيره ، ولا نخشى أحداً أن يَميتنا أو يُمرضنا غيره ، ولا نطلب الشفاء من غيره ، ولا نجعل بيننا وبينه وساطة توصل عبادتنا إليه ، أو تُقَرِّبنا إليه ؛ لأنه - سبحانه - قريب يرانا ، ويسمع دعاءنا من غير وساطة ، رحيم يحبُّنا ، ويستجيب لنا من دون حاجب .

※ العرض :

ويكون استجوابياً ، حيث يكتب المربي في أثناء الدرس بعض الكلمات ، أو الجمل البسيطة ، ينتقيها من أجوبة الأطفال .

ماذا كان يفعل الناس في أول عهد رسول الله ﷺ ؟

ماذا قال لهم الرسول ﷺ ؟

بِمَ أجابوه؟ وماذا فعلوا معه ومع أصحابه؟

ماذا قرأ عليهم؟

ماذا سألهم القرآن؟

لاحظوا حولكم : كيف تنزل الأمطار؟ ماذا يُنبئ الله من الأرض؟ من أين تأتي بطعامنا ورزقنا؟ إذاً فمن الذي يرزقنا الطعام؟ من الذي أنبت لنا القطن الذي اكتسبنا بنسيجه؟ من الذي خلقنا؟ من الذي يميتنا؟ .

※ الخلاصة :

يأخذها المربي من أفواه الأطفال ، ومفادها :

الله واحد لا شريك له في الخلق ، ولا خالق غيره .

الله واحد لا شريك له في الرزق ، ولا رازق غيره .

الله واحد لا شريك له في القدرة ، ولا منزل للمطر غيره .

الله وحده يستحق العبادة ، ولا شريك له في ذلك .

لا نسجد لأحد ، ولا نعبد أحداً غير الله ، فنحن نطيعه ، ولا نعصيه من أجل أي مخلوق ، ولا نجعل أيّ وساطة بيننا وبينه لإيصال عبادتنا ودعائنا إليه ؛ لأنه سبحانه قريب مجيب ، يرانا ويسمعنا .

ب - تأمل مظاهر الكون الدالة على قدرة الله وصفاته :

أطلق القرآن الكريم العقولَ من إسارها ، ودعاها إلى مزيدٍ من النظر الجادّ ، والتفكير العميق ، وجعل لها الكون بأسره محراباً للتدبُّر الأمثل ، والاعتبار الذي لا يُحْدُ ، فمن تتبَّع بدائع صنْع الله في السماء والأرض ، وصَلَ إلى الإيمان بالخالق العظيم ، ورؤية ألق التصميم ، ودقة البناء ، ووحدة النظام الكوني ، وتَنَضَّح القدرة الربانية ، وتدعو للتمعن ، فهي وراء كل شيء من ظواهر الكون ومظاهره .

وهذه الدعوة القرآنية تنبيه للعقل ، وإيقاظ للقلب ، وتشجيع على القيام بالكشف والبحث والتنقيب .

ولا بُدَّ من ربط التفكير بالحسّ والنظر والتجربة ؛ لأنَّ الاعتماد على التفكير النظري المجرّد يؤدي إلى الجدال والمراء فحسب ، ومن هنا ربط القرآن بين الفكر وبين آيات الله في نظام الكون ونواميسه وقوانينه ، وحذّر من الانحراف عن هذا المنهج ، وطالب بالتفكير في أسباب فناء الأمم السابقة . قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر : ٢١] (١) .

فالبعد عن منهج الله يؤدي إلى هلاك الأمم ، وتلاشي الحضارات ، ففي رَبط الفكر الإنساني بالكون ، وخالقه ، ومصرّف أموره ، نضع العقل في مساره الصحيح ، ونضمن له ألاّ يزلّ ولا يضلّ ، ولا ينجرف ولا ينحرف ،

(١) ﴿ وَاقٍ ﴾ : دافع يدفع عنهم العذاب .

ولا يتردى في مهاوي المفسد المؤدية إلى الدمار. قال عز وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [الفصص: ٥٨] (١).

وهذا الكون بكل ما فيه يدلُّ على أن الخالق العظيم قدير في صنعه ، حكيم في تقديره ، عليم في إبداعه . ويُنبِّه القرآن الكريم إلى تأمل عظمة هذا الكون ، وصغر الناس بالقياس إلى السموات والأرض ، قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وكل شيء في الكون يُسَبِّح بحمد الخالق ، ويهتف بمجده الأعلى ، فيطيع ولا يعصي ، ويُقبل ولا يُعرض ، وهم خُلِقُوا لا يحصيهم إلا الله تعالى ، قال عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۚ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠ - ٢١].

والتفكر في صفحات الكون يُوقِظ العقول ، ويُبَصِّرُها من خلال تأمل الدلائل الكونية الماثلة في كل شيء أوجده الخالق الخبير. فالآيات منتشرة ، وحيثما رنا الإنسان ببصره وجدها تنطق بحكمة الله تعالى ، فالسموات بأجرامها وأفلاكها ، ودقة تناسقها ، إلى جانب الأرض الواسعة ، والفضاء الشاسع ، كل ذلك يدلُّ على القدرة الإلهية التي تُنظِّم الكون.

ولكن من الذي يستشعر هذه الآيات ، ويفكر في الصانع القدير؟ إنه المؤمن . . . فإذا خالط الإيمانُ القلوب استطاعت أن تلتقط ما في الكون من ذخائر وإحياءات ، وكلها ذات طابع مميز يشير إلى القدرة المبدعة ، والإعجاز المتفوق في كل حركة ونامة.

كما أن خَلْق الإنسان مثير للعجب ، وداعٍ للتأمل ، بتركيبه ،

(١) ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: طَعَتْ وتمردت في أيام حياتها.

وخصائصه ، ودقائقه المدهشة ، بدءاً بالخلية الواحدة ، وانتهاءً بالعقل وتركيبه المعقد.

وحول الإنسان تنبُت خلائق أخرى ، تدبُّ على الأرض بمختلف الأنواع والأشكال والأحجام ، وكلّ منها معجز في خلقه ، وتبقى القدرة الإلهية هي الممسكة بكل حكمة وتقدير. إضافةً إلى اختلاف الليل والنهار ، حيث ينشأ هذا الاختلاف عن دورة الأرض حول محورها مرة أمام الشمس كل أربع وعشرين ساعة.

والرزق الذي ينزل من السماء لا يُحْدُ ، من المطر الهائل ، وأشعة الشمس وحرارتها التي تُبَخِّرُ الماء من موارده فيتكاثف لينزل أمطاراً ، ويجري عيوناً وأنهاراً ، فتحيا الأرض بإذن ربّها.

وكل هذه الأشياء آيات معروضة في الكون الفسيح ؛ لمن امتلك عقلاً ، وفكّر من خلاله بأن الله خالق كل شيء ، ومُنظّم الوجود ، وتلك الآيات توقظ العقول ، وتلمس القلوب ، وتخطب الفطرة بإيحاءاتها ودلالاتها الواضحة الثابتة . قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَآئِبِكُمْ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۚ ﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَآخَرًا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۚ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿ [الجاثية : ٣ - ٦] .

وإن الكون عميق الدلالة ، نفيس القيمة ؛ لأنه يدلُّ على الخالق العظيم ، حيث انتظمت فيه قوانين محكمة ، تجلّت عنها مظاهر القدرة ذات التقدير الدقيق . قال عز وجل : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف : ٣] .

هذا ، وإن النصوص القرآنية التي تتحدّث عن الظواهر الكونية كثيرة ومتعددة ، وهي تثير اهتمام الطفل ، وتُشبع رغبته في حبّ الاستطلاع ، وتجعله يتساءل في قرارة نفسه عن الأشياء التي يراها ، وقد ينشغل عنها لأنها

مظاهر معتادة ، ومن هنا تأتي مهمة المربي لجذب الطفل نحو تلك الآيات الكونية ، وحثه على التفكير فيها^(١).

وسنقف عند نص قرآني من سورة يس؛ لنبين معانيه ، ونستهدي بإرشاداته .

* النص القرآني :

قال عز وجل : ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۚ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۚ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيمِ ۚ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٣٧ - ٤٠] .

معاني المفردات والتراكيب^(٢) :

﴿وَأَيُّ لَهِمُّ﴾ : أي : تدل على قدرتنا .

﴿اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي : نزيله عن مكانه ونكشفه . مستعار من : سلخ الجلد ، وهو إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال . وفي الليل سكون الناس ، وهدوء الأصوات ، وفيه النوم كالموت ، ويكون بعده طلوع الشمس ، كالنفخ في الصور ، فيتحرك الناس .

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ : داخلون في الظلام فجأة .

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ : لحد معين ينتهي إليها دورها وجريانها ، وهو يوم القيامة ، فشبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره .

﴿ذَلِكَ﴾ أي : ذلك الجري البديع ، المنظوي على الحكيم الرائعة؛ التي تحار في فهمها العقول .

﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي : الغالب بقدرته على كل مقدور .

(١) أطفالنا والقرآن؛ لحمود حطاب (٣٤) .

(٢) المقتطف من عيون التفاسير؛ لمصطفى الخيري المنصوري (٤/ ٣٤٧) .

﴿الْعَلِيمِ﴾ أي : المحيط علمه بكل معلوم .

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ﴾ : قَدَرْنَا مسيره .

﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً ، ينزل كل ليلة في واحدٍ منها ، لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها ، فإذا كان في آخر منازلها ، يستتر ليلتين ، أو ليلة إذا نقص .

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ : كالشمراخ المعوج . من الانعراج وهو الاعوجاج .

﴿الْقَدِيرِ﴾ : العتيق الذي قَدُمَ فيبس وتقوَّس واصفرَّ ، فَشَبَّهَ القمرُ به في ذبوله ، ونحوله ، واصفراره .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ : لا يصحُّ لها ، ولا يتسهَّل .

﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة السير ، فَإِنَّ ذلك يخلُّ بتكوُّن النباتات ، وعيش الحيوانات ، ولا أن تدركه في المكان بأن تنزل في منزله ، فتطمس نوره .

﴿وَلَا أَلَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي : يسبقه فيفوته ، ولكن يُعاقبه .

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي : كلٌّ من الشمس والقمر يسيران بانسباط وسهولة ، وفق نظام دقيق ، وَضَعَهُ العليم الحكيم .

معنى الآيات^(١) :

هذا الليل وما فيه آية لهم لو كانوا يعقلون ، فهذا الظلام الشامل بعد النور الساطع ، وهذا السكون والهدوء بعد الجلبة والضجيج ، وتلك الكواكب السَّيَّارة ، والأفلاك الدَّوَّارة ، كل ذلك آية على وجود الخبير البصير؛ الذي يُسَيِّرُ العالم على وَفْقِ نظام محكم ، دقيق ، لا يختلُّ أبداً .

والليل آية عظيمة ، حيث يسلم الله منه النهار ، ويزيل ضوءه عنه ،

(١) التفسير الواضح ؛ للدكتور محمد محمود حجازي ، الجزء (٢٣) (ص ٥) .

ويكشفه عن الليل فيبدو الليل بسكونه وظلامه كالشاة بعد السليخ ، فيدخل الناس في الظلام بغتة ، فيكون النوم العميق ، والهدوء الشامل ، فسبحانه من قادر حكيم .

وآية لهم الشمس ، ذلك الكوكب النهاري الضخم ، تجري في فلكها لحدّ مؤقت ، مقدّر ، تنتهي إليه ، ولا تتجاوزه أبداً ، فكأنها تجري لإدراكه ، حتى إذا ما انتهت إليه توقّفت . والله وحده هو العالم إلى متى تجري ، ومتى تقف ، ذلك تقدير العزيز العليم .

والقمر قدّر له ربُّك منازل يسير فيها ، فتراه يبدو صغيراً دقيقاً ، ثم يكبر فيصير هلالاً فبدراً ، ثم يعود يصغر شيئاً فشيئاً ؛ حتى يصير كالعرجون القديم في الرقة والانحناء والصغر . وهذه الكواكب السماوية بأبعادها وأجرامها ، وكثرة عددها ، وسرعة حركتها ، تجري في نظام دقيق ، وعمل وترتيب لا عوج فيه ولا خلل ، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل يسبق النهار فيفوته ، ولكن يعقبه ، ولكلّ مدة وزمن ونظام لا يعدوه ، وكلّ من النجوم والكواكب في فلّك خاصّ به يسبحون ويجرون ، وهذا من أعظم الآيات الدالة على وجود الله وقدرته .

✽ ما ترشد إليه الآيات :

✽ التنبيه على بعض مظاهر الكون ، والربط بين وجودها وفائدتها للإنسان ، مما يدعو إلى تعظيم الخالق .

✽ التعريف ببعض الحقائق العلمية عن بعض مظاهر الكون .

✽ إدراك أن الكون منظم لا يختلّ نظامه .

✽ الشعور بقدرة الله تعالى ، وعظمته ، ووجوب شكره على نعمائه .

وإليك - عزيزنا القارئ - فكرة عن نظرة الإسلام إلى الكون ، وهذه

النظرة تنفيد المرئي ، وهو يدفع بالمتعلمين إلى تملّي مظاهر الكون ، وموقف الإنسان منها ، فنقول^(١) :

تمتاز نظرة الإسلام إلى الكون بأنها ليست نظرة عقلية محضة ، ولكنها تعمل على تحريك عواطف الإنسان ، وشعوره بعظمه الخالق ، وبصغر الإنسان أمامه وبضرورة الخضوع له ، كل ذلك إلى جانب البراهين العقلية القاطعة على وحدانية الله وألوهيته في هذا الكون وسائر الأكوان التي لا نراها .

(١) فالكون كله مخلوق لله ، خلقه لهدفٍ وغاية ، وما كان اللعبُ والعبثُ باعثاً على الخلق . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادِكُمْ ۚ مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : ٣٨ - ٣٩] .

ولهذه النظرة الإسلامية إلى الكون آثار تربوية ، منها :

- ارتباط المسلم بخالق الكون وبالهدف الأسمى من الحياة ، وهو عبادة الله .

- تربية الإنسان على الجدّية ، فالكون كله أُقيم على أساس الحق ، ووجد لهدف معين ، وإلى أجل مسمّى عند الله ، وليس العبث واللغو من شأنه تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادِكُمْ ۚ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَأَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا ۚ إِنَّ كُنُوفَكُمْ لَعِيبٌ ﴾ [الأنبياء : ١٦ - ١٧] .

وهذا يُعلم الإنسان أن يبحث عن غاية كل ظاهرة من ظواهر الكون ، وأن يبعد تفكيره عن اللغو والعبث والضياع ، وأن يكون تأمله لهذا الكون تأملاً منطقيّاً علمياً . ولتحقيق هذا واستكماله لفت القرآنُ نظرَ المتأمل إلى أمرين آخرين غير الجدّية والغائية ، سنراها في الفقرتين التاليتين :

(٢) خضوع الكون لسنن سنّها الله وفُق أقدار قدرها الله . قال تعالى :

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها ؛ لعبد الرحمن النحلاوي (٣٨) .

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۚ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَنْتُمْ لَهُمْ بِرَزَاقٍ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٩ - ٢١].

فجميع الأحياء التي على الأرض جعل الله لها معاش مقدرة مقننة ، ما ينزلها إلا بقدر معلوم .

وقد علم الله الإنسان الحساب بتكرار الليل والنهار ، وتقدير الفصول الأربعة ، والأشهر القمرية ، فقال عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَحَوِّنَا ۚ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَبْتَغُوا فَضْلًا ۚ مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَتُهُ تَفْصِيلًا ۚ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال سبحانه : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾ [الأنعام: ٩٦].

ونجد من خلال الآيات أنَّ القرآن ربَّى عقل المسلم على مبدئين هما :

الأول: تكرار حوادث الكون حسب سُنَن سَنَّاها الله له ، وهو جل جلاله وحده يملك أن يُغيِّرَها إذا شاء ، وهذا المبدأ الذي بُنيت عليه اليوم جميع القوانين العلمية ، وهو أساس التفكير العلمي ؛ الذي به اكتشف الإنسان ، واخترع كل مظاهر الحضارة .

والثاني: أن سُنَن هذا الكون ، وجميع حوادثه ، وظواهره ، وكائناته ، من أصغر ذرة إلى أكبر جِزْم قد خَلَقَهَا الله وسَيَّرَهَا ، أو أنزلها بقدر معلوم ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا يتعدى شيء حدوده فيختل توازنه ، أو يخل بنظام غيره . وهذا المبدأ هو : إقامة الملاحظة العلمية على أساس القياس الكمي لا أساس الوصف الكيفي ، وهو المبدأ الذي يربي العقل على الدقة ؛ ليأخذ كل شيء بمقياس .

(٣) الكون مُسَيَّر ومدبَّر دائماً بقدره الله : فالخالق العظيم الذي ربَّب سُنَن الكون بقي - وما زال - قائماً على تسييره ، وتدبير أمره ، قال عز وجل :

﴿وَيُؤَسِّدُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج : ٦٥].

وقال سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم : ٢٥].

(٤) الكون كله قانت لله : وقد بين تعالى ذلك بقوله : ﴿بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قَدِينُونَ﴾ [البقرة : ١١٦].

وإذا كانت كل الكائنات والجمادات تخضع لبارئها ، وتشهد بعظمته وتزبيحه عن كل نقص ، فأجدر بالإنسان العاقل المفكر أن يعترف لربه بالنعمة والفضل ، ويستشعر عظمته ، ويُسَبِّح بحمده ، ويُقَدِّس له . وهذا من أهم النتائج التربوية الناجمة عن عرض الإسلام للكون ولخصائصه .

(٥) كثير مما في الكون مُسَخَّر للإنسان ، زاهر بالنعمة . قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٢ - ٣٤].

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة : ٢٩].

وهذه الآيات ، وكثير أمثالها ، تُرَقِّق قلب الإنسان ، وتُربِّي عواطفه وانفعالاته على الخشوع لله ، والشعور بفضلله ، وعنايته ، ورحمته ، وحلمه ، وتدفع الإنسان إلى حمد الله . وشكره ، وتسبيحه ، وتوحيده .

وهي تُربِّي العقل على مبدأ عَمَلِيٍّ ، كان آخر ما اهتدى إليه الفكر الإنساني ، وهو مبدأ التقنية ، واستخدام القوانين العلمية وقوى الكون لخدمة الإنسان .

ج - القواعد الأخلاقية والسلوكية :

يهدف الإسلام إلى غرس المفاهيم الخُلُقِيَّة في نفس الطفل ، ويربط ذلك بالإيمان بالله تعالى ، فالتمسكُ بالخُلُق القويم يحقق واجبا دينيا مهماً ، أما

التفريط بالتزام الجانب الخُلقي فيعتبر مرتكبه آثماً ، وبعيداً عن الدين .

والعبادات لها نتائج وحكم ، فالصلاة تُبعد المصلي عن الرذائل ، وتطهره من فحش القول وسوء العمل ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

ونصَّ القرآن الكريم على أن الغاية من الزكاة هي تنظيف النفس من أدران النقص ، وتنمية للحسنات والأموال ، وتسام في معارج الأخلاق الفاضلة . قال عز وجل : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

وذكر القرآن العظيم ثمرة الصيام المتمثلة بالتقوى ، فهي التي تحرس القلب من إفساد الصوم بالمعصية ، وفي هذا تطهير للروح ، وطاعة لله ، وإيثار لرضاه ، والتزام بالأخلاق . قال عز وجل : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

كذلك الحج مليء بالمعاني الخُلقية ، وثمة ارتباط وثيق بين أداء الشعائر التعبدية والأحاسيس القلبية ، والسمو الخُلقي ؛ في وحدة متناسقة يقودها التقوى ؛ زاداً للروح ، وقوة للأخلاق ، وصولاً إلى شاطئ النجاة . قال عز وجل : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَأْتُوا فِي الْآلَاءِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

ومن هنا نلاحظ متانة الأواصر بين الإسلام وعباداته ، وبين موازين الأخلاق ونظمها ، فالطاعة تقود إلى مدارج الكمال ، وترفد الحياة بسلوك عملي بقاء ، فتشأ السجايا الكريمة ، والخصال الحميدة ، ويقوم المجتمع على أساس خير من النفوس المهذبة ، والقلوب الزاكية .

إنَّ بناء القيم الخُلقية ليس كلاماً يُلقى على عواهنه ، لا جدوى منه ، ولا طائل تحته ، بل هو واجبٌ يُلقى على عاتق كل مسلم ، فهو المعيار لصدق الالتزام . وليس غريباً أن يشهد الله عز وجل للنبي محمد ﷺ بأعظم

شهادة ، وهي وصفه بأنه ﷺ كان على خُلُقٍ قويم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّيْ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وفي القرآن الكريم مواقف كثيرة ، وقصص متعددة ، تدعو إلى تمثُل الأخلاق في النفس والمجتمع ، وتوجّه الإنسان إلى حُسْنِ المعاملة ، وجمال العشرة ، ومواصلة المودّة ، وضرورة الالتزام بالآداب الاجتماعية ، وحِفْظ حقوق الآخرين .

وسنقف عند نصّ قرآني من سورة الحجرات ، ونبحث في معانيه وإرشاداته .

❖ النص القرآني :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا ضِرَارٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١١ - ١٢] .

معاني المفردات والتراكيب^(١) :

﴿ قَوْمٌ ﴾ : الرجال خاصة .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ : لا تطعنوا أهل دينكم . واللمز : الطعن باللسان .

﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ : التنازع بالألقاب : التداعي بها . والنز : لقب السوء .

﴿ بِئْسَ الْأَتْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ : الاسم : الذُّكْر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم . وحقيقته : ما سما من ذكره ، وارتفع بين الناس ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يُذكر

(١) تفسير النسفي ، حققه يوسف بدوي (٣/ ٣٥٣) .

بالفسق. وقوله ﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ استقباح للجمع بين الإيمان وبين الفسق؛ الذي يحظره الإيمان.

﴿أَجْنَبُوا﴾: يقال: جنبه الشر؛ إذا أبعده عنه.

﴿كَبِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾: هو ظن السوء بأهل الخير.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾: الإثم: الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب.

﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾: لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايهم. يقال: تجسس الأمر؛ إذا تطلّبه وبحث عنه.

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: الغيبة: الذكر بالعيب في ظهر الغيب. وفي الحديث: «هو أن تذكر أخاك بما يكره»^(١).

﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض أخيه على أفحش وجه. قال قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها، كذلك فاكرة لحم أخيك وهو حي.

﴿وَأَنفُوا اللَّهَ﴾: بترك ما أمرتم باجتنابه، والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين.

﴿تَوَابٌ﴾: هو البليغ في قبول التوبة.

معنى الآيات^(٢):

تحدث الآيات عن حقوق المؤمنين، بعضهم على بعض، فلا يسخر قوم من قوم بكل كلام وقول وفعل دالّ على تحقير الأخ المسلم؛ فإنّ ذلك حرام لا يجوز، وهو دالّ على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، وهو الغالب والواقع؛ فإن السخرية لا تقع إلا

(١) رواه أحمد (٣٨٤/٢) ومسلم (٢٥٨٩) وأبو داود (٤٨٧٤) والترمذي (١٩٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبد الرحمن السعدي (٧٧/٥).

من قلبٍ ممتلئٍ من مساوئ الأخلاق ، مُتحلٍّ بكل خُلُقٍ ذميم ، مُتحلٍّ من كل خُلُقٍ كريم .

ثم نهى تعالى أن يعيب بعض المؤمنين على بعض ، أو يعير أحدهم أخاه ، ويلقبه بلقبٍ يكره أن يُقال فيه . وَمَنْ فعل ذلك فقد أعرض عن أوامر الله ونواهيه ، وبدل إيمانه بالعصيان ؛ الذي هو التنازع بالألقاب . ومن لم يتب عن هذا فقد ظلم نفسه .

ونهى الله تعالى عن كثيرٍ من الظن السئء بالمؤمنين ، كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة ، وكظن السوء ؛ الذي يقترن به كثيرٌ من الأقوال والأفعال المحرمة .

ثم خاطب المؤمنين فقال : لا تفتشوا عن عورات المسلمين ، ولا تتبعوها ، ودعوا المسلم على حاله ، واستعملوا التغافل عن زلاته ، التي إذا فُتشت ظهر منها ما لا ينبغي .

ونُفّر من الغيبة ، وشبه ذلك بأكل اللحم ميتاً ، وهو مكروه للنفوس غاية الكراهة ، فكما يُكره ذلك ، فلنُكرَه غيبة المسلم ، وأكل لحمه حياً . وفي هذا تحذير شديد من الغيبة ، وأنها من الكبائر ، وَمَنْ تاب تاب الله عليه .

ما ترشد إليه الآيات :

✽ احترام الإنسان المسلم لأخيه المسلم .

✽ المناداة بالأسماء المكروهة حرام وغير مرغوب فيه ، والله يعاقب عليه .

✽ الابتعاد عن الغيبة ، والتنفير الشديد منها .

✽ الثقة بالمسلمين وعدم الظن بهم .

✽ الظن السئء يؤدي إلى عقاب الله تعالى .

✽ التجسس على الناس ، والاستماع إلى أسرارهم عيبٌ نهى الله المسلمين عنه .

✽ الرجوع والندم والاستغفار عند وقوع الغيبة ، والتوبة من ذلك إلى الله عز وجل .

✽ الله يُسامح المذنب إذا تاب ، واستغفر ربّه .

ويستطيع المربي أن يعلم الأطفال الأخلاق ، ويغرس فيهم الآداب التهديبية؛ عن طريق الأسلوب القصصي ، وأسلوب الممارسة والعمل ، كأن يحكي لهم قصة عن التضحية ، كقصة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حين جاءته قافلة تجارية ، وجاءه تُجَّار المدينة يدفعون له ، فكان يقول لهم: زادوني ، فقالوا له: مَنْ زادك ونحن تجار المدينة؟! فقال لهم: زادني الله فأعطاني لكل حسنة عشرة أمثالها ، ثم جعل القافلة في المسلمين دون مقابل . فهذا المثال في التضحية أكثر تأثيراً من سَرْد محاضرة في ضرورة الالتزام بالتضحية .

ويمكن للمربي أن يُشرك المتعلّمين في مواقف عملية يُعبّرون من خلالها عن الخُلق المراد تعليمه وتعزيزه ، كأن يجعل المتعلّم يشارك اجتماعياً في موضوع التعاون ، كاشتراكه في جمعية المدرسة ، وإعطائه دوراً يتمثّل من خلاله ذلك السلوك الإيجابي . وهذا الأسلوب أكثر تأثيراً من أسلوب الوعظ والتلقين .

وسيقف المربي في الأسطر التالية على درسٍ في الأخلاق والتهديب ، موضوعه: برّ الوالدين؛ لتحقيق الأهداف السلوكية التالية^(١):

- أن يتبين المتعلّم معنى برّ الوالدين .
- أن يتمثّل المتعلّم برّ الوالدين في سلوكه .
- أن يتفهّم المتعلّم أن برّ الوالدين طريق إلى الجنة .
- أن يقدر المتعلّم والديه ، وخصوصاً عند الكبر ؛ لشدة حاجتهما إلى البرّ .

(١) دليل المعلم للتربية الإسلامية للصف الثالث في الجمهورية العربية السورية (٧٣) .

- أن يتفهَّم المتعلِّم أن برَّ الوالدين يكون في حياتهما وبعد مماتهما .
التمهيد :

يسرُّ المربي على المتعلِّمين القصة التالية :
جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسولَ الله ، أبايعك على الهجرة والجهاد .
قال : «هل مِنْ والديك أحدٌ حيٌّ؟» .
قال : نعم ، كلاهما .
قال : «فتبتغي الأجرَ من الله تعالى؟» .
قال : نعم .

قال : «فارجعْ إلى والديك ، وأحسنْ صُحْبتهما»^(١) .
العرض :

يقول المربي للمتعلِّمين : أترون يا أبنائي مدى عناية الإسلام بالوالدين؟!
لقد قدَّم الإسلام برَّ الوالدين على الجهاد .
ثم يسأل المربي : أتدرون كيف يكون برَّ الوالدين؟
وتأتيه الإجابات من المتعلِّمين ، ويصححها ، ويكتب بعضها :
- المسلم يحترم والديه .
- المسلم يطيع والديه ما لم يأمره بالمعاصي .
- المسلم لا يرفع صوته في أثناء الحديث مع والديه .
- المسلم ليِّن الجانب ، متواضع لوالديه .
- المسلم يُقدِّم الصدقات والأعمال الحسنة ، ويهب ثوابها لوالديه بعد وفاتهما .

(١) رواه أحمد (٣٦٨/٥) ومسلم (٦/٢٥٤٩) .

- المسلم يُقدّر والديه عند كبرهما ، فلا يزرهما إذا فعلا ما لا يُعجبه .
- المسلم يحترم ويحبُّ من يحبُّه أبواه .
- وإذا فعلتم كلَّ هذه الأمور فإنَّ الله يرضى عنكم ، وتنالون رضا والديكم ، وتفوزون بالجنة .

التقويم :

- ١ - على أيِّ شيء عاهد الرجلُ الرسولَ ﷺ؟
- ٢ - عن أيِّ شيء سأل الرسولُ ﷺ الرجلَ؟
- ٣ - إلى أيِّ شيء وجَّه الرسولُ الرجلَ؟
- ٤ - على أيِّ شيء قدّم الإسلامُ برَّ الوالدين في هذا الحديث؟
- ٥ - من يذكر بعض واجبات الأبناء نحو آبائهم؟
- ٧ - ما واجبك نحو أبويك بعد وفاتهما؟



الباب الثالث

التربية في الحديث النبوي

الفصل الأول: الواقع الجاهلي والتغيير النبوي.

الفصل الثاني: قواعد المنهج النبوي في التربية.

الفصل الثالث: خصائص التربية النبوية.

الفصل الرابع: وسائل التربية النبوية.

الفصل الأول

الواقع الجاهلي والتغيير النبوي

واجه رسول الله ﷺ واقعاً صعباً ، قد تقطعت أوصاله ، وتمزقت أشلائه ، وتباعدت أنحائه ، فمعظم الأشياء غير منظمة ، وتجري في غير مكانها الناطم لها ، وكثيراً ما يرى المتأمل التواءات في الفكر ، تعود على الإنسان بالشر ، وتقضي على نوازع الخير ، وتكسر مجاذيفها .

وإنَّ إطلاقةً على واقع الجاهلية ، يعطينا صورة لما كان عليه الناس قبل بعثة النبي ﷺ ، ثم سنرى منهجه عليه الصلاة والسلام في تغيير النفوس ، وتحطيم الفساد ، ونسخ الباطل ؛ وبالتالي يتضح دوره ﷺ في تربية الأمة من خلال منهج رباني يدعو إلى الإصلاح والخير ، وسلوك جادة الصواب .

ونستطيع إلقاء نظرة على الواقع الجاهلي من خلال الشعر في الجاهلية ؛ الذي عبّر عن الحياة في مختلف أوضاعها ، ونقل واقع الناس كما هو ، بعُجْره وبُجْره ، وفق النقاط التالية^(١) :

أ- الخمر :

حيث أغرم العربُ بالخمر ، فشربوها ، واحتسوا كؤوسها ، وافتخروا بمعاقرتها ، وبذلوا الأموال لشرائها ، باعتبارها - في ظنهم - تزيدهم جرأة

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ؛ للدكتور أحمد محمد الحوفي (٤٣٥) .

وشجاعة ، وتولّد خيالات سارّة ، وتحثّهم على الإقدام والمغامرة . قال
حسان بن ثابت :

ونشرِبُها فتركنا ملوكاً وأسدّاً ما يُنْهِنُنا اللقاءُ
وقال المنخّل اليشكري :

فإذا انتشيتُ فإنني رَبُّ الْخَوَزْنِقِ وَالسَّديرِ^(١)
وإذا صحوْتُ فإنني رَبُّ الشُّوَيْهَةِ وَالْبَعيرِ^(٢)

وبلغت الخمر مكاناً عالياً عند الجاهليين ؛ حتى إنها أصبحت هدفاً منشوداً ،
فلولاها ما حرصوا على الحياة ، يقول سُحيم بن وثيل الرّياحي يخاطب زوجته :
ويحكِ لولا الخمرُ لم أحفل العيـ شَـ ولا أن يضمّنني لَحَدُ
هي الحيا والحياة واللهو لا أنتِ ولا ثروة ولا وَلَدُ
وافتر عترة بن شداد بالخمير ، وأنه يشربها بعد اشتداد الحر من زجاجة
صفراء مخططة ، ومعها إبريق أبيض مسدود الفوهة ، وأنه يستهلك ماله في
سكره ، حفيظاً على عرضه ، يقول :

ولقد شربتُ من المدامة بعدما رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعَلِّمِ^(٣)
بِزجاجةٍ صفراء ذاتِ أَسْرَةٍ قُرْنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشِّمالِ مُقَدِّمِ^(٤)
فإذا شربتُ فإنني مُسْتَهْلِكُ مالي وعرضي وافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ^(٥)
وبلغ من غرامهم بالخمير أن أوصى حاتم الطائي امرأته أن تنضح قبره
بالخمير ، يقول :

(١) «الخوزنق» : قصر كان خارج الحيرة . و«السدير» : قصر للمناذرة .

(٢) «الشويهة» : تصغير الشاة .

(٣) «ركد الهواجر» : أي : سكنت ، وذلك عند قائم الظهيرة . «المشوف المعلم» :
الدينار الذي خُلِّي وزُنِّ .

(٤) «أسرة» : خطوط . «أزهر» : إبريق أبيض بَرّاق . «مقدّم» : عليه القدم ، وهي خرقة
تشد على فم الإبريق .

(٥) «يكلم» : يجرح .

أَمَاوِيٍّ إِمَامٍ فَاسْعِي بِنُظْفَةٍ مِنْ الْخَمْرِ رَيًّا فَانْضَحْنَ بِهَا قَبْرِي
وَأَيُّ دَلِيلٍ عَلَى وَلَوْعِهِمْ بِالْخَمْرِ ، وَارْتِخَاصِهِمْ فِيهَا كُلِّ غَالٍ ؛ مَنْ أَنْ يَرَهْنَ
الرَّجُلَ أَمْرَانَهُ عَلَى شَرَابٍ ، فَيَغْلِقَ الرِّهْنَ ، وَيَتْرَكَ الزَّوْجَةَ؟!

رَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الْوَرْدِ جَاءَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ ، فَسَقَوْهُ
الْخَمْرَ ، فَلَمَّا انْتَشَى مَنَعُوهُ ، وَلَا شَيْءَ مَعَهُ إِلَّا زَوْجَهُ ، فَرَهْنَهَا ، وَلَمْ يَزَلْ
يَشْرَبُ حَتَّى غَلَقَتْ ، فَلَمَّا قَالَ : انْطَلِقِي ، قَالَتْ : لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ ، قَدْ
أَغْلَقْتَنِي . فَصَارَتْ عِنْدَ بَنِي النَّضِيرِ ، فَقَالَ :

سَقَوْنِي الْخَمْرَ ثُمَّ تَكْتَفُونِي عُدَاةُ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ
وَقَالُوا لَسْتُ بَعْدَ فِدَاءٍ سَلَمَى بِمُغْنٍ مَا لَدَيْكَ وَلَا فَقِيرٍ
فَلَا وَاللَّهِ لَوْ مُلْكْتُ أَمْرِي وَمَنْ لِي بِالتَّدْبِيرِ فِي الْأُمُورِ
إِذَا لَعَصِيَّتْهُمْ فِي حَبِّ سَلَمَى عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسَكِ الضُّدُورِ
فِيَا لِلنَّاسِ كَيْفَ غُلِبْتُ أَمْرِي عَلَى شَيْءٍ وَيَكْرَهُهُ ضَمِيرِي؟!

وَقَدْ أُولِعَ الْحَضَرُ وَالْبَدُو بِالْخَمْرِ ، وَقَامَتِ حَانَاتُ كَثِيرَةٍ ، وَأَكْثَرُ الشُّعْرَاءِ
فِي وَصْفِهَا ، وَخَمَرُهَا ، وَغُلْمَانِهَا ، وَأَزْهَارِهَا ، وَسُقَاتِهَا ، وَأَعْيَادُهَا . . .
وَانْتَشَرَتْ تِلْكَ الْحَانَاتُ فِي الْحِيرَةِ ، وَالطَّائِفِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَمَاكِنِ ؛ بِسَبَبِ
وُجُودِ الْكُرُومِ . وَاسْتَمَرَّتْ تِلْكَ الْحَانَاتُ حَتَّى بَعْدَ قِيَامِ الْإِسْلَامِ ، وَتَمَادَى أَهْلُ
ثَقِيفٍ فِي الشُّرْبِ ، وَضَاقَ بِهِمُ الْخَلِيفَةُ الْعَادِلُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ - فَأَضْرَمَ النَّارَ فِي الْحَانَاتِ وَالْمَعَاصِرِ . يَقُولُ أَبُو مُحَجَّجٍ الثَّقَفِيُّ :

رَمَاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَتْفِهَا فَخَلَّأْنَهَا يَبْكُونَ حَوْلَ الْمَعَاصِرِ
وَبَيَّنَ أَمْرُ الْقَيْسِ أَنَّهُ يَشْرَبُ هُوَ وَنَدْمَانُهُ حَتَّى يَفْقِدُوا صَوَابَهُمْ ، فَيَحْسِبُوا
الْخَيْلَ صَغَارَ ضَأْنٍ ، وَيَظُنُّوا الْأَبْيَضَ الْمَسُودَ ، أَوِ الْأَسْوَدَ الْمَبْيِضَ أَسْوَدَ ،
يَقُولُ :

وَنَشْرَبُ حَتَّى نَحْسِبَ الْخَيْلَ حَوْلَنَا نِقَادًا وَحَتَّى نَحْسِبَ الْجَوْنَ أَشْقَرًا^(١)

(١) «نِقَادًا»: غَنَمٌ صَغَارٌ . «الْجَوْنَ»: الْفَرَسُ الْأَسْوَدُ .

ب - الميسر :

وهي عادة ذات جذور عميقة في مجتمع الجاهلية ، لاسيما بين الأغنياء منهم ، وطالما كان الميسر محطة فخار لهم ، باعتباره نوعاً من المقدرة المالية والكرم المتكلّف ، حيث كانوا يطعمون المحاويج كلّ ما ربحوه ، وخاصّة أيام الشدة والشتاء .

وقد أوضح الآلوسي^(١) معنى الميسر والمياسرة ؛ حيث يجتمع عشرة من اللاعبين ، ويُخَضِّروا جزوراً^(٢) ، يضمّنون ثمنها لصاحبها ، ويدفع الثمن بعد المياسرة الغارمون وحدهم ، وتُجعل القِداح^(٣) العشرة في خريطة^(٤) ، وتُجال ، وتُحرّك فيها ، ثم يُخرَج الحُرْضة أوّل قَدَح باسم أحدهم على ترتيب معيّن ، ويكون هذا القَدْح هو نصيبه ، فإن كان رابحاً عرف مقدار ربحه ، وبقي القَدْح خارج الخريطة لا يُعاد إليها ، ثم يُخرَج قَدْحاً باسم الثاني ، ويعرف مقدار ربحه ، وهكذا إلى العشرة . وكلُّ رابح يأخذ ما خرج له ، والثلاثة الذين تخرج لهم القِداح التي لا نصيب لها ، هم الذين يغرمون ثمن الجزور ، فيقسّم عليهم أثلاثاً .

وكانوا يُوسِرُون ليلاً ، حيث يُوقِدون النار وقد عقروا ناقةً ، وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ، ينتظرون ما يرمي به الأيسار من أنصبتهم التي حرّموها على أنفسهم ؛ كرمأ وأنفة .

وقد حرّم الإسلام الميسر لما ينشِبُ عنه من عدااء وبغضاء بين المتياسرين ، ولأنه استيلاء على مال الناس بغير حق ولا طريق مشروع ،

(١) بلوغ الأرب (٦٥/٣) .

(٢) «جزوراً» : ما يصلح للذبح من الإبل .

(٣) «القِداح» : جمع القَدْح ، وهو قطعة من الخشب مستوية ، قليلة العرض ، طولها نحو فِتر ، تُجعل فيها جزوز تدل على نصيب صاحبها من الجزور .

(٤) «خريطة» : وعاء من جلد ونحوه يُشدُّ على ما فيه .

وحتى الكرم الذي في الميسر ليس خالصاً؛ كما يُكْرِمُ الشخصُ مِنْ ماله الصَّرْفَ عن قصد ورغبة .

وإذا قرأنا معلقة لبيد العامري ، فإننا نجده يدعو ندماءه إلى نحر الجزور ، حيث يلعبون بأزلام متشابهة ، وينحرون ناقة عاقراً لأنها أسمن ، أو مطفلاً لأنها أغلى ، وهو يكسب فيطعم الجمع لحمها ، حتى إنَّ الجيران والضيّفان يشبعون وينعمون ؛ كأنهم في وادي تباله المخصبة سهوله ، يقول :

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا^(١)
أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ بُذِلَتْ لَجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا^(٢)
فَالضَّيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا هَبَطَا تِبَالَةَ مُخَصَّباً أَهْضَامُهَا^(٣)

وقد سجّل الشعرُ العربي أن الميسر يكون في الشتاء ، فقال الأعشى^(٤) :

المطعمو الضيفَ إذا ما شَتَوْا والجاعلو القوتَ على الياسرِ

وقد مدّخوا من يلعب بالميسر ، وعابوا من لا ييسر ، وسمّوه : البرم ، فقد رثى متمم بن نويرة أخاه ، ووصفه بأنه مُولَعٌ بالميسر إذا قعقع الجلد اليابس من شدّة البرد ، وأنه كفيلٌ بأخذ ما يتبقى من القداح ، وله غنمه ، وعليه غرمه ، ولا يحمي نصيبه أن يتقسّمه الفقراء :

ولا برماً تهدي النساءَ لِعَرْسِهِ إذا القَشْعُ من حَسِّ الشتاء تققععا^(٥)

(١) «أيسار» : هم المضاربون بالقداح . «لحتفها» : لنحرها . «مغالق» : هي القِداح ؛ لأنه يُغلَقُ بها الرهن .

(٢) «لحامها» : جمع لحم .

(٣) «الجنيب» : الغريب . «أهضامها» : جمع هضم ، وهي بطون الأودية ذات النخيل والفواكه .

(٤) الميسر والأزلام ؛ لعبد السلام هارون (٢٠) .

(٥) «تهدي النساء لعرسه» : ليس ممن تُعطي النساءُ زوجَه لحماً في الشتاء . «القشع» : القرية اليابسة .

إذا جَرَّدَ القَوْمُ القِدَاحَ وأَوْقَدَتْ لهم نَارُ أَيْسَارِ كَفَى من تَصَجَّعاً^(١)
وإنْ شَهِدَ الأَيْسَارَ لم يُلَفَّ مالك على الفرثِ يحمي اللحمَ أنْ يَتَمَزَّعاً^(٢)

ج - الزجر والعيافة:

الزجر والعيافة: أن تعتبر بأسماء الطير ، ومساقطها ، وأنوائها ، فتسعد أو تشاءم ، والعائف: المتهكن بالطير أو غيرها^(٣).

وقد عرف العربُ زَجَرَ الطير والوحش ، فما تيامن منها سموه سانحاً ، وما تياسر ستموه بارحاً ، وبعضهم قال بالعكس . وهذا الاختلاف راجع إلى حالة الزاجر والعائف ، فمن زَجَرَ طيراً ، وقضى لُبَّانته ، تفاءل بذلك الاتجاه ، ومن لم يقض حاجته تشاءم بهذا الاتجاه نفسه .

قال ابنُ رَشِيقِ القَيرواني^(٤): وعن الزجر والعيافة يكون الفأل والطَّيْرَة ، وبينهما فرق ، وذلك أنَّ الفأل تقوية للعزيمة ، وتحضيض على البغية ، وإطماع في النية؛ والطَّيْرَة تكسر النية ، وتصدُّ عن الوجهة ، وتثني العزيمة ، وفي ذلك ما يُعْطَلُ الإحالة على المقادير . وقال الجاحظ^(٥): أصلُ التطير من جهة الطير إذا مرَّ بارحاً أو سانحاً ، أو رآه يتفلَّى ويتنتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعصاب ، أو الأبر ، زَجَرُوا عند ذلك ، وتطيَّروا عندها ، كما تطيَّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال ، فكان زَجَرُ الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا: التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء .

وتشاءموا بالغراب ، وتطيَّروا به ، فهو المقدَّم في الشؤم على غيره ، قال

(١) «تضعج»: تكاسل .

(٢) «الفرث»: بقايا الطعام في الكرش .

(٣) القاموس المحيط ، مادة (عاف) .

(٤) العمدة (٢/٢٥٩) .

(٥) الحيوان (٣/٤٣٨) .

عنترة موضحاً أن الغراب عندما ينعب فإنه يحتمّ الفراق ، وهو غراب أبقع ، فيه سواد وبياض ، وريشه متناثر متساقط ، ومنقاره كالمقص يقطع الأواصر ، ويشت بين الأحبة :

ظَعَنَ الَّذِينَ فِرَاقَهُمْ أَتَوَقَّعُ وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغُرَابُ الْأَبْقَعُ^(١)
حَرَقُ الْجَنَاحِ كَأَنَّ لَحْيِي رَأْسِهِ جَلَمَانُ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلَعُ^(٢)
فَزَجَرْتُهُ أَلَّا يُفَرِّخَ عُشَّهُ أَبْدَأُ وَيَصْبَحُ وَاحِداً يَتَفَجَّعُ
إِنَّ الَّذِينَ نَعَبْتُ لِي بِفِرَاقِهِمْ قَدْ أَشْهَرُوا لَيْلِي التَّمَامَ فَأَوْجَعُوا^(٣)

كما توجَّس زهير بن أبي سلمى أن يرتحل عنه أحباؤه لما سمع نعيَّ الغراب :

ألقى فراقهم في المقلتين قذئ أمسى بذاك غرابُ البين قد نَعَقَا
وكذلك توجَّس النابغة الذبياني من الغراب ، فقال :

زَعَمَ الْغُرَابُ بَأَنَّ رِحْلَتَنَا غَدًا وبذاك خَبَرْنَا الْغُدَافَ الْأَسْوَدُ^(٤)

د - عقر الإبل والخيّل على القبور :

كان العربُ في الجاهلية يعقرون على قبر الميت ، تكريماً له ، وإشهاراً لفضله على الناس ، وتباهياً بما نحر بنوه على قبره من ذبائح لإطعام الفقراء ، وتوزيعها على المحتاجين . قال زياد بن سلمى الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب :

فإِذَا مَرَزْتُ بِقَبْرِهِ فَاغْقِرْ بِهِ كَوْمَ الْهِجَانِ وَكُلَّ طَرْفٍ سَابِحٍ^(٥)

(١) «ظعن» : ارتحل . «الأبقع» : الذي فيه سواد وبياض .

(٢) «حرق الجناح» : أي : يتناثر ريشه ويتساقط . «جلمان» : طرفا المقص . «هش» : مسرور بأن يُخبر بالفراق .

(٣) «نعبت» : النعيب : صوت الغراب مع مدِّ صوته . «ليل التمام» : أطول ليالي الشتاء .

(٤) «الغداف» : السابغ الريش .

(٥) «الطرف» : الكريم العتيق من الخيل .

وَانْضَجَ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدَمَائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَحَا ذِمٍ وَذَبَائِحِ
وَكَأَنَّ النُّوقَ كَانَتْ تَدْرِكُ أَنَّهَا تُعَقَّرُ عِنْدَ الْقُبُورِ؛ فَلَذَا تَنْفَرُ مِنْ رُؤْيَا الْقُبُورِ ،
وَتَتَهَيَّبُ ذَاكَ الْمَنْظَرَ . قَالَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ وَقَدْ مَرَّ عَلَى قَبْرِ رَبِيعَةَ بْنِ مُكَدَّمٍ
- فَارِسَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - :

نَفَرْتُ قَلُوصِي مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ بُنِيتَ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ
لَا تَنْفِرِي يَا نَاقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ شَرِّبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ
لَوْلَا السَّفَارُ وَطُولُ قَفَرٍ مَهْمَةٍ لَتَرَكْتُهَا تَحْبُو عَلَى الْعُرْقُوبِ
هـ - الهامة والصدى :

هذه خرافة مبعثها ولوعهم بالثأر ، وأئى تحريض على الثأر أقوى من
زعمهم أنَّ القَتِيلَ الَّذِي لَمْ يُؤْخَذْ بِثَأْرِهِ ؛ يَخْرُجُ مِنْ هَامَتِهِ طَائِرٌ يُسَمَّى الْهَامَةُ ،
فَلَا يَزَالُ يَقُولُ : اسْقُونِي ، اسْقُونِي ، حَتَّى يُقْتَلَ قَاتِلُهُ ، فَيَسْكُنُ^(١) !

قَالَ شَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ بِيكِي قَتَلَى بَدْرَ :
يُخَبِّرُنَا الرَّسُولُ لَسَوْفَ نَحْيَا وَكَيْفَ لِقَاءُ أَصْدَاءِ وَهَامٍ ؟ !
وَقَالَ ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدَوَانِي :

يَا عَمْرُو إِلَّا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَضْرِبُكَ حَيْثُ تَقُولُ الْهَامَةُ اسْقُونِي
أَمَّا الصَّدَى فَهُوَ طَائِرٌ يَخْرُجُ مِنْ رَأْسِ الْقَتِيلِ إِذَا بَلِيَ . قَالَ أَبُو دُوَادَ :
سُلِّطَ الْمَوْتُ وَالْمُنُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ
وَقَالَ لَبِيدُ :

فَلَيْسَ النَّاسُ بَعْدَكَ فِي نَقِيرٍ وَلَيْسُوا غَيْرَ أَصْدَاءِ وَهَامٍ^(٢)
وَقَالَ الْجَاحِظُ^(٣) : الصَّدَى : طَائِرٌ يَخْرُجُ مِنْ هَامَةِ الْمَيِّتِ إِذَا بَلِيَ ، فَيَنْغِي

(١) الْأَمَالِيُّ : لِأَبِي عَلِيٍّ الْقَالِي (١/١٢٩) .

(٢) «النَّقِيرُ» : النَّقْرَةُ خَلْفَ النَّوَاةِ .

(٣) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ (١/٢٨٤) .

إليه ضَعُفَ وَلِيَّه ، وَعَجَزَه عن طلب طائلته . وهذا كانت تقوله الجاهلية . قال
الْتَمُرُ بْنُ تَوَلَّب :

أَعَادَلْ إِنْ يُضْبِحُ صَدَائِي بِقَفْرَةٍ بعيداً نَأْنِي صَاحِبِي وَقَرِيبِي
تَرَى أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ وَأَنَّ الَّذِي أَمْضَيْتُ كَانَ نَصِيبِي
وقد ظلَّ الصدى في أذهان بعضهم بعد الإسلام ؛ مما يدلُّ على أصالته في
النفوس ، قال توبة :

ولو أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمْتُ عَلَيَّ وَدُونِي ثُرْبَةً وَصَفَائِحُ
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ^(١)

و - تمائم للوقاية من الحسد والجن :

اعتمد الجاهليون على التمام جلباً للنفع ، ودفعاً للضر . والتميمة : عُوْذَة
تُعلَّقُ على الإنسان ، قال سَلَمَةُ بْنُ الْخُرْشُب :

تُعَوِّذُ بِالرَّقِي مِنْ غَيْرِ خَبَلٍ وَتُعَقِّدُ فِي قَلَائِدِهَا التَّمِيمُ
وقال رِقَاعُ بْنُ قَيْسِ الْأَسَدِي :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا يَتَرَنَّ مَنَعَجٍ إِلَيَّ وَسَلَّمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تَرَابُهَا

والتمائم ، واحدها : تميمة ، وهي خرزات كان الأعرابُ يُعلِّقونها على
أولادهم ، ينفون بها النفس والعين بزعمهم ، فأبطله الإسلام ، وإياه أراد
الهذلي بقوله :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ^(٢)

وجعلها ابن مسعود من الشرك^(٣) ؛ لأنهم جعلوها واقيةً من المقادير
والموت ، وأرادوا دفعَ ذلك بها ، وطلبوا دفعَ الأذى من غير الله ؛ الذي هو

(١) «زقا» : صاح .

(٢) «أنشبت» : أنشب الشيء في الشيء : أعلقه به .

(٣) لسان العرب ، مادة (تمم) .

دافِعُهُ ، فكأَنَّهُم جعلوا له شريكاً فيما قَدَّرَ ، وَكَتَبَ من آجال العباد ، والأعراض التي تُصيبهم ، ولا دافع لما قضى ، ولا شريك له تعالى وتقدَّس فيما قَدَّرَ .

ومن تَمائمهم :

* تعليق كعب الأرنب : حيث كانوا يعتقدون أنه وقاية من السحر ، وأنَّ الجن تنفر من الأرنب ؛ لأنها تحيض^(١) .

قال امرؤ القيس :

يَا هِنْدُ لَا تَنْكِحِي بُوْهَةً عَلَيْهِ عَقِيقَتُهُ أَحْسَبَا^(٢)
مُرْسَعَةً بَيْنَ أَرْسَاغِهِ بِهِ عَسَمٌ يَتَغَيُّ أَرْنبَا^(٣)
لِيَجْعَلَ فِي كَفِّهِ كَعْبَهَا حِذَارَ الْمَنِيَّةِ أَنْ يَعْطَبَا

* تعليق سن الثعلب والهرة وحيض السمرة :

زعموا أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة ، فَعُلِقَ عليه شيء من هذه الأشياء سَلِمَ ، وأن الجن إذا رآته لم تقدر عليه . قالت امرأة تصف ولداً :
كَانَتْ عَلَيْهِ سَنَةٌ مِنْ هَرَّةٍ وَثَعْلَبٍ وَالْحَيْضُ حَيْضُ السَّمَرَةِ^(٤)

* تعليق الأقدار النجسة :

اعتقدوا أنَّ تعليق الأقدار النجسة تقيهم من الإصابة بالعين والجن والأرواح الشريرة .

قال الممَرِّقُ العبدي :

(١) صبح الأعشى (٤٠٦/١) .

(٢) «بُوْهَةٌ» : بُومَةٌ ، تُضْرَبُ مثلاً للرجل الذي لا خيرَ فيه ، ولا عقل له . «عَقِيقَتُهُ» : شعره الذي وُلِدَ به . يريد أن لا يَنْتَظِفَ . «أَحْسَبَا» : من الحُسْبَةِ ، وهي ضُهْبَةٌ تضرب إلى الحمرة ، وهي مَذْمُومَةٌ عند العرب .

(٣) «مرسعة» : مِثْلُ المَعَاذَةِ . «عَسَمٌ» : يُبْسُ فِي الرُّسْغِ ، وَاِعْوِجَاجٌ .

(٤) «السمرة» : نوع من الشجر ، وحيضها : شيء يسيل منها كدم الغزال .

ولو كنتُ في بيتٍ تُسَدُّ خِصامُهُ حوالِيَّ من أبناء بَكْرَةَ مجلسُ
ولو كان عندي حازيان وكاهنٌ وعلّق أنجاساً عليّ المُنَجِّسُ^(١)
إذاً لأتّسّي حيث كنت مَيَّسِي يَحُبُّ بها هادٍ إليّ مَعْفَرِسُ^(٢)

وكانوا يظنون أن تعليق النجاسات ينقذ من الموت!! قالت امرأة - بعد أن
علّقت على ولدها نجساً ، فلم يقه من الموت - :

نَجَّسْتَهُ لا ينفع التَّنْجِيسُ والموتُ لا تفوُّثُهُ النفوسُ
فَقَّ عَيْنَ الفحل :

لم يقتصر الأمر على بني الإنسان ، بل تعدّاه إلى الحيوانات ، حيث كانوا
يحصّنون الإبل من الحسد إذا بلغت ألفاً ؛ بأن يفقّوا عينَ الفحل ، فإن زادت
الإبلُ على الألف فقّوا العينَ الأخرى ، وذلك المفقّ والمعمّى^(٣) .

وكانوا يزعمون أن المفقّ يطردُ عنها العين والسّواف^(٤) والغارة ، قال
بعضهم :

فَقَاتُ لَهَا عَيْنَ الفَحِيلِ عِيفَةً وفيهِنَّ رَعْلَاءُ المِسامِيعِ والحامي^(٥)
وقال آخر :

فكان شكرُ القومِ عند المننِ كيَّ الصَّحِيحاتِ وفَقَّ الأعْيُنِ
* الرَّتَم :

جاء في أمثال العرب : «أُمَحَلُّ من تَعْقَادِ الرَّتَمِ»^(٦) . وكان الرجلُ من

(١) «حازيان» : مثنى حازٍ ، وهو الخبير بالأمور ، والمراد - هنا - : الطبيب الحاذق .

(٢) «معفرس» : سابق سريع .

(٣) الحيوان (١٧/١) .

(٤) «السواف» : الموتان يقع في الإبل .

(٥) «الفحيل» : المنجب في ضرابه . «العيفاة» : التفاؤل . «رعلاء» : هي التي تُشَقُّ أذنُها
وثرُك مدلاةً ، لكرمها .

(٦) جمهرة الأمثال (٢/٢٩٤) والدرة الفاخرة (٢/٣٨٨) والمستقصى (١/٣٦٠)
ومجمع الأمثال ؛ للميداني (٢/٣٢٦) .

العرب إذا أراد سفرأ عَقَدَ خَيْطاً بشجرة ، فإذا رَجَعَ وَوَجَدَهُ معقوداً زَعَمَ أنَّ امرأته لم تَخُنه ، وإنَّ وَجَدَهُ محلولاً زعم أنها خانتَه . واسم ذلك الخيط : الرِّثَم . قال الشاعر :

هل يَنْفَعُنكَ اليومَ إنْ هَمَّتْ بِهِمْ كَثْرَةُ ماثُوصِي وتَعَقَّادِ الرِّثَمِ
وكل ما تقدَّم يتعلق بالعادات والمعتقدات السارية في الجاهلية .

ويلحظ الدارسُ في الحياة الخُلُقِيَّة عند عرب الجاهلية شيوع الطيش ، وسرعة الانفعال ، فلا قانون يردع ، ولا نظام يمنع ، حيث يعتقد كل إنسان بسيادته وسموه ، ويحسُّ بامتلاكه للقوة ، وانتسابه للمحتد العريق ، إلى جانب التناصر والتعاقد بين الفرد والقبيلة ، فكلُّ ينصر الآخر ، ويثار له ، ويندفع دون تفكير بالعواقب ، قال سعدُ بن ناشب :

سَأَغْسِلُ عني العارَ بالسَّيْفِ جالِباً عليَّ قَضَاءَ الله ما كان جالِباً^(١)
أخي غَمَرَاتٍ لا يريدُ على الذي يَهُمُّ به مِنْ مُفْطِيعِ الأمرِ صاحباً^(٢)
إذا هَمَّ لم تُزْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ ولم يأتِ ما يأتي من الأمرِ هائِباً^(٣)
إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عَزْمَهُ وَنَكَبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانِباً^(٤)
ولم يَسْتَشِرْ في رأيه غَيْرَ نَفْسِهِ ولم يَرْضَ إلَّا قائمَ السَّيْفِ صاحباً

وخيرُ مَنْ صوَّر اندفاع العربي في الجاهلية ؛ عمرو بن كلثوم ، فصوَّر قومه يبطشون بالناس عن قدرة وعن عدوان ، وإن لم يمسههم اعتداء أو أذى من الآخرين ، يقول :

لنا الدُّنيا وما أَمْسَى عليها وَتَبْطِشُ حينَ تَبْطِشُ قادِرينا
بُغَاةَ ظالمينَ وما ظَلَمْنَا وَلَكِنَّا سَبْدُ ظالمينا

(١) «قضاء الله» : الموت .

(٢) «غمرات» : شدائد . «مفطع الأمر» : هو الأمر الصعب الذي يضيق به صاحبه دُرْعاً .

(٣) «تردع» : تكف .

(٤) «نكَب» : انحرف ومال .

وقد أغار بنو شيبان على قُرَيْط بن أُثَيْف ، وأخذوا ثلاثين بغيراً له ،
 وخذله قومه ، فاستنجد ببني مازن ، فنهبوا من بني شيبان مئة بغير ، ودفعوها
 إليه ، فقال يمدح بني مازن الذين نصروه ؛ بأنهم يسرعون ويتسابقون إلى
 نصرة أخيههم ، دون أن يعرفوا أنه مظلوم يستحقُّ النصرة :

لو كنتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِلَيَّ بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلٍ بَنُ شَيْبَانَ
 قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيْهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا
 لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا
 وقريبٌ من هذا قولُ زهير بن أبي سُلمى :

وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسَلَاحِهِ يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
 أمّا الثَّارُ فكانَ عربُ الجاهلية يكلفون به ، وها هو المهلهل يؤكد تصميمه
 على الأخذ بالثَّارِ لأخيه كُليب :

ولستُ بخالِعٍ درعي وسيفي إلى أن يخلعَ الليلَ النهارُ
 وإلا أن يبيدَ سَراةَ بَكْرِ فلا يبقى لها أبداً آثَارُ^(١)

وكان عِصْمَةُ بن حذرة اليربوعي من عرب الجاهلية ، قد نَذَرَ ألا يشرب
 خمرأً ، ولا يأكل لحماً ، ولا يقربَ امرأةً ، ولا يغتسل ؛ حتى يقتل سبعين
 رجلاً من عبس ؛ لأنهم قتلوا ابنَ عم له ، فلما قتلهم قال :

اللهُ قد أمكنني من عبسٍ ساغ شرابي وشفيتُ نفسي
 وكنْتُ لا أقربُ طَهْرَ عِرْسِي وكنْتُ لا أشربُ فَضْلَ الكَاسِ
 ولا أشدُّ بالوخافِ رأسي^(٢)

ولم تكن القرابة ل تمنع من إدراك الثَّارِ ، فقد قَتَلَ قيسُ بن زهير العبسي
 قريبةَ حمل بن بدر ثاراً لأخيه مالك ، فقال :

(١) «سراة» : سادة ورؤساء .

(٢) «الوخاف» : الخطمي يُغسل به الرأس .

شَفِيتُ النفسَ من حملِ بنِ بدرٍ وسيفي من حذيفةَ قد شَفاني
فإنَّ أكَ قد بردتُ بهم غليلي فلم أقطعُ بهم إلا بَنَانِي
فالتأثر من القريب كقطع الإصبع من الكف ، وذاك البترُ مَوجِع .

وقال أبو سفيان بن حَرْب في غزوة أُحُد :

ولو أنَّني لم أَشَفِ نفسيَ منهم لكانت شجاً في القَلْبِ ذاتُ نُدُوبٍ^(١)
والتأثر سلسلة متواصلة من عمليات القتل التي لا تنتهي ، فتأبط شراً كان
يثأر لخاله ، ويتوقع أن يثار له ابنُ أخته إذا ما هلك . يقول :

إنَّ بالشَّعْبِ الذي دُونَ سَلْعٍ لقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ^(٢)
خَلَفَ العِيبَ عَلَيَّ وَوَلَّى أنا بالعِيبِ لَهُ مُسْتَقِيلٌ^(٣)
ووراء النَّارِ مَنِّي ابنُ أُخْتِ مَصِيعٌ عُقْدَتُهُ ما تُحَلُّ^(٤)
مُطَرِّقٌ يَرْشُحُ سَمًّا كما أَطُّ رِقَ أَفْعَى يَنْفِثُ الشَّمَّ صِلُّ^(٥)

أمَّا الحياة الدينية عند عرب الجاهلية ، فيمكن الوقوف على العقائد
المنتشرة آنذاك من خلال الشعر - على قَلَّة الشعراء المتدينين - ، وأهم تلك
العقائد : عبادة الأصنام ، فقد أقسموا بها ، فقال طَرْفَةُ بن العبد :
فأقسمتُ عند الثُّصِبِ إني لَمِيتٌ بِمِثْلَفَةٍ لَيْسَتْ بِغَرْبٍ ولا خَفْضٍ^(٦)

وخَلَفَ أوس بن حجر باللات والعزى وبالله ، فقال :

وباللَّاتِ والعزى وَمَنْ دانَ دِينُهَا وباللهِ إِنَّ اللهَ مِنْهُمْ أَكْبَرُ
وكانوا يذبحون عند الأنصاب ، فذكر الجاحظ^(٧) أنَّ الرجل كان ينذر عند

(١) «الشجا» : الحزن . «الندوب» : آثار الحرح .

(٢) «ما يطل» : الطل : مظل الدم والدية ، وإبطالهما .

(٣) «العيب» : الثقل ، وهو - هنا - : طلب الدم .

(٤) «مصع» : شديد المقاتلة ، ثابت .

(٥) «صل» : هي الحية الخبيثة ، أو الدقيقة الصَفراء .

(٦) «المثلفة» : القفر . «العزب» : الوهدة المنخفضة .

(٧) الحيوان (١٨/١) .

الأصنام كذا وكذا عتيرة؛ إذا بلغت إبله أو غنمه كذا وكذا ، فإذا اكتمل العدد استعمل التأويل ، وقال : إنما قلتُ إني أذبحُ كذا وكذا شاة ، والظباء شاء كما أن الغنم شاء ، فيجعل ذلك القربان شاء كله مما يصيدُ من الظباء ، فلذلك يقول الحارثُ بن حِلْزَةَ اليشكريُّ :

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحٌ كِنْدَةً أَنْ يَغْدَ نَمَ غَازِيَهُمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ^(١)
عَنَّا بَاطِلًا وَظُلْمًا كَمَا تُعَدُّ تَرُّ عَنْ حُجْرَةِ الرَّيْبِضِ الظُّبَاءُ^(٢)

وشبهَ امرؤ القيس قطع بقر الوحش بالنساء العذارى اللواتي يطفن حول الصنم ، فقال :

فَعَنَّا لَنَا سِرْبٌ كَانَ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلَاءٍ مُذَيَّلٍ^(٣)
والدوار : صنم حجر ، كان أهلُ الجاهلية ينصبونه ، ويطوفون حوله ، تشبيهاً بالطائفتين حول الكعبة ؛ إذا نأوا عنها^(٤) .

وكانوا يستقسمون عند الأصنام ، ويقدمون قربانينهم لها ، وحموا بعض أنواع البهائم عن الذبح تقرباً للأصنام ، ومنها : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي .

كما عبد أهلُ الجاهلية الكواكب ، فكان منهم عبَاد الشمس ، يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسّطت السماء ، وإذا غربت . وقد عبد الشمس عربٌ من حمير ، ومنهم بلقيس ، قال عز وجل : ﴿ وَجَدْتُهُمَا وَقَوْمَهُمَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٤] .

وكان الصابئة من عبَاد الكواكب ، فهم يعتقدون في الأنواء اعتقاد

(١) «جناح» : إثم .

(٢) «عَنَّا» : اعتراضاً . «تُعتر» : العتر : ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كانت تُذبح للأصنام في رجب . «حجرة» : ناحية . «الرييض» : الغنم الرابضة .

(٣) «عَنَّا» : عرض وظهر . «السرب» : القطيع . «الملء» : جمع ملاء . «المذيل» : الذي أطيل ذيله .

(٤) شرح المعلقات السبع : للزوزني ، تحقيق : يوسف علي بديوي (٦٨) .

المنجّمين في الكواكب السّيّارة ، فلا يتحركون ، ولا يسكنون ، ولا يسافرون ،
ولا يقيمون إلا بنوء منها . وهم يسمّون أنفسهم بأسماء مُضافة إليها
بالعبودية ، كعبد شمس ، وعبد المشتري ، وعبد الشارق .

وكان عبّاد النار يحلفون بها ، وإذا أرادوا أن يستحلفوا الرجل أوقدوا
نارا ، والقوا فيها ملحاً من حيث لا يشعر الحالف ، فيتفقع الملح ، يُهوّلون
عليه بذلك . قال أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمسُ صَدَّ بوجهه كما صَدَّ عن نار المهوّلِ حالفٌ^(١)
وقال بعضهم :

خَلَفْتُ بِالْمِلْحِ وَالرَّمَادِ وَبِالنَّارِ وَبِاللّهِ نُسْلِمُ الْحَلَقَةَ^(٢)
حَتَّى يَظْلَلَ الْجَوَادُ مُنْعَفِراً وَيَخْصِبَ النَّبْلُ غُرَّةَ الدَّرَقَةِ^(٣)
وقال آخر :

خَلَفْتُ لَهُم بِالْمِلْحِ وَالْجَمْعُ شُهُدٌ وَبِالنَّارِ وَاللَّاتِ الَّتِي أَعْظَمُ
وكانوا يستمطرون بالنار ، قال الجاحظ^(٤) : وهي النار التي كانوا
يستمطرون بها في الجاهلية الأولى ، فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزْمان ،
وركد عليهم البلاء ، واشتدَّ الجُذْب ، واحتاجوا إلى الاستمطار ، اجتمعوا ،
وجَمَعُوا ما قَدَرُوا عليه من البقر ، ثم عَقَدُوا في أذنانها وبين عراقيبها : السَّلْع
والْعُشْر^(٥) ، ثم صعدوا بها في جبل وَعْر ، وأشعلوا فيها النيران ، وضجّوا
بالدعاء والتضرّع ، فكانوا يَزَوْن أَنَّ ذلك من أسباب السّقياء ؛ ولذلك قال
أمية بن أبي الصَّلْت :

(١) «المهوّل» : الذي كان يتولّى تحليف القوم .

(٢) «الحلقة» : حلقة القوم : جماعتهم .

(٣) «منعفراً» : مُلْقَى في العفر متترّبا . «النبل» : السهام . «الدركة» : الترس يتخذ من
الجلود .

(٤) الحيوان (٤/٤٦٦) .

(٥) «السَّلْع والعُشْر» : نوعان من الشجر .

سَنَةً أَرْمَتْ تَخَيَّلُ بَالْتَا سِ تَرَى لِلْعَصَاءِ فِيهَا صَرِيرَا
 إِذْ يَسْفُونَ بِالذَّقِيقِ وَكَانُوا قَبْلُ لَا يَأْكُلُونَ شَيْئاً فَطِيرَا^(١)
 وَيَسُوقُونَ بَاقِراً يَطْرُدُ السَّهْ لَ مَهَازِيلَ خَشِيَةً أَنْ يُبُورَا^(٢)
 عَاقِدِينَ الثَّيْرَانَ فِي شُكْرِ الْأَذْ نَابِ عَمْدَاً كَيْمَا تَهِيَجُ الْبُحُورَا^(٣)
 فَاشْتَوَتْ كُلُّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِم ثَمَ هَاجَتْ إِلَى صَيِيرٍ صَيِيرَا^(٤)
 فَرَأَاهَا الْإِلَهُ تُرْشِمُ بِالْقَطْ رِ وَأَمْسَى جَنَابُهُمْ مَمْطُورَا^(٥)
 فَسَقَاهَا نَشَاصُهُ وَكَفَّ الْغَيْثَ ثِ مِنْهُ إِذْ رَادَعُوهُ الْكَبِيرَا^(٦)
 سَلَعُ مَا وَمِثْلُهُ عُشْرُ مَا عَائِلُ مَا وَعَالَتِ الْبَيْقُورَا^(٧)

كما نجد الدَّهْرَيْنِ المنكرين لعقيدة البعث والجزاء ، فهم يرون أن العالم لا يبید ، فهم ملحدون يقولون ببقاء الدَّهْرِ . قال الشاعر :

مَنَعَ الْبَقَاءَ تَقْلُبُ الشَّمْسِ وَطَلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُمْسِي
 وَطَلُوعُهَا حَمَرَاءَ صَافِيَةٍ وَغُرُوبُهَا صَفَرَاءَ كَالْوَرْسِ
 تَجْرِي عَلَى كِبَدِ السَّمَاءِ كَمَا يَجْرِي حِمَامُ الْمَوْتِ فِي النَّفْسِ
 الْيَوْمَ أَعْلَمُ مَا يَجِيءُ بِهِ وَمَضَى بِفَضْلِ قَضَائِهِ أَمْسِ

وقد مرَّ معنا قول شَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ :

يُحَدِّثُنَا الرَّسُولُ بِأَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامِ؟!

(١) «يسفون» : يتناولون بأفواههم . «الفطير» : ما عجل خبزه من ساعة ، ولم يُترك حتى يختمر .

(٢) «باقراً» : بقراً . «مهازيل» : يخاف . «يبور» : يهلك .

(٣) «شكر» : جمع شكير ، وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل . «تهيج» : تثور .

(٤) «كلها» : أي : كل الأذناب ، أو كل البقر . «الصبير» : السحاب يثبت يوماً وليلة ولا يبرح ، كأنه يصبر ، أي : يحبس .

(٥) «فرأها» : أي : الأرض . «ترشم» : أرشمت الأرض : بدا نباتها . «القطر» : المطر .

(٦) «نشاصه» : هو السحاب المرتفع . «واكف الغيث» : المطر الهاطل .

(٧) «عائل» : عال الشيء فلاناً : ثقل عليه . «البیقور» : البقر .

هذا ، وإن واقع الحياة في الجاهلية يتَّصف بتراكم فاسدٍ في الفكر ، وبتبعية للخرافات والظنون ، فمن يعبد الحجر ، ويسجد للشجر ، ويعاقر الخمر ، ويتعامل بالميسر والربا ، ويئد ولده ، ويظلم الآخرين دون جريمة ارتكبوها... إن هذا الإنسان قد هانت عليه إنسانيته ، وفسدت عقليته ، وآمن بالباطيل ، واستمرأ الأمور الوحشية ، فراغ عن طريق الاستقامة ، وتحولت النواحي الإيجابية إلى سلوك شرير «فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية ، والجدُّ تبذيراً وإسرافاً ، والأنفة حميةً جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلةً لابتكار الجنائيات ، والإبداع في إرضاء الشهوات»^(١).

وجاء رسولُ الله ﷺ بالدعوة الربانية ، فدعا الناسَ إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وتبذ عبادة الأوثان ، ومحاربة الطاغوت ، والشر ، والفساد ، وقامت دعوته على أمرين اثنين ، هما: بناء العقيدة الصحيحة ، وإيجاد تشريع وأخلاق ، يستمدُّ مصداقيته من لدن رب السماء .

ولكن الجاهلية لم تهدأ إزاء دعوته ﷺ ، فقامت تدافع عن تراثها العتيد ، وتقاتل بشراسة على كل الجبهات ، وجمعت قواها ، وجاءت بقضها وقضيضها ، وحذاها وحديدها ﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص: ٦] .

وقامت حملات التعذيب ، ونشطت حوادث الاضطهاد لكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وثبت المؤمنون في وجه العتاة ، لا يثنىهم الأذى ، ولا يفت في عضدهم أي كيد مهما التوى وتعقد . ولم يخضع ﷺ لإغراءات المشركين ، بل خاطب عمه أبا طالب بقوله: «يا عم لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمرَ في شمالي على أن أترك هذا الأمرَ حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته»^(٢).

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؛ لأبي الحسن الندوي (٨٨) .

(٢) السيرة النبوية ؛ لابن هشام (٢٦٦/١) وتاريخ الإسلام - السيرة النبوية - للذهبي (١٤٩) .

وواجه ﷺ الحياة الجاهلية برمّتها ، وبكل ما فيها من معتقدات زائفة ، وعادات فاسدة ، وأفكار ضالة ، فصدع بآيات القرآن الكريم ، يربي في نفوس الناس مشاعر الإيمان بالله الواحد الأحد ، ويسمو بأرواحهم ، وينقي قلوبهم مما علق بها من أوشاب وأدران ، ويُحرّرها من سلطان المادة والشهوة ، للوقوف بين يدي الله عز وجل كل يوم خمس مرات في مناجاة ضارعة ، وخشوع عميق ، وتدبّر لآيات الكون .

وعانى ﷺ معاناةً شديدة ، وذلك أنه جاء المشركين بما لم يعهدوه ، وقد عبّروا عن ذلك بقولهم لأبي طالب : «إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلَهُتَنَا ، وعاب ديننا ، وسفّه أعلامنا ، وضللّ آباءنا»^(١) .

وسأقف عند نقطة مهمة ، وهي تحذير الإسلام من الشرك بالله تعالى ، وأبين شيئاً من منهج القرآن ، وطريقة رسول الله ﷺ في تعزيز العقيدة ، وإنقاذ الناس من ظلام الجاهلية والكفر ، إلى نور الإيمان بالخالق عز وجل ، قال الإمام الذهبي^(٢) :

الكبيرة الأولى : الشرك بالله تعالى : وهو أن تجعلَ لله ندّاً^(٣) وهو خَلَقَكَ ، وتعبّد معه غيره من حَجَر ، أو بشر ، أو شمس ، أو قمر ، أو نبيّ ، أو شيخ ، أو جَنّي ، أو نجم ، أو ملك ، أو غير ذلك . قال الله تعالى : ﴿لَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْرِفُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْرِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] .

(١) السيرة النبوية ؛ لابن هشام (٢٦٥ / ١) .

(٢) الكبائر ؛ للذهبي ، الكبيرة الأولى .

(٣) «ندّاً» : النَّدُّ : المثل ، وجمعه : أنداد .

والآيات في ذلك كثيرة ، فمن أشرك بالله تعالى ، ثم مات مشركاً فهو من أصحاب النار قطعاً ، كما أنَّ مَنْ آمَنَ بالله ، ومات مؤمناً فهو من أصحاب الجنة وإن عُدَّ .

وقال النبي ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله...»^(١) الحديث .

وقال : «اجتنبوا السبع الموبقات...»^(٢) فذكر منها «الشُّرك»^(٣) .

وقال ﷺ : «مَنْ بَدَّلَ دينه فاقتلوه»^(٤) حديث صحيح .

وسأشرح كلام الذهبي بشيء من التفصيل ، فأقول :

معنى الشرك لغةً واصطلاحاً :

قال ابن منظور في «لسان العرب» : أَشْرَكَ بالله : جَعَلَ لَهُ شَرِيكاً في ملكه ، تعالى الله عن ذلك ، والاسم : الشُّرك . قال الله تعالى حكايةً عن عبده لقمان أنه قال لابنه : ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] . والشُّركُ : أن يجعلَ لله شريكاً في ربوبيته ، تعالى الله عن الشُّركاء والأنداد . وإنما دخلتِ التاء في قوله : ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ لأنَّ معناه : لا تَغْدِلْ به غيره فتجعله شريكاً له ، وَمَنْ عَدَلَ به شيئاً من خَلْقِه فهو كافر مُشْرِكٌ ؛ لأنَّ الله وحده لا شريك له ، ولا نِدَّ .

والشُّركُ في الاصطلاح :

هو اتخاذُ نِدٍّ لله تعالى في الذات ، أو في الصفات ، أو في الأفعال ، أو

(١) رواه أحمد (٣٦/٥ ، ٣٨) ، والبخاري (٢٦٥٤) في الشهادات ، ومسلم (٨٧) في الإيمان .

(٢) «الموبقات» : المهلكات ، جمع موبقة . وسُمِّيَت الكبائر موبقات لأنها تُهْلِكُ فاعلها في الدنيا ؛ بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب .

(٣) رواه البخاري (٢٧٦٦) في الوصايا ، ومسلم (٨٩) في الإيمان .

(٤) رواه أحمد (٢٨٢/١) والبخاري (٣٠١٧) في الجهاد ، وأبو داود (٤٣٥١) في الحدود ، والترمذي (١٤٥٨) في الحدود ، والنسائي (١٠٣/٧) .

في العبادة. فالنُّد في الذات: أن يعتقد أن ذات الله كذات المخلوق ، وهذا من أقبح القبائح ، وأعظم الجهالات .

والنُّد في الصفات: أن يعتقد للمخلوق صفة كصفات الله ؛ مثل أن يعتقد أن مخلوقاً ما قديم كقدم الله عز وجل .

والنُّد في الأفعال: أن يعتقد أن مخلوقاً ما يرزق ، أو يشفي ، أو يتصرّف في الكون والحياة كما يتصرّف الله سبحانه .

والنُّد في العبادة: أن يعبد ، أو يدعو مع الله إلهاً آخر ، وأن يعظّمه ويحبه كتعظيم الله وحبه .

أسباب الشرك :

ثمة أسباب وراء ظاهرة الشرك ، وأهمّها :

أ - الجهل : ذلك أن المقلّد جاهل ، والجهل سبيلٌ إلى الضلال ، فيجادل ظناً بأنه امتلك الحقيقة ، لكنه في الواقع غير مؤهل للجدال . وقد شدّد القرآن الكريم النكير ، والحملة على التقليد الأعمى الذي وقع فيه الجاهليون ، وتمسّكوا بالشرك بسبب تقليد آبائهم ، وفي ذلك عبرة لأي عبدة لمن يُقلّدون الأجانب والأعداء فيما يتكرون في عالم الفكر والأزياء . يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۚ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ [الحج : ٨ - ٩] .

فهؤلاء الجهال المقلّدون تقليداً أعمى يخيّون بلا عقلٍ صحيح ، ولا نقلٍ صريح ، بل بمجرّد الرأي والهوى . فالواحد منهم يستكبر عن الحق إذا دُعي إليه ، ويُعرضُ تمادياً في الباطل .

ب - الهوى : يُسكّل الهوى دوراً كبيراً في ردّ الناس عن قبول الحق ، واعترافهم بالخالق مُوجداً ومُشرّعاً ، فتراهم ينساقون مع شهواتهم ونزواتهم ، باحثين عن اللذة ، غير مباليين بالحق والتوحيد ، فكلُّ شيء يروونه حسناً في هوى أنفسهم يتخذونه دينهم ، ومذهبهم .

وعند ذلك يقتزن الجهل بالهوى ، والهوى بالكبر ، وبالتالي تتسع شقّة الخلاف ، وتتضخّم الهوة ، يقول تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .

وإذا استولى الهوى على النفس ، فإنّ الإنسان ينقلبُ حيواناً ، تطغى عليه الشهوة ، وتتحكّم به ذاته ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيسِ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦] .

وهكذا يحيا هؤلاء بعبيدين عن الأدلّة الصحيحة ، وعن الحجج الهادية ، فإذا بالشرك والكفر يحيطان بهم من كل جانب .

ج - الكبر والعناد : من المشركين من يُعاندُ الحقّ فلا يقبله ، ويجادل مُستكبراً ، فينأى عن النصيحة ، ويستغرق في جهله وخطيئته . وهذه الأنفة الباطلة دليلُ البشرية الزائفة . ويُطالبُ المعاندُ بالخوارق ، فهو لا يقبلُ تحكيم العقل ، أو الوقوف على الحق ، بل يستكبر مُطالباً بالمعجزات ، والأمور غير العادية . وقد قصّ القرآن الكريم طرفاً من حكايتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفْرُجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ أَوْ تَكُونَ لَكِ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

وهذا الجحود دليلُ عنادهم ، وأثرُ خطير من آثار الاستكبار الذي خرّق فيهم عقولهم ، وتفكيرهم .

د - الخوف : من أسباب الشرك : الخوف ، والتردّد ، والإحجام ، فالحقّ ثباتٌ وتضحية وجراة ، لكن الإشراك تراجع وخذلان . قال تعالى : ﴿ وَتَحِلُّواْ لِلَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَجًا أَوْ مَفْرَتًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلُواْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة : ٥٦ - ٥٧] .

﴿ الشرك فكر متحجر وتصوّر خاطيء :

الشرك ظلمٌ عظيم ، ومنافاة للتوحيد ، واستكبار عن الخضوع للخالق الأعظم جلّ جلاله ، وجَهْلٌ بحقيقة الذات الإلهية .

وكانت عبودية المشركين تتّجه نحو الوثنية بمختلف ضروبها ، وتعُدّد أنواعها ، من أحجار مصنوعة ، وثمار موضوعة ، ونحوت مصفوفة . . .

وكانوا يظنّون أنّ هذه الأصنام تُقرّبُهم من الله ، فهي الوساطة - بزعمهم - بينهم وبين الخالق : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٢٣] .

ومن المشركين مَنْ أنكر الخالق ، وبالتالي فقد رَفَضَ كلّ شيء معه من البعث ، والحشر ، والحساب ، وقالوا : إنّ هذه الحياة الدنيا ملعبنا ، ودأرُ تنافسنا فإذا متنا فقد انتهى كل شيء ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٩] .

وفي بيوتات مكة كانت طائفةٌ من المشركين يقرّون بوجود الخالق ، ويؤمنون بشبوته ، وقدرته سبحانه ، ولكنهم شكّوا في البعث ، ورفضوا الإيمان بالانبعاث من الأحداث ، فإيمانهم مشبوه ، وبقينهم مزعزع ، وعلى رأس هؤلاء الكفرة : أبي بن خلف الذي نزلت في حقّه هذه الآيات : ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ - ٧٩] .

وانصرف بعضُ المشركين إلى عبادة الجن ، ورأوا فيهم السرّ الغامض ، والمجهول المرعب ، فنصبوهم أرباباً لهم من دون الله ، وتوجّهوا إليهم بالعبادة . قال تعالى : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤١] .

وهذه الأنماط الفكرية المنحرفة والمتشعبة ، جعلت من المشركين ضلّالاً ، لا يعون مسؤولياتهم في الحياة ، ولا يدركون خصائص إنسانيتهم ، ففقدوا أجلاً مقوماتهم ، من حرية فكرية ، وإرادة مختارة ، وتحكيم للعقل في مضممار الإيمان ، ورجوع إلى الفطرة .

❖ مَثَلُ الْمُشْرِكِ وَالْمُوحِّدِ :

أوضح القرآن الكريم أَنَّ عقيدة التوحيد أفضل للإنسان ، وأكرم له من الشرك ، ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩] .

قال ابن قيم الجوزية في كتابه : الأمثال في القرآن (ص ٢٦٠ - ٢٦١) :
هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ سبحانه للمُشْرِكِ والمُوحِّدِ ، فالمُشْرِكُ بمنزلة عبدٍ تملكه جماعةٌ مُشْتَرِكُونَ في خدمته ، لا يمكنه رضاهم أجمعين ، والمُوحِّدُ لَمَّا كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، فمثله كمثل عبدٍ رجلٍ واحدٍ قد سَلِمَ له ، وَعَلِمَ مقاصده ، وَعَرَفَ الطريقَ إلى رضاه ، فهو في راحةٍ من تشاحنِ الخلطاء فيه ، بل هو سَالِمٌ لِمَالِكِهِ من غير منازعٍ فيه مع رَافَةِ مَالِكِهِ به ، ورحمته له ، وشفقته عليه ، وإحسانه إليه ، وتوليته بمصالحه ، فهل يستوي هذان العبدان؟!

❖ مِنْ صُورِ الشُّرْكِ :

للشرك صور عديدة تكاد لا تنتهي ، ومن ذلك :

- جُمْلَةُ أَلْفَاظٍ تُؤْهِمُ النَّدِيَّةَ وَالْمَسَاوَاةَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ : أنا متوكل على الله وعلى فلان ، وأنا في جِمْيِ اللَّهِ وَفُلَانِ .
- أَلْفَاظٌ فِيهَا تَعْظِيمٌ لغيرِ اللَّهِ ، أو نسبة التأثير إليه ، كَقَوْلِ أَحَدِهِمْ : وحياتك ، أو : وحياء أبيك ، أو : لولا فلان لكان كذا .
- اتخاذ المساجد على القبور ؛ لما في ذلك من الذريعة إلى تعظيمها ، وعبادتها .

- الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها ؛ لما في ذلك من التشبُّه بِعِبَادِهَا .
- شَدَّ الرِّحَالِ إِلَى غيرِ المساجد الثلاثة : المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى .
- قيام الناس بعضهم لبعض على جهة التعظيم .

- إشراف القبور ، وبناء القباب عليها ؛ خشية الوقوع في تعظيمها .
- الوفاء بالنذر إذا كان في مكان يُعبد فيه صنم ، أو يُقام فيه عيدٌ من أعياد الجاهليّة .

- الرّياء ، والتنجيم ، والسّحر ، والتطيّر ، والغلوّ في تعظيم الأنبياء ، والصّالحين .

❖ الشرك ظلّمٌ عظيم :

لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ الشرك ظلّمٌ عظيم للإنسان وللمجتمع .
أمّا كون الشرك ظلماً للإنسان ؛ فلأنه خالف الفطرة الإنسانية ، وشرّد عن الطريق المستقيم ، فعطل عقله وتفكيره ، فغاض الخير في نفسه ، وإذا اتّبع هواه عن ضلالٍ ، وحُمقٍ وجهالة ، وهذا منهى عنه بنصّ القرآن الكريم ، حيث يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أُنِيعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٦] .

فالشرك والإسلام لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ ، فالله أغنى الشركاء عن الشرك ، ويطلب من عباده أن يُخلصوا له العبودية ، ولا يقبل منهم عبوديتهم إذا شابوها بشيء من العبودية لغيره في قليل أو كثير .

والشرك كذلك ظلّمٌ للمجتمع ؛ لما فيه من الانحراف عن الخلق القويم ، والآداب الجمّة ، وتغيير منهج الفطرة ، فإذا بأفراد المجتمع لا يدينون بالحق ، فيتخذون أناساً مثلهم أرباباً من دون الله ، يُشرّعون لهم ، وينقادون لمنهجهم ، ويُطيعونهم في أوامرهم ونواهيهم ، وإذا بالمجتمع يتخبّط بين الأهواء والشهوات ، والآثام والضلالات .

❖ الشرك كبيرة لا تُغتفر ما لم يتب صاحبها :

قَطَعَ اللهُ عز وجل المغفرة عن المشرك ، وأوجب له الخلود في النار ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

[النساء : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

رُوي أن النبي ﷺ تلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] فقال له رجلٌ : يا رسول الله ! والشرك ؟! فنزل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَغَفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

قال القرطبي في تفسيره (٢٤٥/٥) : وهذا من المحكم المتفق عليه ، الذي لا اختلاف فيه بين الأمة .

قال الطبري : قد أبانت هذه الآية أنَّ كلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئة الله تعالى ، إن شاء عفا عنه ذنبه ، وإن شاء عاقبه عليه ، ما لم تكن كبيرةً شركاً بالله تعالى .

❖ حُكْمٌ مِنْ بَدَلِ دِينِهِ :

ونعني بذلك : الرِّدَّةُ ، وهي أفحشُ الكفر ، وأغلظهُ حُكْمًا ، ومُخِبطَةٌ للعمل ، ولثواب الأعمال ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

فالمرتدُّ يُستتاب ثلاث مرات ، فإن أصرَّ على رِدَّتِهِ قُتِلَ . قال ﷺ : « لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، والنفسُ بالنفس ، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة »^(١) .

ومن حديث معاذٍ الذي أخرجه أحمد (٢٣١/٥) عن أبي بردة قال : قدم على أبي موسى معاذُ بنُ جبل باليمن ، فإذا رجلٌ عنده ، قال : ما هذا ؟ قال : رجلٌ كان يهودياً فأسلم ، ثم تهوَّد ، ونحن نريدُه على الإسلام منذ - قال : أحسبه - شهرين ، فقال : والله ! لا أقعدُ حتى تضربوا عنقه ، فَضَرَبْتُ عَنْقَهُ ،

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

فقال : قضى الله ورسوله أن من رَجَعَ عن دينه فاقتلوه ، أو قال : «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاقتلوه» ، قال الترمذي (١٤٥٨ في الحدود): والعمل على هذا عند أهل العلم في المرتد ، واختلفوا في المرأة إذا ارتدت عن الإسلام ، فقالت طائفة من أهل العلم : تُقْتَل ، وهو قول الأوزاعي وأحمد وإسحاق ، وقالت طائفة منهم : تُحْبَسُ وَلَا تُقْتَلُ ، وهو قول سفيان الثوري ، وغيره من أهل مكة .

* قراءة في التاريخ :

قال الشيخ محمد الخضري في كتابه (إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص ٤٧ وما بعدها) : مُنِيَ الإسلامُ بعد وفاة رسولِ الله ﷺ بمصيبةٍ عظمى ، لو لم تداركها حكمةُ أبي بكر - رضي الله عنه - لضعف الدين ، وتشَّتت شملُ المسلمين ، فإنَّ العرب ما لبثت بعد أن علمت بموت رسول الله ﷺ حتى ارتدَّت ، ولم يَبْقَ أحدٌ مُتَمَسِّكاً بدينه منهم إلا قريشاً بمكة ، وثقيفاً بالطائف ، وقليلاً من غيرهم .

وكان الناسُ في ذلك على قسمين :

فمنهم التاركُ للدينِ بالمرَّة ، وهم بنو طيِّء ، وأسد ، ومَنْ تبعهم من غطفان ؛ الذين اتَّبَعُوا طُليحَةَ بنِ حُوَيْلِدِ الأسدي ، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة ، وأهل اليمن الذين اتَّبَعُوا الأسودَ العنسي ، وكثيرٌ غيرهم .

ومنهم المعطلُ للزَّكاة ، وهم بعضُ بني تميم ؛ الذين يرأسُهم مالك بن نويرة ، وبنو هوازن ، وغيرهم .

وكان من رأي أبي بكر - رضي الله عنه - قتالُ مانعي الزكاة كما يقاتل المرتدين ؛ لأنَّ تعطيلَ الزكاة طَعْنٌ على الصلاة ، بل على جميع منازل الدين . فقال له عمرُ بن الخطاب : يا أبا بكر ! كيف تقاتلُ الناس ، وقد قال رسولُ الله ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّْي مَالَهُ ، وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ؟ ! قال أبو بكر : والله ! لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ .

والله! لو مَنَعُونِي عَنَاقًا^(١) كانوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا .

قال عمر: فوالله! ما هو إلا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ^(٢) .

فَشَمَّرَ - رضي الله عنه - عن ساعد الجدِّ ، غير مبالٍ بهذه الأهوال الجِسام ، مع قَلَّةِ جيشه ، وكثرة عدوِّه ، واثقاً بوعده سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ يَصْرُكُمُ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . فجازاه الله على ذلك بالنصر العظيم ، والفتح المبين ، ودانت له أُمَمُ العرب .

❖ كلمات مضيئة :

أ- من ألوان الشرك :

❖ إِنَّ النَّذور الواقعة من عُباد القبور ، تقرُّباً بها إليهم ؛ ليقضوا لهم حوائجهم ، وليشفعوا لهم ، كل ذلك شركٌ في العبادة بلا ريب ، قال الرافعي في «شرح المنهاج» : وَأَمَّا النَّذر للمُشَاهِد التي على قبر وليٍّ ، أو شيخ ، أو على اسم مَنْ حَلَّهَا من الأولياء ، فَإِنْ قَصَدَ النَّذرُ بِذلك تعظيم البقعة والمشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دُفِنَ بها ، فهذا النَّذر باطل غير منعقد .

❖ قال ابن القيم : ومن أنواع الشرك : طَلَبُ الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجُّه إليهم . وهذا أصلُ شِرْكِ العالم ، فَإِنَّ المَيِّتَ قد انقطع عَمَلُهُ ، وهو لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، فَضْلاً عَمَّنْ استغاثَ به ، أو سأله أن يشفعَ له إلى الله ، وهذا من جَهْلِهِ بالشافع والمشفوع عنده .

❖ قال شيخ الإسلام - ابنُ تيمية - : إن الشركَ بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقربُ إلى النفوس من الشرِّ بخشبةٍ ، أو حجرٍ ؛ ولهذا تجدُ أهلَ الشرك

(١) «عَنَاقًا» : هي الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول .

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٤ و ٧٢٨٥) ومسلم (٢٠) .

يتضرعون عندها ، ويخشعون ، ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ، ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها ، والدعاء ما لا يرجونه في المساجد؛ فلأجل هذه المفسدة حَسَمَ النبي ﷺ مادَّتَها ، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً.

❖ قال الشيخ محمد الغزالي : إذا رأيتَ المرءَ يحبُّ غيرَ الله أكثرَ مما يحبُّ الله ، ويخافُ العبدَ أكثرَ مما يخافُ الربَّ ، ويتعلقُ قَلْبُهُ بالناسِ أكثرَ مما يتعلَّقُ برَبِّ الناسِ ، ويصدُرُ عمله ابتغاءَ رضاهم أكثرَ مما يطلب ثواب الآخرة ، فإذا نزلتْ به نكبةٌ كان تفكيره في فلان قبل تفكيره في الله ، وإذا أصابه خيرٌ كان حَمْدُهُ لفلان أسبقَ من شكره لله . . . فاعلم أنَّ هذا الشخصَ قد أشركَ.

❖ ومنَ الشرك : عبادة المال ، والجاه ، والمظاهر ، ومختلف الأهواء والشهوات .

❖ ومنَ الشرك : التوجُّه إلى المزارات لتفريج الكرب ، وشفاء المرض ، وتهوين الصعاب ، فتلك المزارات هياكل وثنية .

ب - من ألوان الرِّدَّة :

إذا كان المرتدُّ هو مَنْ نفى وجودَ الخالقِ الصانع ، أو نفى وجود الرسل ، أو حلَّلَ مُحَرَّمًا بالإجماع ، أو نفى وجوبَ مُجْمَعٍ عليه ، كالصلوات الخمس ، أو عَزَمَ على الكفر ، أو تردَّد فيه . . . إذا كان هذا ، فإن من وُجُوهِ الرِّدَّة :

❖ الاحتكام إلى غير شرع الله تعالى ؛ لأن التشريع من حقِّ الإله العظيم ، والمذاهب الأرضية تعتبر الفردَ مُشرِّعاً للجماعة ، بينما نجد في الإسلام أن الله تعالى هو المشرِّع ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَلَمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

❖ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمن فَعَلَ ذلك فقد خالف

أمراً مُجْمَعاً عليه ، وتَبَذَّ طريق الأنبياء الذين جاؤوا يأمرُونَ الناس بِخُلْعِ الأنداد ، ويدعونهم إلى مكارم الأخلاق ، وينهونهم عن عبادة الأصنام .

❖ التشبُّه بالكفار ، سواء في الفكر ، أو التصوُّر ، أو اللباس ، أو المظهر ، أو الطعام والشراب والأواني ، ونحو ذلك كالعناية بأعيادهم ، واتخاذ شعاراتهم ، واتباعهم في الشرور والمفاسد؛ لقوله ﷺ: «من تشبَّه بقوم فهو منهم»^(١) .

أي: تزيّاً في ظاهره بزيّهم ، وفي أعماله بفعلهم ، وفي تخلُّقه بخُلُقهم ، وسار بسيرتهم وهديّهم .

قال الإمام القرطبي في «المفهم»: لو اختصَّ أهلُ الظلم والفسق بشيء ممّا أصْلُهُ سُنَّةٌ كالخاتم ، والخضاب ، والفرق ، لكان ينبغي لأهل الدِّين ألاَّ يتشبَّهوا بهم؛ مخافة الوقوع فيما كرهه الشرعُ من التشبُّه بأهل الفسق؛ ولأنه قد يظنُّ به مَنْ لا يعرفه أنه منهم ، فيعتقد ذلك فيه ، وينسبه إليهم .

❖ من وحي التفسير:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] .

سياق الآية هكذا يتضمَّنُ اتِّهامَ اليهود بالشرك ، ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد ، ولا يَذْكُرُ - هنا - القول أو الفعل الذي يعدّه عليهم سِرْكاً ، وقد وَرَدَ في مواضع أخرى تفصيلٌ لهذا ، فقد روى القرآن عنهم قولهم: ﴿عُزِّرَ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] كقول النصاري: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وهو شركٌ لا شكَّ فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم: ﴿اتَّحَدَوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وهم لم يكونوا يعبدون الأحرار والرهبان ، إنما كانوا - فقط - يقرؤون لهم بحقَّ التشريع ، حقَّ التحليل والتحريم ، الحقَّ الخاصَّ بالله ، والذي هو من

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١) .

خصائص الألوهية ، ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين . ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحدّ الإسلام ، وشرط الإيمان .

وعلى أيّ حال فاليهود - على عهد الرسالة المحمدية - كانت عقائدهم في الجزيرة العربية حافلة بالوثنيات ، منحرفة عن التوحيد . والتهديد - هنا - مُوجّهٌ إليهم بأنّ الله يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ، ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم ، ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به ، لم يرجع في الدنيا عن شركه .

إنّ الشرك انقطاعٌ ما بين الله والعباد ، فلا يبقى لهم معه أملٌ في مغفرة ، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون ، مقطوعو الصّلة بالله ربّ العالمين .

وما تُشركُ النفسُ بالله ، وتبقى على هذا الشرك ، حتى تخرج من الدنيا فاسدةً فساداً لا رجعة فيه ، وقد تلفت فطرته التي برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، فتهيأت بذاتها لحياة الجحيم !

أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر ، والظلم العظيم الوقح الجاهر ، فإنّ الله يغفره لمن يشاء ، فهو داخلٌ في حدود المغفرة ، مادام العبد يشعر بالله ، ويرجو مغفرته ، ويستيقن أنه قادرٌ على أن يغفر له ، وأن عفوه لا يقصر عن ذنبه ، وهذا منتهى الأمد في تصوير المغفرة التي لا يوصد لها باب ، ولا يقف عليها بواب !

ونلاحظ أن منهج رسول الله ﷺ تحدّده الآيات القرآنية ؛ وفق أربعة محاور ، هي :

- تلاوة آيات القرآن على الناس ، للتهيئة من أجل العمل .
- تعليم الكتاب وتفهم معاني آياته ؛ للعمل بأوامره ، وترك نواهيه .
- تعليم الحكمة ، والسُنّة ، والإصابة في القول والعمل ، ووضع كل شيء موضعه .

- تزكية النفوس وتطهيرها من خبائث العقائد والأعمال .

قال عز وجل : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. [آل عمران : ١٦٤].

قال سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. [الجمعة : ٢].

وعلى هذا قامت التربية النبوية ، والرسالة المحمدية ، فكان التعليم والتربية عمودَي الدعوة الإسلامية ، فالمعارف المجردة ليست بذات قيمة إذا لم ترتبط بالإيمان ، وتآتمر بأوامر الخالق عز وجل ، وتنتهي عما نهى عنه سبحانه وتعالى .



الفصل الثاني

قواعد المنهج النبوي في التربية

سبق أن أشرنا أن النبي إبراهيم - عليه السلام - دعا ربّه أن يبعث في هذه الأمة رسولاً هادياً إلى أقوم السبل ، فقال : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

واستجاب الله تعالى تلك الدعوة ، وأرسل رسوله محمداً ﷺ بالحق ؛ ليخرج الناس من ظلمات الضلالة إلى أنوار الهداية ، وكانت رسالته ذات أبعاد عظمى ، وخطّة محكمة ، قادت الناس من غلواء الجاهلية ، وعفن الماضي ، إلى وسطية الإسلام ، وازدهار المستقبل .

كما أشرنا إلى أن رسول الله ﷺ اتبع منهجاً قواعده أربعة أركان ، هي : التلاوة ، والتعليم ، والحكمة ، والتزكية .

أمّا التلاوة فتختصُّ باتِّباع آيات الله المنزلة ، تارة بالقراءة ، وتارة بالارتسام لما فيها من أمرٍ ونهي ، وترغيب وترهيب . والتلاوة أخصُّ من القراءة ، فكلُّ تلاوة قراءة ، وليس كل قراءة تلاوة . فلا يقال : تلوْتُ رقعتك ، وإنما يُقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتِّباعه^(١) .

(١) مفردات ألفاظ القرآن (١٦٧) .

قال عز وجل: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْدِنَا﴾ [الأنفال: ٣١] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ
أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وأما قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] فاتباع له بالعلم والعمل^(١).

وبين بشيء أن من حق كتاب الله أن يداوم الناس على تلاوته ، ويكثروا من قراءته ؛ ذلك أن القلوب تصدأ بالمعاصي وارتكاب الموبقات ، وقراءة القرآن تزيل الصدأ الذي علق بتلك القلوب ، ويُعيدُها إلى حالة الإيمان العميق ، واليقين الجازم ، مع تجديد محبة العمل الصالح ، والرغبة الأكيدة في اكتساب الخير ، ومتابعة الخطى على الطريق القويم .

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد» .

قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: «كثرة تلاوة كتاب الله تعالى ، وكثرة الذكر لله عز وجل»^(٢).

وقال بشيء: «فُضِّلُ قراءة القرآن نَظْرًا على مَنْ يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة»^(٣).

قال المناوي: وإنما فُضِّلَتِ القراءةُ في المصحف لحظَّ النظر فيه ، وحَمَلُهُ ، ومَسَّهُ ، وتمكُّنُهُ من التفكير فيه ، واستنباط معانيه .

وقال ابن كثير في «فضائل القرآن»: الذي صرَّح به كثيرون من العلماء أنَّ قراءة القرآن من المصحف أفضل ؛ لأنه يشمل على التلاوة والنظر في المصحف ، وهو عبادة ، كما صرَّح به غير واحد من السلف ، وكرهوا أن

(١) المصدر السابق (١٦٨).

(٢) رواه ابن شاهين في: الترغيب في الذكر ، كما في كنز العمال (٣٩٢٤).

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٠٤) وابن كثير في فضائل القرآن (١٠٨).

يمضي على الرجل يومٌ لا ينظر في مصحفه ، وهذا أمرٌ مطلوب ؛ لئلاَّ يُعْطَلَ المصحف فلا يُقرأ منه ، ولعلَّه قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكَّر منه ، أو تحريف كلمة ، أو آية ، أو تقديم ، أو تأخير ، فالاستنبات أولى ، والرجوع إلى المصحف أثبتُّ من أفواه الرجال .

والمداوِّر في هذه المسألة على الخشوع في القراءة ، فإن كان الخشوع عند القراءة عن ظهر القلب فهو أفضل ، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل ، فإن استويا فالقراءة نظراً أولى ؛ لأنها أثبت ، وتمتاز بالنظر في المصحف . ويُقصد بالخشوع : التذلُّل ، ورَمِي البصر إلى الأرض ، وخفض الصوت ، وسكون الأعضاء .

وقيل : هو حضور القلب ، وسكون الجوارح ، وفي (التهذيب) قال الأزهري : التخشُّع لله : الإخبات والتذلُّل .

والتدبُّر : هو التفهُّم والتعقُّل لمعنى ما يقرؤه حسب الطاقة .

وقد بات جماعةٌ من السلف يتلو الواحد منهم آيةً واحدة ليلةً كاملة ، أو معظم ليلةٍ يتدبَّرها ، ومن ذلك ما قاله مسروق عن رجل من أهل مكة : هذا مقامُ تميم الدَّاري ، لقد رأيته ذات ليلةٍ حتى أصبح ، أو قُرِب أن يُصبح ، يقرأ آيةً من كتاب الله ، ويركع ، ويسجد ، ويبكي ؛ ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وقال إبراهيم بن الأشعث : كثيراً ما رأيْتُ الفضيلَ بن عياض يُردِّد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ، ثم يقول : ليت شعري ، من أيِّ الفريقين أنا ؟ !

وكانت هذه الآية تُسمَّى : مبكاة العابدين ^(١) .

وكان عليه السلام قدوةً صالحةً في تلاوة القرآن ، فعن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - أن

(١) تفسير القرطبي (١٦/١٦٦) .

النبي ﷺ لم يزل يُرَدِّد هذه الآية حتى أصبح : ﴿ إِن تُعَذِّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ^(١).

وقد أوضح ﷺ فَضْلُ تلاوة القرآن في الصلاة ، فعن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : «مَنْ قام بعشر آيات لم يُكْتَب من الغافلين ، وَمَنْ قام بمئة كُتِب من القانتين ، وَمَنْ قام بألف آية كُتِب من الْمُقْنَطَرِينَ» ^(٢).

وعن ابن عمر قال : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ : أَيُّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال : «قراءة القرآن في الصلاة ، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة ؛ فَإِنَّ الصلاة أفضل الأعمال عند الله ، وأحبُّها إليه ، ثم الدعاء والاستغفار ؛ فَإِنَّ الدعاء هو العبادة ، وَإِنَّ الله يحبُّ المَلَحَّ في الدعاء ، ثم الصدقة فَإِنَّها تطفئ غَضَبَ الرب ، ثم الصيام فَإِنَّ الله تعالى يقول : الصيام لي وأنا أجزي به ، والصيام جُنةٌ للعبد من النار» ^(٣).

قال القرطبي ^(٤) : قال علماؤنا - رحمة الله عليهم - : هذا حديثٌ صحيح ، عظيم في الدين ، بَيَّن فيه أن أعظم العبادات قراءة القرآن في الصلاة ؛ وإنما كان كذلك لأنَّ الصلاة أفضلُ الأعمال عند الله ، وأحبُّها إليه ؛ لأنها اشتملت على جميع العبادات بالمعنى ، وَمِنْ فَضْلِها سُمِّيَتْ جميعُ الأعمال بها ، قال الله تعالى مُخْبِرًا عن قوم شعيب عليه السلام : ﴿ أَصَلُّوا تَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ ءَابَاؤُنَا ﴾ [هود : ٨٧] أي : أعمالك الصالحة ، وذلك أنه كان كثير الصلاة ، فحملوا سائر أفعاله على معظمه وهي الصلاة .

وقيل : أطلق على كُلِّ عمل اسم الصلاة تشريفاً ، كما أطلق عليها اسم الإيمان ؛ إِذِ المعنى في الكل واحد ، ولأنَّها عبادة الملائكة ، قال الله تعالى :

(١) رواه أحمد (١٤٩/٥) والنسائي (١٧٧/٢) وابن أبي شيبة في المصنف (٤٧٧/٢).

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٨) وابن حبان (٢٥٦٣) وابن خزيمة (١١٤٤).

(٣) انظره في فيض القدير (٥١٣/٤) وكتر العمال (٢٣٠٣).

(٤) التذكار في أفضل الأذكار (٨٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقال في جميع الخلق: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدْنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] ، وجعلها تعالى من خصال إسماعيل ، فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾ [مريم: ٥٥] ومن دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] .

ولا يُوصَف بالكفر مَنْ ترك شيئاً من الأعمال الصالحة سواها ، قال النبي ﷺ: «مَنْ ترك الصلاة فقد كفر»^(١) .

وقال ﷺ: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»^(٢) .

ويربط رسول الله ﷺ تلاوة القرآن بالدعاء وسؤال الله عز وجل من خيرى الدنيا والآخرة ، والدعاء لا يكون إلا من قلب خاشع ، فغفلة القلب تُبْطِلُ قوة الدعاء ، وهو سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ، والله تعالى يحبُّ الملتحين في الدعاء ، فلا يهلك معه أحد ، فرضا الله سبحانه في سؤاله وطاعته ، وإذا رضي الخالق فكلُّ الخير في رضاه .

وعن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقولُ في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى» وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل ، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ^(٣) .

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ صلى ، وكان إذا مرَّ بآية رحمة سأل ، وإذا مرَّ بآية عذاب استجار ، وإذا مرَّ بآية تنزيه الله سَبَّحَ^(٤) .

(١) رواه أحمد (٣٤٦/٥) والترمذي (٢٦٢١) والنسائي (٢٣١/١ - ٢٣٢) وابن ماجه (١٠٧٩) وابن حبان (٢٥٦/موارد) وابن أبي شيبه في الإيمان (٤٦) وانظره في الترغيب والترهيب (٣٨٦/١) .

(٢) رواه أحمد (٣٧٠/٣) ومسلم (٣٨٩) وأبو داود (٤٦٧٨) والترمذي (٢٦١٩) و (٢٦٢٠) وابن ماجه (١٠٧٨) .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٢) .

(٤) رواه ابن ماجه (١٣٥١) .

وعن عمران بن حُصَيْن أنه مرَّ على قارىء يقرأ ، ثم سأل فاسترجع ، ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ قرأ القرآنَ فليسألِ اللهَ به ، فإنه سبجيء أقوامٌ يقرؤون القرآنَ يسألون به الناس»^(١).

ويُستحب الإكثارُ من قراءة القرآن وتلاوته خارج الصلاة ، قال عز وجل مُثْنِيًا عَلَى مَنْ كَانَ ذَلِكَ دَابَّهُ : ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [آل عمران : ١١٣] .

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - : «لا حَسَدَ إلا في اثنتين : رجلٌ آتاهُ اللهُ هذا الكتاب ، فقام به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاهُ اللهُ مالاً فتصدَّق به آناء الليل وآناء النهار»^(٢).

ورعَّب رسولُ الله ﷺ بقراءة القرآن ؛ لما في ذلك من الأجر العظيم ، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرفاً ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله ﷺ : «يقول الربُّ تبارك وتعالى : مَنْ شَغَلَهُ القرآنُ عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أُعْطِيَ السائلين ، وَفَضَّلُ كلام الله على سائر الكلام كَفَضَّلُ الله على خَلْقِهِ»^(٤).

ولا فكاك بين القراءة والفهم والتدبر ؛ لأن ترديد الألفاظ دون إحساس بالمعنى ، أو وعي للمغزى ، لا يُحقِّق الهدف من القراءة ، وتلاوة الآيات .

(١) رواه أحمد (٤٣٢/٤ و ٤٣٣) والترمذي (٢٩١٧) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠٠٥١).

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٥) ومسلم (٨١٥).

«لا حَسَدَ» : لا غبطة محمودة ؛ لأن الحسد : تمنى زوال النعمة من غيره ، وهو حرام ؛ أما الغبطة فجازئة شرعاً ؛ لأنها تمنى المرء أن يكون له مثل هذه النعمة ، مع بقائها لصاحبها .

(٣) رواه الترمذي (٢٩١٠).

(٤) رواه الترمذي (٢٩٢٦).

ولنسمع قول الله عز وجل: ﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِدَبَرِوْاْ أَيْتِهِ وَلِتَذَكَّرَ أُولُوْاْ الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] والتدبر: وعي وإدراك ، وتجاوز للقراءة السطحية ؛ التي ليس وراءها أي إحساس بالمعنى ، أو غوص لتحسُّس المعاني ، والتبصر بالدلالات .

وقد يغيب عن القارئ معنى كلمة قد تكون غريبة على مسامعه ، أو أكثر ، ولا يتناقض هذا مع فهم المعنى ، واستنتاج المقاصد ، ولكن من غير المقبول أن ينتهي القارئ للقرآن إلى ذلك النوع الذي ذكره الله تعالى حين وصف عباد الرحمن ، فقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣] .

فمن قرأ القرآن عليه أن يُخلَق في أجوائه الصافية ، ويدرك آثاره سلوكاً حسناً ينداح في حيز الواقع ، فيصدر في أفعاله عن تدبُّرٍ أمثل لما جاء في أي الذكر الحكيم ، فَيُعْرِفُ القارئ بخلقه الحميد ، متأثراً بما قالته السيدة عائشة - رضي الله عنها - وقد سألتها قتادة: يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بلى: قالت: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ^(١) .

ومعنى قول عائشة: أن النبي ﷺ كان يعمل بالقرآن ، ويقف عند حدوده ، ويتأدَّب بآدابه ، ويعتبر بأمثاله وقصصه ، ويتدبَّره ، ويَحْسِنُ تلاوته .

فالقرآن كتاب يصنع الفكر ، ويُهَيِّئُ الأفراد ، ويبني الأمة ، ويشيد الحضارة؛ إذ يفتح العيون والبصائر لتنتفع بالنور ، دون غَبَشٍ في الرؤية ، أو تأرجح في المسيرة؛ لأن الهدف واضح ، والطريق مستقيم ، والقرآن نور تُشْرِقُ به النفوس ، فيتكشَّف أمامها كل شيء . قال عز وجل: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۚ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦] .

(١) رواه مسلم (٧٤٦) .

أَلَا فَلْيَعْلَمْ الْقَارِئُ الْكَرِيمُ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ تَعْنِي تِلَاوَتَهُ ، وَفُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتْلُوهُ حَقٌّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١] بِاتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ بِتَحْلِيلِ حَالِهِ ، وَتَحْرِيمِ حَرَامِهِ ، وَالْعَمَلِ بِمَا تَضَمَّنَهُ ^(١) .

وُسِّنَ الْقِرَاءَةُ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفْهِيمِ ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ ، وَالْمَطْلُوبُ الْأَهَمُّ ، وَبِهِ تَنْشَرَحُ الصُّدُورُ ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩] . وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] . وَصِفَةُ ذَلِكَ : أَنْ يَشْغَلَ قَلْبُهُ بِالتَّفَكُّرِ فِي مَعْنَى مَا يَلْفِظُ بِهِ ؛ فَيَعْرِفُ مَعْنَى كُلِّ آيَةٍ ، وَيَتَأَمَّلُ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاحِي ، وَيَعْتَقِدُ قَبُولَ ذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَى اعْتَذَرَ وَاسْتَغْفَرَ ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ رَحِمَةً اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ ، أَوْ عَذَابَ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ ، أَوْ تَنْزِيهِ نَزَّهَ وَعَظَّمَ ، أَوْ دَعَاءَ تَضَرَّعَ وَطَلَبَ ^(٢) .

وَقَدْ مَدَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَجَادَ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِيهِ ، فَهُوَ مُيَسَّرٌ لَهُ فِي الْقِرَاءَةِ وَالْحِفْظِ ، وَلَهُ مَكَانَةٌ مَرْمُوقَةٌ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ، أَيُّ : فِي مَرْتَبَتِهِمْ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ . وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَيَتَرَدَّدُ فِي تِلَاوَتِهِ عِتِيًّا وَصُعُوبَةً ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ ، مِنْ حَيْثُ التَّلَاوَةُ ، وَمِنْ حَيْثُ الْمَشَقَّةُ ، وَدَرَجَاتُ الْمَاهِرِ بِالْقُرْآنِ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ الْقُرْآنَ مُتَعَتِّعًا عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَرَفَّى عَنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ شَبَّهَ بِالْمَلَائِكَةِ . قَالَ ﷺ : « الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعَتَّعُ فِيهِ ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ ، لَهُ أَجْرَانِ » ^(٣) .

وَدَعَا ﷺ إِلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَبَيَّنَّ مَنَافِعَ تِلْكَ الْقِرَاءَةِ فِي الْآخِرَةِ ، حَيْثُ يَأْتِي الْقُرْآنُ شَافِعًا ، فَإِنْ كَانَ الْقَارِئُ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ خَلَّصَهُ مِنَ النَّارِ ، وَإِنْ لَمْ

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٨٦) .

(٢) الإِتْقَانُ (١٠٦) والبرهان في علوم القرآن (١/ ٤٥٥) والتبيان في آداب حملة القرآن (٤٥) والموسوعة الفقهية (٥/ ٢٥٥) .

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨) .

يكن عليه ذنوب شَفَعَ له في رفع درجاته في الجنة ، قال ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»^(١).

وبَوَّب البخاري - رحمه الله - في كتاب: فضائل القرآن ، باباً بعنوان: فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ ، وأورد فيه حديثين ، الأول منهما: عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأْتْرِجَةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا ، وَمِثْلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمِثْلِ الرِّيحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمِثْلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمِثْلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا»^(٢).

قال ابنُ حجر - رحمه الله -: إِنَّ التَّمثِيلَ وَقَعَ بِالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَلَا يَخَالِفُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ وَنَهْيٍ ، لَا مَطْلُقَ التَّلَاوَةِ . . . وفي الحديث فضيلة حامل القرآن ، وضرب المثل لتقريب الفهم ، وأنَّ المقصود من تلاوة القرآن: العملُ بما دَلَّ عليه . ومطابقةُ الحديث للترجمة من جهة ثبوت فَضْلِ قَارِيءِ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِهِ ، فيستلزم فَضْلَ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ؛ كَمَا فَضَّلَ الْأَنْتَرَجُ عَلَى سَائِرِ الْفَوَاكِهَةِ^(٣).

وأوصى ﷺ بكتاب الله عز وجل ، فعن طلحة بن مُصَرِّف قال: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى - رضي الله عنهما -: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْصَى؟ فَقَالَ: لَا ، فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الْوَصِيَّةُ ، أَوْ أُمِرُوا بِالْوَصِيَّةِ؟ قَالَ: أَوْصَى بِكِتَابِ اللَّهِ^(٤).

قال ابنُ حجر: قوله: «أوصى بكتاب الله» أي: بالتمسُّك به ، والعمل

(١) رواه أحمد (٢٤٩/٥) و٢٥٤ ومسلم (٨٠٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٠) ومسلم (٧٩٧).

(٣) فتح الباري (٦٧/٩).

(٤) رواه البخاري (٢٧٤٠).

بمقتضاه ، ولعلّه أشار لقوله ﷺ : «تركْتُ فيكم ما إن تمسَّكتُم به لم تضلُّوا ؛ كتاب الله»^(١) . ولعلّه اقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه أعظم وأهمّ ، ولأنّ فيه تبيان كلّ شيء ؛ إما بطريق النص ، وإمّا بطريق الاستنباط ، فإذا اتبع الناس ما في الكتاب عملوا بكل ما أمرهم النبي ﷺ به ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر : ٧]^(٢) .

والمراد بالوصية بكتاب الله : حفظه حسناً ومعنى ، فيُكرم ، ويُصان ، ولا يُسافرُ به إلى أرض العدو ، ويتبع ما فيه ، فيعمل بأوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويدوم على تلاوته ، وتعلّمه وتعليمه^(٣) .

والأحاديث النبوية التي تدعو إلى تلاوة القرآن الكريم كثيرة ، ومنها :

عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله ، أوصني ، قال : «عليك بتقوى الله ؛ فإنه رأس الأمر كلّ» . قلت : يا رسول الله ، زدني . قال : «عليك بتلاوة القرآن ؛ فإنه نورٌ لك في الأرض ، وذُخْرٌ لك في السماء»^(٤) .

وعن سهل بن مُعاذ ، عن أبيه - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال : «مَنْ قرأ القرآن ، وعَمِلَ به ؛ أُلْبِسَ والداه تاجاً يوم القيامة ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشمس في بيوت الدنيا ، فما ظنُّكم بالذي عَمِلَ بهذا؟!»^(٥) .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال : «يجيءُ صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يا ربِّ حلِّه ، فيُلْبَسُ تاجَ الكرامة ، ثم يقول : يا ربِّ زدّه ، فيُلْبَسُ حُلَّةُ الكرامة ، ثم يقول : يا ربِّ ارضَ عنه ، فيرضى عنه ، فيُقالُ له : اقرأ وارزق ، ويزدادُ بكلّ آية حَسَنَةً»^(٦) .

(١) رواه الترمذي (٣٧٨٦) .

(٢) فتح الباري (٣٦١ / ٥) .

(٣) المصدر السابق (٦٧ / ٩) .

(٤) رواه ابن حبان (٣٦٢) .

(٥) رواه أبو داود (١٤٥٣) والحاكم (٥٦٧ / ١) .

(٦) رواه الترمذي (٢٩١٥) والحاكم (٥٥٢ / ١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : قال : رسول الله ﷺ : «يُقَالُ لصاحب القرآن : اقرأْ وازُقْ ، ورتِّل كما كنت تُرتِّلُ في الدُّنيا ؛ فَإِنَّ منزلكَ عند آخر آية تقرأها»^(١).

قال الإمام الخطابي : جاء في الأثر : أَنَّ عَدَدَ آي القرآن على قَدَرِ دَرَج الجنة ، فيقال للقارئ : ازُقْ في الدَّرَج على قَدَر ما كنت تقرأ من آي القرآن ، فَمَنْ استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى دَرَج الجنة في الآخرة ، وَمَنْ قرأ جزءاً منه كان رُفِيَهُ في الدَّرَج على قَدَر ذلك ، فيكون مُنتهى الثواب عند منتهى القراءة^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أَنَّ رسول الله ﷺ قال : «مَنْ قرأ القرآن فقد استدرج الثُّبُوءَ بين جنبيه ؛ غير أنه لا يُوحى إليه ، لا ينبغي لصاحب القرآن أي يَحِدَّ مع مَنْ حَدَّ ، ولا يجهلَ مع مَنْ جَهِلَ ، وفي جَوْفِهِ كلامُ الله»^(٣).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ لله أهلين من الناس» قالوا : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : «أهلُ القرآن همُ أهلُ الله وخاصَّته»^(٤).

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قرأ القرآن فاستظهره ، فأحلَّ حلاله ، وحَرَّمَ حرامه ؛ أدخله الله به الجنة ، وشقَّعه في عشرة من أهل بيته ، كلَّهم قد وجبَ لهم النار»^(٥).

(١) رواه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) وابن ماجه (٣٧٨٠) وابن حبان (٧٦٣).

(٢) الترغيب والترهيب (٣٢٣/٢) طبعة دار ابن كثير.

(٣) رواه الحاكم (٥٥٢/١).

«يحدّ» : يغضب ، وينفعل.

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٨٠٣١) وابن ماجه (٢١٥) والحاكم (٥٥٦/١).

(٥) رواه الترمذي (٢٩٠٥) وابن ماجه (٢١٦).

وقد كان معظم الصحابة شباباً ، سمعوا القرآن الكريم ، وتلقوا أقوال الرسول ﷺ بذهن متفتح ، وعقلية ناضجة ، فجعلوا القرآن ربيع قلوبهم ، فكانوا كما عناهم الشاعر :

مَنَّعَ الْقُرْآنُ بوعْدِهِ ووعِيدِهِ مُقَلَّ الْعِیُونَ بَلِيلَهَا لَا تَهْجَعُ
فَهَمُّوا عَنِ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ كَلَامَهُ فَهَمًّا تَذَلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

وتأثر الصحابة بالقرآن العظيم تأثراً منقطع النظير ، فقرأوه ، وتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، فكانت ألفاظه على ألسنتهم ، ومعانيه تنداح سلوكاً في الواقع ، وخُلُقاً حسناً في النفس ، وأدباً في المجالس والبيوت ومع الآخرين ، وَمَنْ مَتَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِإِسْلَامِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه -؟! عندما ذهب إلى بيت أخته فاطمة وصهره سعيد بن زيد ، وأخذ منها صحيفة فيها آيات من القرآن الكريم ، وما إن تلاها حتى فَتَحَ اللهُ تعالى فؤاده لنسمات القرآن ، وانطلق يُرَدِّدُ كلمة التوحيد .

واعتنى الصحابة الكرام بقراءة القرآن ، فكان نَفَرٌ منهم يختمونه في كل جمعة مرة ، كعثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب - رضي الله عنهم - .

وأشار النبي ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص أن يختم القرآن في كل سبع ، إذا قال له : «فاقرأه في سبع»^(١) .

وتمثل الصحابة القرآن منهجاً في حياتهم ، وسلوكاً إيجابياً في حياتهم ، فكان مهوى أفئدتهم ، وملء نفوسهم ، وظهرت آثاره يانعة عليهم تربية صالحة ، وتوجيهاً متألّفاً ، فكانوا بُنَاءَ حَقِيقِيَّين ، ومعلّمين مرموقين ، وأسوة تُحتذى على مرّ الأجيال ، وتعاقب السنين .

وكانوا يأخذون القرآن غَضّاً من فم رسول الله ﷺ ، وبلغوا مرتبة عالية في

(١) رواه مسلم (١١٥٩) .

جَمَعَ القرآنَ مشافهةً ، حتى قال عبد الله بن مسعود: والله لقد أخذتُ من في رسول الله ﷺ بضْعاً وسبعين سورة^(١).

وكان ابنُ مسعود يداوم على تلاوة القرآن الكريم ، ويُرَغِّب الناسَ في تعلُّمه وقراءته ، حتى إنه كان يُقرئ الرجلَ الآيةَ ، ثم يقول: لهي خيرٌ مما طلعت عليه الشمس^(٢).

وكان يقول للناس: عليكم بهذا القرآن ، فإنه مأدبةُ الله ، فمن استطاع منكم أن يأخذَ من مأدبة الله فليفعل^(٣).

ولم يكتفِ رسولُ الله ﷺ بقراءة القرآن ، وإقراءه للناس ، بل كان يطلب منهم أن يسمع تلاوتهم ، ويرتلوه على مسامعه ، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اقرأ عليَّ». قلتُ: أقرأُ عليك ، وعليك أنزل؟! قال: «إني أُحِبُّ أن أسمعَه من غيري». فقرأتُ عليه سورة النساء ، حتى بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «أُمْسِكْ» فإذا عيناه تذرفان^(٤).

ولمَّا طلب الخليفةُ العادل عمر بن الخطاب قائمةً بأسماء حُفَاظ القرآن الكريم؛ من عامله على البصرة أبي موسى الأشعري ، كتب إليه أبو موسى أنهم نحو ثلاثمئة وبضعة رجال ، فكتب عمر - رضي الله عنه - رسالةً جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر إلى عبد الله بن قيس ومَنْ معه من حَمَلَةِ القرآن ، سلام عليكم ، أمَّا بعد:

(١) رواه البخاري (٥٠٠٠).

(٢) انظره في مجمع الزوائد (١٦٦/٧).

(٣) حياة الصحابة (٢٢٦/٣).

(٤) رواه البخاري (٥٠٥٠) ومسلم (٢٤٧/٨٠٠).

فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ أَجْراً ، وكائنٌ لكم شرفاً ودُخْراً فَاتَّبِعُوهُ
ولا يَتَّبِعَنَّكُمْ ؛ فإنه مَنْ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ زَخَّ^(١) فِي قَفَاهُ حَتَّى يَدْفَعَهُ فِي النَّارِ ، وَمَنْ
تَبَعَ الْقُرْآنَ وَرَدَّ بِهِ الْقُرْآنَ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ ، فليكونَنَّ لَكُمْ شافعاً إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ،
ولا يكونَنَّ بكم ماحلاً^(٢) ؛ فإنه مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ
الْقُرْآنُ دَخَلَ النَّارَ .

اعلموا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنَابِيعُ الْهَدْيِ ، وَزَهْرَةُ الْعِلْمِ ، وَهُوَ أَحَدُ الْكُتُبِ
عَهْدُا بِالرَّحْمَنِ ، بِهِ يَفْتَحُ اللَّهُ أَعْيُنَ عُمْيَا ، وَأَذَانَا صُمًّا ، وَقُلُوبَنَا غُلْفًا .

واعلموا أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ، فَتَسَوَّكَ ، وَتَوَضَّأَ . ثُمَّ كَبَّرَ ، وَقَرَأَ ،
وَضَعَ الْمَلِكُ فَاهُ عَلَى فِيهِ ، وَيَقُولُ : اتْلُ ، اتْلُ ، فَقَدْ طِبَّتْ وَطَابَ لَكَ ، وَإِنْ
تَوَضَّأَ وَلَمْ يَسْتَكْ حَفِظَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَغْدُ ذَلِكَ .

أَلَا وَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ مَعَ الصَّلَاةِ كَنْزٌ مَكُونٌ ، وَخَيْرُ مَوْضُوعٍ ، فَاسْتَكْثَرُوا
مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ نُورٌ ، وَالزَّكَاةَ بَرَهَانٌ ، وَالصَّبْرَ ضِيَاءٌ ، وَالصَّوْمَ
جُنَّةٌ ، وَالْقُرْآنَ حُجَّةٌ لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ ، فَأَكْرَمُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَهِينُوهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ
مَكْرَمٌ مَنْ أَكْرَمَهُ ، وَمُهِينٌ مَنْ أَهَانَهُ .

واعلموا أَنَّ مَنْ تَلَاهُ ، وَحَفِظَهُ ، وَعَمِلَ بِهِ ، وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ ، كَانَتْ لَهُ عِنْدَ
اللَّهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَجَّلَهَا لَهُ فِي دُنْيَاهُ ، وَإِلَّا كَانَتْ لَهُ دُخْرًا فِي
الْآخِرَةِ ، واعلموا أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ^(٣) .

وَقَدْ آتَى الْمَنْهَجُ النَّبَوِيَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ثَمَارَهُ الْيَانِعَةَ ، إِذْ حَفِظَ
عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ :
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ ، مِنْ :

(١) «زَخَّ» : دَفَعَ .

(٢) «ماحلاً» : خَصْماً مُجَادِلاً .

(٣) حَيَاةُ الصَّحَابَةِ (٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤) .

عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب^(١).

وبني شيخ الصحابة أبو بكر الصديق مسجداً بفناء داره ، وكان يقرأ فيه القرآن^(٢).

وغير أبي بكر كثير من الصحابة الكرام ؛ الذين حفظوا القرآن ، وتدارسوه ، ووعوه في قلوبهم .

وقد أجمل الأستاذ أحمد جمعة حقوق القرآن الكريم ، فقال^(٣) :

عَرَفَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ حقَّ القرآنِ الكريمِ ، فقد : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الذاريات : ١٧ - ١٨] .

وأدرك الصحابة - رضي الله عنهم - قَدْرَ القرآنِ الكريمِ ، وذكروا الله عز وجل بقلوبهم تعظيماً له ، ومعرفة لجلاله ، فكانوا يتلون القرآن ، وكانت حليتهم كلمات الرحمن ، كما كانت حياتهم مُتعلِّقة بالقرآن دراسةً وحفظاً وفهماً وتفسيراً وعلماً وعملاً ، فكانوا بالقرآن سادة الدنيا ، وأرباب السيادة في كل ميدان .

لا بُدَّ أن نشير إلى بعض حقوق القرآن الكريم على بني البشر ؛ ومنها :

- على المسلم أن يؤمنَ بأن القرآن كلام الله ؛ الذي أنزله على قلب رسوله ﷺ ، وهو خاتم الكتب السماوية .

- وعلى المسلم أن يُعَظِّمَ القرآن ، ويعرف فَضْلَهُ ، فلولا ما خرج العرب من الجاهلية إلى نور العلم .

- وعلى المسلم أن يتلوه حقَّ تلاوة ، وأن يخشع قلبه لذكر الله ، وما نزل

(١) رواه البخاري (٣٧٥٨) .

(٢) رواه البخاري (٣٦٩٢) .

(٣) القرآن وأصحاب رسول الله ﷺ (١٣٩) .

من الحق ، وأن يحفظه ويستظهره ، وأن يتدارسه مع حُفاظه وحملته ، ويفهم معانيه ، ويدرك مقاصده ، ويعتبر بأمثاله ومواعظه وقصصه ، ويغوص على دُرره ويواقيته ، فالقرآن لا تفنى عجائبه .

وإنَّ من حق القرآن الكريم على كل مسلم أن يفهم علومه ، ويقف مع أحكامه ، فيسير وفُقها في حياته وسلوكه وخُلُقهِ . فلقد كان خُلُقُ رسول الله ﷺ القرآن .

أما القاعدة الثانية من قواعد المنهج النبوي في التربية فهي : التعليم . والتعليم لغةً : مصدر تعلَّم ، والتعلُّم مطاوع التعليم . يُقال : علَّمته العلم فتعلَّمه . والتعليم مصدر علم . يُقال : علَّمه إذا عرَّفَه ، وعلَّمه وأعلمه إياه فتعلَّمه ، وعلم الأمر وتعلَّمه : أتقنه . والعلم نقيض الجهل . والعلم أيضاً : هو اعتقاد الشيء على ما هو عليه على سبيل الثقة . وجاء بمعنى : المعرفة أيضاً^(١) .

ويتصل بالتعليم : التثقيف ، وهو : التأديب والتعليم والتهذيب وإزالة الاعوجاج^(٢) . كذلك التدريب صنو للتعليم ، ووسيلة له ، وهو من الدربة ، بمعنى : التجربة والتعوُّد حتى يألف الإنسان الأمر ، ولا ينفر منه .

والغاية من التعليم : التأديب ، وهو تعليم رياضة النفس ، ومحاسن الأخلاق ، وهو يقع على كل رياضة محمودة ، يتخرَّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل^(٣) .

وقد امتنَّ الله تعالى بنعمة العلم على رسول الله ﷺ ، فقال عز وجل : ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٣] .

(١) لسان العرب ، والقاموس المحيط ، والمصباح المنير ، والصحاح ، مادة (علم) .

(٢) لسان العرب ، والصحاح ، والمعجم الوسيط ، مادة (تقف) .

(٣) المصباح المنير ، والصحاح ، مادة (أدب) .

ومن المعروف أنه ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك جاء قومه بأخبار الأنبياء والأمم ، وكان مُعلِّماً للناس الخير والهدى ، ومُبلِّغاً عن ربه ما أنزل إليه من الكتاب .

وقد وردت عدَّةُ أحاديث تدلُّ على الغاية من بعثة النبي ﷺ ، وكلها تؤكِّد على فضيلة العلم ، وتحث على تحصيله ، والاجتهاد في اقتباسه من مصادره ، والاتساء بالنبي ﷺ فعن عِيَّاض بن حِمَار المجاشعي ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خُطْبته : «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي»^(١) .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل لم يبعثني مُعْتَقاً ، ولكن بعثني مُعلِّماً مُيسِّراً»^(٢) .

ولفظ مسلم : «إن الله لم يبعثني مُعْتَقاً ولا مُتَعْتَقاً ، ولكن بعثني مُعلِّماً مُيسِّراً»^(٣) .

وأصل العَنَت : المشقَّة ، والمُعْنَتُ : هو الذي يُوقَع العَنَتَ بغيره . والمُتَعَتُّ : هو الذي يحملُ غيره على العمل به .

وقد شهد الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - بحُسن تعليم النبي ﷺ ، وأدركوا خِلاله الحميدة ، وشيِّمه المرضيَّة من خلال آدابه النبوية ، وطريقته التعليمية القائمة على الرحمة والرفق ، فكان بمثابة الوالد لهم ، ينصَحهم ، ويرشدهم ، ويحبُّ لهم الخير ، وهو القائل : «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمُكُمْ»^(٤) .

وفي هذا تأنيسٌ للمخاطبين لئلا يستحيوا عن مسألته فيما يعرض لهم من

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) .

(٢) رواه أحمد (٣٢٨/٣) .

(٣) رواه مسلم (١٤٧٨) .

(٤) رواه أبو داود (٨) .

أمر دينهم ، كما لا يستحي الولد عن مسألة الوالد فيما عنَّ وعرض له من الأمور. وفي هذا بيان واجب الآباء بضرورة تأديب أولادهم ، وتعليمهم ما يحتاجون إليه من أمر الدنيا والآخرة .

وما هو معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه - يقول : بَيْنَا أَنَا أَصْلِي مع رسول الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ^(١) ، فَقُلْتُ : وَاتَّكَلَأُمِّيَاهُ^(٢) ، مَا شَأْنُكُمْ ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ . فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصَمِّتُونَنِي ، لَكِنِّي سَكْتُ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَبَآبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ . فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي^(٣) ، وَلَا ضَرَبَنِي ، وَلَا شَتَمَنِي ، قَالَ : « إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ ، وَالتَّكْبِيرُ ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ »^(٤) .

وكان رسول الله ﷺ نِعَمَ الْمُعَلِّمِ ، حَيْثُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، فَأَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ ، وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَشَمَلَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ، وَأَضْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ تَوْجِيهِهِ ، وَدَلَّاهُمْ عَلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قال عبد الله بن مسعود : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ فَوَاتَحَ الْخَيْرِ وَجَوَامِعَهُ ، وَإِنَّا كُنَّا لَا نَدْرِي مَا نَقُولُ فِي صَلَاتِنَا حَتَّى عَلَّمَنَا^(٥) .

وقال ابن عمر : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَانَا وَنَحْنُ ضَلَالٌ فَعَلَّمَنَا ، فَكَانَ فِيمَا عَلَّمَنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنَا أَنْ نُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ فِي السَّفَرِ^(٦) .

(١) « فرماني القوم بأبصارهم » : أي : نظروا إلي غضباً ؛ زَجَرًا بالبصر من غير كلام .

(٢) « واتكَلَأُمِّيَاهُ » : وافقَدَأُمِّي إِيَّاي فَقَدْ هَلَكْتُ . وَاتَّكَلَأُ : فَقَدَ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا .

(٣) « ما كهَرَنِي » : ما قَهَرَنِي وَمَا نَهَرَنِي .

(٤) رواه أحمد (٤٤٧/٥) ومسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠) والنسائي (١٤/٣) .

(٥) رواه أحمد (٤٠٨/١) .

(٦) رواه النسائي (٢٢٦/١) .

وقال عبد الله بن مسعود: عَلَّمَنَا ﷺ خُطْبَةَ الصَّلَاةِ ، وَخُطْبَةَ الْحَاجَةِ^(١) .

وعن أَبِي رِفَاعَةَ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، رَجُلٌ غَرِيبٌ ، جَاءَ يُسْأَلُ عَنْ دِينِهِ ، لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ . قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ ، فَأَتَى بِكَرْسِي ، حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيداً ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا^(٢) .

وهذا الرجلُ الغريبُ الذي جاء سائلاً عن دِينِهِ ، هو من النوع الذي قال فيه النبي ﷺ: «إِنَّ نَاساً يَأْتُونَكَم مِّنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ ، فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً»^(٣) .

وكان ﷺ يربط قلوبَ المؤمنين بالله عز وجل ، ويدعوهم إلى أن يطلبوا من خالقهم كل ما يحتاجونه ، فيستهدون بربهم ، ويستخبرونه عز وجل ، ليبينَ لهم الرشد في أمورهم ، إذ يركنون إلى جنابه ، ويُعبِّرون عن محبتهم لمولاهم سبحانه وتعالى ، ففي الاستخارة رضا بقضاء الله ، وجمْع بين خيري الدنيا والآخرة ، علاوة على ما في حديث الاستخارة من عظيم الثناء على الله سبحانه .

عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستخارة كما يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ^(٤) .

وروى عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فعَلَّمَنِي الإسلامَ ، وَنَعَتَ لِيَ الصَّلَاةَ ، وَكَيْفَ أُصَلِّي كُلَّ صَلَاةٍ لَوْ قَتَلَتْهَا^(٥) .

(١) رواه ابن ماجه (١٨٩٢) .

(٢) رواه أحمد (٨٠/٥) ومسلم (٨٧٦) والنسائي (٢٢٠/٨) .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٠) وابن ماجه (٢٤٧) .

(٤) رواه البخاري (١١٦٢) وأبو داود (١٥٣٨) والترمذي (٤٨٠) وابن ماجه (١٣٨٣) .

(٥) رواه أحمد (٢٥٧/٤) .

وعن مكحول أنَّ ابنَ محيريز حَدَّثَهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ علَّمَهُ الأَذَانَ تِسْعَ عشرةَ كلمةً ، والإقامة سبعَ عشرةَ كلمةً^(١) .

كما علَّم ﷺ الصحابة الكرام العبادات كلها ، فعَلَّمَهُم الصلاة^(٢) ، والصيام^(٣) ، والحج^(٤) ، والشَّهَد^(٥) ، والوضوء^(٦) ، والدعاء^(٧) ، والرقية^(٨) ، وعَلَّمَهُم كلَّ شيءٍ حتَّى قيلَ لسلمان الفارسي - رضي الله عنه - : قد علَّمَكُم نبيُّكُم كلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءة ، قال : أَجَلٌ ، لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، أو أن نستنجي باليمين ، أو أن نستنجي بأقلَّ من ثلاثة أحجار ، أو أن نستنجي برَجِيعٍ أو بعَظَمٍ^(٩) .

وكان ﷺ يبادر أصحابه - رضي الله عنهم - بالسؤال ؛ ليعَلِّمَهُم ، ويهديهم ؛ فعن أبي أيوب الأنصاري قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نَزَلَ عَلَيَّ ، فقال لي : «يا أبا أيوب ، أَلَا أَعَلَّمُكَ؟!» قلتُ : بلى يا رسولَ الله ، قال : «ما مِنْ عبدٍ يقول حين يصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له المُلْكُ ، وله الحمد ؛ إلَّا كُتِبَ اللهُ له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، وإلَّا كُنَّ له عند الله عدلٌ عشر رقابٍ مُحَرَّرِينَ ، وإلَّا كان في جُنَّةٍ من الشيطان حتَّى يمسي ، ولا قالها حين يمسي إلَّا كذلك»^(١٠) .

(١) رواه أبو داود (٥٠٢) .

(٢) رواه أبو داود (٤٤٧) .

(٣) رواه أحمد (٣٧٧/٤) .

(٤) رواه أحمد (٦١/٤) .

(٥) رواه أحمد (٣٧٦/١) .

(٦) رواه أحمد (١٦١/٤) و (٢٠٣/٥) .

(٧) رواه أحمد (١٣٤/٦) وابن ماجه (٣٨٤٦) .

(٨) رواه أحمد (٢١/٦) .

(٩) رواه مسلم (٢٦٢٢) وأبو داود (٧) والترمذي (١٦) والنسائي (٣٨/١ - ٣٩) .

(١٠) رواه أحمد (٤١٤/٥ - ٤١٥) .

وعن أبي سعيد بن المَعْلَى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مرَّ به وهو يُصَلِّي فدعاه ، قال :
 فَصَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ ، فَقَالَ : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجِيبَنِي ؟ ! » قال : كُنْتُ أَصَلِّي ! قال :
 « أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ؟ ! أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ
 الْمَسْجِدِ ؟ ! » . قال : فَذَهَبَ لِيَخْرُجَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَوْلُكَ ! قال :
 « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي الَّذِي أُوتِيتُ وَالْقُرْآنُ
 الْعَظِيمُ » ^(١) .

وعن أبي موسى الأشعري: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له : « يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ ،
 أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ ! لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » ^(٢) .

وعن عليٍّ - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أَلَا أَعْلَمُكَ
 كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَإِنْ كُنْتَ مَغْفُورًا لَكَ ؟ ! » قال : « قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » ^(٣) .

وعن ابن عباس أنه قال : كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « يَا غُلَامَ ، أَلَا
 أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ ؟ ! » فَقُلْتُ : بَلَى ، فَقَالَ : « احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ،
 احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ . وَإِذَا سَأَلَكَ
 فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ ، فَلَوْ أَنَّ
 الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا
 عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ،
 وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ
 الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » ^(٤) .

(١) رواه النسائي (١٣٩/٢) .

« قَوْلُكَ » : - بالنصب - أي : اذكره .

(٢) رواه أحمد (٤٠٢/٤) .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٠٤) .

(٤) رواه أحمد (٣٠٧/١) .

ولم يقتصر تعليمُ النبي ﷺ على الرجال والأطفال ، بل طال النساء أيضاً ، فعن أسماء بنت عُمَيْس قالت : قال لي رسول الله ﷺ : «أَلَا أُعَلِّمُكَ كلماتٍ تقولينهِنَّ عند الكرب؟! اللهُ اللهُ ربي ، لا أُشْرِكُ به شيئاً»^(١).

وعن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : جئتُ النبي ﷺ فقلتُ : يا رسولَ الله ، إني امرأةٌ قد ثقلتُ ، فعلمني شيئاً أقوله وأنا جالسة ، قال : «قولي الله أكبر مئة مرة ؛ فإنه خيرٌ لك من مئة بدنة مُجَلَّلة مُتَقَبَّلة ، وقولي الحمد لله مئة مرة ؛ فإنه خيرٌ لك من مئة فرس مُسَرَّجة مُلَجَّمة حملتها في سبيل الله ، وقولي سبحان الله مئة مرة ؛ هو خيرٌ لك من مئة رقبة من ولد إسماعيل ، تعتقين ، وقولي لا إله إلا الله مئة مرة ؛ لا تذر ذنباً ، ولا يسبقه عمل»^(٢).

كما دعا ﷺ المربيين كي يأخذوا بأسلوب التعليم ؛ تَوْضُلاً إلى تحقيق المقاصد الدينية ، وتجسيد الأخلاق الفاضلة ، ويكون التعليم مصحوباً بالرفق ، وعدم التشديد ؛ لئلا يحصل نفورٌ من قبول الدين ، وأتباع الهدى.

فعن ابن عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال : «عَلِّمُوا ، وبَشِّرُوا ، ولا تُعَسِّرُوا»^(٣).

وإذا نال المتعلِّم قسطاً من العلم ، فعليه أن يُعَلِّم مَنْ وراءه ، ويُخبرهم بكل ما أخذَه من معارف وعلوم وآداب.

قال ابنُ عباس : إِنَّ وَفَدَ عبد القيس أَتَوْا النبي ﷺ فقال : «مَنْ الْوَفْدُ؟» قالوا : ربيعة . فقال : «مَرْحَباً بِالْقَوْمِ غَيْرِ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى» . قالوا : إنا نأتيك مِنْ شُعَّةٍ بَعِيدَةٍ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ

(١) رواه أبو داود (١٥٢٥) وابن ماجة (٣٨٨٢).

(٢) رواه أحمد (٤٢٥/٦).

(٣) رواه أحمد (٢٣٩/١).

إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ ، فَمَنْ بَأْمَرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ . فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ، أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ ، قَالَ : « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ؟ » قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَتُعْطُوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ » . وَنَهَاَهُمْ عَنِ الدُّبَاءِ ، وَالْحَتَمِ ، وَالْمَرْقَةِ ، وَالْمُقَيَّرِ . وَقَالَ : « احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوا مَنْ وَرَاءَكُمْ »^(١) .

وعن مالك بن الحُوَيْرِث قال : أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَشْرِينَ لَيْلَةً ، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا ، وَسَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا فَأَخْبَرَنَا ، وَكَانَ رَقِيقًا رَحِيمًا ، فَقَالَ : « ازْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَعَلَّمُوهُمْ ، وَمُرُوهُمْ ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي ، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ ، ثُمَّ لِيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ »^(٢) .

وَمِنْ سِمَاتِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي التَّعْلِيمِ ؛ أَنَّهُ بَيَّنَّ ثَوَابَ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ ، فَعَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ ، وَمَذَاكِرَتُهُ تَسْبِيحٌ ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَمَنَارُ سُبُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَهُوَ الْأَنْيَسُ فِي الْوَحْشَةِ ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ ، وَالِدَلِيلُ عَلَى السَّرِّاءِ وَالضَّرِّاءِ ، وَالسَّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخْلَاءِ ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأُئِمَّةً تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ ، وَيُقْتَدَى بِفَعَالِهِمْ ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خُلَّتِهِمْ ، وَبِأَجْنَحَتِهَا تَمْسُحُهُمْ ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابَسٍ ، وَحَيْتَانِ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ ، وَسِبَاغُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ ، وَمَصَابِيحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ ، يَبْلُغُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ ، وَالدرجات العُلى في الدنيا وَالْآخِرَةِ ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ ، وَمُدَارَسَتُهُ

(١) رواه البخاري (٨٧) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٨) .

تَعْدِلُ الْقِيَامَ ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ ، وَهُوَ إِمَامُ الْعَمَلِ ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ ، يُلْهَمُهُ السُّعْدَاءُ ، وَيُحَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءُ»^(١).

وعن صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ الْمُرَادِيِّ - رضي الله عنه - قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ مُتَّكِئٌ عَلَى بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرُ ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ ، فَقَالَ: «مَرْحَباً بِطَالِبِ الْعِلْمِ؛ إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا ، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِمَا يَطْلُبُ»^(٢).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ: أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عِلْماً ، ثُمَّ يُعَلِّمَهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»^(٣).

وعن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَلَّمَ عِلْماً فَلَهُ أَجْرٌ مَنْ عَمِلَ بِهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ»^(٤).

وقد حَذَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعِلْمِ الْمَذْمُومِ ، وَهُوَ مَا كَانَ فِيهِ كَذِبٌ ، أَوْ سُوءُ نِيَّةٍ ، أَوْ تَضْيِيعٌ لِلْحُدُودِ ، فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ الْكُذْبَ عَلَيْهِ لَيْسَ كَالْكَذْبِ عَلَى أَيِّ مَخْلُوقٍ آخَرَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ كُذْباً عَلَيَّ لَيْسَ كَكُذْبِ عَلَى غَيْرِي. مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ عَامِداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٥).

وقال ﷺ: «مَنْ رَوَى عَنِّي حَدِيثاً ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(٦).

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/٥٤).

(٢) رواه أحمد (٤/٢٣٩) والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/١٣١) وابن حبان (٨٥ و١٣٢٢) والحاكم (١/١٠٠) وابن ماجه (٢٢٦) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/٣٢).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٣).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٨٥).

(٥) رواه البخاري (١٢٩١) ومسلم (٣).

(٦) رواه مسلم (٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (٣٨).

وَوَرَدَ الْوَعِيدُ عَلَى تَعَلُّمِ الْعِلْمِ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ، لَا يَتَعَلَّمْهُ إِلَّا لِيَصِيبَ بِهِ غَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وقال ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءُ ، أَوْ يَجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءُ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجْهَهُ النَّاسَ إِلَيْهِ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٢).

وقال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ . . .» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأَتَىٰ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذِبَتْ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِءٌ ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(٣).

ولا يُقبل العلم ولا التعليم ما لم ينطلقا من قاعدة رضا الله عز وجل ، والإخلاص له سبحانه ، بعيداً عن الشهرة والرياء والشُّمعة. قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتَغَىٰ بِهِ وَجْهَهُ»^(٤).

وهكذا تبدو القاعدة العلمية في المنهج التربوي النبوي ذات صفات خاصّة؛ لتؤدي دورها في بناء الفرد المسلم الصالح ، وتشييد صرح المجتمع على أسس متينة من العدل والحق والإيمان.

أما القاعدة الثالثة من قواعد المنهج النبوي في التربية فهي الحكمة. ولو تصفّحنا المعاجم لرأينا أَنَّ الْحِكْمَةَ عبارة عن: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. وَالْحِكْمَةُ: العدل. وَرَجُلٌ حَكِيمٌ: عدل حَكِيمٌ. وَأَحْكَمَ الْأَمْرُ:

(١) رواه أحمد (٣٣٨/٢) وأبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥).

(٣) رواه أحمد (٣٢٢/٢) ومسلم (١٩٠٥) والنسائي (٢٣/٦).

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٤٣٤٨).

أتقنه . والحكيم : المتقن للأمور . وسُميت الحكمة بذلك لأنها تمنعُ صاحبها عن أخلاق الأزدال .

والحكمة أيضاً : العلم والتَّفَقُّه ، والكلام الذي يقلُّ لفظه وَيَجُلُّ معناه ، والكلام الموافق للحق . والجِلْم ، والنبوة . وأحكمه : أتقنه فاستحكم ، ومنعه من الفساد .

وقال رَسَاحٌ : «إِنَّ من الشعر حكمة»^(١) أي : إِنَّ من الشَّعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسَّفه ، وَيُنْهِي عنهما . وقيل : أراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس^(٢) .

ونستطيع أن نُحدِّد محاور الحكمة في ثلاثة محاور ، هي :

المحور الأول : القول ، ويعني :

✽ الإصابة في القول .

✽ الكلام التوجيهي إلى الطريق القويم .

✽ القول الذي لا خَلَل فيه ، وليس فيه موضعٌ لِلَّيْتِ أو لَوُ .

والمحور الثاني : العلم والعمل ، ويعنيان :

✽ فِعْل الصواب الذي لا اعتراض لأحد فيه .

✽ اسم جامع لكلِّ ما ينبغي عِلْماً وعملاً ومعاشرة وُضُوء .

✽ العلم والفقه والفُضْل في التَّضَاء .

✽ الأمر والنهي .

✽ الفَهم والعقل .

(١) رواه البخاري (٦١٤٥) .

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط والمصباح المنير والنهاية في غريب الحديث والأثر والمعجم المدرسي ، مادة (حكم) .

❖ الإصابة في الأمور ، والسَّداد في القضايا .

والمحور الثالث : الفِكر والذِّين ، ويعنيان :

❖ العدل .

❖ وَضَع كُلِّ شَيْءٍ فِي مَحَلِّهِ الْمُنَاسِبِ .

❖ العلم بالأحكام .

❖ الصواب في المعتقد ، والفقه في الذِّين .

❖ الهدى والاستقامة .

❖ الشكر لله ، والحث عليه .

والحكيم يوالي العبادات ولا يقطعها ، ويثابر على الطاعات ، ويُتابعها
دونما انقطاع . وهو تقيٌّ ، يداوم على الصَّلَاة بينه وبين الخالق ، فهو يحبُّ
الخير ، ويفعله ، ويدعو إليه ، ويسخط من الباطل ، ويكرهه ، ويُنفّر منه .

وقد سَلَكَ رسولُ الله ﷺ السبيل الأقوم إلى قلوب البشر ، وامتلك
أحاسيسهم ، وحاز مشاعرهم بكل حكمة ولطافة وتؤدة ، وأثار النفوسَ
صوت الحق والصلاح والخير ، وَحَفَزَ الهممَ لتنوير العقول ، وإشادة
المجتمع الصالح ، وَحَرَّكَ العواطفَ إلى تقوى الله ، واستثار الوجدان لبناء
الروح ، والتحليق بالإنسانية إلى مصافِّ الأبرار الأتقياء .

وكان ﷺ يُصَرِّفُ الأمورَ وَفَقَ الحِكمةَ ، فكل نِيَّةٍ ينويها ، وكل رأيٍ
يرتثيه ، وكل قولٍ يتحدث به ، وكل فِعْلٍ يعملُه ؛ إنما ينبع من أصالة
الحكمة ، وجوهر السَّداد .

وهاهي التربية النبوية تقتبس الحِكمةَ ، وتندغم معها ، فلا انفصال
بينهما ، ولا انقطاعَ يَفْرَقُهما ، لا سَيِّماً وأنه نبيٌّ كريم ، يتلقى الوحي من
السماء ، فكانت الرسالة المحمدية تعليماً محكماً ، وفقهاً دائماً ،
وسُنناً تترى مع الأيام . قال عز وجل : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا

عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَرُزُكِيكُمْ وَتَعْلَمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَتَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٥١﴾.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ودَعَا اللَّهُ تعالى نبيّه محمداً ﷺ إلى أن يدعو الناسَ إلى دين الله ، والصراط المستقيم بالقول المحكم الصحيح ، الموضح للحق ، والمزيج للشبهات ، من خلال أسلوبٍ مقنع ، وعبر نافعة ، بما يؤثر في النفوس ، من خلال الرفق والشفقة . قال عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد أولى النبي ﷺ الحكمة مكانة خاصة ، فجعلها طلبية المؤمن ، فلا يزال يطلبها كما يطلب الرجل ضالته ، فقال ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها»^(١).

والمطلوب من هذا الحديث: إرشاد المؤمن ، وتعليمه أن اللائق بحاله أن تكون الحكمة مطلوبه ، وأن ينظر إلى القول لا إلى القائل . والحكمة - هنا - كل كلمة وعظمتك ، أو زجرتك ، أو دعوتك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيحة . والمعنى: أن الناسَ متفاوتة الأقدام في فهم المعاني ، واستنباط الحقائق المحتجبة ، واستكشاف الأسرار المرموزة ، فمن قصر فهمه عن إدراك حقائق الآيات ، ودقائق الأحاديث ، ينبغي ألا يُنكر على مَنْ رُزِقَ فهمها ، وألهم تحقيقها ، ولا يَنازع فيه كما لا يَنازعُ صاحبُ الضالة في ضالته إذا وجدها^(٢).

وقد بَوَّب البخاري - رحمه الله - في كتاب العلم؛ باباً أسماه: الاغتراب في

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٧) وابن ماجه (٤١٦٩).

(٢) فيض القدير (٦٥/٥).

العلم والحكمة ، وذكر فيه الحديث الأول المروي عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ، وَيُعَلِّمُهَا»^(١).

والحسدُ المذكورُ في الحديث هو الغبطة ، وهي: أن يتمنى المرءُ أن يكونَ له مثل ما لغيره مِنْ غير أن يزولَ عنه ، والحرص على هذا يُسمَّى منافسةً ، فإذا كان في الطاعة فهو محمود ، وإن كان في المعصية فهو مذموم ، وإن كان في الأمور الجائزة فهو مُباح ، فكأنه ﷺ قال في الحديث: لَا غِبْطَةَ أَعْظَمَ ، أَوْ أَفْضَلَ مِنَ الْغِبْطَةِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ^(٢).

وذكر رسولُ الله ﷺ بعض مظاهر الحكمة ، ومنها: الزهد في الدنيا ، والكلام بقدر الحاجة ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ فَقَدْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ ، وأدرك دقائقَ الأمور ، وَعَرَفَ شِفَاءَ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ ، فَحَارَبَ اتِّبَاعَ الْهَوَى ، وَأَصَابَ كِبِدَ الْحَقِيقَةِ ، وَأَحْكَمَ أَعْمَالَهُ ؛ إِذْ نَفَّحَهَا مِنَ الشَّوَائِبِ ، فَكَأَنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى. قال ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا ، وَقِلَّةَ مَنَظِقٍ ، فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ»^(٣).

وَمِنْ وَسَائِلِ التَّربِيَةِ النَّبَوِيَّةِ: الدُّعَاءُ ، فعن ابن عباس قال: ضَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي الْحِكْمَةَ»^(٤).

وزاد ابن ماجه: «وتأويل الكتاب» فدلَّ على أن المراد بالحكمة: السنة؛ لأنها قُرِئَتْ بِالْكِتَابِ ، قال عز وجل: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ونستطيع - بعون الله - أن نُوضِّح بَيِّنَاتِ الْحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ ، فنقول: لقد

(١) رواه البخاري (٧٣) ومسلم (٨١٦).

(٢) المفهم؛ للقرطبي (٤٤٥/٢) وفتح الباري (١/١٦٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠١).

(٤) رواه البخاري (٣٧٥٦) والترمذي (٣٨٢٤) وابن ماجه (١٦٦).

عانى ﷺ من الواقع الذي عاش فيه كثيراً من الصعوبات؛ التي رآها تقف في وجه الدعوة إلى الله ، فالواقع ممقوت بكل ما يحتوي عليه من أناس ، وعقائد ، وسلوك ، وموازين ، وأحاسيس .

كذلك كان الواقع الجاهلي تسنّد نفوس المشركين؛ التي مردت على الحق ، وتناولت على الصلاح ، فرفضت الاستسلام لله تعالى ، وأوجدت أفكاراً غريبة عن مقياس الحق ، وجعلتها تطنّ في أجواء المجتمع؛ من وثنية خربة ، وتهاون شديد ، وخَوَر واضح ، وتجروّ فاضح على الخالق العظيم .

وبرز رسول الله ﷺ من بين هؤلاء ، تبدو عليه سيماء الصلاح ، وتركزت الأنظار إليه؛ لما يحمله من كريم السجايا ، ونبل الصفات ؛ فكان قدوة للذين من حوله؛ يروّنه مثلاً أعلى في الصدق والأمانة والحكمة

وكلّنا يذكر بإجلال وإكبار موقفه ﷺ من اختلاف القبائل فيمن يحمل الحجر الأسود ، وهنا برزت الحكمة المحمدية؛ فأعطت حلاً للإشكال ، وأخمدت الفتنة التي كادت أن تشبّ .

وكان ﷺ يرصد الوقائع بعقل كبير ، ويوازن بين القضايا فيرجّح الحق ، ويسحق الباطل ، ولا يخشى لومة لائم ، فيعيد الحق إلى نصابه ، ويسعى مع المظلومين حتى يستوفوا حقوقهم ممّن ظلموهم .

وتذكر كُتُب السيرة قصة الرجل الإراشي الذي باع أبا جهل إبلاً له ، ولم يقضه أبو جهل الثمن ، وماطله بالدفع ، واستنجد الإراشي بالقرشيين ، لكنهم خذلوه ، ودلّوه على النبي استهزاء منهم به؛ لِمَا يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة ، وانطلق ﷺ مع الإراشي ، وطرق الباب على أبي جهل ، وطالبه بثمن الإبل ، واستطاع ﷺ أن يُحصّل الحق لصاحبه؛ الذي وقف في نادي قريش ليقول: جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لي حقي^(١) .

(١) السيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٣٩٠) .

وكان رسول الله ﷺ يَعْظُ الناسَ بلطفٍ ولين ، ويُخاطبُ القلوبَ بالرقّة ؛ مُجسِّداً فيها العاطفةَ الدينية ، بعد أن وَجَدَ الذين مِنْ حوله يُعانون من مرض التشبُّث بالحياة ، وخداع أنفسهم ، فهم يعيشون في بيئة مادية ، فَقَدَتِ المنهج الرباني ، وأضاعت مفتاح النجاة ، فتخبطت في ظلماتٍ داهيةٍ هوجاء .

وبدت الحكمةُ النبوية ثمرةً ربانية ، أودعها الله تعالى في نفسه ، فَأَتَتْ أَكْلَهَا ، وهي تسير بالركب إلى جادة التهيؤ ، وتسوق الناسَ إلى ربِّهم ، تُذَكِّرهم بالخالق ، وتعظمهم بالموعظة الحسنة ، وتدفعهم صوب التخلُّق بالجميل من الصفات ، والحمد من الأفعال ، وتُعَطِّرهم بالكلمة الطيبة ؛ ليسعوا إلى ذِكْرِ الله وإقامة الصلاة ، فكانت الدعوةُ إلى التوحيد ؛ لتستقيم المشاعر ، وتصلح الأحوال ؛ برباط الدين والعقيدة الصحيحة .

ولقد وضعتُ حكمةُ النبي ﷺ الأسسَ التربوية الواضحة للحياة البشرية ؛ التي تقومُ على منهاج من جذورها ، إلى روابطها ، إلى مظاهرها ، حيث تنتظم الحياةُ بطبيعة الحق القائم ؛ مما يحقق التناسُقَ بين الفطرة السليمة وبين نظام المنهج ، ويحقق التوازن بين الحقوق والواجبات الفردية والأسرية والاجتماعية ، ويحقق النظرة الصحيحة إلى الدار الآخرة ، وأنها مثوى العقاب والثواب . وهذا التناسُقُ خاصيةٌ أساسية تنبثقُ عن أعمالٍ منهج الله تعالى في أنحاء الحياة ، وأصعدتها .

ونشير إلى بعض سمات الحكمة النبوية في النقاط التالية :

❖ الإخلاص في القول ، والعمل لله وحده .

❖ إفراغ النفس من الأهواء والنزوات .

❖ حُسْنُ الأسلوب ، وابتغاء طريق اللين واللطف .

❖ النزاهة في الحكم دون الانحياز لأحد الطرفين .

❖ المجاهرة بالحق دون خوف أو تلثم .

❖ عدم القضاء إلا بوجود الأدلة .

وكان ﷺ صادق الحديث ، والصدق يهدي إلى البر ، والبر يقود إلى الجنة . وكان عليه الصلاة والسلام معروفاً بأداء الأمانة ، وأهم ألوانها: أمانة العقيدة ، وبذل العلم ، وتعليم الناس ، وحثهم على الخير ، وتنفيرهم من الضلال .

وكان ﷺ وفياً بالعهد؛ لذلك أشرقَتْ نفسه ، وارتقتْ فننقتْ ، وسمتْ فصفتْ . وكان للناحية التفكيرية عند رسول الله ﷺ قيمة كبرى ، جعلته سكيناً ، يسكت عن قول الشر وفعله ، ويُصلح المجتمع بإسكاتهم عن الانحراف والالتواء .

وكان كلامه ﷺ ينطق بالحق ، ويتَّصف بالصدق ، وكلُّ ما أثر عنه ﷺ جديرٌ بالتأمل ، والتدبر؛ من أجل العمل والتطبيق ، ونرى من الخير أن نشير إلى بعض أقواله ﷺ؛ ليكون القارئ على تبصرة من أمره ، وليقف على شواهد حديثية تعزِّز موضوع الحكمة في التربية النبوية . قال ﷺ :

❖ «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(١) .

❖ «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(٢) .

❖ «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَصْمُتْ»^(٣) .

❖ «اسْتَعِينُوا عَلَى قِضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ؛ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مُحْسُودٌ»^(٤) .

❖ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٥) .

(١) رواه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٢) .

(٣) رواه أحمد (٢٣٩/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢١٥/٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٦٥٥) وانظره في مجمع الروائد (١٩٥/٨) .

(٥) رواه أحمد (٢٨٥/٢) ومسلم (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣) .

- ❖ «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١).
- ❖ «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ»^(٢).
- ❖ «الْاِقْتِصَادُ فِي النِّفْقَةِ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ ، وَحُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ»^(٣).
- ❖ «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ»^(٤).
- ❖ «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلِّهِ»^(٥).
- ❖ «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعُهُ»^(٦).
- ❖ «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»^(٧).
- ❖ «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٨).
- ❖ «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي»^(٩).
- ❖ «لَيْسَ مِتًّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيُوقَّرَ كَبِيرَنَا ، وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ»^(١٠).

-
- (١) رواه البخاري (٧١٥٤) ومسلم (٩٢٣).
- (٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٢٨/٦).
- (٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٥٦٨) وانظره في مجمع الزوائد (١/١٦٠).
- (٤) رواه أحمد (٣٠٧/١).
- (٥) رواه أحمد (٤٢٦/٤) ومسلم (٣٧) وأبو داود (٤٧٩٦).
- (٦) رواه أحمد (١٢٠/٤) ومسلم (١٨٩٣) وأبو داود (٥١٢٩) والترمذي (٢٦٧٤) والبخاري (١٥٤).
- (٧) رواه مسلم (٢٦٤٥) وابن ماجه (٤٦).
- (٨) رواه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩).
- (٩) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٤٢) والديلمي في الفردوس (٤٦٩٩) والبيهقي في الزهد (١٠٤) وأبو الشيخ في الأمثال (٨٣).
- (١٠) رواه أحمد (٢٥٧/١) والترمذي (١٩٢١).

﴿مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ﴾^(١).

﴿الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ﴾^(٢).

﴿لَا تُنَزَّعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ﴾^(٣).

﴿ارْحَمُوا تُرْحَمُوا ، وَاعْفِرُوا يُعْفَرَ لَكُمْ﴾^(٤).

﴿كُفَّ شَرِّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ﴾^(٥).

﴿دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ﴾^(٦).

أَمَّا الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ قَوَاعِدِ الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي التَّرْبِيَةِ ، فَهِيَ : التَّزْكِيَةُ ؛ لِإِعْدَادِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَهْيِئَتِهَا لِتَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ ، وَالْقِيَامِ بِالتَّكَالِيفِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنَ الْآثَامِ ، وَالْمُوبِقَاتِ ، وَالشَّرُورِ ، وَالطَّفِيلِيَّاتِ لِتَكُونَ الْمَهْمَةُ نَاجِحَةً ، وَالزَّرْعُ نَضِيْرًا ، وَالشَّمَارُ يَانِعَةً .

وَقَدْ بَيَّنَّ الْمَفْسِّرُونَ مَعْنَى التَّزْكِيَةِ ، وَأَشَارُوا إِلَى مُضَامِينِهَا ، فَقَالَ أَبُو السَّعُودِ الْعِمَادِيُّ :

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بِحَسَبِ قُوَّتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ ، أَيِ : يُطَهِّرُهُمْ عَنْ دَنَسِ الشَّرِّكِ وَفَنُونِ الْمَعَاصِي^(٧).

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢/٢٥٢) وَمُسْلِمٌ (٢٦٩٩) وَأَبُو دَاوُدَ (٣٦٤٣) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٩٤٥) وَابْنُ مَاجَةَ (٢٢٥).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٦/٢٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٦٢١).

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢/٣٠١) وَأَبُو دَاوُدَ (٤٩٤٢) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٢٤).

(٤) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢/١٦٥) وَانْظُرْهُ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١٠/١٩١).

(٥) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٥/١٥٠) وَمُسْلِمٌ (٨٤).

(٦) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١/٢٠٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥١٨) وَالنَّسَائِيُّ (٨/٣٢٧).

(٧) تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ (١/١٦٢).

وقال الزمخشري: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويظهرهم من الشرك ، وسائر الأرجاس^(١).

وقال أيضاً: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويظهرهم من دَسَّ القلوب بالكفر ، ونجاسة سائر الجوارح بملابسة المحرمات ، وسائر الخبائث^(٢).

وقال القرطبي: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُطَهِّرهم من وَضَر الشرك^(٣).

وقال مصطفى المنصوري: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُطَهِّرهم من رجس الشرك ، وعبادة الأوثان^(٤).

وقال عبد الرحمن السعدي: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي: يُطَهِّر أخلاقكم ونفوسكم؛ بتربيتها على الأخلاق الجميلة ، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة ، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الخُلُق إلى حُسْن الخُلُق ، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحابب والتواصل والتوادم ، وغير ذلك مِنْ أنواع التزكية^(٥).

وسبق أن أشرنا إلى أن النبي إبراهيم - عليه السلام - قد دعا رَبَّهُ أن يرسل رسولاً في الأمة المسلمة من أنفسها ، يُبَلِّغهم ما يُوحى إليه من البينات ، ويعلمهم الكتاب المنزل ، وَيُزَكِّيهم على أحكام الشرع ، والمعارف الحقة ، ويظهرهم من الشرك والآثام ، فقال عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(١) الكشف (١٨٩/١).

(٢) المصدر السابق (٤٣٦/١).

(٣) تفسير القرطبي (١٣٠/٢).

(٤) المقتطف من عيون التفاسير (١٥٧/١).

(٥) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩٦/١).

قال صاحب تفسير «المنار»: عَلِمَ إبراهيمُ أَنَّ تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في إصلاح الأمم ، وإسعادها ، بل لا بُدَّ أن يُقرن بالتربية على الفضائل ، والحمل على الأعمال الصالحة بحُسن الأسوة والسياسة ، فقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُطَهِّر نفوسهم من الأخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك العادات الرديئة ، ويُعوِّدها الأعمالَ الحسنة؛ التي تطبع في النفوس ملكات الخير .

وَمَنْ فَهِمَ أن التزكية تعني أن يكون القلبُ نظيفاً ، والنية صالحة ، دون أن يقوم بأداء المناسك والأمر التعبدية ، فقد ضلَّ سواء السبيل؛ لأنَّ التزكية قوة مُنظِّمة ، وحارس واع للمشاعر والتكاليف ، فهي طاعة بكل معنى الإيجابية ، وترجمة للسلوك العملي وصالح الأخلاق ، فلا بُدَّ من اقتران المعرفة التعليمية بالتزكية العملية ، وفي هذا صلاحٌ للفرد والمجتمع .

وقد بيَّن القرآن الكريم أن الناس قبل الإسلام كانوا في ضلال واضح ، وشروء عن منهج الحق ، وطريق الاستقامة ، فجاء الإسلام هادياً إلى الخير ، وقائداً إلى بناء الحياة على أسس سليمة من التوجُّه الطاهر الصحيح ، والسلوك العملي القويم .

وجاء رسول الله ﷺ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر؛ لتزكَّوْ نفوسهم ، وتُطَهَّر من الدَّنَس والخَبَث؛ الذي كانوا مُتَلَبِّسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني: القرآن والسُّنَّة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قَبْلُ هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي غَيٍّ وَجْهَل ظاهر جلِّي بَيِّن لكل أحد^(١) .

ولكي يزكو الإنسان ، ويرتقي في معارج الطهر والهداية والنور ، لا بُدَّ أن يدرك أمرين اثنين ، هما: معرفة الحق ، ومعرفة الخير لأجل العمل به . فإذا

(١) تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير (١/٥١٩) .

أخلَّ بشيء من هذين الأمرين ، ونأى عن أحدهما ، فإنه لا يصل إلى الطهارة الحقيقية عن النقائص والردائل النفسية ، ولا يمكن أن تزكو نفسه ، ولا أن تسمو مشاعره أو أعماله . فالعلم ضروري ، والمعرفة واجبة ، لكنَّ التزكية هي الطريق الموصل إلى الفضل والإحسان .

ويأتي دورُ رسول الله ﷺ ليقوِّي الدوافعَ الإيمانية في الإنسان ، ويحثُّه على العمل الصالح ، ويهتَمُّ بتربيته على صعيد العقيدة والمعاملات والآداب والأخلاق ، فكان ﷺ يدعو الناسَ بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرعى فيهم قدراتهم ومَلَكاتهم ومهاراتهم ، لا بالكلام وحده ، ولكن بالأسوة والقدوة الصالحة ، فربَّاهم بالتجسيد العملي ، وأراهم الصورة الصحيحة الصادقة للمسلم ؛ قبل أن يدعوهم إلى اعتناق الدِّين .

وقد بيَّن ﷺ سرَّ العقيدة الإسلامية ؛ فهي محرِّرُ المسلم من كل قيد وغلٍّ ، وتدفعه إلى ممارسة حياته دون خوف أو وَجَل ، وتجعل الإيمان أساس البناء في كل شيء ، فالله وحده يجلب الخير ، ويدفع الشر ؛ لذا فمن الضروري أن يعمل المرء الطاعات ، ويترك المحرِّمات .

وهاهو رسول الله ﷺ يحرص على تعليم الأطفال ، وتربيتهم ، وتكوين فكرهم المستقيم ، ويغرس مبادئ الإيمان في نفوسهم ، ويُعوِّدهم على روح المراقبة بهدف تحصينهم ، وغرس المرتكزات الصَّحيحة ؛ دَفْعاً لكل وارد مُشوِّش .

فعن عبد الله بن عباس قال : كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يوماً فقال : « يا غلامُ ، إني أعلِّمك كلمات : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى

أَنْ يَضْرُوكَ شَيْءٌ لَمْ يَضْرُوكْ إِلَّا شَيْءٌ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ^(١) .

ويفيد الحديث^(٢) :

- ضرورة حفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وذلك بالوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب .

- مَنْ حفظ حدود الله ، وراعى حقوقه ، وَجَدَ اللَّهَ مَعَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَ ، يحوطه ، وينصره ، ويحفظه ، ويؤفقه ، ويُسدده .

- الله وحده بيده مقادير كل شيء ، فيسخر من يشاء لخير من يشاء وضر من يشاء ، وسؤال غيره سبحانه من باب العبث ، كمن يفتح الأبواب بغير مفاتيحها ، فأنى له ذلك؟! وسؤال غير الله إذا اعتقد فيه القدرة على الإجابة إشراك بالله تعالى .

- التوجه إلى الله القوي القادر على كل شيء؛ لطلب العون بعد اتخاذ الأسباب كافة ، وعندها سيسخر سبحانه وتعالى من يعين المستعين بفضل الله وتوفيقه .

- النفع الذي يتحقق على يد بعض الناس ليس مصدره الناس ، وإنما مصدره رب الناس ، وما الناس إلا وساطة لإيصال الخير بأمر الله تعالى .

- كذلك الضر الذي يُصاب به الإنسان ليس مصدره الناس ولو ملكوا مظاهر القوة ، وهو مُقدَّر لحكمة يريد بها عز وجل .

- وعلى المسلم أن يذكر ربّه في الرخاء ليدفع عنه الأذى وقت الشدة والكرب .

(١) رواه أحمد (٣٠٧/١) والترمذي (٢٥١٦) .

(٢) شرح الأربعين النووية؛ لسمير العطار (١٠٤) .

- ولا بُدَّ من الصبر على البلاء ، والرضا والقدر ، وإنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب .

ونهى ﷺ عن التقليد؛ الذي لا يثبت على النقد الصَّحيح ، والحقيقة الواضحة ، فعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعةً ، تقولون إن أحسن الناس أحسناً ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وُطِّئوا أنفسكم ؛ إن أحسن الناس أن تَحْسِنُوا ، وإن أساؤوا فلا تَظْلِمُوا»^(١).

ومن مقتضيات التزكية: المحبة ، وهي شرط في الإيمان . قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»^(٢).

والمحبة تقتضي ترك الأذى ، قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٣).

وشدَّد ﷺ في الإخلاص ، وصُنْع الخيرات ، وحذَّر من الرياء؛ الذي يُفسد الأعمال ، ويُحبط ثوابها ، وهو يقلب الفضائل ليجعل منها رذائل؛ لذا جعله ﷺ شركاً ، فقال: «إِنَّ أَخَوْفَ ما أَخَافُ عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشُّركُ الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء ، يقول الله عز وجل إذا جُري الناسُ بأعمالهم: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً»^(٤).

وتزكو النفس إذا ابتعدت عن الفضول ، والشُرور ، والمخاصمات؛ وعندها تتميز تلك النفس بمكملات الصحة ، وإخراج الصفات المذمومة ،

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٧).

(٢) رواه أحمد (٤٧٧/٢) ومسلم (٥٤) وأبو داود (٥١٩٣) وابن ماجه (٦٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٢٧) والنسائي (١٠٤/٨ - ١٠٥).

(٤) رواه أحمد (٤٢٨/٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٣١) وانظره في مجمع الزوائد (١٠٢/١).

كالحسد ، والرياء ، والكبر ، والعجب . . . لذا قال ﷺ : «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

ولا بُدَّ من الإرشاد ، والتعليم ، والنصيحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر؛ كي تصلح النفوس ، ويبدو المجتمع معافى من المعاصي والآثام. قال ﷺ : «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شُرَارَكُمْ ، فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»^(٢).

وَحَثَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّقْوَى ، وَبَيَّنَّ عِلَامَاتُ الْمُتَّقِي وَأَمَارَاتِهِ ، وَوَضَعَ الدَّوَاءَ النَّاجِعَ لِمَنْ شَرَّدَ بِهِ الْهَوَى ، وَنَأَى عَنِ الصَّوَابِ ، فَذَكَرَ أَنَّ عَمَلَ الْحَسَنَاتِ ، وَالْخُلُقِ الصَّالِحِ ، هُمَا عِمَادُ الْحَيَاةِ ، وَأَسَاسُ الصَّلَاحِ مَعَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ. قَالَ ﷺ : «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتَّبِعِ السِّيئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٣).

وقال ﷺ : «لَا يَبْلُغُ الرَّجُلُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ»^(٤).

وَدَلَّ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَذَكَرَ ثَمَرَاتِهَا ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ ﷺ : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ ، وَيُبَسَّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٥).

ولكي تزكو النفس ينبغي أن تبقى على اتصال بخالقها في كل حركة وسكنة ، وفي مختلف الأحوال والأزمان ، فإذا وَرَدَ أمرٌ محبوب قال : «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»^(٦).

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣٣٠٧) وانظره في مجمع الزوائد (٢٦٦/٧).

(٣) رواه أحمد (٢٣٦/٥) والترمذي (١٩٨٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٥١) وابن ماجه (٤٢١٥).

(٥) رواه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧).

(٦) رواه ابن ماجه (٣٨٠٣).

وإذا جاءه أمرٌ يكرهه قال: «الحمدُ لله على كل حال»^(١).
 وإذا أراد أمراً قال: «اللهم خِرْ لي ، واخترْ لي»^(٢).
 وإن أراد سفراً قال: «اللهم بك أصول ، وبك أحول»^(٣).
 وإن أراد نوماً قال: «اللهم باسمك وضعتُ جنبي ، وباسمك أرفعه»^(٤).
 وإن استيقظ قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور»^(٥).
 وإن لبس ثوباً جديداً قال: «الحمد لله الذي كساني ما أُواري به عورتي ،
 وأتجمل به في حياتي»^(٦).
 وإن أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين»^(٧).
 وإن شرب قال: «الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ، ولم
 يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا»^(٨).
 وإذا انقلب من الليل في فراشه قال: «لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب
 السموات والأرض ، وما بينهما العزيز الغفار»^(٩).

-
- (١) رواه الترمذي (٢٧٣٨) وابن ماجه (٣٨٠٤).
 (٢) رواه الترمذي (٣٥١٦).
 (٣) رواه أحمد (٣٣١٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦١٤).
 (٤) رواه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤).
 (٥) رواه أحمد (٣٨٥/٥) والبخاري (٦٣١٢) وأبو داود (٥٠٤٩) والترمذي (٣٤١٣)
 وابن ماجه (٣٨٨٠).
 (٦) رواه الترمذي (٣٥٦٠).
 (٧) رواه أحمد (٣٢/٣) وأبو داود (٣٨٥٠) والترمذي (٣٤٥٣) وابن ماجه (٣٢٨٣).
 (٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٣٧/٨).
 (٩) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٤).

وإذا هَبَّ من نومه ليلاً قال: «رَبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ ، واهْدِ للسبيل الأَقوم»^(١).

وإذا خرج من بيته قال: «باسم الله ، توكلْتُ على الله ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله . اللهم إني أعوذُ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ ، أو أزلَّ أو أُزَلَّ ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ ، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(٢).

وهكذا يكون المسلم متصلاً بخالقه في كل أمر ، ملتجئاً إليه ، معتمداً بحماه ، لائذاً بجنابه ، وبذا تزكو نفسه ، وترقى في مدارج السائرین إلى الله عز وجل .

وكان ﷺ أسوة حسنة للآخرين ، حتى شهد بذلك القريب والبعيد ، فقد قالت السيدة خديجة - رضي الله عنها - تخاطبُ رسول الله ﷺ: والله ، لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرَّجَمَ ، وتصدقُ الحديث ، وتحملُ الكلَّ ، وتقري الضَّيفَ ، وتكسبُ المعدوم ، وتُعين على نوابِ الحق^(٣).

ولمَّا سأل هرقلُ أبا سفيان - وكان كافراً إذ ذاك - عن النبي ﷺ: هل يغدر؟ قال: لا . فقال هرقل: بماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبُدَ الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف . فقال هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا^(٤).

فهذا النبي ﷺ قد زكَّتْ نفسه ، وطهرتْ ، فلم يُعرف عنه غدرٌ أو كذب ، فترقى في سُلَّم الكمال ، وتألَّق في دوحة الإيمان ، فكان النموذجَ الفَدَّ ، والصورةَ الآسرةَ في شتى النواحي ، ومختلف الأبعاد ، وأقام عِوَجَ الحياة ،

(١) رواه أحمد (٣٠٣/٦).

(٢) رواه أحمد (٣٠٦/٦) وأبو داود (٥٠٩٤) والترمذي (٣٤٢٣) والنسائي (٢٦٨/٨) وابن ماجه (٣٨٨٤).

(٣) رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

(٤) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

وردَّ الأمورَ إلى مجراها الفطري الطبيعي ، فلا وثنية ولا شرك ، ولا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى والعمل الصالح .

واقْتَلَعَ ﷺ جذور الجاهلية من الصدور ، فقال : «ليس مِنَّا من دَعَا إلى عصبية ، وليس مِنَّا مَنْ قَاتَلَ على عصبية ، وليس مِنَّا مَنْ مَاتَ على عصبية»^(١) .

فالعصبيةُ القبلية سببُ إثارة الضَّغائن ، وبذرُ الأحقاد في النفوس ، فحَثَّ ﷺ على ترك تلك العصبية ، ودَعَا إلى إقصائها عن النفس والمجتمع .

كما حرَّم ﷺ حمية الجاهلية ونخوتها ، ففي خطبته ﷺ يوم فُتِح مكة قال : «يا معشر قريش ، إِنَّ الله قد أذهبَ عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء . الناسُ من آدم ، وآدم من ترابٍ» . ثم تلا هذه الآية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ [الحجرات : ١٣]^(٢) .

وكان لشخصية النبي ﷺ أثرٌ كبيرٌ وعميقٌ في التغلُّب على النزعات الجاهلية ، والنزوات الطائشة التي كانت تطفو بين الحين والآخر .

ففي غزوة بني المصطلق ضَرَبَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا لَلْأَنْصَارِ ، وقال المهاجريُّ : يا لَلْمُهَاجِرِينَ . فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال : «ما بالُ دعوى الجاهلية؟!» قالوا : رجلٌ من المهاجرين كَسَعَ^(٣) رجلاً من الأنصار ، فقال رسولُ الله ﷺ : «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»^(٤) .

كما كان ﷺ يُشَجِّعُ الناسَ كي يعطفَ بعضهم على بعض ، ويساعدوهم ، ويحتملوا ما يصدر عنهم من هفوات ، وإن كانوا من غير أقربائهم أو

(١) رواه أبو داود (٥١٢١) .

(٢) انظر : السيرة النبوية ؛ لابن هشام (٥٤/٤) .

(٣) «كَسَعَ» : ضَرَبَ مُؤَخَّرَهُ بيده ، أو بِصَدْرِ قَدَمِهِ .

(٤) رواه البخاري (٤٩٠٥) والترمذي (٣٣١٥) .

عشائريهم ، وفي هذا أعلى درجات الإحسان ، وحُسن الخُلُق ، وزكاء النفس ، وتبذ الجاهلية .

عن أبي سعيد الخُدري - رضي الله عنه - قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ - وهو يَقْسِمُ قَسْماً ؛ إذ أتاه ذو الخُوَيْصرة - وهو رجلٌ من بني تميم - فقال : يا رسولَ الله ، اعدل . فقال : «وَيْلَكَ ، وَمَنْ يَعدُلُ إذا لم أعدلُ؟! قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكنُ أعدلُ» . فقال عمر : يا رسولَ الله ، ائذُن لي فيه فأضرب عُنُقَه ، فقال : «دَعُهُ»^(١) .

وقد أثرت هذه الأقوال والأفعال في جيل الصحابة الكرام ، وتغلغلت في أعماق نفوسهم ؛ لتُغيّر المفاهيم ، والعادات ، والأفكار الضالّة ، وتُوجّه الناسَ بالآداب الشرعية ، والأخلاق الفاضلة نحو حياةٍ أفضل ، تُقلّل من غلواء الجاهلية ، وتُطامِن من خيلائها ، وتحدّ من انتهاكها لحرّمات الإنسان ، فتعيد البشرَ إلى الأصالة ، وتُشعّرهـم بالمسؤولية والإدراك لما يدور حولهم .

ولمّا زكّت نفوسُ الصحابة بفعل الإيمان ، تحوّلوا إلى عجائب في الانقياد والطاعة ، وإلى كتلةٍ بشرية متزنة ، نَحَتْ منحى جديداً ، وفتحت عهداً سعيداً ، وبنت مجتمعاً عاقلاً رشيداً .



(١) رواه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤/١٤٨) .

الفصل الثالث

خصائص التربية النبوية

أوضح القرآن الكريم أن المقصود من البعثة النبوية هو التعليم والتربية ، فمنذ أن عهد الله عز وجل إلى إبراهيم الخليل ببناء البيت العتيق ، دعا إبراهيم - عليه السلام - ربّه دعوةً جامعة ، لها وزنها ودلالاتها ، وهي تحمل مدلولين مهمّين ، هما :

الأول: التوحيد الخالص لله سبحانه ، وتقرير العبادة له عز وجل ، والاستسلام لأمره وتشريع ، والخضوع المطلق لطاعته ، بعيداً عن الشرك والوثنية ، مع الإخلاص وحُسن التوجّه وسلامة القصد ، والاستقامة على التصور الصحيح ، وإسلام الوجه لله تبارك وتعالى .

والثاني: تربية الفرد الصالح ، والجيل الناشئ ، والأُمة المسلمة ؛ تربية مثالية تسمو بها على الآخرين ، وتقودها إلى الارتقاء والعلواء على مرّ الزمن ، وكرّ العصور .

قال عز وجل: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

وتشمل التزكية: تصحيح العقائد والأفكار ، وتغيير أساليب التفكير باتجاه الأفضل ، والأحسن ، والأكثر فائدة ، والأعظم تأثيراً . كما تشمل نبذ التقليد ، وتعطيل العقل . ويُحذّر ﷺ أن يكون الإنسان مسلوب الإرادة ، عديم التفكير ، فيقول: «كونوا للعلم وعاء ، ولا تكونوا له رواة ، فقد

يرعوي مَنْ لا يروي ، وقد يروي مَنْ لا يرعوي . إنكم لن تكونوا عالمين حتى تكونوا بما علمتم عاملين»^(١) .

ولذا وجّه الإسلامُ الأنظارَ إلى البحث في أسرار الكون ، ودقائق الحياة ، وقوانين الوجود ، كما مرَّ معنا في فصل سابق .

والتعليم والتزكية كلاهما يشير إلى عملية بشرية تساهم في تعديل السلوك ، والارتقاء بالإنسان من دركٍ أسفل السافلين إلى منزلة أحسن تقويم من خلال الخبرة والتجربة^(٢) .

وأراد النبيُّ إبراهيم - عليه السلام - أن يبعث الله رسولا يُعَلِّم وَيُزَكِّي ، فدعا ربّه أن يُرْسِلَ ذلك الرسول ؛ لإخراج الأمة من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان ، ولترقيتهم من الحضيض الذي يعيشون فيه إلى درجات أرقى وأسلم وأنقى .

ولا يكون الارتقاء إلّا بالعبادة والطاعة لله ؛ المؤسسة على الإخلاص المجزّد ، والقيام بالتوجّه إلى الخالق العظيم بالعبادة على أحسن وجه ، وأبين كمال .

والدين واحد بين الأنبياء لا يختلف ، وهو الإسلام وسلامة القصد ، وعميق اليقين ، وتعظيم الله سبحانه ، وعبادته وحده لا شريك له . قال ﷺ : «الأنبياء إخوة من علّات ، أمّهاتهم شتى ، ودينهم واحد»^(٣) .

وبنو العلّات هم : أولاد الرجل من نسوة شتى . قال القاضي عياض : معناه : أنّ الأنبياء مختلفون في أزمانهم ، وبعضهم بعيد الوقت من بعض ،

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤٧٠٧) وأبو نعيم كما في فيض التقدير (٥٧/٥) وكتر العمال (٢٩٣٣٥) .

(٢) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ؛ للدكتور ماجد الكيلاني (٥٥) .

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) .

فهم أولاد عَلَاتٍ إذ لم يجمعهم زمانٌ واحد ، كما لم يجمع أولادَ العَلَاتِ بطنٌ واحد .

قال القرطبي : «ودينهم واحد» أي : في توحيدهم ، وأصول أديانهم ، وطاعتهم لله تعالى ، واتباعهم لشرائعه ، والقيام بالحق^(١) .

وكانت الدعوةُ الإبراهيميةُ ليعث الله نبياً يُعلِّم الناس ، ويُربِّيهم ، فيعلِّمهم الخير ، وينأى بهم عن الشر ، ويطهرهم من خبث العقائد الضالة ، ويُصلح أحوالهم من خلال عملياتٍ تربويةٍ ؛ تصحح مسارَ حياتهم ، وتنقذهم من حنُوس المتهاتات .

ومهما أوتي الإنسان من ذكاء خارق ، والمعية متميزة ، وعقل متفتح ؛ فإنه لن يستطيع أن يرتقي بتفكيره لِيُنتِج تربيةً كالتربية الإسلامية ؛ لأنها مُنزلة من لدن رب السموات والأرض ، فتمتاز بأنها ربَّانية المصدر ؛ لذا فهي صالحة لكل مجتمع ، ولكل عصر ، ومتناسبة مع القدرات الإنسانية مهما تنوعت وتفاوتت .

قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] ^(٢) .

فالقرآن هو المعجزة الباقية الخالدة ؛ التي جاءت لتربي الناس ، وتُعدِّهم وفق منهج ربَّاني متكامل ، يستجيب لنواميس الفطرة ، ويتماشى مع أطوار الإنسان بتناسق مطرد ، يعالج كلَّ المشكلات الطارئة ، ويوضح جميع الملابسات في حياة الفرد وصعيد المجتمع ؛ لأنَّ المشرع العظيم هو العالم بفطرة المخلوق ، وأحوالها ، وملابساتها ، وما يجدُّ فيها .

وكما عجز الإنسان عن محاكاة القرآن ، ومضاهاة فصاحته ، وحُسن نَظْمه ، كذلك هو عاجزٌ عن الإتيان بمثل مبادئه وقوانينه ونواميسه .

(١) المفهم ؛ لأبي العباس القرطبي (١٧٦/٦) .

(٢) «ظهيراً» : معيناً .

ليست مبادئ القرآن نظرية مجردة ، بل هي عملية ، واقعية ، مطبقة ، ورسول الله ﷺ هو النموذج الحي لتلك المبادئ والنظريات ، واستطاع ﷺ أن يطبقها في أصحابه الكرام التطبيق المثالي ، ومن ثم تناقلت تلك التربية جيلاً فجيل حتى وصلت إلينا كلاماً يُتلى ، ونماذج مجسدة ، تقول بملء فيها: عليكم بالتربية الإسلامية ، ففيها التعليم النموذجي ، والتركية المتألقة ، والحكمة الواعظة ، وفيها النفع كل النفع . ولنتأمل قوله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»^(١) .

وقد قام رسول الله ﷺ بمهمة الوالدَيْن ، حيث ربَّى العقيدة ، والأخلاق ، والنفوس ، والروح ، وحرَّك دوافع الإصلاح والخير ، وأعدَّ الناس الإعداد الشامل والدقيق ، وهَيَّأَ الجوَّ النظيف؛ ليشبَّ الجيلُ كي يتحمَّل أعباء الحياة ، ويقوم بأمانة الاستخلاف .

والتربية عملية شاقة تصاحب الإنسان في مراحل حياته كلها ، وتقتضي مراقبة دائمة ، وتذكيراً مُستمراً ، وتنشئةً على خصال الخير ، وبناءً على الصُّلِّ والتهديب ، ونُقْش التوحيد في الفؤاد ، والترغيب بالأخلاق الرفيعة ، والفضائل الحميدة ، إلى ما هنالك من ألوان الطاعة والإيمان؛ كي تقوم الشخصية قياماً كاملاً على شروط الخير .

والذي يُلخِّص الهدف من التربية النبوية هو قوله ﷺ: «إنما يُعِثُّ لأتمِّم مكارم الأخلاق»^(٢) .

فالتربية النبوية هي التربية الكاملة؛ التي تُعزِّز الخير في منابه الأولى ، وتدفع الشر كيلا يُصيب مَنْ يَتَوَقَّاهُ؛ ومن هنا اهتمَّ العلماء بالتربية النبوية الاهتمامَ الالئقَ بها ، وصنَّفوا الأحاديث التي اعتنت بالتربية والتوجيه؛ في

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

كُتِبَ خَاصَّةً ، ككتاب «الأدب المفرد» للإمام البخاري ، وهو أجمعُ كتاب في التربية النبوية .

وهو كتابٌ يتناول الأخلاقَ الإنسانية في الإسلام من خلال (٦٤٤) باباً ، وهذا دليلٌ أهمية الأخلاق والآداب في الدين ، باعتبارها رُكناً مكيناً لبناء الإنسان ، وقيام المجتمع الصالح .

وكان البخاريُّ - رحمه الله - حكيماً كل الحكمة ، حيث ابتدأ كتابه «الأدب المفرد» بالعلاقة بين الآباء والأبناء ، فكان عنوان الباب الأول : قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : ٨] . وكان أول حديثٍ في كتابه : عن عبد الله بن مسعود قال : سألتُ النبيَّ ﷺ : أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عز وجل؟ قال : «الصلاة على وقتها» . قلتُ : ثم أيُّ؟ قال : «برُّ الوالدين» . قلتُ : ثم أيُّ؟ قال : «الجهاد في سبيل الله» . قال : حدَّثني بهنَّ ، ولو استزدُّهُ لزادني^(١) .

ومن هنا تتبيَّن حاجةُ الناس إلى السُّنَّة النبوية ، وتربيتها ، وهديها . وقد أشار ابنُ قَيِّم الجوزية إلى ذلك ، وأوضح احتياج الناس الأكيد إلى التربية النبوية ، فقال :

«فصل : ومنْ هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به . وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم فالطَّيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم ، وما جاؤوا به ، فهم الميزانُ الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميَّز أهل الهدى من أهل الضلال . . فالضَّرورةُ إليهم أعظمُ من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها .

(١) رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥) .

فأئى ضرورة وحاجة فُرِضَتْ ، فضرورة العبد ، وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنُّك بمن إذا غاب عنك هديُّه ، وما جاء به طرفة عين ، فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضع في المِقلَّة ، فحالُّ العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل ؛ كهذه الحال ، بل أعظم ، ولكن لا يُجسَّ بهذا إلا قلب حي و : (ما لِيُجْرَحَ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ) ^(١) .

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ ، فيجبُ على كلِّ مَنْ نصَح نفسه ، وأحبَّ نجاتها وسعادتها ؛ أن يعرفَ من هديه ، وسيرته ، وشأنه ما يَخْرُجُ به عن الجاهلين به ، ويدخل به في عِداد أتباعه وشيعته وحزبه . والناسُ في هذا بين مستَقِلٍّ ، ومُسْتَكثَرٍ ، ومحرومٍ ، والفضلُ بيد الله يُؤْتيه مَنْ يَشاء ، والله ذو الفضل العظيم ^(٢) .

ويمكن أن نشير إلى أهمِّ خصائص التربية النبوية ، ومميزاتها التي اتَّسمت بها ؛ ليكون القارئ الكريم على بَيِّنَةٍ من أمره ، ووضوح من المنهج الذي نسعى لتأكيدِه في هذا الكتاب ، وهو منهج الدعوة إلى ترسُّم خطى التربية النبوية ، والنَّهل من معينها ، واتباع هداها ، وتنبيه العقول إلى أهميتها ، وإيقاظ الأفهام كي تتملَّأها ، وتقتبسَ منها حياةً جديدةً ، وبناءً مستقيماً .

وقد أشار الشيخ محمد الشاذلي النيفر إلى بعض خصائص التربية النبوية ؛ في بحثٍ له قدَّمه إلى المؤتمر العالي الثالث للسيرة والسنة النبوية ؛ الذي انعقد في الدوحة سنة (١٤٠٠ هـ) ^(٣) ، وبَيَّن أن التربية النبوية تمتاز بمميزات تكاد لا تنحصر ؛ لأنها كلما تعمَّق فيها الناظر بدَّتْ له خصائص ناطقة بما تمتاز به ، فالخصائص التربوية النبوية تدعو الباحث فيها أن يخصَّصها بتأليفٍ خاصٍّ ؛ إبرازاً للتربية الممتازة الضرورية للحياة الصحيحة المستقيمة .

(١) عَجَزُ بَيْتٍ لِمَتَنَبِيٍّ ، وَصَدْرُهُ : مَنْ يَهْنُ يَسْهُلُ الْهَوَاؤُ عَلَيْهِ . انظر : ديوانه (٢٧٧/٤) .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ؛ لابن قيم الجوزية (١/٦٩ - ٧٠) .

(٣) انظر كتاب : البحوث والدراسات (٥/٤٩٦) .

ونشيرُ في الصفحات التالية إلى بعض تلك الخصائص ، ولعلنا - بعون الله - نتوسّع فيها في بحثٍ مستقل إن كان في العمر فسحة .

الخاصية الأولى: التربية النبوية عامة في كل الحالات التي يتقلّب فيها الأفراد:

فالتربية النبوية تُنظّم الأحوال الطبيعية للإنسان؛ كالأكل ، والشرب ، والنوم ، والانتباه ، واللباس ، والمشي ، والجلوس ، والبيع ، والشراء ، وغير ذلك . فهي منهج حيوي يتماشى مع الإنسان في وقائع حياته الخاصة والعامة .

ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى شيء من هدي رسول الله ﷺ في العبادات ، كهديه ﷺ في الوضوء .

فعن ابن عمر قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً يتوضأ ، فقال: «لا تُسْرِف ، لا تُسْرِف»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ مرَّ بسَعْدٍ ، وهو يتوضأ ، فقال: «ما هذا السَّرْفُ» فقال: أفي الوضوء إسرافٌ؟! قال: «نعم ، وإن كنت على نَهَرٍ جارٍ»^(٢).

وفي الحديثين السابقين تربية بديعة ، ملؤها الحكمة ، ولُحْمُهَا لَفَتْ النظر ، وسُداها بيانُ قيمة النعمة ، وضرورة المحافظة عليها ، فكان الهدْيُ النبوي تربية اقتصادية يعرّفُ نظيرها؛ فقد سبقت الدعوات العصرية التي تنادي بالمحافظة على قطرة الماء ، وعدم إهدارها؛ بسبب الحاجة إليها ، وسدّاً لباب العطش والحاجات الحيوية التي يتطلبها الإنسان والأرض على حدّ سواء .

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥).

وَلَقَدْ تَنَبَّهَ نَظَرُ الصَّحَابِيِّ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِاسْتِفْهَامِ إِنْكَارِيٍّ ، فَأَجَابَ سَعْدٌ بِاسْتِغْرَابٍ وَتَعْجَبٍ ؛ مُتَسَائِلًا عَنْ كَوْنِ الْمَاءِ أَيْكُونَ فِيهِ إِسْرَافٌ؟! فَالْإِسْرَافُ : مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ ، وَالْإِفْرَاطُ فِيهِ . وَعِنْدَمَا يَسْمَعُ الْمَرْءُ كَلِمَةَ إِسْرَافٍ ؛ يَتَوَجَّهَ ذَهْنُهُ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي الْإِنْفَاقِ ، أَوْ الطَّعَامِ ، أَمَّا الْإِسْرَافُ فِي الْمَاءِ فَشَيْءٌ جَدِيدٌ طَرَقَ مَسَامِعَ سَعْدٍ ، فَتَعَجَّبَ مِنَ التَّسَاوُلِ النَّبَوِيِّ ، وَهَذَا جَاءَتْ التَّرْبِيَةُ النَّبَوِيَّةُ لِتَوْكُّدِ أَنَّ الْمَاءَ شَيْءٌ حَيَوِيٌّ ، يَنْبَغِي الْمَحَافَظَةُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ مُتَوَافِرًا بِكَثْرَةٍ ، ذَلِكَ أَنَّ النِّعْمَةَ تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ ، وَنِعْمَةُ الْمَاءِ شُكْرُهَا فِي عَدَمِ الْإِسْرَافِ فِيهَا ، وَاسْتِخْدَامِهَا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا .

وَهَذَا شَيْءٌ آخَرٌ يَجْدُرُ التَّنْبِيهِ إِلَيْهِ ، وَهُوَ أَنَّ مُسْتَعْمِلَ الْمَاءِ إِذَا لَمْ يُسْرِفْ فِي اسْتِخْدَامِهِ ، هَلْ يُكْتَفَى بِذَلِكَ؟ أَمْ أَنَّ هُنَاكَ تَرْبِيَةَ أُخْرَى تُسْتَشْفَى مِنَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ؟!

إِنَّ الْمَحَافَظَةَ عَلَى الْمَاءِ تَعْنِي عَدَمَ الْإِسْرَافِ فِيهِ ، كَذَلِكَ لَا بُدَّ مِنَ التَّفَكِيرِ فِي الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ الْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلِ ، فَلَا يُهْمَلُ ، وَلَا يُتْرَكُ هَكَذَا لِيَضِيعَ سُدَى ، بَلِ الْإِسْتِفَادَةُ مِنْهُ تَرْبِيَةُ نَبَوِيَّةٌ ، وَتَوْجِيهِ سَدِيدٌ ، فِي رِيِّ الْأَرْضِ ، وَأُمُورِ الزَّرَاعَةِ ، وَإِعَادَةِ التَّكْرِيرِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَقَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَصُورِ الْمَاضِيَةِ ، وَتَنَبَّهَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَهْمِيَّتِهِ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ ، فَجَرَتْ الدِّرَاسَاتُ ، وَصُنِيعَتِ الْآلَاتُ ، وَأُلِّفَتْ الْمَصْنُفَاتُ ، وَعُقِدَتِ الْمُؤْتِمِرَاتُ ؛ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ الْمَاءِ الْإِسْتِفَادَةِ الْجُلَى ، وَكَانَ الْأَوَّلَى أَنْ يَسْتَلْهِمَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَرْبِيَتِهِ الْحَكِيمَةِ .

الخاصية الثانية : التدرُّج في الأمور :

تتناول التربية النبوية الأشياء بالتدرُّج والترتيب والتعقيب ، وَهَاهُنَا الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِدَأْتِ بِالسَّرِّ ، ثُمَّ بِالْعَلَنِ حَتَّى اسْتَوْعَبَتِ الْعَرَبَ ، ثُمَّ إِنَّهَا اسْتَوْعَبَتِ الْأُمَّمَ الْآخَرَى .

وَكَانَ الطُّورُ الْأَوَّلُ لِلدَّعْوَةِ فِي ظُرُوفٍ لَا تَسْمَحُ لَهَا بِالِانْتِشَارِ إِلَّا فِي مَحِيطٍ

خاص ، فكانت النواة الأولى ، والبذرة الصالحة للإسلام ، ودام هذا الطور ثلاث سنين .

وابتداً الطور الثاني للدعوة بأمر الله عز وجل للجهر بها ، وذلك بإنداز العشيرة ذات الصلة القريبة بالنبي ﷺ ، مع التوكل على الله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَنْبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۖ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۖ ﴾ [الشعراء : ٢١٤ - ٢١٧] .

وتلقى ﷺ الأمر الإلهي ، وبلغه عشيرته الأقربين ، وبين لهم أن تلك القرابة لا تنفعهم شيئاً إن لم يؤمنوا ويعملوا الصالحات .

فعن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمَّ وخصَّ ، فقال : «يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني مُرَّة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عَبْد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ؛ فإني لا أملكُ لكم من الله شيئاً ، غير أنَّ لكم رَحِمًا سَابِلُهَا بِلَالُهَا»^(١) .

وكان الجهرُ بالدعوة يُرَكِّز على إنداز عشيرته الأقربين لأمرين اثنين ، هما : أولهما : التدرُّجُ في الدعوة لتستوعب مَنْ تحلُّ قلبه الهداية من أقاربه ، فيمتاز المتفهمون من ذويه لدين الله ؛ المبعوث به خاتم الأنبياء من غيرهم ؛ حتى يكون جوَّه العائلي متفهماً للدعوة النبوية في طور السرية قبل إعلان الجهر على الملأ .

(١) رواه البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤) .

«سَابِلُهَا بِلَالُهَا» : أي سَابِلُ الرِّحْم بِالصَّلَةِ الَّتِي تَلِيْقُ بِهَا ، فَصِلَةُ الْمُؤْمِنِ : إِكْرَامُهُ وَمُبَرَّتُهُ ، وَصِلَةُ الْكَافِرِ : إِرْشَادُهُ وَنَصِيحَتُهُ .

ثانيهما: إن الدعوة إذا انتشرت في الأقارب الأدينين؛ كان ذلك دليلاً على صدق مُبلِّغها؛ لأنه لو كان فيه مغمر لعلمه أقاربه، فأقبالهم على الدعوة، وإيمانهم بالدين الجديد، دليل على صفاء الدعوة، وتبرئة الدين من الشوائب.

فكان التدُّرج تربية مثلى، وتوجيهاً رائداً، وإعداداً للقلوب كي تأنس باليقين، وتتقبل الفكر الجديد بكل أبعاده.

وكان للتدُّرج أثره فيما بعد، فحين اتسعت خطى الدعوة، كانت النفوس قد تهَيَّأت لحمل رايات الجهاد، والانطلاق في رحاب الأرض وفجاجها، لفتح القلوب بالكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، والقُدوة الصالحة، ودكِّ عروض الظلم والضلال.

وهكذا باءت بالإخفاق كلُّ محاولات الإحباط، والتأرجح، وكانت الخيبة والخسران مصير كل مَنْ تُسَوَّل له نفسه أن يرتدَّ عن الدين، أو يحارب المسلمين، أو يكيد لهم.

وجاء الطورُ الثالث للدعوة، حيث انتقل الإسلام والمسلمون بعد الهجرة إلى المدينة، فكانت الهجرة منعطفاً تاريخياً مُهمّاً، وفرقاناً بين الحق والباطل، ورفرف نصْرُ الله، ودَخَلَ الناسُ في دينِ الله أفواجا، وازدهر الإسلام على مرِّ الأعوام.

لقد كانت أطوارُ الهجرة تربية للمسلمين، وبناءً لصرح الدين المتكامل، إلى جانب مجالس رسول الله ﷺ، حيث زادتهم رسوخاً في الإيمان، ونأياً عن الشهوات، وعزوفاً عن المغريات، وتفانياً في طاعة الله ورسوله، وحرصاً على طَلَب العلم، ومحاسبة النفس، والتخلِّي عن الدنيا ليقوم الدينُ شامخاً، فأنحَلَّتْ من نفوسهم عُقَدُ الشرك والوثنية، وتلاشت عصبية القبيلة، وكان التحوُّل غريباً لسرعته وعمقه وسعته وشموله... إنها التربية النبوية، حيث تخرَّج الصحابةُ الكرام في مدرسة المربي الرسول ﷺ، وحازوا أرقى الشهادات، ونالوا أعظم المراتب، بفهم لا يُضاهى،

وإيمان لا يتزعزع ، وسجّلوا أروع الصفحات وأشدّها نصاعةً ، في مجال الخُلُق القويم ، والميول الخيّرة ، والالتزام بمبادئ الدّين ، ومنهجه المستقيم .

الخاصيّة الثالثة : اغتنام الفرص لتوجيه تربية خاصة :

والأمثلة على هذه الخاصيّة كثيرة ، ولنأخذ مثلاً واحداً ، هو قضية تأبير النّخل ؛ التي نتج عنها غاية بعيدة ، وهدف لا بُدّ من توضيحه .

فعن طلحة بن عبّيد الله قال : مرّرتُ مع رسولِ الله ﷺ يقوم على رؤوس النّخل ، فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ » فقالوا : يُلقّحونه ، يجعلون الذكر في الأنثى ، فتلقّح . فقال رسولُ الله ﷺ : « ما أظنُّ ذلك يُغني شيئاً » . قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسولُ الله ﷺ بذلك ، فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعه ، فإني إنما ظنّنتُ ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل »^(١) .

وعن رافع بن خديج قال : قدّم نبيُّ الله ﷺ المدينة وهم يأبسون النّخل ، فقال : « ما تصنعون ؟ » قالوا : كُنّا نَصْنَعُه . قال : « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً » . قال : فتركوه ، فنَقَصَتْ ، فذكروا ذلك له ، فقال : « إنما أنا بشرٌ ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشرٌ »^(٢) .

وعن أنس أن النّبيَّ ﷺ مرَّ يقوم يُلقّحون ، فقال : « لو لم تفعلوا لصلّح » . قال : فَخَرَجَ شَيْصاً ، فمرَّ بهم فقال : « ما لنخيلكم ؟ » قالوا : قلتَ كذا وكذا ، قال : « أنتم أعلمُ بأمر دنياكم »^(٣) .

(١) رواه مسلم (٢٣٦١/١٣٩) وابن ماجه (٢٤٧٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٣٦٢/١٤٠) .

(٣) رواه أحمد (١٥٢/٣) ومسلم (٢٣٦٣/١٤١) وابن ماجه (٢٤٧١) .

« شَيْصاً » : هو البلح الذي لا ينعقد نواه ، ولا يكون فيه حلاوة إذا أفسر ، ويسقط أكثره فيصير حشفاً .

ومن خلال الأحاديث السابقة تركز التربية النبوية على ضرورة إجراء التجارب فيما يعرض من الأمور؛ استجلاءً للحقيقة ، واستطلاعاً على باطن الأمور . فالتجربة: اختبارٌ مُنظَّم لظاهرةٍ أو عدة ظواهر ، يُراد ملاحظتها ملاحظةً دقيقة ومنهجية للكشف عن نتيجة ما ، أو تحقيق غرض مُعَيَّن . وتعني أيضاً: ما يُعمل أولاً لتلافي النقص في شيء ، وإصلاحه .

وعندما قال ﷺ: «ما أظنُّ ذلك يُغني شيئاً»: يعني به الإibar ، وإنما قال هذا؛ لأنه لم يكن عنده علمٌ باستمرار هذه العادة ، فهو لم يكن ممَّن عانى الزراعة . ولا الفلاحة ، ولا باشر شيئاً من ذلك ، فخفيت عليه تلك الحالة ، وتمسك بالقاعدة الكلّية المعلومة التي هي: أنه ليس في الوجود ولا في الإمكان فاعل ، ولا خالق ، ولا مُؤثِّر إلا الله تعالى ، فإذا نُسب شيءٌ إلى غيره نسبة التأثير ، فتلك النسبة مجازية عَرَضِيَّة لا حقيقية ، والذي يُغني في الأشياء عن الأشياء بالحقيقة هو الله تعالى . غير أنَّ الله تعالى قد أجرى عادته بأن سَرَّ تأثير قدرته في بعض الأشياء بأسباب معتادة ، فجعلها مقارنةً لها ، ومُعطاةً بها؛ ليؤمن مَنْ سبقَتْ له السعادة بالغيب ، وليضلَّ مَنْ سبقَتْ له الشقاوة بالجهل^(١) .

وكان عَرَضُ النبي ﷺ الظنُّ في موقفٍ من أدقِّ المواقف؛ لكي يقف الصحابة الكرام على أهمية الاختبار ، فحين اختبروا تأبير النخل؛ اتضح لهم أن الظن لا يغني شيئاً إلا بعد الاختبار . فدعاهم ﷺ إلى الأخذ بالتجربة؛ والاستناد إلى ما عُرِفَتْ صحَّته مع الزمن ، بلا لبسٍ ولا التواء ، فكان المنهجُ واضحاً ، والحقيقة جليَّة لكل ذي عينين .

الخاصية الرابعة: اختبار الضمائر في المواقف الصعبة:

لا يكفي أن يقول المرءُ أنا مسلم ، ثم يمضي على وجهه لا يرعوي شيء ، ولا يلتفت إلى حقيقة ، فالإسلام تكاليف وأعباء وواجبات

(١) المنهم (٦/١٦٨) .

وحقوق ، وجهاد متواصل ، وجهد دؤوب يتصل بضرورة الاحتمال والتعرض للفتن في كل حين .

والناس في حالة السراء والرخاء لا يظهر زيفهم ، بيد أن المحك يظهر الغث من السمين ، ويفرز الضمائر الحية من الضمائر التي أصابها المرض .

وسنة الله عز وجل مأكثة إلى يوم القيامة ، وهي تقوم على الاختبار والابتلاء ؛ لتربية الناس ، وإظهار الحقائق ، ومعرفة الذين يترفعون عن المغريات ، وأولئك الذي يرتكسون في مستنقع النزوة والشهوة والإغراء .

قال عز وجل : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت : ٢ - ٣] .

وقد أكد الصحابة - رضي الله عنهم - نجاحهم العملي في كل موقف تعرضوا له ، فلم تقف في وجههم أي عقبات ، ولم تلن لهم قناة ، ولم تحز لهم عزيمة ، فكانوا رجالاً أشداء ، ثابتين على المبدأ ، يهزؤون بالصعاب مهما قست ، ويواصلون سيرَ النهار بسرَى الليل حتى نالوا رضا الله تعالى ، ومحبة رسوله ﷺ ، ويا لها من نعمة ومنزلة كريمة !

وسنعرض لبعض المواقف التي تجلّى فيها الضمير الحي ، ونرى التربية النبوية كالشمس في رائحة النهار ، ولنكتفِ بغزوة بدر ، حيث استشار النبي ﷺ الناس حين خرجت قريش بقضها وقضيضها لإنقاذ العير التي يقودها أبو سفيان .

وأظهر الصحابة ما تكثفه ضمائرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم ، فانبرى أبو بكر الصديق مُعرباً عما في نفسه من طاعة لله ورسوله ، وتلاه عمر بن الخطاب ، وصدّع بالثبات والصبر ، ثم قام المقداد بن عمرو ، وشفى النفوس بقوله : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

مقاتلون . فوالذي بَعَثَكَ بالحق ، لو سِرْتُ بنا إلى بِرْكِ الْغِمَادِ^(١) لَجَالَدْنَا معك من دونه حتى تَبْلُغَهُ .

وقال سعدُ بن مُعَاذٍ : يا رسولَ الله ، واللهِ ، لو استعرضتَ بنا هذا البحر لخضناه معك^(٢) .

وكانت بيعةُ الأنصار لرسول الله ﷺ تقتصر على الدفاع دون الهجوم ؛ إذ بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم^(٣) .

وابتغى رسولُ الله ﷺ الكشف عن ضمائر الأنصار ، فقام سعدُ بن معاذ - رضي الله عنه - فقال : واللهِ ، لكأنك تريدنا يا رسولَ الله؟! قال : «أجل» . قال : قد آمنا بك ، وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامضِ يا رسولَ الله لما أردتَ ، فنحن معك . فوالذي بَعَثَكَ بالحق ، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلفَ مِنّا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصَبُورٌ في الحرب ، صديقٌ في اللقاء ، لعلَّ الله يُريك مِنّا ما تَقَرُّ به عَيْنُكَ ، فَسِرْ بنا على بركة الله^(٤) .

واصطف الجيشان للقتال ، وصدّق المسلمون في القتال على قلة عددهم وعُدَّتْهم ، وتسابق فتیانُ الأنصار للخروج إلى المبارزة ، وهم عوف بن الحارث ، وأخوه معوذ ، وعبد الله بن رواحة ، لكنّ مبارزتهم من قريش أبوا منازلتهم ، وطلبوا الأكفاء من قومهم ، فقتل المسلمون المشركين ، وجعلوهم كأمس الدّابر .

(١) «بِرْكِ الْغِمَادِ» : موضع وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر ، وقيل : بلد باليمن ، وقيل : موضع في أقصى أرض هَجَرَ .

(٢) السيرة النبوية ؛ لابن هشام (١/٦١٥) وتاريخ الإسلام - المغازي - للذهبي (٥١ - ٥٢) .

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير (٧٠) .

(٤) التسهيل ؛ لابن جزي (٢/٦١) وانظر البخاري (٣٩٥٢) ومسلم (١٧٧٩) .

ثم حَرَضَ ﷺ على القتال ، وحثَّ على الاستبسال ، فقال : «والذي نفسي بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فَيُقْتَلُ صابراً ، محتسباً ، مُقْبِلاً غير مُدْبِرٍ ؛ إلا أدخله الله الجنة». فقال عُمير بن الحِمام - وفي يده تمرات يأكلهن - : بَخٍ بَخٍ ، فما بيني وبين أن أدْخُلَ الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، فقدف التمر من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتِلَ ، وهو يقول :

رَكُضاً إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التُّقَى وَعَمَلُ الْمَعَادِ
وَالصَّبْرُ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ

فكان أول قتيلٍ قُتِلَ في سبيلِ الله في الحرب^(١) .

وأثمرت التربية النبوية ؛ إذ صنعتُ رجالاً ذوي نفوس كبيرة ، أثبتت في مستنفع الموت أنها لا تهاب الردى ، فحققت النصر للمسلمين ، وألحقت الهزيمة بالمشركين ، وقطفت رؤوس الكفر . وإلى هذا أشار حسان بن ثابت بقوله :

فَعَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيحاً وَعُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بِالْجُبُوبِ^(٢)
وَشَيْئَةً قَدْ تَرَكْنَا فِي رِجَالٍ ذَوِي حَسَبٍ إِذَا انْتَسَبُوا حَسِيبَ
يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ فِي الْقَلِيبِ^(٣)
أَلَمْ تَجِدُوا حَدِيثِي كَانَ حَقًّا وَأَمْرُ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ
فَمَا نَطَقُوا وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا صَدَقْتَ وَكُنْتَ ذَا رَأْيٍ مُصِيبِ^(٤)

وتبدلت التربية النبوية في اختبار نفوس الصحابة الكرام ؛ الذين أطاعوا أوامر رسولهم ﷺ ؛ طاعة تدعو إلى العَجَب والإكبار ، فقد أوصى ﷺ بأسرى المشركين خيراً ، وقال : «اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْراً» .

(١) الإصابة (٣/٣١) رقم الترجمة (٦٠٣٠) .

(٢) «الجُبُوب» : الأرض الغليظة من الصخر .

(٣) «كباكب» : جمع كبكة ، وهي الجماعةُ من الناس . «القليب» : البئر قبل أن تُبنى بالحجارة ونحوها .

(٤) ديوان حسان (١٣٥) .

وذكر أبو عزيز - أخو مصعب بن عُمير لأبيه وأمه ، وكان أسيراً - فقال : كنتُ في رَهْطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قَدَّموا غداءهم وعشاءهم خَصُّوني بالخُبْزِ ، وأكلوا التمر ؛ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ما نَقَعَ في يد رَجُلٍ منهم كسرةُ خُبْزٍ إلَّا نَفَحَنِي بها ، فأستحي فأردّها على أحدهم ، فبرّدّها عليّ ما يمسّها^(١) .

وهكذا أثبت الصحابة أنهم أهلٌ للامتحان ، وأنهم أربابُ المثل الصالح في حُسْنِ تمثيل القيم والمبادئ ، وتحقيقها في الواقع على أحسن ما يُرام .

وبعد أن اختبر رسول الله ﷺ ضمائر المسلمين في الثبات والصبر ، والطاعة والرحمة ، والجود بالنفس ، اختبارها بالجود في المال ، وتجلّى ذلك في قسمة الغنائم في غزوة بدر .

فَبَعَدَ أَنْ جَمَعَ المسلمون الأنفالَ في بدر ، اختلفوا في قسمتها ، وقد حَدَّثَ عن ذلك عبادة بن الصامت فقال : لما هُزِمَ العدوُّ يوم بدر ، وأُتِبَتْهم طائفةٌ يقتلونهم ، وأُحدِثُ طائفةٌ برسول الله ﷺ ، واستولت طائفةٌ على العسكر والنَّهْبِ . فلما نفى الله العدوَّ ، وَرَجَعَ الذين طلبوهم ، قالوا : لنا الثَّقل ، نحن طَلَبْنَا العدوَّ ، وبنا نَفَاهُمُ الله ، وهزمهم . وقال الذين أُحْدِقُوا برسول الله ﷺ : والله ، ما أنتم بأحقَّ به مِنَّا ، نحن أُحْدَقْنَا برسول الله ﷺ ، لا ينال العدوُّ منه غَرَّةٌ ، فهو لنا . وقال الذين استولوا على العسكر والنَّهْبِ : والله ، ما أنتم بأحقَّ به مِنَّا ، نحنُ أَخَذْنَا ، واستولينا عليه ، فهو لنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . ﴾ [الأنفال : ١] فقسمه رسول الله ﷺ بالسوية^(٢) .

(١) السيرة النبوية ؛ لابن هشام (٢/ ٦٤٥) .

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٢٢) والحاكم (٢/ ١٣٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩٢) وأسباب النزول ؛ للواحدى (٢٦٦) .

وحدَّث سعد بن أبي وقاص قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قُتِلَ أَخِي عُمَيْرٌ ، وَقَتَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ ، فَأَخَذْتُ سَيْفَهُ ، وَكَانَ يُسَمَّى : ذَا الْكِيفَةِ ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : « اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي الْقَبْضِ »^(١) . قَالَ : فَارْجَعْتُ وَبِي مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَتْلِ أَخِي ، وَأَخَذَ سَلْبِي ، فَمَا جَاوَزْتُ إِلَّا قَرِيباً حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اذْهَبْ فَخُذْ سَيْفَكَ »^(٢) .

وهذا اختبارٌ لسعدٍ بالجود في المال ، فما كان منه إلا الطاعة ، وبدا أن ضميره يقطُّ ، ونفسه نقيّة ، فإن عَزَّ عليه السيف ، فإنَّ طاعة الله ورسوله تأتي في المرتبة الأولى .

كما أنَّ رسولَ الله ﷺ اختبر عقولَ الصحابة - رضي الله عنهم - فعندما نزل أدنى ماءٍ من بدر ، قال الحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزَلَ ، أَمْزَلاً أَنْزَلَكِهِ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ ، وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ : « بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ » . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزَلٍ ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ ، فَنَنْزِلُهُ ، ثُمَّ نُغَوِّرُ^(٣) مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْقُلْبِ^(٤) ، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضاً فَنَمْلُؤُهُ مَاءً ، ثُمَّ نَقَاتِلُ الْقَوْمَ ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقَدْ أَشْرَتَ بِالرَّأْيِ » . فَانْهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَسَارَ حَتَّى إِذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقُلْبِ فُغَوِّرَتْ ، وَبُنِيَ حَوْضاً عَلَى الْقَلْبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ ، فَمُلِئَ مَاءً ، ثُمَّ قَذَفُوا فِيهِ الْآيَةَ^(٥) .

ويفهم من هذا الخبر أن النبي ﷺ اختبر عقل الصحابة ، ومدى انتباههم ، وأخذهم بالحيلة ، فكانوا نِعَمَ المقاتلين المتنبهين ، والحريصين ،

(١) «الْقَبْضُ» : بمعنى المقبوض ، وهو ما جُمِعَ من الغنيمة قبل أن تُقَسَمَ .

(٢) رواه أحمد (٧٨/٣) وأسباب النزول ؛ للواحدي (٢٦٥) .

(٣) «تُغَوِّرُ» : تدفن ونطمس .

(٤) «الْقُلْبُ» : جمع قلب ، وهو البئر .

(٥) السيرة النبوية ؛ لابن هشام (٦٢٠/١) .

والحذرين. كذلك كان اختبارُه ﷺ للصحابة؛ ليعوِّدهم على التشاور ، وعدم الانفراد بالرأي ، وحينها تختمر الآراء ، وتُجلى الحقيقة الناصعة.

الخاصية الخامسة: مراعاة نفوس المتعلمين :

مَنْ يقرأ سيرة رسول الله ﷺ يدرك - بلا شك - أنه ﷺ كان مهتمًا بتربية الصحابة ، وكان ذا خبرة كبرى في معرفة خصائص النفس ، وأصول التربية ، وتفهم الآخرين ، فكان يعظمهم بين الحين والآخر ، وقد بَوَّب البخاري - رحمه الله - في كتاب العلم؛ باباً عنوانه: ما كان النبي ﷺ يتخوَّلهم بالموعظة والعلم كيلا ينفروا. وأورد حديثين ، الأول: عن ابن مسعود قال: كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السَّامة علينا^(١). والحديث الثاني: عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٢).

ومعنى: «يتخولنا»: يتعهَّدنا ، فيراعي الأوقات في تذكيرنا ، ولا يفعل ذلك كلَّ يوم لئلاَّ نملّ . وفي رواية: «يتحولنا» - بالحاء المهملة - أي: يتطلب أحوالنا التي تنشط فيها للموعظة ، قال ابن حجر: ويُستفاد من الحديث: استحباب ترك المداومة في الجدِّ في العمل الصالح خشية الملل ، وإن كانت المواظبة مطلوبة ، لكنها على قسمين: إمَّا كل يوم مع عدم التكلف ، وإما يوماً بعد يوم ، فيكون يومُ الترك لأجل الراحة ليقْبِل على الثاني بنشاط^(٣).

ومن هنا بدَّت التربية النبوية تتصف بالتوسط والاعتدال والتوازن. وعلى هذا سار الصحابة الكرام ، ومنهم عبد الله بن مسعود؛ الذي نظم يوماً واحداً في الأسبوع ليعظ الناس ، ويذكّرهم ، فعن أبي وائل قال: كان عبد الله يُدكِّر

(١) رواه البخاري (٦٨).

(٢) رواه البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤).

(٣) فتح الباري (١/١٦٣).

الناس في كل خميس ، فقال له رجلٌ : يا أبا عبد الرحمن : لوددت أنك ذكرتنا كل يوم . قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم ، وإني أتخولكم بالموعة ؛ كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السامة علينا^(١) .

ولم يكتفِ ﷺ بالتربية المستندة إلى تفهّم نفسيات المتعلّمين ، بل دعا إلى المحافظة على الفكر المستقيم ؛ الذي لا اعوجاج فيه ، وهو يقوم على منهج التلطّف في التربية والتعليم ، والبعد عن القسوة والعنف ، فيأمر ﷺ بالتيسير ، والتبشير ، وتبذ التعسير ، وكلّ هذا لينشط المتعلّم ، ويُقبل على العمل بنفسية نشطة ، وصدر منشرح ، وراحة فكرية ، فيخرج العمل أكثر إتقاناً ، وأعلى جودة .

وبهذه المراعاة أخذت التربية النبوية بأيدي الناس ، وجمعتهم في صعيد واحد ، وصنعت منهم أمة فتحت قلوب العباد قبل أن تفتح الأراضي والبلاد ، وجعلت الألفة شعارهم ، والمحبة دثارهم ، قال عز وجل : ﴿ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .



(١) رواه البخاري (٧٠) ومسلم (٢٨٢١/٨٣) .

الفصل الرابع

وسائل التربية النبوية

بَعَثَ اللَّهُ عز وجل نبيّه محمداً ليهدي الناسَ إلى طريق الإسلام ، وينقذهم من ظلمات الجهل إلى نور الدين ، وأنزل القرآن الكريم هادياً إلى سُبُل السلام في الحياة كلها . قال عز وجل : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۚ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ [المائدة: ١٥ - ١٦] .

وقام ﷺ بالمهمة الملقاة على عاتقه خير قيام ، ورَبَّى الناس تربيةً دقيقة عميقة ، فسمّا بنفوسهم نحو الكمال ، وطهّر قلوبهم من أمراض الجاهلية ، فازدادوا رسوخاً في الدين . ونفورا من عرامة الشهوات ، فتنفانوا في التضحية والبذل والعطاء ، وحرصوا كل الحرص على التزوّد من العلم والفقه ومحبة الله ورسوله . وطاعتهما في المنشط والمكره ، فكان تأثير الإيمان كبيرا في الاخلاق ، والميول ، والسلوك ، وفي الإرادة والتصرف ، وفي الروح والقلب ؛ مما جعل المسلمين يعيشون تغييراً نفسياً ليس له مثيل . فانقلبت نفوسهم بالإسلام انقلاباً حَوْلَ مجرى حياتهم بشكل مختلف ، وعلغل الإيمان في قيعان ضمائرهم ، وتسرّب في مشاعرهم وأفئدتهم ، فغَمَر العقل والنفس بفيوضات جديدة ، تجلّت يقيناً صادقا ، وصبرا جميلا ، وشجاعة متألفة ، وأخلاقاً متميزة ، وأفعالا مَرْضِيَّة .

واستطاع رسول الله ﷺ أن يُربّي الناس في مدرسة النبوة تربية متكاملة ،

خُلُقِيَّة ونفسية وعملية واجتماعية . . وكان الإيمان أقوى وازع عن السقوط في الزلات الخُلُقِيَّة أو العَقَدِيَّة ، إلى جانب الشعور بالكرامة ، وعِزَّة النفس ، فلا خضوع إلا لله عز وجل ، ولا عبودية إلا له سُبحانه ، وَمَنْ عَبَدَ مِنْ دُونِهِ إلهاً فهو من الخاسرين .

فعن أبي موسى الأشعري قال: انتهينا إلى النجاشي ، وهو جالس في مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه ، وعمارة بن الوليد عن يساره ، والقسَّيسون جلوس سماطَيْن^(١) . وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك . فلما انتهينا بَدَرنا مَنْ عنده من القسَّيسين والرهبان: اسجدوا للملك ، فقال جعفر بن أبي طالب: لا نسجد إلا لله عز وجل^(٢) .

وكان الإيمان رادعاً عن السقوط في الزلَّات ، فإذا جمحت النفس ، وارتكبت ذنباً ، ولو كان في غياب الرقابة ، وبعيداً عن العيون ، فإن النفس المؤمنة تلوم صاحبها لوماً شديداً ، وتُعَنِّفه تعنيفاً كبيراً ، وتُشْعِرُه بوُخْز الضمير ، فيندفع للاعتراف بذنبه ، ولو نالته العقوبة مهما بلغت شدَّتْها فعذاب الدنيا أهون من عقاب الله عز وجل .

عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه: أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ، إني قد ظلمتُ نفسي ، وزَنَيْتُ ، وإني أريدُ أن تُطَهِّرَني . فردَّه . فلما كان من الغد أتى فقال: يا رسولَ الله ، إني زَنَيْتُ . فردَّه الثانية . فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: «أتعلمون بعقله بأساً تُنكرون منه شيئاً؟» . فقالوا: ما نعلمه إلا وفيَّ العقل من صالحينا فيما نرى . فأتاه الثالثة ، فأرسل إليهم أيضاً ، فسأل عنه ، فأخبروه: أنه لا بأس به ، ولا بعقله . فلما كان الرابعة: حَفَرَ له حفرةً ، فَرُجِمَ . فجاءت الغامديَّةُ فقالت: يا رسولَ الله إني قد زَنَيْت فطهرني . وإنه ردَّها فلما كان الغد قالت: يا رسولَ الله ، لِمَ ترَدَّنِي؟! لعلَّكَ أن ترَدَّنِي كما رَدَدْتَ مَاعِزاً؟! فوالله؛ إني لحبلى . قال: «إمَّا لا ،

(١) «سماطين»: جمع سِمَاط ، وهو الصَّنْفُ .

(٢) البداية والنهاية؛ لابن كثير (٦٨/٣) .

فأذهبي حتى تلدي». فلما ولدت أَتَتْ بالصَّبِي فِي خِرْقَةٍ. قالت: هذا قد ولدته. قال: «أذهبي فأرضعيه حتى تَفْطِميهِ». فلما فطمته أَتته بالصَّبِي فِي يَدِهِ كَسْرَةً خَبْزٍ، فقالت: هذا يا نَبِيَّ اللَّهِ، قد فطمته، وقد أَكَلَ الطَّعَامَ. فدفع الصَّبِي إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحْفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا. فَيَقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا، فَتَنْضَحُ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ». ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصُلِّيَ عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ^(١).

إِنَّ أَمْرًا يُقَدِّمُ نَفْسَهُ لِنِالِ عَقُوبَةِ الْمَوْتِ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُنْكَرَ مَا فَعَلَ، أَوْ يَتَرَجَّعَ عَنْ اعْتِرَافِهِ، فَيَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ الْمَحْقُوقِ، لَكِنَّهُ بَدَّافِعَ الْإِيمَانَ، وَالْوِازِعَ الدِّينِيَّ يَتَحَمَّلُ نَتَاجِ أَعْمَالِهِ؛ لَهُوَ إِنْسَانٌ قَدْ تَرَبَّى تَرْبِيَةً خَاصَّةً فَرِيدَةً، قَوَامُهَا الْإِرَادَةُ الصَّارِمَةُ، وَمَحَاسِبَةُ النَّفْسِ، وَالْإِنْصَافُ مِنْهَا فِي حَالِ وَقُوعِهَا فِي الْعَثَرَاتِ.

وإِنَّ أَمْرًا لَا يَنْحِنِي إِلَّا اللَّهُ سَاجِدًا مُطْمَئِنًّا، وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ عَالِيًّا، وَيُقِيمُ صَفْحَةَ عُنُقِهِ أَمَامَ مَلِكِ الْحَبْشَةِ، لَهُوَ إِنْسَانٌ قَدْ تَلَقَّى تَرْبِيَةً رَبَّانِيَّةً، تَسْتَهِينُ بِمَظَاهِرِ الدُّنْيَا، وَزَخَارِفِ الْمُلْكِ، وَلَا تَرْهَبُهَا وَجْهُ الْخَلْقِ مَهْمَا تَجَهَّمَتْ، وَقَطَّبَتْ حَاجِبَيْهَا.

أَمَّا الشُّجَاعَةُ النَّادِرَةُ، وَالْمَسَارَعَةُ إِلَى سَاحَاتِ الْكِفَاحِ؛ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ، وَنَشْرِ لَوَاءِ التَّوْحِيدِ، فَحَدَّثُ وَلَا حَرَجَ... فَقَدْ تَجَلَّتِ الْإِسْتِهَانَةُ بِالْحَيَاةِ زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَتَمَثَّلَتْ لَهُمُ الْآخِرَةُ، فَكَأَنَّهُمْ يَرُونَهَا بِأَمْعَيْنِهِمْ، وَيَتَحَسَّسُونَهَا بِأَنَامِلِهِمْ.

(١) رواه مسلم (١٦٩٥/٢٣) وأبو داود (٤٤٤٢) والنسائي في السنن الكبرى (٧١٦٧). «تنضح الدم»: تطاير متفرقاً. «مهلاً يا خالد»: كُفِّ عَنْ سَبِّهَا. «صاحب مكس»: هو الذي يأخذ من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الواجبات المالية بالقهر والجبر.

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه ، قال : سمعتُ أبي ، وهو بحضرة العدو ، يقول : قال رسولُ الله ﷺ : «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ» . فقام رجلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ فقال : يا أبا موسى ، أنتَ سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقولُ هذا؟ قال : نعم ، قال : فرجع إلى أصحابه ، وقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ فَأَلْقَاهُ ، ثم مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ ؛ فَضْرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ ^(١) .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : عَمِّي سُئِلْتُ بِهِ ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا ، فَشَقَّ عَلَيْهِ . وَقَالَ : أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غُيَّبْتُ عَنْهُ ، فَإِنْ أَرَانِي اللَّهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَيْسَ رَيْنَ اللَّهِ مَا أَصْنَعُ . قَالَ : فَهَابْ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا . فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ ، فَقَالَ لَهُ أَنَسُ : يَا أَبَا عَمْرٍو ، أَيْنَ؟ فَقَالَ : وَاهَاً لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ . فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ ، فَقَالَتْ أخته عَمَّتِي الرَّبِيعُ بنتُ النَّضْرِ : فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ . وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ... ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ^(٢) .

وبهذا الإيمان العميق ، والاندفاع اللامحدود ، بزغت شمسُ التربية النبوية في عالم الصحابة ، فتخرج أولئك الأفذاذ ذخائر بشرية يُشار إليها بالبنان ، بعد أن انبعثت فيها روحُ الإسلام ، فأثارت دفائنَها ، وأجَّجت مواهبها ، فامتشقت سيفَ الكرامة والعلم والفقه ، وأحيت النفوس ، وأملَّت على الدنيا كتابَ الحياة ، بعد أن كان الناسُ أجساماً نامية ، ونفوساً جامدة .

(١) رواه أحمد (٣٩٦/٤) ومسلم (١٩٠٢) والترمذي (١٦٥٩) .
«جَفْنَ سَيْفِهِ» : غَمَدَهُ .

(٢) رواه مسلم (٩٠٣) والترمذي (٣١٩٨ و٣١٩٩) .
«واهأ لريح الجنة» : أي : عجباً منه . «بنانه» : بأصابعه . «قضى نحبه» : قضى أجله على ما عاهد عليه .

قال عز وجل : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وقد أتبع رسولُ الله ﷺ وسائلَ كثيرة؛ حتى استطاع أن يُفجّر كوامن المؤمنين ، ويجعل الريّ يسقي الأرض العطشى ماءً سلسبيلًا ، عذبًا ، فراتًا ، فكانت الثمارُ ناضجةً يانعةً ، آتت أفضل الغلال عبر الأيام .

وكان ﷺ كالطبيب ، يُشخّص الداء ، ويصف له الدواء المناسب الناجع ، فاستطاع أن يرَبِّي أمةً ، ويوجّه الناس ، ويرشد المؤمنين ، بالكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والقُدوة الصالحة .

ويمكنُ أن نشيرَ إلى أهم تلك الوسائل التربوية ؛ التي استخدمها النبي ﷺ في تربيته ؛ ومنها :

أ- القُدوة الحسنة ، والأسوة الصالحة في الأقوال والأعمال :

وهذه الوسيلة تأتي في قَمّة الوسائل التربوية ، وأهمها على الإطلاق ؛ لأنها تربية بالعمل والواقع والمثال الحي المشاهد . وقد كان ﷺ القُدوة الصالحة في كل برّ ، وطاعة ، وخير ، وإحسان ، وصلاح ، ومكرمة ، وكان رائدًا في كل مجال ، وسيرته النبوية عَظْرَةٌ بالقول الصائب ، والعلم البارّ ، والمشاركة الوجدانية للصحابة - رضي الله عنهم - .

قال الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ووردت هذه الآية في سياق الحديث عن غزوة الأحزاب ، حيث خرجتُ جموعُ المشركين تريد القضاء على المسلمين ، فلما سمع رسولُ الله ﷺ بأمرهم ، أمر بحفر الخندق حول المدينة ، وعمل فيه مع الصحابة يدًا بيد ، ومعاونًا بمعاون .

وجاءت الجموعُ الحاشدة الحاقدة ، وضربت معسكرها حول المسلمين ، فالمشركون يحاصرون المدينة ، والمنافقون واليهود ينصبون شباك التآمر

داخل المدينة ، حتى اشتدَّ الأمرُ على المسلمين ، وعظم الخوف ، وزُلْزِلَ الناسُ زلزالاً كبيراً ، حتى ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت . واستمر هذا الأمرُ قرابةَ شهر ، وكانت النتيجة أن خذل اللهُ المشركين ، وردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً .

وعلى الرغم مما أصاب المسلمين في غزوة الأحزاب من الهول والضيقة والرعب ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان ملاذاً آمناً لهم ، ومنبعاً للثقة ، ومصدراً للاطمئنان ، فقد كان مع الصحابة في كل موقف ، ضَرَبَ بالفأس ، وجَرَفَ بالمسحاة ، وحَمَلَ التراب في المِكْتَل .

قال ابنُ إسحاق: وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجلٍ من المسلمين ، يُقال له جُعَيْل ، سَمَّاه رسول الله ﷺ عَمْرًا ، فقالوا: سَمَّاه مِنْ بَعْدِ جُعَيْلِ عَمْرًا وكان للبائس يوماً ظَهْرًا فإذا مَرُّوا بـ (عمرا) قال رسولُ الله ﷺ: عَمْرًا ، وإذا مَرُّوا بـ (ظهرا) قال رسول الله ﷺ ظَهْرًا^(١) . فشارك ﷺ المرتجزين في الترجيع ، إذ ردَّد أواخر البيت .

كما شارك رسولُ الله ﷺ الصحابة بقوله في غزوة الأحزاب ، فكانت كلماته تنساب في النفوس رضا ، واستبشاراً ، وتضيء قلوبهم بمزيدٍ من العمل والدأب والصبر العنيد .

قال ابنُ إسحاق: وحُدِّثُ عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربْتُ في ناحية من الخندق ، فَعَلَّطْتُ عليَّ صخرةً ، ورسولُ الله ﷺ قريبٌ مني ؛ فلما رَأَني أَضْرَبُ ، ورأى شِدَّةَ المكانِ عليَّ ، نَزَلَ فأخذ المعولَ من يدي ، فضرب به ضربةً لمعَتْ تحت المعولِ برقةٌ ، ثم ضرب به ضربةً أخرى ، فلمعَتْ تحته برقةٌ أخرى ، ثم ضَرَبَ به الثالثة ، فلمعَتْ تحته برقةٌ أخرى .

(١) السيرة النبوية (٢/٢١٧) .

«ظهراً»: قوة ومنعة .

قال سلمان: قلتُ: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله ، ما هذا الذي رأيْتُ تحت المِعْوَلِ وأنت تضرب؟ قال: «أَوْقَدْ رأيْتَ ذلك يا سَلْمَانُ؟!». قال: قلتُ: نعم. قال: «أَمَّا الأُولَى فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا اليَمَنَ ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ والمَغْرِبَ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا المَشْرِقَ»^(١).

ولَمَّا عاد حذيفةُ بن اليمَان من استطلاع خبر المشركين في غزوة الأحزاب ، وَجَدَ رسولَ الله ﷺ يصلي ، فقال: رجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو قائمٌ يصلي في مِرْطٍ^(٢) لبعض نسائه ، مراجل^(٣). فلما رآني أدخلني إلى رِجْلَيْهِ ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ المِرْطِ ، ثم ركع وسجد ، وإني لَفِيهِ ، فلما سَلِمَ أَخْبَرْتُهُ الخبر^(٤).

فلم يتركْ ﷺ حذيفةَ يرتعش من البرد ، بل أدفأه بكلِّ حنان وشفقة. وَنَبَّهَ ﷺ الصحابةَ إلى ضرورة الاقتداء به ، وَأَخَذَ العبادات عنه ، وتمثلها كما يُؤدِّيها ، فقال عليه الصلاة والسلام: «صَلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي»^(٥). وقال أيضاً: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكُكُمْ»^(٦).

وكان ﷺ قدوةً حسنةً في كلِّ خُلُقٍ ، وَصِفَةٍ ، وَأَدَبٍ . . . فكلُّ حليم عُرِفَتْ له سقطة أو هفوة ، لكنه ﷺ ما كانت كثرة الأذى من قِبَلِ الضالين تزيده إلا صَبْرًا وَثَبَاتًا وِيقِينًا ، وحلمًا على الجاهل ، وصفحاً عن المؤذي.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما رأيْتُ رسولَ الله ﷺ مُتَّصِرًا من

(١) السيرة النبوية؛ لابن هشام (٢/٢١٩).

(٢) «مِرْط»: كساء.

(٣) «مراجل»: نوع من وشي اليمن.

(٤) السيرة النبوية؛ لابن هشام (٢/٢٣٣).

(٥) رواه البخاري (٦٣١) ومسلم (٦٧٤).

(٦) رواه أحمد (٣/٣١٨) والنسائي (٥/٢٧٠).

مَظْلَمَةٍ ظَلَمَهَا قَطُّ؛ ما لم تُنتهك حرمةٌ من مَحَارِمِ الله ، وما ضَرَبَ بيده شيئاً قَطُّ إلا أن يُجاهد في سبيل الله ، وما ضَرَبَ خادماً ، ولا امرأة^(١) .

وجيء إليه برجل ، فقيل : لقد أراد أن يقتلك ، فقال ﷺ : «لن تُراع ، لن تُراع . ولو أردت ذلك لم تُسلط عليّ»^(٢) .

ومن لا يذكر إساءة مشركي مكة للنبي وصحبه؟! ومع ذلك أبدى لهم قمة الحلم ، وعظمة الخلق النبوي ، وعندما فَتَحَ الله عليه ذلك البلد ، قال مخاطباً لهم : «ما تقولون أني فاعلٌ بكم؟» . قالوا : خيراً ، أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم . فقال : «أقولُ كما قال أخي يوسف : ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»^(٣) .

أمّا جوده ﷺ وكرمه وسخاؤه وسماحته العظيمة ، فكانت لا تُوازي ولا تُضاهي ولا تُبارى ، ومنها اقتبس المسلمون مفهوم الكرم ، فنعمت التربية ، ورضي الله عن المتعلمين .

فعن أنس - رضي الله عنه - : أن رجلاً سأل رسولَ الله ﷺ ، فأعطاه غَنَمًا بين جبلَين ، فرجع إلى قومه ، قال : أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ^(٤) .

وشَهِد الأعداءُ بتفوق رسول الله ﷺ في كل ميدان ، وها هو النَّصْر بن الحارث - أشدَّ القرشيين عداوةً للنبي ﷺ - يقول لمشركي قريش : قد كان فيكم محمد وهو غلامٌ حَدَثٌ؛ أرضاكم خُلُقاً ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧ و ٢٣٢٨) .

(٢) ذكره القاضي عياض في كتابه «الشفاء» (١/٢٢٦) .
«لا تُراع» : لا تخف .

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/٢٨) .

(٤) رواه أحمد (١٠٨/٣) ومسلم (٢٣١٢) .

أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغَيْهِ الشَّيْبَ ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم :
ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر .

ب - الطريقة التعليمية المباشرة والاستنتاجية والاستقرائية :

اتَّبَعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أكثرَ من طريقةٍ لتعليمِ الناسِ ، وتربيتهم ، وإيصالِ
المعلومة إليهم ؛ مِنْ أَجْلِ تنفيذها واقعاً عملياً ملموساً . ونستطيع أن نشير إلى
ثلاث طرائق ، فالأولى : الطريقة التقريرية ، وتقوم هذه الطريقة على التعليم
المباشر ، حيث ينتقل الفكرُ من الحقيقة العامة إلى الحقائق الجزئية ، ومن
القانون العام إلى الحالات الخاصة ، ومن الكلي إلى الجزئي ، ومن المبادئ
إلى النتائج . وهي طريقة سهلة ، سريعة الأداء ، تُقدِّم المعلومات عن طريق
التلقين . وهي تصلح للصغار خاصة . والأمثلة عليها كثيرة ، منها :

- «يا غلام ، سَمَّ الله ، وَكُلَّ بيمينك ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ»^(١) .

- «يا غلام ، إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كلمات : أَحْفَظِ اللهَ يَحْفَظُكَ . أَحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ
تَجَاهُكَ . إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ
اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ
اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ،
رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢) .

- «يا أهلَ القرآنِ أَوْثَرُوا ؛ فَإِنَّ اللهَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثَرَ»^(٣) .

- «يا أَيُّهَا النَّاسُ ، تُؤْبُوا إِلَى اللهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ
الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا ، وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ ،

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦) .

(٣) رواه أبو داود (١٤١٦) .

وكثرة الصدقة في السر والعلانية تُرزقوا ، وتُنصروا ، وتُجبروا . واعلموا
أن الله افترض عليكم الجمعة»^(١) .

- «يا عائشة ، استتري من النار؛ ولو يشق ثمرة؛ فإنها تسد من الجائع
مسدّها من الشُّبعان»^(٢) .

- «يا كعب بن عُجرة ، الصلاةُ قُربان ، والصيامُ جُنة ، والصدقةُ تُطفئ
الخطيئة كما يُطفئ الماء النار . يا كعب بن عُجرة ، الناسُ غاديان ، فبائع
نفسه فموبق رقبته ، ومبتاع نفسه في عتق رقبته»^(٣) .

- «يا كعب ، إذا كنت في المسجد فلا تُشبكَنَّ بين أصابعك ، فأنت في
صلاة ما انتظرت الصلاة»^(٤) .

- «يا معاذ ، أحسنْ خُلُقَكَ للناس»^(٥) .

- «يا معشر المسلمين ، لا صلاةَ لمن لا يقيمُ صلَّته في الركوع
والسُّجود»^(٦) .

وهذه الطريقة جيدة ، تعتمد على الحفظ ، والتذكُّر عند اللزوم ، وتقوم
التربية من خلال التلقين بتدريب العقول ، وشحذها بجمع المعلومات
المجرّدة ، إلى جانب القدرة الفذة لرسول الله ﷺ في التأثير من خلال الإلقاء
الشخصي ، فيهب الموقف حياةً ونشاطاً؛ حيث تتحفز المشاعر ، وتستعدّ
القوى النفسية لتلقّي المعلومات من أجل التنفيذ في حيّز الواقع .

(١) رواه ابن ماجه (١٠٨١) والأصبهاني في الترغيب والترهيب (٩١٧) .

(٢) رواه أحمد (٧٩/٦) وانظره في مجمع الزوائد (١٠٥/٣) .

(٣) رواه أحمد (٣٢١/٣ و ٣٩٩) والحاكم (٤٢٢/٤) وأبو يعلى (١٩٩٩/٣) .
«جُنة»: وقاية .

(٤) رواه أحمد (٢٤٣/٤) .

(٥) رواه مالك في الموطأ (٩٠٢/٢) .

(٦) رواه أحمد (٢٣/٤) وابن ماجه (٨٧١) وابن خزيمة (٣٣٣/١) وابن حبان
(١٨٨٨) .

كما استخدم رسول الله ﷺ الطريقة الاستنتاجية في التربية والتعليم ، وهي البدء بسؤال يسترعي الانتباه ، ويشير الاهتمام ؛ لترسيخ الحكم المطلوب إirاده وتعزيزه في نفس السامع .

فعن الحارث بن عمرو ، عن رجالٍ من أصحاب معاذ: أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَثَ معاذًا إلى اليمن ، فقال : «كيف تقضي؟» فقال : أقضي بما في كتاب الله . قال : «فإن لم يكن في كتاب الله؟!» قال : فبِسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ . قال : «فإن لم يكن في سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ؟!» قال : أجتهد رأيي . قال : «الحمد لله الذي وَفَّقَ رسولَ رسولِ الله ﷺ»^(١) .

وعن المغيرة بن عبد الله الجعفي قال : جَلَسْنَا إلى رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ يقال له خُصْفَةُ بن خُصْفَةَ ، فجعل ينظرُ إلى رجلٍ سمين ، فقلتُ له : ما تنظرُ إليه؟ فقال : ذكرتُ حديثًا سمعتهُ من رسولِ الله ﷺ ، سمعتهُ يقول : «هل تدرون ما الشديد؟» قلنا : الرجلُ يَصْرَعُ الرجل . قال : «إنَّ الشديدَ كُلَّ الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب . تَذُرُونَ ما الرَّقُوبُ؟» قلنا : الرجلُ الذي لا يُؤْلَدُ له . قال : «إنَّ الرقوبَ الرجلُ الذي له الولد ، لم يُقَدِّمَ منهم شيئاً» . ثم قال : «تدرون ما الصُّغْلُوكُ؟» قال : قلنا : الرجلُ الذي لا مالَ له . قال : «إنَّ الصُّغْلُوكَ كُلَّ الصُّغْلُوك الذي له المال لم يُقَدِّمَ منه شيئاً»^(٢) .

فأراد ﷺ عن طريق طَرَحِ السؤال ؛ استخراجَ ما في نفوس السامعين من معلومات ومعارف ، فلما تبيَّن أنها تدلُّ على حقيقة الأمر ، علَّمهم دقة التفكير ، وعمَّق التأمل ؛ وصولاً إلى استخراج الحقائق ، وردِّ الأمور إلى كُنْهها وقرارها . واستخدم أسلوبَ السؤال ليثير مزيداً من الاهتمام والنشاط والحيوية في التفكير ولَفَّت الانتباه .

(١) رواه أحمد (٢٣٠/٥) وأبو داود (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) .

(٢) رواه أحمد (٣٦٧/٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٤١) وانظره في مجمع الزوائد (١١/٣) والإصابة ترجمة (٢٢٦٨) .

كذلك استخدم ﷺ ما يُسمَّى بالطريقة الاستقرائية ، حيث يتمُّ الانتقال من الجزئي إلى الكلّي ، ومن الخاص إلى العام ، ومن المعلوم إلى المجهول . وهي طريقة حسنة ؛ إذ تشجّع المتعلّمين على التفكير المنظّم ، واستنباط المعلومات ، ومعرفة الحقائق دون تعجّل .

ومن الأمثلة على هذه الطريقة ما رواه أبو أمامة قال : إنّ فتى شاباً أتى النَّبِيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لي بالزنى . فأقبل القوم عليه ، فرجوه ، وقالوا : مَهْ ، مَهْ . فقال : « ادنه » . فدنا منه قريباً ، قال : فجلس . قال : « أتحبّه لأمك ؟ » قال : لا ، والله ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ . قال : « ولا النَّاسُ يَحِبُّونَهُ لَأُمّهَاتِهِمْ » . قال : « أَتحبّه لابنتك ؟ » قال : لا ، والله ، يا رسول الله ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ . قال : « ولا النَّاسُ يَحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ » . قال : « أَتحبّه لأختك ؟ » قال : لا ، والله ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ . قال : « ولا النَّاسُ يَحِبُّونَهُ لَأَخَوَاتِهِمْ » . قال : « أَتحبّه لعمتك ؟ » قال : لا ، والله ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ . قال : « ولا النَّاسُ يَحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ » . قال : « أَتحبّه لخالتك ؟ » قال : لا ، والله ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ . قال : « ولا النَّاسُ يَحِبُّونَهُ لَخَالَاتِهِمْ » . قال : فوضع يده عليه ، وقال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » . فلم يكنِ الفتى بعد ذلك يلتفتُ إلى شيء^(١) .

وأراد ﷺ أن يحثَّ النَّاسَ على تقديم ما يُمكن تقديمه من المال في وجوه البرِّ والقربة ؛ لينتفع به في الآخرة ، فإن كلَّ شيء يُخلِّفه الموروثُ يصيرُ ملكاً للوارث ، فإنَّ عمل فيه بطاعة الله ، اختصَّ بثواب ذلك ، وكان الأول هو الذي تعب في جمعه ومنّعه ، وإنَّ عمل فيه بمعصية الله ، فذاك أبعدُ لمالكة الأول من الانتفاع به إنَّ سلم من تبعته^(٢) .

فعن عبد الله بن مسعود قال : قال النَّبِيُّ ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ

(١) رواه أحمد (٢٥٧/٥) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٩) .

(٢) فتح الباري (١١/٢٦٠) .

من ماله؟» قالوا: يا رسول الله ، ما مِنَّا أحدٌ إلا ماله أحبُّ إليه . قال : «فإنَّ ماله ما قدَّم ، ومالٌ وارثه ما أُخَّر»^(١) .

وهذه الطريقة الاستقرائية تثير قوة التفكير ، وتأخذ بأيدي المتعلِّمين شيئاً شيئاً حتى يصلوا إلى الحقيقة^(٢) .

كما أنها تُحرِّك الدوافع النفسية لدى المتعلِّم ، فيهتم اهتماماً بالغاً ، فينتبه ، ويفكر ، ويعمل^(٣) .

ج - الطريقة التعليمية غير المباشرة:

إنَّ الإنسانَ قد يُصاب بفترات وهن وضعف ، فيحسُّ بالكآبة تنتابه من كل جانب ، ويعتصره الهمُّ ، فلا يُبقي له مجالاً للتفكير ، ويحارُّ في أمره ، ويُفتش عن الحلول الحاسمة ، فلا يجد المفتاح المناسب .

وفي هذه القضية لا بُدَّ من إيجاد مخرجٍ سليمٍ ؛ للتغلُّب على المشكلة الطارئة ، ورسم منهاجٍ جديدٍ لتهدأ النفس ، وتستمر في رحلة العمل والعطاء .

إنَّ مثل هذه الحالة حدثت زمنَ رسول الله ﷺ ، فعن أبي سعيد الخدري قال : دخل رسولُ الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجلٍ من الأنصار ، يُقال له أبو أمامة ، فقال : «يا أبا أمامة ، مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟!» قال : همومٌ لزممتني وديونٌ يا رسولَ الله . قال : «أفلا أعلمك كلاماً إذا قُلْتُهُ أذهب اللهُ عز وجلَّ همَّك ، وقضى عنك دينك؟!» قال : قلتُ : بلى يا رسولَ الله . قال : «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجُبْن

(١) رواه أحمد (٣٨٢/١) والبخاري (٦٤٤٢) والنسائي (٢٣٧/٦ - ٢٣٨) .

«ما قدَّم» : أي : في حياته . «ما أُخَّر» : أي بعد موته .

(٢) علم النفس وآثاره في التربية والتعليم ؛ لعلي الجارم ومصطفى أمين (٢١٦) .

(٣) التربية وطرق التدريس ، لحسن الحريري وآخرين (٩٣) .

والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدَّيْنِ وَقَهْر الرِّجَالِ». قال : ففعلتُ ذلك ، فأذهب الله عز وجل همِّي ، وقَضَى عَنِّي دَيْنِي^(١).

ولا يُفْهَمُ من الحديث أنَّ أبا أمانة ظلَّ رافعاً يديه يدعو حتى قُضِيَ دَيْنُهُ ، أو أنه اكتفى بالاستعاذة وقبِع في زاوية البيت أو المسجد متواكلاً. فالإسلام يحارب البطالة ، ويشحن الأوقات بالواجبات ، ويدعو للعمل والإنتاج والإتقان ، ويجعل العمل يطرد القلق ، ويسدُّ ثغرات الفراغ.

يَبْدُ أنَّ الإسلامَ يربطُ المؤمنَ بالله المهيمن على الكون ؛ ليسأله بضراعة ، وليستعين بالله سُبْحانه على مواجهة معاناة الحياة ومشقَّاتها. فالضراعة والاستعاذة تزيد من قوة الإنسان الروحية ، وتنمِّي نشاطه ، مما يعودُ عليه بأفضل النتائج ؛ عندما ينطلقُ من جديد في رحاب الحياة ، يعمل ، ويصنع ، ويتاجر ، ويتعلَّم... فإذا بالضراعة تربي النفس ، وإذا بالسعي يسدُّ الحاجة ، ويزيد في الإنتاج.

وكأنَّ رسولَ الله ﷺ يريد أن يقولَ لأبي أمانة: وهل يُذهِبُ جلوسُك في المسجد في غير وقت الصلاة همومَكَ؟! أو يقضي دَيْنَكَ؟! ومن الكسل والخمول والجُبْن والعجز أن تترك البحثَ عن عملٍ مشروع ، وكَسْبِ حلال ، تسدُّ به دَيْنَكَ ؛ فينفرج همُّكَ.

ولو قال له ذلك لنفِّره ، وجَرَحَ شعوره ، ولكن رسول الله ﷺ ربَّاه تربية غير مباشرة ، فدعاه إلى الاتصال بالله ، والاستعاذة من الكسل وما يجزُّ إليه ، ففهم أبو أمانة أن الرسول ﷺ يدعوهُ إلى البحث عن عملٍ بطريقة غير مباشرة ، انطوَّت في دعاء جميل يدعو به ربُّه ، فسارع أبو أمانة إلى أن يكسبَ من عرق جبينه ، وكدِّ يمينه ، فرزقه الله تعالى من ذلك رِزْقاً قَضَى به ديونه ، وعاش مكتفياً مسروراً ، لا يحتاجُ أن يسألَ الناسَ أعطوه ، أو منعوه^(٢).

(١) رواه أبو داود (١٥٥٥).

(٢) الأطفال بهجة الحياة وأمل المستقبل ؛ لهشام الحمصي (١٧ - ١٨).

د - التربية العملية الواقعية :

تتَّصف التربية النبوية بأنها عملية ، تعالج المشكلات القائمة في الواقع بروح الإسلام . ونشاطُ الأفراد لا يقتصر على استقدام الخير لأنفسهم ، بل يمتدُّ ذلك النشاط ليساعد الآخرين ، ويؤاسيهم بالأعمال الجليلة ، والأخلاق الماجدة .

عن أبي موسى : أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : «على كُلِّ مسلم صدقة» قيل : أَرَأَيْتَ إِنْ لم يجد؟ قال : «يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» . قيل : أَرَأَيْتَ إِنْ لم يستطع؟ قال : «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» . قيل : أَرَأَيْتَ إِنْ لم يستطع؟ قال : «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ» . قيل : أَرَأَيْتَ إِنْ لم يفعل؟ قال : «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صدقة»^(١) .

فَمَنْ لم يستطع أن ينفع الآخرين ، أو يساعدهم ، فليلزم خاصَّة نفسه ، ويترك الأذى والشر ، ويتمسك بذلك لعلَّه ينجو يوم القيامة .

إن معالم السلوك في الإسلام عملية ، نلمسُ فيها المروءة ، وثُبل الخِصال ، وكرم الخلال ، والتربية النبوية تدفع المرء ليؤدي رسالته في الحياة ، فهو ليس عضواً أشلَّ ، ولا امراً فاسداً ، بل ينفع نفسه ، ويحبُّ النفع للآخرين ، ويحقق الصالح العام ، ويودُّ نجاح المقاصد ، وتجسيد السعادة .

ومن هنا لفتت التربية النبوية بوسيلة عملية مَنْ لم يملك المال ليتصدق به ، ويُحسِّن إلى المحتاجين والمعوزين ، فعليه أن يتحسَّس حاجات المجتمع ، وينهض مندفعاً يؤدي واجباته ، ويستعدُّ لتنفيذ ما يُكلَّف به .

فعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة» . قلت : يا رسول الله ، من أين أتصدق ،

(١) رواه البخاري (١٤٤٥) ومسلم (١٠٠٨) .

وليس لنا أموال؟! قال: «مِنْ أبواب الصدقة: التكبير ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وأستغفر الله . وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوكة عن طريق الناس ، والعَظْمَ ، والحجرَ ، وتهدي الأعمى ، وتُسمع الأصمَّ والأبكمَ حتى يفقه ، وتدللَّ المستدلَّ على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدَّةٍ ساقبك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدَّةٍ ذراعك مع الضعيف . كلُّ ذلك من أبواب الصدقة منك على نَفْسِكَ»^(١).

ولعلَّ القارىء الكريم يذكر قصَّة ذلك الصحابي؛ الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله مالاً ، فرأى فيه فتوَّة ، وشباباً ، وقوَّة ، فلم يُعطه شيئاً ، ودلَّه على عملٍ يقتات منه ، ويُطعم عياله ، وتحسَّن أحواله المعيشية .

عن أنس بن مالك: أنَّ رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ يسأله ، فقال: «لَكَ في بيتك شيء؟» قال: بلى ، جِلْسٌ نَلْبَسُ بعضه ، ونَبْسُطُ بعضه ، وَقَدْخٌ نشربُ فيه الماء . قال: «اثنتي بهما» . فأخذهما رسولُ الله ﷺ بيده ، ثم قال: «مَنْ يشتري هذين؟» فقال رجل: أنا آخذُهما بدرهم . قال: «مَنْ يزيدُ على درهم؟» - مرَّتين أو ثلاثاً - . قال رجلٌ: أنا آخذُهما بدرهمين . فأعطاهما الأنصاريُّ ، وقال: «اشترِ بأحدهما طعاماً فانبِذْهُ إلى أهلِكَ ، واشترِ بالآخر قَدُوماً ، فاثنتي به» ففعل ، فأخذهُ رسولُ الله ﷺ ، فَشَدَّ فيه عُوداً بيده ، وقال: «اذْهَبْ فَاخْتِطِبْ ، ولا أراكَ خمسةَ عَشَرَ يوماً» . فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ ويبيعُ ، فجاء وقد أصاب عَشْرَةَ دراهم ، فقال: «اشترِ ببعضها طعاماً ، وبيع بعضها ثوباً» . ثم قال: «هذا خيرٌ لَكَ مِنْ أن تجيءَ والمسألة نُكْتَةٌ في وجهك يومَ القيامة . إِنَّ المسألةَ لا تَصْلُحُ إلا لذي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أو لذي غُرْمٍ مُفْطِعٍ ، أو دَمٍ مُوجِعٍ»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٦٨/٥ - ١٦٩).

(٢) رواه أبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٩٨).

«جِلْسٌ»: كساء يلي ظهر البعير ، يُفَرَّشُ تحت القتب . «انبِذْهُ»: أَلْقِهِ . «نُكْتَةٌ»: =

وَيَذْكُرْنَا هَذَا الْحَدِيثُ بِمَا جَرَىٰ مَعَ مَدْرَسِ التَّربِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فِي إِحْدَى مَدَارِس دِمَشْقَ ، إِذْ جَاءَهُ أَحَدُ النَّاسِ يَطْلُبُ صَدَقَةً ، وَحَدَّثَهُ بِأَحْوَالِهِ الْمَعِيشِيَّةِ الْبُيُوتِيَّةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَدْرَسُ حَكِيمًا عَاقِلًا ، إِذْ اسْتَأْجَرَ عَرَبِيَّةً لِبَيْعِ الْفُولِ الْمَسْلُوقِ عَلَى أَنْ يَتَمَّ دَفْعُ الْأَجْرَةِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ مِنَ التَّأْجِيرِ ، وَقَالَ لِلْسَّائِلِ : هَذِهِ الْعَرَبِيَّةُ ، وَهَذِهِ أَدَوَاتُ الْبَيْعِ ، وَهَذَا هُوَ الْفُولُ اللَّازِمُ عَنِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَبِيعَ وَتَأْتِنِي مَسَاءً . وَهَكَذَا جَرَى الْأَمْرُ . وَلَمْ تَمْضِ إِلَّا مَدَّةٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى اكْتَفَى الرَّجُلُ بِعَمَلِهِ ، وَتَحَسَّنَتْ أَحْوَالُهُ ، وَسَرَّ أَوْلَادُهُ وَزَوْجُهُ ، وَدَعَا لِلْمَدْرَسِ بِالْتَوْفِيقِ .

هـ - حُسْنُ التَّصَرُّفِ :

كَلَّمَا قَرَأْنَا سِيرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَرَأْنَا عَنْ تَصَرُّفَاتِهِ الْحَسَنَةِ ، وَأَخْلَاقِهِ الْعَظِيمَةِ ، أَزْدَادَتْ مَحَبَّتَنَا لَهُ ﷺ ، وَوَجَدْنَا أَنَّ عِظَمَاءَ الْعَالَمِ ، وَحُكَمَاءَهُ ، وَعُقَلَاءَهُ . إِنْ هُمْ إِلَّا نَقْطَةٌ فِي بَحْرِهِ ، وَغِيضًا مِنْ فَيْضِهِ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ السَّلَامِ .

وَيَسِّرُنَا أَنْ نَشِيرَ هُنَا إِلَى وَسِيلَةِ تَرْبِيَةِ نَبَوِيَّةٍ ، مَلُؤَهَا الْحِكْمَةُ ، وَإِهَابُهَا حَسَنُ التَّصَرُّفِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، اسْتَقْبَلَهُ الْمُسْلِمُونَ بِفَرَحٍ غَامِرٍ ، وَحُبٍّ عَمِيقٍ ، وَكُلُّ مَنْهُمْ يَطْلُبُ شَرَفَ نَزْوِلِهِ ﷺ عِنْدَهُ . وَكَانَ ﷺ كَلَّمَا دَعَاهُ أَنَسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلنَّزُولِ فِي دَارِهِمْ ، وَأَمْسَكُوا بِزِمَامِ النَّافَةِ ، خَاطِبُهُمْ بِقَوْلِهِ : «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» . حَتَّى بَرَكَبَ النَّافَةُ أُمُّ مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ، فَانْصَرَفَ النَّاسُ رَاضِينَ^(١) .

وَلَوْ اخْتَارَ ﷺ النَّزُولَ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الَّذِينَ دَعَوْهُ ، لَحَزَنَ الْبَاقُونَ ، وَامْتَعَضُوا ، وَوَجَدُوا فِي نَفْسِهِمْ وَجْدًا كَبِيرًا . وَلَكِنَّهَا التَّربِيَةُ النَّبَوِيَّةُ الْمُتَّسِمَةُ بِالْحِكْمَةِ وَالتَّعَقُّلِ .

نفقة . "مدق" : شديد . "دمع موجد" : هو أن يتحمل دية فيسعى فيها حتى يؤديها إلى أوبىء المقتول ، فإن لم يؤدها قُتِلَ المحتمل عنه ، فيوجعه قتله .

(١) السيرة النبوية (١/ ٤٩٤ - ٤٩٦) .

وموقف آخر ذكره الصحابيُّ الجليلُ ابنُ عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال :
«عُرِضْتُ عَلَى الْأُمَمِ ، فرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ
وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ
أُمَّتِي ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ ، فَانْظُرْتُ فَإِذَا
سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي :
هَذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ . ثُمَّ
نَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا
بِاللَّهِ . وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ . فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : «مَا الَّذِي تَخُوضُونَ
فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ ،
وَلَا يَنْطَيِّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» . فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِخْصَنٍ فَقَالَ : ادْعُ اللَّهَ
أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ ، فَقَالَ : «أَنْتَ مِنْهُمْ» . ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ ، فَقَالَ : ادْعُ اللَّهَ أَنْ
يَجْعَلَني مِنْهُمْ ، فَقَالَ : «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»^(١) .

وفي جواب رسول الله ﷺ حكمة بالغة أَرْضَتِ السَّائِلَ ، وَقَطَعَتِ
الطَّرِيقَ عَلَى غَيْرِهِ أَنْ يَسْأَلَ تَنْيَلُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةَ . قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ : وَلَمَّا
لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْقَائِمِ بَعْدَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ - قُوَّةُ الْيَقِينِ ، وَشِدَّةُ
الْحِرْصِ عَلَى الْخَيْرِ ، وَالرَّغْبَةُ فِيْمَا عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ - مَا كَانَ عِنْدَ عَكَاشَةَ ،
قَالَ لَهُ : «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» . فَلَمَّا يَطْلُبُ كُلُّ مَنْ هُنَاكَ مَا طَلَبَهُ عُكَّاشَةُ
وَالرَّجُلُ الْآخَرُ ، وَيَتَسَلَّلُ الْأَمْرُ ، فَسَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْبَابَ بِمَا قَالَ
لِعُكَّاشَةَ^(٢) .

وقال ابنُ بَطَالٍ : مَعْنَى قَوْلِهِ : «سَبَقَكَ» أَي : إِلَى إِحْرَازِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ،

(١) رواه البخاري (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠) .

«سواد عظيم» : أشخاص كثيرة .

(٢) المفهم (٤٦٩/١) .

وهي: التوكل ، وعدم التطير ، وما ذكر معه ، وعدَل عن قوله: لست منهم ، أو لست على أخلاقهم ؛ تَلَطُّفاً بأصحابه ﷺ وحُسن أدبه معهم .

وقال ابنُ الجوزي: يظهرُ لي أنَّ الأول سأل عن صِدْقِ قلبِ فأجيب ، وأما الثاني فيحتمل أن يكون أريد به حَسَمُ المادة ، فلو قال للثاني نعم ؛ لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى ما لا نهاية ، وليس كلُّ الناس يصلح لذلك^(١).

ونستطيع أن نشير إلى حِكْمَتِهِ ﷺ ، وحُسن تصوُّفه ، وتذكيره الآخرين بضرورة الالتزام بالحلم ، والرفق ولو مع الكُفَّار!

فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: قلتُ: يا رسول الله ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وهي راغبةٌ أو رَاهِبَةٌ ، أَفَأَصِلُهَا؟ قال: «نَعَمْ ، صِلِي أُمَّكَ»^(٢).

كما أنَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أرسل هديةً إلى أخيه من أمه عثمان بن حكيم ، وكان مشركاً ، ولم يُنكر عليه رسولُ الله ﷺ.

فعن عبد الله بن عمر: أنَّ عمر بن الخطاب رأى حُلَّةَ سِيرَاءٍ عند باب المسجد فقال: يا رسولَ الله ، لو اشتريتَ هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قَدِمُوا عليك ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هذه مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الآخِرَةِ». ثم جاءت رسول الله ﷺ منها حُلَّةٌ ، فأعطى عمرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - منها حُلَّةً ، فقال عمر: يا رسولَ الله ، كَسَوْنِيهَا وَقَدْ قُلْتَ فِي حُلَّةِ عَطَارِدٍ مَا قُلْتَ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أَكُكَّهَا لِتَلْبَسَهَا»^(٣). فكساها عمرُ بن الخطاب أخاه له بمكة مُشْرِكاً.

(١) فتح الباري (١١/٤١٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٩) ومسلم (١٠٠٣).

«أُمِّي»: هي قتيلة بنت عبد العزى العامرية. «راغبة»: أي: راغبة عن الإسلام ، كارهة فيه.

(٣) رواه البخاري (٨٨٦) ومسلم (٢٠٦٨).

«سِيراء»: مخططة بالحريز. «عطارد»: هو ابن حاجب التميمي ، صاحب الحلة.

وفي الحديثين السابقين جواز صلة ذوي القربى المشركين ، والإحسان إليهم ؛ لعلّ ذلك يكون سبباً لإسلامهم ، وهذا ما حَدَّثَ في الواقع إذ أسلمت والدَةُ أسماء ، وعثمان أخو عمر . وهذه حكمة نبوية وحُسن تصرف ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .



القسم الثاني

تربية الأطفال

في رحاب الأسرة والمجتمع

الباب الأول: دور الأسرة في تربية الأطفال.
الباب الثاني: حقوق الأطفال وواجباتهم.
الباب الثالث: مشكلات الطفولة والمراهقة وحلولها.

الباب الأول

دور الأسرة

في تربية الأطفال

الفصل الأول: اختيار الزوجة ورعاية الطفل منذ الصغر.

الفصل الثاني: بناء الفكر والعقيدة والجسم عند الطفل.

الفصل الثالث: العبادات في حياة الطفل.

الفصل الرابع: ثقافة الطفل والقُدوة الحسنة.

الفصل الأول

اختيار الزوجة ورعاية الطفل منذ الصغر أولاً: منهج تربية الأطفال

حُسْنُ اختيار الزوجة :

إنَّ مَنْ يقصد الوصول إلى هدف ما ، لابدَّ أن يختار الطريق السليم الذي يريحه في مسيره ، ويحقق له الاطمئنان والسكينة ، ويُشعره بجودة اختياره ، وصلاح انتقائه ؛ وبالتالي يُبَعِّدُ عن نفسه المتاعب ، ويريح ذاته من المشقَّات والمصاعب .

وليس من أمرٍ يحقق ذاتية الإنسان ، ويقوِّي شخصيته ، ويجعله مستقلَّ الإرادة ، ماضي العزيمة ، مثل اختيار شريكة حياته ، وأم أطفاله ، فذاك الاختيار تعبيرٌ عن المُثُل التي يصبو المرء إلى تحقيقها في الواقع ، فاختيار الزوجة حلمٌ كلِّ رجل ، إذ يُمضي الساعات الطوال ، والأيام ذوات العدَد ، وهو يفكِّر ويقدِّر ، ويرسم الآمال ؛ وصولاً إلى التمام والكمال والسموِّ في كلِّ ميادينه الرَّحبية .

وقد حثَّ الإسلام على اختيار المرأة ودعا إلى ذلك دعوة واضحة ، لا لبسَ فيها ؛ إذ حُسْنُ الاختيار يهتِيءُ نشوء أسرة فاضلة مستقرَّة هائلة ، ناعمة البال ، ومجموع الأسر الهائلة يشكِّل مجتمع السَّعادة والصَّلاح والنَّظافة والفلاح .

فالأُسرة تتحمَّلُ أعباءَ جساماً لا تُحصى أحمالها ، ولا تُحصر أبعادها ، فإمداد الأُمة بالجيل الناشئ يحتاج إلى اختيار سليم وصحيح لشريكة

الحياة ، فهي المحضن الطبيعي للأسرة المطمئنة ، وهي التي تُعِدُّ البيت ليكون واحةً وارفةً الظلال للرجل والأولاد ، فثمة شروط يجدر أن تتحقق في تلك المرأة ، من الطاعة ، وحُسن الهيئة ، والنصح ، والموَدَّة ، والمحبة ، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ بقوله :

«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظَرَ إليها سرته ، وإن أقسمَ عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»^(١).

جاء في كتاب تربية الأطفال في رحاب الإسلام: «إنَّ حُسْنَ اختيار الزوج لزوجته يهتَمُّ للطفل المسلم بيئة صالحة ومحضناً عقلاً نظيفاً ، فيضمن الإسلام بذلك سلامة البناء بسلامة أساسه ، ومن أجل هذا ، حضَّ الإسلام على حُسْنِ اختيار كلِّ من الزوجين للآخر شريك حياته في تحمُّل أعباء الرِّسالة ، وإمداد الأمة بأجيال مسلمة تحمل الأمانة ، وتنشر نور الإسلام»^(٢).

أهم خطوة في بناء الأسرة:

إنَّ أهمَّ خطوة في بناء الأسرة هي الاختيار الحَسَنَ لرفقة الزوج وشراسته في تأسيس بيت الزوجية العتيد ، وفي ذلك نطبِّق قول الرسول الكريم ﷺ حين نصَّح أبناء أمته ممَّن أرادوا الاستقرار في حياتهم والبحث عن الزوجة ، فقال ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإنَّ العرقَ نَزاعٌ»^(٣).

النبي ﷺ يشجع الشباب على الزواج وإباحة النظر للمخطوبة:

لقد دعا النبي ﷺ شباب أمته أن يتزوجوا إذا استطاعوا القيام بأمر البيت

(١) رواه ابن ماجه في النكاح (٥/٥٩٦) باب: الأكفاء.

(٢) تربية الأطفال في رحاب الإسلام: محمد الناصر وخولة عبد القادر درويش ، مكتبة السوادي: جَدَّة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م (ص ٤٧).

(٣) أوردته الغزالي في الإحياء (٢/٧٢٤).

والأسرة ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنّا مع النبي ﷺ شباباً لا نجد شيئاً ، فقال لنا رسول الله ﷺ : «يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء»^(١). وفي هذا تشجيع على الزواج ، ولكن على راغب الزواج أن يحسن الاختيار بعد أن يكون قد عزم على ذلك ، فإذا رغب بفتاة معينة أباح له الإسلام أن ينظر إليها ، ما دام في نيته خطبتها ، ويكون على بينة من حيث الشكل ، وقد تقع في نفسه ويقع في نفسها وفي ذلك جاء الحديث الشريف : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجلٌ ، فأخبره أنه تزوّج امرأة من الأنصار ، فقال له ﷺ : «أنظرتَ إليها؟» . قال : لا ، قال : «فاذهب فانظرُ إليها ، فإن في أعينِ الأنصار شيئاً»^(٢). أي : يختلف عن أعين غيرهنّ ربما لا يعجبك !

وروى الترمذي عن المغيرة بن سُعْبَةَ رضي الله عنه أنه خطَبَ امرأة ، فقال له النبي ﷺ : «انظرُ إليها ، فإنه أحرى أن يؤدَمَ بينكما»^(٣).

فمن حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ندرك أن الراغب بالزواج لم يمنعه الشرع بالنظر إلى الفتاة التي يريد أن يؤسّس معها بيت الزوجية ، وعليه أن يتمهّل ويتبصّر ، حتى لا يقع في خطأ ، أو أن يحدث ما يكره . . . فالنظر لأجل النكاح يجوز إلى الوجه والكفين . . . عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، جئت لأهب لك

(١) البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (١٤٠٠) . الباءة : القدرة على الجماع بتوفر القدرة على مؤن الزواج . وجاء : قطعٌ لشهوة الجماع .

(٢) [مسلم (١٤٢١)] .

(٣) [الترمذي (١١٨٧)] . أخرى : أجدر ، يؤدَم : من الأدم وهو ما يؤكل مع الخبز ، أي : أجدر أن تكون بينكما المحبة والاتفاق ويدوما ، انظر : التذهيب في أدلة متن الغاية والتقريب المشهور بمتن أبي شجاع في الفقه الشافعي : د . مصطفى ديب البغا (ص ١٥٩ - ١٦٢) كتاب النكاح وما يتعلق به من الأحكام والقضايا .

نفسى ، فنظر إليها رسول الله ﷺ ، فَصَعَّدَ النظر إليها وَصَوَّبَهُ ، ثم طَاطَأَ رأسه .. (١)

وقد اختلف العلماء في قَدْر ما ينظر الخاطب إلى مخطوبته بين متشدد ومعتدل .

«وقد حدد بأنَّ للخطاب أن يراها في الملابس التي تظهر بها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حرج . . . وله أن ينظر إليها بعلمها وعلم أهلها . كما له أن ينظر إليها دون أن تعلم هي أو أهلها ما دام ذلك بنية الخطبة . وقد قال جابر بن عبد الله عن امرأته :

كنت أختبأ لها تحت شجرة لأراها . . . ولا يجوز أن يتوسَّعوا في الرخصة فيلقوا الحبل على الغارب - باسم الخطبة - ويتركوا الفتى والفتاة يذهبان - حيثما أرادا - إن التطفرف يميناً أو يساراً أمرٌ تأباه طبيعة الإسلام» (٢) .

والخطبة هي الحركة الأولى في عملية الزواج التي يهدف الشاب من ورائها بناء صرح جميل في بناء أسرة فاضلة مع شريكة حياته التي وقع اختياره عليها ، وكان القبول بينهما ، وعسى أن يسير الخطاب على هَدْي رسول الله ﷺ في اختياره أم أولاده ، قال ﷺ : «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مَكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣) .

وقال ﷺ : «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ لَا تَضَعُوهَا إِلَّا فِي الْأَكْفَاءِ» (٤) .

ففي الاختيار الحَسَن يطمئن الزوج في زواجه وحياته العائلية ؛ منتظراً من

(١) [البخاري (٥١٢٦) ومسلم (١٤٢٥)] جزء من حديث طويل ، كتاب النكاح ، باب النظر إلى المرأة قبل التزويج .

(٢) عن كتاب المرأة بين البيت والمجتمع : البهي الخولي ط ٢ (ص ٢٤) وأيضاً الحلال والحرام : للقرضاوي (ص ١٦٥ - ١٦٦) .

(٣) النسائي (٣٢٢٧) كتاب النكاح .

(٤) سنن الدارقطني (٣٧٤٧) كتاب النكاح .

زوجته الأولاد الفاضلين ، والبنات الفاضلات يترعرعن في حضن أم ترعاهم
خير رعاية وتعطي المجتمع دعاة خير وبناء مجد؛ لأنها كما قال شاعر النيل
حافظ إبراهيم - رحمه الله - :

الأم أستاذ الأساتذة الألى شَغَلَتْ مآثرها مدى الآفاقِ
الأم رَوْضٌ إن تعهده الحيا بالرِّيِّ أَوْرَقَ أَيْمًا إِرَاقِ
الأم مدرسةٌ إذا أَعَدَّتْهَا أَعَدَّتْ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ

ويقول صاحب المستطرف: « . . إن العيش مقصور على الحليلة
الصالحة ، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى
عشرتها ، ولا تَقْرُ العيون برؤيتها ، وفي حكمة سليمان بن داود عليهما
السلام : المرأة العاقلة تعمُرُ بيت زوجها ، والمرأة السَّفيهة تهدِمُهُ»^(١).

اختيار الأم أول حق للولد على أبيه :

إن المسؤولية الأولى عند تأسيس بيت الزوجية أن تكون الأم العتيدة تفي
بحق الولد على أبيه الذي يُعتبر أول الحقوق للولد وهو انتقاء الأم الصالحة
الفاضلة ، وهناك أمور هامة وأساسية في اختيار راعية الأسرة ، ونحن
لا نخرج عما وصَّانا به ﷺ وبين كيف نختار ومن ننتقي ، قال رسول الله ﷺ :

«تُنَكِّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ
الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ»^(٢).

(١) المستطرف : للأبشيبي (٢/ ٢٩٤).

(٢) [البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦)] كتاب النكاح ، باب : الأكفاء في الدين .
تربت يداك : تَرَبَّ : أصابه التراب ، ويقال في الدعاء : تربت يداه : خَسِرَ وافترق
المعجم الوسيط (ص ٨٣) .
وجاء في مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني (ص ١٦٥) : «تربت يداك» تنبيهاً على أنه
لا يفوتنك ذات الدين ، فلا يحصل لك ما ترومه ففتقر من حيث لا تشعر . =

في هذا الحديث الشريف يؤكد ﷺ أن ذات الدين هي الأولى في الاختيار ، إلى جانب أمور أخرى ، نورها في النقاط التالية :

أ - الدِّين : وهو أول وأهمُّ أساس في بناء الأسرة ، وعليه فالمرأة المتديّنة هي الخير كله ، والأساس القوي .

ب - الأصل والشرف :

لقد دعا الدين الحنيف إلى التروّي في الاختيار والانتقاء على أساس الأصالة في الحسب والشرف والفضيلة .

وإذا أحسنَ الشاب اختيار زوجة المستقبل سيطمئنُّ على ذريته وحياته العائلية وتكون مشاكلها أقل وخلافاتها بسيطة ، فأخلاق الفتاة وإيمانها ، هما الأفضل ، فينبغي للرجل عندما يصمم على الزواج أن تكون رغبته في ذات الدِّين ، وأن يبحث عن الشَّرَف والحَسَب .

«حكى أنَّ نوح بن مريم - قاضي مرو - أراد أن يزوّج ابنته فاستشار جارا له مجوسياً فقال : سبحان الله ، الناس يستفتونك وأنت تستفتيني ، قال : لا بُدَّ أن تُشيرَ عليّ . قال : إنّ رئيسنا كِسرى كان يختار المال ، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ، والعرب كانت تختار الحَسَب والنَّسَب ، ورئيسكم محمد ﷺ كان يختار الدِّين ، فانظر أنت بأيهم تقتدي . وقال رجل للحسن رضي الله عنه : إنّ لي ابنة فمن ترى أن أزوجه لها ؟ قال : زوجها ممن يتقي الله عزَّ وجلَّ ، فإنَّ أحبَّها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها»^(١) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في معرض ردّه على سؤال أحد الأبناء : ما حقُّ الولد على أبيه؟ قال : «أن ينتقي أمّه ، ويحسنَ اسمَهُ ، ويعلمه القرآن» .

فانتقاء الأم واختيارها على أسس إسلامية صحيحة ، يعود مردود ذلك على الأبناء الذي يشكّلون المجتمع الإسلامي الفاضل .

(١) انظر : المستطرف للأبشيبي (٢/٢٩٢) .

ورُويَ أَنَّ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِي^(١) قَالَ لَوْلَدَهُ: «يَا بَنِيَّ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ جَمَالَ النِّسَاءِ عَنْ صِرَاحَةِ النَّسَبِ».

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ^(٢) لَبْنِيهِ: «قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكُمْ صَغَاراً أَوْ كِبَاراً وَقَبْلَ أَنْ تُوَلَدُوا» فَقَالُوا: وَكَيْفَ أَحْسَنْتَ إِلَيْنَا قَبْلَ أَنْ نُولَدَ؟ قَالَ: اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنَ الْأُمَمَاتِ مَنْ لَا تُسَبُّونَ بِهَا.

وَقَالَ الرِّيَاشِيُّ^(٣):

فَأُولَ إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ تَخْيِيرِي لِمَاجِدَةِ الْأَعْرَافِ بِإِدِّ عَفَافُهَا^(٤)

ج - المرأة البكر:

عند اختيار زوجة المستقبل من الأفضل أن تكون بكرًا ، وهذا من الأسس التي يجب على الخاطب أن يضعها في اعتباره كشرط أساسي ، لأنه في ذلك يحمي الأسرة من مشكلات قد تؤدي إلى تفكيك أواصر المحبة بين الزوجين بدلاً من تمتينها ، لأن الثيب قد يكون فكرها ما يزال مشغولاً بالزوج السابق أو تُجري مقارنة بين الاثنين تكون في صالح الأول ، وتصبح الحياة الزوجية يملؤها التشاحن وتخيم عليها البغضاء ثم التفور . . . وحرصاً على نقاء الحياة الزوجية قال رسول الله ﷺ لعائشة: «أريئك في المنام مَرَّتَيْنِ ، إذا رَجُلٌ يَحْمِلُكَ فِي سَرَقَةٍ حَرِيرٍ ، فيقول: هذه امرأتك ، فأكشفها فإذا هي أنت فأقول: إن يكن هذا من عند الله يَمْضِهِ»^(٥).

(١) أكثم بن صيفي: من حكماء العرب في الجاهلية.

(٢) أبو الأسود الدؤلي: من علماء العربية تُنسب إليه أصول النحو العربي.

(٣) الرياشي: هو أبو الفضل عباس (ت ٨٧١ هـ) عالم باللغة والشعر من أهل البصرة ، أخذ عن الأصمعي ، وأخذ عنه المبرد وابن دريد ، قتله الزنج ، له كتاب «الخيال والإبل».

(٤) انظر: الطفل في الشريعة الإسلامية (ص ١١٧).

(٥) البخاري (٥٠٧٨) ومسلم (٢٤٣٨) كتاب النكاح ، باب: نكاح الأبكار.

فالبكر تمتاز بطيب الكلام ، وكثرة الأولاد ، وقلة المكر والخديعة ، والرضا بالمال الأقل . . وما أحرى الشباب أن يسمعوا قول عائشة رضي الله عنها وهي تقول للنبي ﷺ : «يا رسول الله! لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها ، وشجرة لم يؤكل منها ، في أيّ منها كنت تُرَبِّعُ بعيرك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «في التي لم يُرَبِّعْ منها». تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرةً غيرها^(١).

د - المرأة الولود :

من حسن اختيار شريكة الحياة أن تكون المرأة ولوداً ، وهذه الصفة من الأسس الهامة في البناء الأسري . «وتُعرف هذه المرأة بسلامتها من الأمراض ، وصحتها الجيدة ، وعرضها على الأطباء المختصين لمعرفة قدرتها على الحمل والنظر في حال أمها ، وأخواتها المتزوجات ، وقد دعا ﷺ إلى انتقاء المرأة الولود»^(٢).

قال عليه الصلاة والسلام: «تزوجوا الولود الودود ، فإنني مكاثر بكم الأمم»^(٣).

هـ - المرأة الغريبة :

للزواج من الأقارب مضارّ صحية تعود على الأبناء ؛ لأنّ عامل الوراثة سينقل بعض الصفات البدنية التي تكون أضعف من الصفات الأصلية ؛ لهذا قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجماعة من بني السائب ، لاحظَ ضَعْفَ ذرائعهم : «يا بني السائب ، قد أضويتم ، فانكحوا في الغرائب»^(٤) ،

(١) البخاري (٥٠٧٧) ، كتاب النكاح ، باب : نكاح الأبيكار .

(٢) انظر : حق الوالدين على الأبناء وحق الأبناء على الوالدين (ص ٩٦ - ١٠٢) باختصار .

(٣) النسائي برقم (٣٢٢٧) .

(٤) أدب الدنيا والدين : أبو الحسن الماوردي (ص ١٦٠) «أضويتم» : ضَوِيَ : ضَعُف .

«أضويتم» ضعفت . المعجم الوسيط (٥٤٧) .

كما يقول الشيخ محمد متولي شعراوي في ذلك ، «وعظتنا السنّة بعد أن وعظنا القرآن من أن نتجنّب القربيات حين نتزوج . . . لئلا يؤول أمر النسل إلى ضَعْفٍ ، وفي الاغتراب قوّة للنسل»^(١) وقد جاء في مختار الصحاح : أنَّ العرب تزعم أن الولد من قرابته يجيء ضاويّاً نحيفاً ، غير أنّه يجيء كريماً على طبع قومه^(٢) .

فالزواج من الأبعد يكون الولد منهم أقوى وأذكى من ولد الأقارب ، بالإضافة إلى أن صحة أفراد الأسرة تكون سليمة من مرض وراثي قد يكون في الأقارب .

وبعد أن عرفنا الأسس الواجبة حين انتقاء الزوجة لتنفيذ الحق الأول للولد على الوالد ، نتعرّف على رأي محمود مهدي الإستانبولي في الخطبة الزوجية فيقول : «لا يظنّ الناس أنَّ للرجل وحده الحقّ في انتقاء التي يُريد ، وليس لها حق في اختيار من تشاء ، لا ! هذا ليس بصحيح .

فإنّ للبنّت الكلمة الأولى والأخيرة في قبول من يخطبها ، أو رفضه ، وإذا وقع الزواج دون رضا الفتاة فالعقد باطل ولها الحق بفسخه . . .»^(٣) .

لقد أعطى الإسلام الفتاة الحرية بإبداء رأيها بالخاطب ، ولا يجوز إنكار حقّها بإعطاء رأيها . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنَّ النبي ﷺ قال : «التَّيْبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا ، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ ، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا» . وفي رواية : «وَإِذْنُهَا سُكُوتُهَا»^(٤) .

(١) الإسلام حدّاته وحضارة : محمد متولي شعراوي (ص ١٣٢) وانظر : الطفل في الشريعة الإسلامية ص (١١٨ - ١١٩) .

(٢) مختار الصحاح : باب : (ضوي) .

(٣) نحو أسرة مسلمة : محمود مهدي الإستانبولي (ص ١٢) .

(٤) مسلم (١٤١٢) . «التَّيْبُ» : التي سبق لها زواج . أحق بنفسها : أولى بالإعراب عن رغبتها أو رفضها . تستأمر : تستشار ، وليست مشورتها ملزمة . التذهيب في أدلة متن الغاية والتقريب (ص ١٦٤) .

وفي كتاب «الحلال والحرام»: للقرضاوي: «جاءت فتاة إلى النبي ﷺ فأخبرته أَنَّ أباهَا زَوَّجَهَا ابنَ أَخِيهِ وهي له كارهة ، فجعل النبي ﷺ الأمرَ إليها ، فقالت: قد أَجَزْتُ ما صنع أبي ولكن أردت أن أَعْلِمَ النساءَ أَنَّ ليسَ للآباء من الأمر شيء» .

ولا يحلّ للأب تأخير زواج ابنته إذا خطبها كفاء ذو دين وخُلُق.

قال ﷺ في ذلك: «إذا جاءكم من تَرْضَوْنَ دينه وخُلُقَهُ فزَوِّجوه ، إلا تفعلوا تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأرضِ وفسادٌ عَرِيضٌ»^(١).

وهناك خطبة تكون محرّمة إذا أقدم المسلم لخطبة امرأة في عدّتها لطلاقها أو لوفاة زوجها ، وسمح الإسلام بالتلميح فقط قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وهناك أمر آخر في الخطبة المحرّمة وهو أن يخطب المسلم على خطبة أخيه... فإن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول: نهى النبي ﷺ أن يبيعَ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ ، وَلَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ على خِطْبَةِ أَخِيهِ حتى يترك الخاطِبُ قَبْلَهُ ، أو يَأْذَنَ لَهُ الخاطِبُ»^(٢).

صِفَةُ محمودة في المرأة:

«كانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً ، وكان هو من أقبح الناس وجهاً ، فقال لها يوماً: أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالى ، فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنني أُعْطِيتُ مِثْلَكَ فشكرتُ ، وأُعْطِيتُ مثلي فصبرت ، والصَّابِرُ والشَّاكِرُ في الجنة» .

(١) [الترمذي (١٠٨٥)] كتاب النكاح ، باب: إذا جاءكم من ترضون دينه وفروجه .

(٢) متفق عليه [البخاري (٥١٤٢) ومسلم (١٤١٢)] .

صفة المرأة السوء :

في حكمة داود عليه السلام: «إن المرأة السوء مثل شرك الصياد ، لا ينجو منها إلا من رضي الله عنه» .

وقال داود عليه السلام: «المرأة السوء على بعْلِها ، كالِحِملِ الثقيل على الشيخ الكبير ، والمرأة الصالحة كالنَّاجِ المَرَضِع بالذهب ، كلما رآها قَرَّت عينُه برؤيتها...»^(١) .

البيت المسلم قلعة إسلامية :

العقيدة الإسلامية قلعة شامخة البنيان قويّة الأساس في البيت المسلم ، مسورة ، محصّنة ، متماسكة ، ثابتة إذا ما ضربتها ريح عاتية من آراء مضلّة ، ونحوها .

«ويتعيّن بذلك لمن يريد أن يُنشِء بيتاً أن يبحث أولاً عن حارسة للقلعة ، وتكون ذات الدين ، لتعين على بناء بيت مسلم وإنشاء قلعة مسلّحة»^(٢) .

فمن هذه الحارسة العتيقة التي نسلّمها هذه القلعة بينائها الشامخ وصمودها الإيماني العظيم؟ وهل تكون إلا مَنْ كانت الجنة تحت قدمها؟!

يقول الجاحظ: «والأمّ تحمل رسالة ، تضع هذه الرسالة في قلب ولدها وفي فؤاده... وكان سَلَفُنَا يوصي بِحُسْنِ اختيار الأمهات ، قال عثمان بن أبي العاصي الثقفي لِبنِيهِ: «يا بَنِيَّ ، إني قد أمجدتكم في أمهاتكم ، وأحسنتم في مهنة أموالكم ، وإني ما جلست في ظلّ رجلٍ من ثقيف أشتمّ عِرْضَه ، والتاكُح مغترس ، فليُنظر امرؤ منكم حيث يضع غَرْسَه ، والعِرْقُ السوء قلّما يُنْجِب ، ولو بعد حين»^(٣) .

(١) انظر: المستطرف للأبشيهي (٢/ ٣٠٠ و ٣٠٢) .

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٣٦١٩ - ٣٦٢٠) .

(٣) البيان والتبيين: للجاحظ (٢/ ٧٥) من: تربية الأطفال في رحاب الإسلام: محمد الناصر وخولة درويش ط ٣ السعودية ١٤١٥ - ١٩٩٤ (ص ٤٩ - ٥٠) .

اختيار الزوجة الصالحة :

ذكرنا في فقرة سابقة المبادئ الأساسية التي يجب على المُقَدِّم على تأسيس عُشِّ الزوجية أن يتَّبِعَها ، فيكون الاختيار الحَسَنَ والانتقاء السليم المرتكز على ما تتمتع به الفتاة من أخلاق فاضلة ، وسمات دينية قوية .

يقول إبراهيم عطا : « . . . فالزواج في الإسلام رابطة قوية ، لأنه سكن ومودةٌ ورحمةٌ ، وهو بهذا الاعتبار مِنَّةٌ من الله تعالى وفضلٌ ، قال عز وجل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ ﴾ [الروم : ٢١] .

ولا يتأتَّى ذلك إلَّا إذا كانت هناك أنفة^(١) بين الزوجين . . . والاختيار عملية مشتركة بينهما ، ومن حقَّ كُلِّ منهما؛ نظراً لأنها عقد حياة كاملة ، والاستمرار فيها هو الأساس . . . »^(٢) .

الأم المثالية :

لا يكون المجتمع الإسلامي ناهضاً ، رائداً لحياة أفضل إلَّا إذا كانت أفراده قد أنعم الله عليهم بتربية إسلامية صحيحة ، يقول عيسى الجراجرة : « . . . إنَّ الإسلام يقرِّر بوضوح شروطه للأمِّ المثالية الصالحة للأمم في المجتمع الإسلامي ، فيرى أنَّ الفتاة الصالحة للزواج ، والتمتع بشرف الأمم ، هي الفتاة المتمتعة بالصِّحة النفسية والجسدية . وتتفق شروط الإسلام في هذا المجال وقبل (١٥) قرناً مع شروط ومصطلحات علم النفس الاجتماعي الحديث في الأمر نفسه ، فهي فتاة : « مؤمنة صالحة » . عن

(١) «ألغة» : اجتماع والتنام ، وفي علم النفس : خاصَّةُ تجاذب الظواهر النفسية في المجال الشعوري بتداعي الأفكار وترابطها ، والألفة في الأخلاق : وشيجة بين شخصين أو أكثر ، يحدثها تجاذب الميول النفسية ، كصلة الصداقة ولحمة القرابة (المعجم الوسيط) .

(٢) الطفولة في الإسلام (١٧٢ - ١٧٣) .

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدُّنيا متاعٌ ، وخيرُ متاعها: المرأةُ الصَّالِحَةُ»^(١) وهدف التوجيه الإسلامي تحقيق أمل الفتاة بالزواج ، وبناء حياة مستقرة في رحاب الأسرة .

ثانياً: حقوقُ الجنين

نال الطفل في الإسلام عناية لا حدَّ لها ، في مرحلة الجنين ، ثم الولادة ، ثم النمو ، وما ذاك إلا لمكانة الطفل ، وأثره البالغ ، وضرورة رعايته الرعاية السامية في كل أطوار حياته .

وتبدأ مرحلة التربية الأخلاقية الأولية للجنين بعد الإخصاب .

رعاية الجنين :

«المسئولة الأولى عن رعاية الجنين في مرحلة الحمل هي الأم ، لأن حالة المرأة الجسمية والنفسية تؤثر على الحمل . . كما يقرّر علماء النفس ، فإن القلق النفسي والضعف الشديد للمرأة مدة الحمل يؤثران على الطفل . . فهناك قواعد لحمل الأطفال وتكوينهم ، يجب أن تُعلّم هذه القواعد لجميع النسوة في مدارس متخصصة لهذا الغرض ، فتعرف كل أم من أمهات المستقبل السلوك الذي تتبعه أثناء الحمل والمواد الغذائية التي تتناولها وإلى أي حدّ تعمل . . . ويجب أن يُنبّهنَّ إلى الخطر الذي يتعرّض له الطفل من جرّاء التدخين وشرب القهوة وغيرها . . أثناء الحمل والرّضاع»^(٢) .

والمبادئ الإسلامية اشترطت أن يكون الزوجان صالحين لتضمن نسلًا

(١) [مسلم (١٤٦٧)]. رياض الصالحين: الكتاب الأول ، باب: الوصية بالنساء وانظر: ريادة الإسلام: عيسى الجراجرة (ص ١٦١) .

(٢) التربية الأخلاقية في الإسلام: مقداد يالجن ، ط ١ مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م (ص ٤٥٢) .

صالحاً ، وحث الزوج أن يراعي زوجته أثناء الحمل كي لا تؤثر المشاحنات العائلية والخصومات بين الزوجين مما يؤدي ذلك إلى اضطراب نفسي عند المرأة الحامل مما يؤثر على الجنين . فالنساء الإنسانية في عالم الأرحام عالم عجيب ، لفت الله سبحانه وتعالى الأنظار إليه ، ودعا إلى الحماية البالغة للطفل وهو جنين في بطن أمه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴾ [المرسلات : ٢٠ - ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦] .

هذه المراحل العجيبة : «من النطفة إلى العلقة إلى المضغة ، إلى العظام ، إلى الخلق الواضح فيه عنصر البشرية . في ظلمات ثلاث : ظلمة الكيس الذي يغلف الجنين ، وظلمة الرِّجَم الذي يستقر فيه هذا الكيس ، وظلمة البطن الذي تستقر فيه الرحم ، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة خلقاً من بعد خلق ، وعين الله ترعى هذه الخليقة ، وتودعها القدرة على النمو ، والقدرة على التطور ، والقدرة على الارتقاء»^(١) .

فالإسلام اهتم بالإنسان منذ حالته الجنينية بعد لقاء الزوجين الذي بدأه بتنفيذ وصية رسول الله ﷺ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : لو أن أحدكم أتى أهله فقال : بسم الله : اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا فقضي بينهما ولدٌ ، لم يضره شيطان أبداً^(٢) .

(١) في ظلال القرآن : (٣٠٣٩/٥) .

(٢) متفق عليه [البخاري ٣٢٧١ ومسلم (١٤٣٢)] وفيه دليل على استحباب التسمية عند الجماع والدعاء بطرد الشيطان . انظر : الكلم الطيب : لابن نيمية : تحقيق =

عناية الإسلام بالجنين :

لقد حرص الإسلام على سلامة الجنين حتى تكون ولادته طبيعية ، فإذا أقدمت الحامل على ذنب يوجب إقامة الحد عليها ، يُؤجل الحد حتى تضع جنينها ، وتقطعه ، وذلك حرصاً على سلامة حملها ، ومن ثم استغناء الطفل عنها .

قال ابنُ قدامة: « فلا يقام الحدُّ على حاملٍ حتى تضعَ ، سواءً كان الحملُ من زنى أو غيره »^(١). قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أنَّ الحامل لا تُرجمَ حتى تضع . . . ومن الرعاية الواجبة للجنين ، توفير أحسن الأجواء اللازمة لنموه ، فيجب أن تبتعد المرأة الحامل عن التدخين ، لما لهُ من أضرار تعود على الجنين خاصة ، فضلاً عن أضراره بالدم . . . وقد ثبت أنَّ التدخين يعيق نمو الجنين ، ويزيد نسبة الإجهاضات والاختلاطات الحملية ، وينقص مدة الحمل ، ويرفع نسبة وفيات الأجنة^(٢).

حقوق الجنين وسلامته :

لقد عرفنا مما ذكر سابقاً أن الإسلام وجَّه عنايته للمرأة الحامل وكذلك لجنينها ، بدفع الآباء لتهيئة كل ما من شأنه رعاية الجنين برعاية الأم وحمايتها من كل ما يسبب لها الضيق والإزعاج ، حتى تبقى نفسيّتها هادئة مطمئنة : «وأباحَت الشريعة للحامل الفِطر في رمضان رفقاً بالجنين ومحافظة عليه حتى لا يتعرّض للنقص أو السقوط ، وبالحمل تصبح من أصحاب الأعدار لها رخصة الفطر في رمضان ، وعلى الأم القضاء بعد ذلك ، كما لها عذر

= محمد خليل هراس مع تعقيب محمد ناصر الدين الألباني ، دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر ١٤٠٠ هـ (ص ٧٢).

(١) المغني لابن قدامة (١٧١/٨) وانظر تربية الأطفال في رحاب الإسلام (ص ٨٤-٨٥).

(٢) علم نفس النمو (ص ٨٢).

التصَرَّف في هيئة حركات الصلاة إن آذاها تعب أو غيره...»^(١) ، وبينَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ من أبيعَ له الفطر في رمضان ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ وضعَ عن المسافرينِ الصَّوْمَ وشَطَرَ الصلاة ، وعن الحامل أو المرضعِ الصوم»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِدْيَةَ طَعَامِ مَسْكِينٍ﴾ قال: كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، وهما يطيقان الصيام ، أن يفطرا أو يطعما كل يوم مسكيناً ، والحبلى والمرضع إذا خافتا - يعني على أولادهما - أفطرتا وأطعمتا^(٣).

ومن الحقوق التي تتعلق بحياة الجنين وسلامته أن تحرص الحامل على تناول الطيبات من الغذاء ليكتمل نمو الجنين بشكل سليم «وذلك بأن يتضمَّن النظام الغذائي للحامل العناصر الضرورية كالحليب ومشتقاته واللحوم والسمك والبيض والبقول والخضراوات والفواكه... إنَّ الغذاء السليم والمتوازن يمكن الحامل من المحافظة على صحتها ومن توفير عوامل النمو الصحيحة للجنين أثناء الحمل»^(٤).

ثالثاً: رعاية الوليد في الإسلام

ما من أب وأم إلا ويشعر كلُّ مهما بالسرور لقدوم مولودٍ جديد ، لأنَّ الأبوين يذكران الآية الكريمة التي بها يدخل السرور على قلوبهما: ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

هذا الوليد الجديد الذي يُدخل الحب إلى قلبي والدينه ، ويظلُّ سماء

(١) الطفل في الشريعة الإسلامية (ص ١٤٤).

(٢) رواه الترمذي (٧١٥) وأبو داود (٢٤٠٨) وغيرهما. وانظر: التذهيب في أدلة متن الغاية والتتريب (ص ١٠٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٣١٨).

(٤) الأمومة «نمو العلاقة بين الطفل والأم»: فايز قنطار ، عالم المعرفة (ص ٧٠) العدد ١٦٦ . ١٩٩٢ م.

البيت بالغبطة؛ أليس من حقه الرعاية والعناية والاهتمام من قِبَل والديه؟

«إنَّ الإسلام آمن بفطرة الطفل واعتبره صفحة بيضاء ، تستطيع أن تنقش على عقله ما تريد . ومن هنا فإن الإسلام قد آمن بأنَّ التربية مكتسبة يكتسبها الطفل من المحيط الذي يعيش فيه ، وتُعتبر الأسرة هي النواة الأصلية التي يكتسب منها الفرد تربيته ، كان الأوروبيون في العصور الوسطى ، ينهالون على الطفل بالضرب الشديد لطرد الروح الشريرة من جسمه ، لكنَّ الإسلام الحنيف أكَّد الفِطرة التي يولد عليها»^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ . . .»^(٢).

لقد أعلن الإسلام أنَّ كل مولود يولد على الفطرة ثم يوجهه أبواه الوجهة التي يختارونها له ، وكذلك هما يعلمانه أو يُجهِّلانه ، ويرفعانه أو يخفضانه وحسب هذه المفاهيم إمَّا أن يقدِّماه في الحياة الإنسانية أو يؤخِّراه . .

ولا شك أنَّ أيَّ إخفاق ، أو نجاح يُلاقيه الإنسان في مسيرته وحياته اليومية والاجتماعية ، يرتبط ارتباطاً عضوياً بتربيته في مرحلة الطفولة وهي الفترة التي لا يَسْتَغْنِي فيها الطفل عن أبويه ، لذلك تستحقَّ اهتماماً كبيراً من جانب الوالدين ، فعليهما أن يطبعاها باللون الذي يكشف عن نتائج زاهية تطفح بالإيمان وتغعم بالأمل وتُملأ بالحب والحنان ، وتنضج بالقدرة على التغلُّب على الصُّعاب والسير في معترك الحياة . . . لذلك اهتمَّ الإسلام بدور الأسرة لأنَّها «هي البيئة الاجتماعية الأولى التي يبدأ فيها الطفل بتكوين ذاته والتعرُّف على نفسه عن طريق عملية الأخذ والعطاء ، والتعامل بينه وبين أعضائها ، وفي هذه البيئة يتلقَّى أوَّل إحساس بما يجب وما لا يجب القيام به»^(٣).

(١) الطفولة في الإسلام د. عبيدات (ص ٩١).

(٢) [البخاري (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨)].

(٣) الأسس الاجتماعية للتربية: محمد ليبب النجيمي (ص ٦٧) ، وانظر: الطفل في الشريعة الإسلامية (ص ١٢٠).

اهتمام الإسلام بالطفل :

إنَّ اهتمام الإسلام بالطفل جعله يؤكد على صلاح المنبت وسلامة البيئة التي ترعى الطفل وتحضنه ، لأنَّ نشأة الطفل على الخير والفضيلة يكون بتأثير مَنْ يرعى ومن يربي ومن يُرشد . وقد اختلف الإسلام في نظرتة التربوية عن نظرة أوروبا «وعمّا نادى به الأوروبيون في نهاية القرون الوسطى فينبما دعا «روسو» الفرنسي إلى ضرورة ترك الطفل يتربّى في أحضان الطبيعة ، وأن يُدرك خطأه بنفسه نتيجة لتجاربه ، فإنَّ الإسلام دعا إلى الإشراف على تربية الطفل إشرافاً مباشراً ، وتطبيعته تطبيعاً اجتماعياً ، بما يتفق مع الدين الإسلامي الحنيف .

لقد وضع الإسلام الطفل أمانة في عُنق والديه ، وطلبَ منهما العناية به ، وتعليمه ، وتربيته التربية الصحيحة ، حيث قال الله في محكم آياته : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] (١) .

والنبي ﷺ بينَ لنا في عدد من أحاديثه الشريفة وكلّها تؤكّد مسؤولية الراعي فيما يرعاه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «كلُّكم راع وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته ، و الأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكُلُّكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيّته» (٢) .

فاهتمام الأبوين بطفلهم سينعكس على مسيرته في الحياة سلباً أو إيجاباً لأنَّ : «على الوالدين تثبيت الناحية الإيمانية في نفس ولدهما عن طريق تلقينه المبادئ الأساسية لدينه والتي تنسجم مع فطرته ، وتنمية العقيدة الحية في

(١) الطفولة في الإسلام ولمحة عن المراحل التي تليها: د. سليمان حمد عبيدات ، عمان-الأردن ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩ م (ص ٦١) .

(٢) [البخاري (٥٢٠٠) ومسلم (١٨٢٩)] .

ذهنه وتغذيته بمبادئ الإسلام الأولية: من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، وإذا لم نعلم إلى تثبيت الفطرة في نفسه منذ صغره فإنه ولا شك سيملاً فكره بأي عقيدة أخرى... فإذا صَلُحت العقيدة صَلُح السلوك واستقام ، ولقد كانت الدعوة إلى العقيدة أول شيء قام به رسول الله ﷺ لتكون حجر الزاوية في بناء الأمة المسلمة ، لذلك فالإيمان ضرورة لا يَسْتَغني عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيته^(١).

لم يترك الإسلام شيئاً في الحياة إلا وكان الدستور الإلهي واضحاً ليسير المسلم في حياته على هدىً ويقين ، ولم يغفل الدين الحنيف حتى في أبسط الأمور؛ إذ جعل لها قواعد ومبادئ وأصول ، فالأكل والشرب وقضاء الحاجة والنكاح والحياة الاجتماعية برمتها لها قواعد ، وكذلك النوم والعمل واللهو ، فالإسلام نظم الحياة تنظيمًا كاملاً ، وكل هذا التنظيم وهذه القواعد وُجدت لصالح الإنسان.

التربية الجسمية للمولود:

يقدم المولود إلى هذه الدنيا بعد قضاائه تسعة أشهر في بطن أمه الحنون التي حملته وهنأ على وهن وفتح عينيه على الحياة وضحك الأبوان ، وهش وفرح وبش كل من كان في الدار وغمرتهم الفرحه ، وبدأ العمل الآن بتنفيذ مسؤولية الوالدين فيما يجب أدائه تجاه القادم العزيز ، وذلك كما سنَّ ﷺ منذ الساعات الأولى لقدمه التحنيك ، والختان والأذان والإقامة في أذنيه ثم إرضاعه مع الرعاية التامة بصحته من: رضاعة وفطام كما قال تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

إن مهمة الوالدين ومسؤوليتهما تجاه طفلهما لا تنقطع حتى ينمو ويشب

(١) الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية: سهام مهدي جبار ، المكتبة العصرية بيروت - صيدا ط ١ ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م (ص ١٢٢).

عن الطوق وقد أكسبها العادات الحسنة والأخلاق الفاضلة ، وغرساً فيه العقيدة الصحيحة ، وساعدها على تمتين إيمانه وتقواه ، والأساس في التربية هو المهم ، والبداية تكون بإسماعه ذكر الله وتوحيده وهو ما شرعه الإسلام .

الأذان والتكبير في أذن المولود :

«شرع الإسلام الأذان في أذن المولود اليمنى ، والإقامة في أذنه اليسرى وذلك بعد ولادة الطفل مباشرة ، فعن أبي رافع قال : رأيت رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسن بن علي رضي الله عنهما ، حين ولدته فاطمة رضي الله عنها»^(١) .

وعن الحسن بن علي عن النبي ﷺ قال : «مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ اليمنى ، وَأَقَامَ فِي أُذُنِهِ اليسرى ؛ لَمْ تَضُرَّهُ أُمُّ الصَّبِيانِ»^(٢) .

وهذه الطريقة في استقبال المولود لها أسرار وفوائد ، ومن ذلك أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلمات النداء العلوي - الله أكبر - المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته ، والشهادة التي هي أول ما يدخل بها في الإسلام ، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا ؛ كما يُلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها ، وغير مُستنكر وصول أثر الأذان إلى قلب الطفل ، وتأثره به ، وإن لم يشعر .

.. وهذه المعاني والفوائد : تَوَجُّهُ نَبَوِيٍّ فريد لبناء النَّفْس ، ودعوة

(١) أبو داود (٥١٠٥) والترمذي (١٥١٤) .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٦١٩) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٢٣) . «أم الصبيان» : هي الريح التي تعرض للولد ، فربما يخشى عليه منها . «وفي الأذكار» : لمحبي الدين أبي زكريا بن شرف النووي (ص ٢٥٣) دار الكتاب العربي بيروت جاء اسم «الحسين» بدلاً من اسم «الحسن» رضي الله عنهما ! وانظر : الطفل في الشريعة الإسلامية (ص ١٨٨) .

تصعد إلى معارج العقيدة؛ لتأكيد أسس التوحيد ، وتوكيد الإيمان ، ومحاربة الشيطان»^(١).

حُسن اختيار الاسم:

الاسم الجميل للإنسان يريح صاحبه ويُفرحه ويفتخر به ، وكان العرب في جاهليتهم يُسمون أبناءهم أسماء بعضها غريب وبعضها لا تستسيغهُ الأذن ويسمون جواريتهم وعبيدهم أسماء جميلة ولطيفة مثل: لؤلؤة ، مرجانة ، جواهر ، أما الأسماء المستهجنة لأولادهم ، مثل: كليب ، جبل ، غضبان ، وأسماء أخرى ، ولما جاء الدين الحنيف تغيرت الأسماء وأصبحت لطيفة وجميلة بهدي من رسول الله ﷺ ، لقد «اعتنى الإسلام بتسمية الأولاد تسمية حسنة ، فمن حق الابن على أبويه أن يعطوه اسماً جميلاً ، له معنى محبباً ، لأنَّ الولد سيحيا في نطاق المجتمع ، فلا بدَّ أن يكون ذا قدرٍ وقيمة في كلِّ شيء ، ومن ذلك حملة لاسم لائق ، فإن حمل اسماً قبيحاً تعرّض لسخرية الناس؛ إذ يعيبون عليه بالقول والإشارة ، هازئين ، غامزين ، وهذا الموقف منتهى اللؤم ، حين تتعرّى النفس من المروءة والإيمان ، ومن هنا جاء الوعيد في القرآن: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] ، ليرفع أخلاق الناس ويصحح تعاملهم ، فيحيون فيما بينهم على أساس من القيمة والواقعية»^(٢).

.. إن أول ما يتوجّب على الأهل فعله عند قدوم المولود الجديد اختيار اسم جميل له يُدعى به بين الناس ، ويميّزه عن غيره من الأشخاص .. وحُسن التسمية .. فيه نوع من الحبّ ، وقد جاء توجيه الشريعة إلى ذلك في قول رسول الله ﷺ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ»^(٣).

(١) انظر: حق الوالدين على الأبناء (ص ١٠٢ - ١٠٣).

(٢) انظر: حق الوالدين على الأبناء (ص ١١٧).

(٣) [أبو داود (٤٩٤٨)] كتاب الأدب ، باب: في تغيير الأسماء.

.. وحسن التسمية من الحب ومن الحرص على أن يلازم الطفل الفأل الطيب والإقبال السمع من معاشرته في مستقبل عمره .

وقد أوصى الرسول ﷺ بحسن اختيار اسم المولود لأنَّ هذا الاسم قرين بآماله وطموحاته وسلوكه ، وكان تعليم الرسول لأصحابه في تسمية الأولاد نهجاً تربوياً سليماً .

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ ، عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ »^(١) .

.. وقد دعا الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى تسمية الأبناء بأسماء الأنبياء ، فقال : « تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ : عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةٌ »^(٢) . ومن أسماء الأنبياء : إبراهيم ، نوح ، هود ، صالح ، إسماعيل ، إدريس ، يوسف ، هارون ، زكريا ، يحيى ، موسى ، عيسى ، يعقوب ، يونس ، سليمان ، داود ، أيوب ، محمد ﷺ^(٣) .

متى نسمي المولود ؟

من الشائع في هذه الأيام أن يهيب الأبوان اسم المولود الجديد ذكراً أو أنثى . وقد يحدث جدال بين الأبوين لتمسك كل منهما برأيه ، وغالباً ما يكون الاتفاق ، وأن يباشرا بتسميته من الساعات الأولى . . وجاء في الحديث الشريف :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : وُلِدَ لِي غُلَامٌ ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ

(١) [ابن ماجه (٣٧٢٨) وأبو داود (٤٩٤٩)] كتاب الأدب ، باب : ما يستحب من الأسماء (ابن ماجه) ، باب : في تغيير الأسماء (أبو داود) .

(٢) [أبو داود (٤٩٥٠)] كتاب الأدب ، باب في تغيير الأسماء .

(٣) حق الوالدين على الأبناء (ص ١١٩ - ١٢٠) . =

فسمّاه إبراهيم ، فحنّكه بتمرة ، ودعا له بالبركة ، ودفعه إليّ ، وكان أكبر ولد أبي موسى^(١) .

أعمال مُستحبة :

- ١ - استحباب قبول الهدية .
- ٢ - البشارة لمن وُلد له مولود .
- ٣ - استحباب إعطاء البشير بشراه .
- ٤ - العقيقة عن المولود .
- ٥ - حلق رأس المولود .
- ٦ - تسمية المولود يوم ولادته .
- ٧ - جواز دفع الطفل إلى غير أمه لترضعه وتحضنه .

تكريم الطفل بالعقيقة :

بعد أن يستقبل المولود الدنيا ، ويفرح به أهله ، لا بُدَّ أن يذبحوا عنه ، وهذه الذبيحة تُسمّى «العقيقة» وأصل العَقّ : الشَّقُّ والْقَطْعُ .

والعقيقة سنّة مؤكدة ، ولو كان الأب مُعْسِراً! وتجري فيها أحكام الأضحية كلها ، فلا يجوز أن يُعَقَّ عن الولد بالشاة المريضة ، ولا العوراء ، ولا العرجاء ، ولا العجفاء التي ذهب مُخّها من شدّة الهزال ، ولا العُضباء التي ذهب أكثر أذنها أو قرننها .

والذبيحة عن المولود لها فضل كبير ، حيث جاءنا عن رسول الله ﷺ ما يُشعرُ بأهميّتها ، .. فعن سلمان بن عامر الضبيّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(١) [البخاري (٥٤٦٧) ومسلم (٢١٤٥)] .

«مَعَ الْغَلَامِ عَقِيْقَةً ، فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَمًا وَأَمِيطُوا عَنْهُ الْأَذَى»^(١).

وقال الإمام أحمد: إذا لم يُعَقَّ عن الولد فمات طفلاً ، لم يشفَع في والديه . ويفضَّل أن يُذبح عن الولد شاتان متقاربتان في السن ، والشَّبه ، وعن البنت شاة واحدة لقوله ﷺ: «في الغلام شاتان متكافئتان ، وفي الجارية شاة»^(٢).

ويجوز ذبح شاة واحدة عن الغلام ؛ كما فعل رسول الله ﷺ ، حين عَقَّ عن الحسن بشاة وقال: «يا فاطمة احلقي رأسه وتصدقي بزينة شَعْرِهِ فِضَّة» قالت: فَوَزَنُتُهُ فكان وزنه درهماً أو بَعْضَ دِرْهَمٍ^(٣).

فالدين يُسَرُّ ، هذا وإنَّ ذبح العقيقة يكون كما حدَّده البيهقي ، في اليوم السابع ، أو الرابع عشر ، أو الحادي والعشرين^(٤).

وقال الإمام مالك: «الأمر عندنا في العقيقة ، أنْ من عَقَّ ، فإنَّما يعَقُّ عن ولده بشاة شاة ، الذكور والإناث ، وليست العقيقة بواجبة ، ولكنها يستحبُّ العمل بها»^(٥).

فوائد العقيقة:

للعقيقة فوائد كثيرة ، إضافة إلى حسن الاستقبال ، وإعلان الفرحه بقدوم المولود ذكراً أو أنثى.

فمن فوائدها: أنَّها قربان يقرب به عن المولود في أول أوقات خروجه إلى الدنيا ، والمولود ينتفع بذلك غاية الانتفاع كما ينتفع بالدعاء له ، وفي إحضاره مواضع المناسك والإحرام عنه وغير ذلك .

(١) [البخاري (٥٤٧٢)] كتاب العقيقة ، باب : إمطة الأذى عن الصبي في العقيقة .

(٢) [الترمذي (١٥١٤)] كتاب الأضاحي ، باب الأذان في أذن المولود .

(٣) [الترمذي (١٥١٩)] كتاب الأضاحي ، باب : العقيقة بشاة .

(٤) انظر: حق الوالدين على الأبناء (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

(٥) الموطأ: للإمام مالك (٢/ ٥٠١ - ٥٠٢) .

ومن فوائدها أنها تفكّ رهان المولود ، فإنه مُرْتَهَنٌ بعقيقته ، قال الإمام أحمد :

«مُرْتَهَنٌ عَلَى الشَّفَاعَةِ لَوَالِدِيهِ» وقال عطاء بن أبي رباح : «مُرْتَهَنٌ بعقيقته ، وقال : يُحْرَمُ شَفَاعَةُ وَلَدِهِ»^(١).

ومن فوائد العقيقة : أنها إظهار للفرح والسرور ، بإقامة شعائر الإسلام ، وبخروج نسمة مؤمنة يكثر بها رسول الله ﷺ يوم القيامة .

وفيها : إرفاد موارد التكافل الاجتماعي برغد جديد يحقق في الأمة مبادئ العدالة الاجتماعية ، ويمحو في المجتمع ظواهر الفقر والحرمان والفاقة^(٢).

ومن فوائد العقيقة : أنها فدية يُفدَى بها المولود ، كما فدى الله سبحانه إسماعيلَ الذبيح بالكَبْشِ ، وقد كان أهل الجاهلية يفعلونها ، ويلطّخون رأس الصبيّ بدمها فأقرّ رسولُ الله ﷺ الذّبح ، وأبطل اسمَ العقوق ولطخ رأس الصبيّ بدمها ، فقال : «لا أحبّ العقوق» وقال : «لا يُمسّ رأس المولود»^(٣).

وأخبر ﷺ : أنّ ما يذبح عن المولود ، إنما ينبغي أن يكون على سبيل التُّسْك كالأضحية ، فقال : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسُكَّ عَنْ وَلَدِهِ فَلْيَفْعَلْ»^(٤).

فجعلها على سبيل الأضحية التي جعلها الله نُسْكَاً وفداءً لإسماعيل ، وقُرْبَةً إِلَى اللَّهِ عز وجل .

وإذا أراد الرجل أن يعقّ يقول : «باسم الله ، ويذبح على النية ، كما يُضْحِي بَنِيَّتِهِ ، يقول : هذه عقيقة فلان بن فلان ، ولهذا يقول فيها : اللهم

(١) تحفة الودود بأحكام المولود : ابن قيم الجوزية (ص ٧٤ - ٧٦).

(٢) انظر : تربية الأطفال في رحاب الإسلام ص (١٧١ - ١٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٤/٢) وعبد الرزاق (٧٩٦١) ، وصححه الحاكم (٢٣٨/٤) وأقرّه الذهبي . وانظر : تحفة المودود (ص ٢٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣١٦٦) وفي زوائد البوصيري : إسناده حسن ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨/٤).

مِنْكَ وَلَكَ؛ وَتُسْتَحَبُّ فِيهَا مَا يُسْتَحَبُّ فِي الْأُضْحِيَّةِ مِنَ الصَّدَقَةِ ، وتَفْرِيقِ
اللَّحْمِ ، فَالذَّبِيحَةُ عَنِ الْوَلَدِ ، فِيهَا مَعْنَى الْقُرْبَانِ وَالشُّكْرَانِ ، وَالْفِدَاءِ ،
وَالصَّدَقَةِ ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ عِنْدَ حَوَادِثِ السَّرُورِ الْعِظَامِ ، شُكْرُ اللَّهِ ، وَإِظْهَارُ
لِنِعْمَتِهِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْمَقْصُودِ مِنَ النِّكَاحِ^(١).

رابعاً: رعاية الطفل منذ الصغر

تقديم الغذاء والكساء:

الغذاء: الغذاء ضرورة أولى من ضرورات الحياة ، فالجسم يحتاجها
دائماً ليساعده على النمو بشكل طبيعي ، والله سبحانه وتعالى أنعم على
الإنسان فأمرنا بالطعام والشراب ولكن دون إفراط لئلا نسبب لأبداننا
الأمراض ومنها: «البطنة» فيكون الطعام والشراب باعتدال .

قال تعالى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ حُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. وفي هذه الآية الكريمة أمرٌ من الله
سبحانه وتعالى بعدم الإكثار من الطعام والشراب حماية للجسم من الأوجاع .

قال الإمام الغزالي: «إن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن»^(٢) ويورد
في سياق حديثه عن فوائد الجوع وآفات الشَّبَعِ عدداً من الفوائد . . . ويحث
على تأديب الصبي للتخلص من آفة الشرِّه: «وأول ما يغلب عليه من الصفات
شرِّه الطعام فينبغي أن يؤدَّب فيه . . . وأن لا يسرع في الأكل وأن يجيد
المضغ^(٣) ، فالإلى جانب آفة الشرِّه يسعى الغزالي لتجنب الطفل مخاطر عدم
مضغ الطعام لما يترتب على ذلك من أمراض قد تصيب الجهاز الهضمي ،

(١) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود (ص ٥١ - ٥٢).

(٢) الإحياء للغزالي (١٨/٣).

(٣) المصدر نفسه (ص ٧٨).

مِمَّا يَلْحَقُ الضَّرَرَ بِصِحَّةِ أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ وَيَعِيقُهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِالرَّسَالَةِ الَّتِي خُلِقُوا لِأَجْلِهَا»^(١).

فالاعتدال في الطعام هو منهج إسلامي أمرنا بتطبيقه كما جاء في الآية الكريمة. وعن أبي كريمة المقدام بن معدٍ كَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، يَحْسِبُ ابْنُ آدَمَ أَكْلَاتِ يُقِمِّنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مُحَالَهَ؛ فَتُلْتُ لِعَاطِمِهِ، وَتُلْتُ لِشَرَاهِ، وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ». رواه الترمذي وقال: حديث حسن^(٢).

فالطفل أمانة بين يدي والديه عليهما أَنْ يُقَدِّمَا لَهُ مَا يَنَاسِبُهُ مِنَ الْغِذَاءِ حَسَبَ مَرَاكِلِ عَمَرِهِ وَنُمُوِّهِ، وَمِرَاقَبَةِ طَعَامِ الْوَلَدِ ضَرُورِيٌّ مِنْ حَيْثُ النُّوعِيَّةُ وَالْكَمِّيَّةُ، فَلَا إِسْرَافَ وَلَا تَقْتِيرَ، فَكُلُّ مَعْدَةٍ يَنَاسِبُهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَطْعِمَةِ حَسَبَ بِنَاءِ الْجِهَازِ الْهَضْمِيِّ، وَقَدْ أَكَّدَ لَنَا الطَّبَّ الْحَدِيثُ أَنَّ بَعْضَ الْأَطْعِمَةِ تَضُرُّ بَعْضَ الْأَجْسَامِ وَتُظْهِرُ عَلَيْهَا عَوَارِضَ الْحَسَاسِيَّةِ وَالْعِلَلِ وَالضَّعْفِ الْعَامِ؛ لِذَلِكَ كُلُّ مَا يَضُرُّ بِالْجِسْمِ يُعْتَبَرُ تَنَاوُلُهُ حَرَامًا لِأَنَّ الضَّرَرَ مَرْفُوضٌ فِي الْإِسْلَامِ، فَمِنْ هُنَا حَرَمَ الْإِسْلَامُ الْأَطْعِمَةَ الَّتِي تُوَدِّي إِلَى انْهِيَارِ الْجِسْمِ وَالصِّحَّةِ، وَالَّتِي تَعْطَلُ الْمُسْلِمَ عَنْ أَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ تَجَاهَ رَبِّهِ وَنَفْسِهِ وَأُمْتِهِ مِثْلَ: الْخَمْرِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخَنَزِيرِ وَجَمِيعِ الْمُسْكِرَاتِ وَالنَّجَاسَاتِ، مِنْهَا مَا حُرِّمَ لِضَرَرِهَا، وَمِنْهَا مَا حُرِّمَ تَعَبُّدًا^(٣). وَقَدْ بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَا حُرِّمَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ^(٤) وَالْمُزْدَبَقَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ

(١) التَّحْرِيمُ الْإِسْلَامِيُّ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ: أَيُوبُ دَخَلَ اللَّهُ (ص ١٧١).

(٢) «أَكْلَاتِ» أَي: لُقِمَ. [الترمذي (٢٣٨١) وابن ماجه (٣٣٤٩)] وانظر: رياض الصالحين الكتاب الأول باب: فضل الجوع.

(٣) الطفل في الشريعة الإسلامية (ص ٤٣٠).

(٤) «الموقوذة»: أي المقتولة بالضرب: مفردات ألفاظ القرآن، (وقد) (ص ٨٧٩).

عَلَى النَّصَبِ . . . ﴿ [المائدة: ٣] كما حَلَّ اللهُ لنا خير الأُطعمة: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٨١] ﴿فَكُلُوا وَمَارَزَقْكُمْ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [النحل: ١١٤].

الكساء: ومن الواجبات على الوالدين أن يقدمَا الكساء المناسب للطفل ليتقي به حرارة الصيف وبرودة الشتاء. ومن الرعاية التامة التي هي من حق الأطفال: المأكل والملبس والنفقة أيضاً وتقديم المسكن المناسب حسب الاستطاعة. والأب الغنيّ القادر على نفقة عياله بما أنعم الله عليه من دخلٍ مناسب يكون تقصيره في التّفقة المناسبة بُخْلاً وشُحاً والله يقول في محكم آياته: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ إِيمَانَهُمْ أَنَّهُم مِّنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠] ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ولقد وضع الإسلام النهج التربوي الذي يجعل مظهر المسلم لانقاً في مشيه ولباسه وكلامه وفي كل ما يتعلق بالآداب العامة، ولقد اهتم المفكرون التربويون بآداب الملابس، فهذا مسكويه قد وضع قواعد للزّيّ جدير بالإنسان أن يعرفها، يقول: «ومن المضمرات التفاخر أمام الأقران بالثياب أو بالجاه والوضعية الاجتماعية الرفيعة»^(١)، ويوصي «بأن يُرتبى الولد، ولا سيما أبناء الأغنياء، في جوٍّ تَقَشَّفٍ وقساوة بعيداً عن التّنعّم والثّرّف»^(٢).

لقد دعا الإسلام إلى لبس الجميل من الثياب من دون تكبر ولا مفاخرة. . وأن نبعد أطفالنا عن الصبيان الذين تعودوا الثّرّف، والتّنعّم ولبس الثياب الفاخرة والملونة»^(٣).

قال تعالى: ﴿يَبْنِيْٓءَ آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَيلَ تَقِيْكُمْ الْحَرَّ

(١) تهذيب الأخلاق: ابن مسكويه (ص ٧٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٤).

(٣) انظر: اطلل في الشريعة الإسلامية (ص ٣٣٤ - ٣٣٥).

وَسَرَّيْلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمُ» [النحل: ٨١] وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال النبي ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مَخِيلَةٍ»^(١).

ومن ألوان اللباس المستحب في الإسلام: الثوب الأبيض وجواز الأحمر والأصفر والأسود ، وجوازه من قطن وكتان وشعرٍ وصوف وغيرها ؛ إلا الحرير .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياضَ ؛ فإنَّها من خير ثيابكم ، وكَفَّنُوا فيها موتاكم» رواه أبو داود ، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح^(٢).

وعن أبي رَمْثَةَ رِفاعَةَ السَّيْمِي رضي الله عنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وعليه ثوبانٍ أخضرانِ . رواه أبو داود ، والترمذي بإسناد صحيح^(٣).

خامساً: حضور الوالد وإشرافه على تربية أولاده

إن تربية الأولاد هي أهم وأخطر عملية تربية والذي يقوم بهذه المهمة كلا الوالدين ، فالولد أكثر ما يكون تأثره وما ينطبع بذهنه وفكره ما يأخذه من إرشادات وتوجيه من أبويه ، فتربية الولد إذا كانت بإشراف والده خاصة ، يضمن هذا الوالد أنَّ ولده سيكون كما رباه و كما عوّده على الخير والفضائل ، ولا يعتبُ الوالد المقصّر ويرمي ولده بالعقوق إذا أهمله أو انشغل

(١) النسائي (٧٩/٥) وابن ماجه (٣٦٠٥) ، «مخيلة»: كَبُر .

(٢) [أبو داود (٣٨٧٨) والترمذي (٩٩٤)] رياض الصالحين كتاب اللباس ، باب استحباب الثوب الأبيض .

(٣) [أبو داود (٤٠٦٥) والترمذي (٢٨١٣) والنسائي (٢٠٤/٨)] المصدر السابق نفسه .

بديناه عن تربية أولاده . ولتعرّف على ما يقوله الغزالي .

التربية عند الغزالي :

واجب الوالدين : يرى الغزالي أنّ من واجب الوالدين أن يُربّيا ولدهما على الخير والفضيلة وأن يجنباه الشرّ والرذيلة ، وأن يسيرا به نحو الجادة القويمة وأن يطبعاه بطابع المثل العليا ، لأن الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهره نفيسة ، ساذجة ، خالية . . . فإن عُوّد على فعل الخير وعُلّمه ، نشأ عليه ، وإن عُوّد الشرّ ، شقي وهلك^(١) .

وهو بجوهره خُلِقَ قابلاً للخير والشرّ جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين قال رحمه الله : «كلُّ مولود يولد على الفطرة . . . » .

تربية الوالد :

والأسرة هي الخلية الاجتماعية الأولى ، وهي أول ما تكتحل عينا الطفل به فيتمتع فيها وتحوطه العناية من قبّلها وتنشأ الحقوق المتبادلة والواجبات المتقابلة ، فمن حقّ الولد على الوالد منذ اللحظة الأولى «أن يُحسن أدبه ويُحسن اسمه» .

والوالد في الأسرة أشبه بالطبيب الحاذق يُراعي الفروق بين أولاده من حيث سنّهم ، وأحوالهم ، وظروفهم ، يسألهم حين القدرة ، ويلتمس لهم العذر في موطن الرخاء ، يرغّبهم تارة ويحفّزهم تارة أخرى "يعينهم على برّه ولا يكلفهم من البرّ فوق طاقتهم ، ولا يلحّ عليهم في وقت ضجرهم ، ولا يمنعهم من طاعة ربّهم ، ولا يمنّ عليهم بتربيته"^(٢) .

آداب الولد :

يُعتبر الولد ثمرة القلب وفِلذة الكبد ، فيبذل الوالدان كل ما في وسعهما

(١) إحياء علوم الدين : الغزالي (٣/ ٦٣) .

(٢) الأدب في الدين (ص ٢٤) .

لإسعاده ويدفعان في سبيله الغالي والتَّقيسَ ، يسهران عليه ، ويرعيانه حقَّ
الرعاية ، ويعتنيان به جسماً وروحاً. يؤدِّبانِه في كل شيء ، فأحرى به أن
يسمع كلامهما ، ويقوم لقيامهما ، ويمثّل لأمرهما ، ويلتبي دعوتهما ،
ويخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة ، ولا يُبرِّمهُما بالإلحاح ، ولا يَمُرُّ
عليهما بِالْبَرِّ ولا بالقيام بأمرهما ، ولا ينظر إليهما شزراً ، ولا يعصي لهما
أمرًا^(١).

وبهذا يؤدي الولد حق الوالدين المترتب عليه ، وبذلك تخيم الطمأنينة في
الأسرة ويسود التفاهم وترفرف السَّعادة.

يقال في المثل: كما تزرع تحصد ، أي: الأسلوب الذي استعمله المربي
مع ولده والنهج الذي جعله يخطو بموجه هو ما سيراه فيما يستقبله من أيام ،
عندما يترعرع هذا الولد ، فالأب بيده وأسلوبه ورعايته وعنايته سيجعل من
شخصية من يربيته فرداً مفيداً لنفسه ولوطنه وأمته.

ومن الآداب التي يجب على الوالد تلقينها لولده: الاعتدال في كل شيء ،
في المأكل ، والمشرب ، والملبس ، واللعب.

الاعتدال لا الترف :

المال عصب الحياة وزينتها ، يتخذ البعض سنداً لحياة فاضلة ، ويستغلّه
البعض الآخر كعونٍ على المفساد والرذيلة ، ويرى سبباً للانغماس في اللهو
والترف ، فينزلق إلى الهاوية يتردى فيها ورحم شوقي حيث قال :
إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفِرَاقَ وَالْجَدَّ مَقْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدِهِ

(١) المصدر السابق (ص ٢٢) يخفض لهما جناح الذل: أي يستكين لهما ويخضع
لأمرهما. انظر الآية (٢٤ من سورة الإسراء) ، ولا يبرمهما: ولا يضجرهما.
لا يمسُّ عليهما: لا يعدُّ عليهما ما فعله من الصنائع معهما. شزره شزراً: نظر إليه
بمؤخرة عينيه ، والشرز: نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة.
وانظر: تربية الولد عند الغزالي: محمد أحمد عز الدين (ص ٥ - ٦).

وواجب الوالد إزاء ولده أن يغرس في نفسه حب الاعتدال في الإنفاق من أول وهلة ، و«لا يعوّده التّنعم ولا يحبّب إليه الزّينة وأسباب الرفاهية فيضيّع عمره في طلبها»^(١).

وإذا كان الأب حكيماً في تصرفاته مُدركاً لمسؤولياته فإنّه بين الآونة والأخرى يعوّد ابنه «الخشونة في المفرش والملبس والمطعم» بحدود مقبولة ومعقولة لتستبين للولد قيم الأشياء وليدرك أنّ المال لا يأتي بصورة عفوية وبدون كدّ وتعب.

قال الشاعر:

وَمَنْ أَخَذَ الْبِلَادَ بِدُونِ حَرْبٍ يَهْوُنُ عَلَيْهِ تَسْلِيمُ الْبِلَادِ
آداب المائدة:

في كل يوم يضيف الطفل خبرة جديدة إلى خبرته يستفيد منها من حركاته اليومية ، من لعبه ، وصحّيه ، ومن طعامه وشرابه ونومه ويقظته ، يركّز فيها اهتماماته ، ثم يتربّى عليها ، فالطعام ضرورة حيوية لا يمكن الاستغناء عنه يتناولها الإنسان صباح مساء ، ولكن ضمن قواعد وأصول ، فالمائدة لها آدابها ، وحرّي بالطفل أن يكتسبها كأن «لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه : باسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدّق النظر إليه ولا إلى مَنْ يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوالي بين اللّقم ولا يلطّخ يده ولا ثوبه».

التربية بحكمة:

والوالد يتدخل في توجيه ابنه بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، وقد يكون الأسلوب غير المباشر أسلم عاقبة ، وأجدى من الأسلوب المباشر الذي يبدو أحياناً وكأنّه يجرح الشعور ويحطّم الفؤاد.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٦٣) وانظر تربية الولد عند الغزالي (ص ٦ - ٧).

آداب المجلس :

وهناك آداب اجتماعية في المجلس وعند الحديث يجدر بالطفل أن يتعودها كأن: «لا يبصق في مجلسه ، ولا يتمخّط ، ولا يتشاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضع كفّه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده... ويُعَلِّمُ كيفية الجلوس ، ويُمنع كثرة الكلام ، ويُمنع اليمين صادقاً أو كاذباً. ويُمنع أن يبتدىء بالكلام ويعودّ ألا يتكلّم إلا جواباً وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنّاً وأن يقوم لمن فوقه . ويمنع من لغو الكلام وفحشه» .

التربية الخُلُقِيّة :

والتربية الخُلُقِيّة لها الأثر الكبير في تكوين الشخصية إلى جانب تأثيرها في المجتمع .

وإنّما الأئمّة الأخلاقُ ما بقيت فإن هُم ذهبَتْ أخلاقُهم ذهبوا وما أجدر الطفل أن تُوجّه إليه العناية التامّة حتى ينشأ متكاملًا فيُمنع أن يأتي أمراً شائئاً وفعلاً قبيحاً ، فلا يَحْسُنُ أن «يفتخر على أقرانه بشيء ممّا يملكه والده أو بشيء من مطاعمه وملابسه ، أو ممتلكاته أو أدواته ؛ بل يُعوّد التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطّف في الكلام معهم ويُمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً... بل يُعلِّمُ أنّ الرّفعة في العطاء لا في الأخذ» .

مراقبة سلوك الطفل :

والولد يتكلّم ويصمت ، يلعب ويستريح ، ينام ويستيقظ ، يضحك ويبكي ، يغضب ويرضى ، يذهب ويأتي ، وكل هذه التصرفات تستدعي الانتباه وتلفت النظر فينبغي: «أن يُراقب من أول أمره... فإنّ الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه ، خرج في الأغلب رديء الأخلاق ، كذاباً ، حسوداً ،

سروفاً ، نَمَاماً ، لِحَوْحاً ، ذَا فَضُولٍ وَضَحِكٍ ، وَكِيَادٍ وَمِجَانَةٍ»^(١).

واجب التعليم:

وإذا بلغ الطفل سنّ المدرسة ووصل لمرحلة الوعي الجزئي أو الكلي ، فمن واجب أبيه أن يرسله إلى المدرسة ليتعلّم «القرآن وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار وأعمالهم»^(٢).

وما يراه الإمام الغزالي في أسلوب التربية هو من المنهج التربوي الإسلامي ، فتوجيهات الغزالي وملاحظاته تنصبّ بكليّاتها على الأب المربي والموجه والمرشد ، فالأب هو رُبّان سفينة تربية أولاده وهي تسير حسب أهواء قائدها ومهارته في إدارة دفتها ليصل بالأولاد إلى شاطئ الأمان حيث تكون شخصية كل ولد طبقاً لما طبّعه عليه أبوه ، ويرى الإمام الغزالي أن مما يؤثّر في تربية الولد: بيئته ورفاقه وزملاؤه ؛ وهنا واجب الأب أن يراقب ولده ؛ مَنْ يصاحب ويعاشر ، وَمَنْ يأنس بمرافقته ، حتى يكون عند الأب معرفة برفاق ولده لأنّه سيتأثر بأخلاقهم وسلوكهم ، فإذا كانوا على خُلُق طيّب فيرحب بهم وبصحبتهم لولده ، وعلى الوالد أن يَضَعَ نُصَبَ عينيه إبعاد ولده عن رفاق السوء .

قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه فكلّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي
وفي المثل: قلّ لي من تُعاشِر ، أقلّ لك مَنْ أَنْتَ .

وقال أبو تمام:

إذا جاريتَ في خُلُقٍ دنيئاً فأنتَ ومَنْ تجارِيه سواءُ
وقال آخر:

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٦٣) .

(٢) المصدر السابق (١/٦٣) وانظر: تربية الولد عند الغزالي: محمد أحمد عز الدين ، مطبوعات التمدن الإسلامي ١٣٨٣هـ - ١٩٦١ م .

اجعل قرينك من رضىت فعاله واحذر مقارنة اللئيم الشائن^(١)

سادساً: ظاهرة وأد البنات

كان العرب في العصر الجاهلي يعتبرون البنت مصيبة كبيرة من المصائب التي تقع على رأس الأهل ، وأصبح من عاداتهم السيئة وأد البنات ؛ لجهلهم وبُعدهم عن الفهم الصحيح . جهل مطبق ، وقساوة لا يمكن تبريرها ، والله سبحانه وتعالى لم يفرّق بين الذكر والأنثى ، والآيات كثيرة في ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ [الحجرات : ١٣] ﴿ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجُلَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ [النجم : ٤٥] بين لنا سبحانه وتعالى أن خلقه كان للجنسين ، الذكر والأنثى ، وجعلهما زوجين ، فكيف يأتي العبد ويجعل الأنثى في الدرك الأسفل ؟! وآيات أخرى توضح أن الله لا يضيع ثواب من فعل الخير من ذكر أو أنثى فكلاهما سواء ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ [النساء : ١٢٤] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ﴿ ... فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ [آل عمران : ١٩٥] . آيات كريمات تبين بوضوح أن الله يخاطب كلا الجنسين معاً ويعدهما بالجنة والثواب والحياة الطيبة حسب عملهم الطيب . وهذا وضع المرأة في الإسلام الذي أخرجها من الذلّ والعبودية والمهانة . وستعرّف الآن على وضع المرأة في الجاهلية وعلاقتها مع الرجل .

المرأة في الجاهلية :

يقول سعيد الأفغاني : «درج الجاهليون في علاقتهم بالمرأة على أحوال يصعب معها إطلاق الحكم إطلاقاً عاماً ، فهم يحترمونها في نواح ويمتهنونها

(١) الأبيات من جواهر الأدب . الجزء الثاني : أحمد الهاشمي . ط ٢ مصر المكتبة التجارية (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) .

في أخرى ، والحق يقتضينا أن تكون نظرُنا عامّة شاملة ، فلا يصح أن نحكم على حال المرأة - كما فعل فريق من الباحثين - ببعض نساء الأشراف المحترّيات كـ «ماوية» امرأة حاتم و«هند» زوج أبي سفيان و«خديجة» بنت خويلد مثلاً ، كما لا يصح أن نشايح فريقاً آخر كان إلى الجور المحض حين اتخذ بعض نساء البُداة والعوام الخشنين القساء مثلاً لنساء الأمة كلها .

ونحن مع تقريرنا أن المرأة العربية في القرنين السادس والسابع للمسيح أهنأ حالاً وأقرب إلى الاحترام في الجملة من المرأة في بقية الأمم المتحضرة منها كالرومان ، ومع هذا لا نجد محيصاً عن ذكر الحيف الذي عانته ، بعد شرح الرعاية لها .

فقد كان للروماني وغيره - قبل النصرانية - الحق في أن يقتل زوجته ؛ كما له الحق في قتل عبيده ، ونرى الأمم الأوربية حتى بعد النصرانية بقرون تدأب على ازدراء المرأة والانحطاط بها عن مستوى البشر ، واعتبارها مصدر الشرور والآثام ، وأنها مخلوق لا يستحق غير اللعنة^(١) .

وفي كتاب الإسلام والحضارة العربية : اعتبر الأثينيون - وهم أكثر الأمم القديمة مدنية - المرأة من سَقَطِ المتاع ، تُباع وتُشترى في السوق لا منزلة لها ، وكان يحق للأثيني أن يتزوج بأيّ عدد شاء من النساء ، أما أسبارطة فلا تسمح للرجل بأكثر من زوجة ، أما المرأة فلها أن تتزوج بأكثر من واحد وكانت النساء يمارسن ذلك^(٢) .

وقبل أن ندخل في تاريخ المرأة العربية في الجاهلية ، ثم بعد أن أنعم الله عليها بالإسلام وتغيّرت أحوالها والنظرة إليها وعرفت مكانتها بين المخلوقات سنتابع معرفة حال المرأة غير العربية ، ونقارن بينها وبين العربية .

(١) الإسلام والمرأة : سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، دمشق ط ٢ ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م (ص ١٢ - ١٤) .

(٢) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٨٠ - ٩٤) وانظر المصدر السابق .

المرأة الرومانية: كان التعدد في بلاد الرومان - دون قيد أو شرط - معمولاً به ومع تحريم الإمبراطور جوستينيان التعدد بقي شائعاً ، وكانت الزوجة الأولى تتحكم بالبقية ، وليس لهنَّ حقوق ، فكنَّ ذليلات وأولادهن سقط المتاع في الهيئة الاجتماعية ، لا ميراث ولا حقوق^(١).

المرأة الفارسية: وهي التي صار لها فيما بعد أكبر الأثر في انحطاط المرأة العربية - فقد كانت عبدة سجيئة لا منزلة لها ، تُباع ببيع السلع ، وقد أباحت الأنظمة الفارسية بيعها وشراءها ، وشُرَّ من ذلك أنها أباحت - على ما يقول الكاتب الروسي أغاييف - الزواج بالأمهات والأخوات والعَمَّات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . . ، والمرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة ، ويحقَّ له أن يحكم عليها بالموت دون رقيب أو مؤاخذه ، يتصرّف بها تصرفه بسلعته ومتاع بيته^(٢).

هذا ما كان من حال المرأة غير العربية ، ويعرف من يطّلع على التاريخ العام أموراً أخرى مذهلة « . . . بينا كان ذلك كله ؛ رأينا العربي قد سما بفطرته في بعض الحالات ، فمجد المرأة في جاهليته ، وناجها في سِرِّه وعَلَّنه ، ونظر إليها فوضعها في منزلة تُسامي منزلة الرجل في كثير من الأحيان .

تولد الأنثى ، فيشعر والدها بخيبة ، فإن تظاهر بالفرح كان فرحاً واجماً يختلف عن الأفراح التي تُقام لولادة الذكور . . . وهذا شيء في طبيعة الناس . . . يتمنى كل والد أن يكون مولودهما ذكراً . . . وتُعنى الأم بطفلتها عنايتها بطفلها ، ويغلب أن يكون نصيب الأنثى إذا عاشت من عطف أبويها أكثر ، وتكون رحمتها لها أشدَّ لضعفها ، وخير ما يمثل ذلك قول إسحاق بن خلف:

لولا أُميمةٌ لم أجزُع من العَدَمِ ولم أقاسِ الردى في حنْدِسِ الظَلَمِ

(١) انظر: مركز المرأة في الإسلام: أمير علي الهندي ١٩١٢ (ص ٣٥ - ٣٨).

(٢) انظر: حقوق المرأة في الإسلام: أحمد أغاييف، ترجمة: سليم قبعين ١٩٠٥.

وزادني رغباً في العيش معرفتي ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو رِحمِ
أحاذِرُ الفقرَ يوماً أن يُلمَّ بها فيهلك السترَ من لحمٍ على وضمِ
وقول حطّان بن المعلّى :

لولا بنياتُ كزغِبِ القطا رُدِدْنَ من بعض إلى بعضِ
لكان لي مضطربٌ واسعٌ في الأرض ذات الطولِ والعرضِ
وإنما أولادنا يئنّنا أكبادنا تمشي على الأرضِ
لو هبّت الريحُ على بعضهم لامتنعَت عيني من الغمضِ

حتى إذا بلغت الفتاة مبلغ النساء كان لها محض الإرادة في اختيار الزوج
إلا فيما ندرُ فإن أنسلت تمت لها المكانة المرموقة في النساء . والعربيّ شديد
الاحترام لأُمّه ، كثير الحذب عليها وعلى صيانتها ، ويطيب له أن يتمدّح إلى
النساء ببطولته وأمجاده^(١) .

لقد كان فرسان العرب ينزلون إلى حومة الوغى وألستهم رطبة بذكر
صواحيهم أو أخواتهم أو أمهاتهم ، يرتجزون متحمسين طالبين إلى هؤلاء
النسوة أن يشهدنّ شجاعتهم . . قال عنتره :

هلا سألت الخيلَ يا بنة مالك إن كنتِ جاهلة بما لم تعلّمي
يُخبرُك مَنْ شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعفت عند المغنمِ

... ولما جاء الإسلام وانبثت جيوش العرب تكافح الظلم في مناطق
كثيرة ، صرت تسمع تمدّح الفرسان بضروب شجاعتهم للنساء... ففي
حرب القادسية تسمع قول القائل :

حييت عَنّا عكرم ابنة خالد وما خير زاد بالقليل المصردِ

(١) انظر: الإسلام والمرأة (ص ١٤ - ١٥) حندس: الليل الشديد الظلمة ، الوضم :
الخشب الذي يوضع عليه اللحم . «زغب القطا: الزغب: صغار الريش ، و«القطا»
نوع من اليمام يؤثر حياة الصحراء ، المعجم الوسيط: ضرس ، وضم ، زغب ،
قطا .

وَحَيْتِكَ عَنَّا عُصْبَةَ نَخَعِيَّةٌ حَسَانُ الْوَجْهِ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ
أَقَامُوا لِكَسْرِي يَضْرِبُونَ جَنُودَهُ بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنَّدٍ^(١)
وكذلك في حرب اليرموك بالشام... لقد كان الفارس العربي يعدُّ
إعجاب المرأة به خير مكافأة على بطولته واقتحامه الموت.

وإن شيوع الغزل في كل قصيدة جاهلية مهما كان موضوعها والباعث على
قولها لخليق أن نقف أمامه متأملين ملاحظين ، فما كان هذا ليكون ، لولا أن
المرأة تشغل في المجتمع العربي منزلة هامة .

والعُرف العربي لا يجوز تعريض النساء للمخاوف والتهديد ، ويفرض
حمايتهنَّ ، والعادة عند العرب بأن لا تُقابل المرأة بالمثل إذا بدأت بضرب أو
شتم ، والمثل المشهور ما قاله حاتم الطائي : «لو غير ذات سِوار لَطَمْتُني!» .

وبعد ما اطلعنا على قيمة المرأة العربية في الجاهلية ، وسنعرف أنَّ عادة
وأد البنات كانت منتشرة في عدد من قبائل العرب - وليس كلها - وبالمقارنة
مع حال المرأة الأثينية والروميَّة والفارسية ، نجد أنَّ العربية مهما أصابها من
ذلٍّ وهوان أقل بكثير ممَّا كان الأعاجم يعاملون به المرأة . ونعود إلى المرأة
الجاهلية لتتعرف أكثر على صفاتها ومنزلتها في قومها كزوجة وأم .

صفات المرأة الجاهلية :

تتميّز المرأة الجاهلية في الجملة بخلالٍ ثلاث : العِفَّة ، والفصاحة ،
وحسن التربية لبنيها .

(١) المصرد: صرَد الشيء: قلَّله. المعجم الوسيط «صرد» (ص ٥١٢) ، نخعية: من
قبيلة النخع. رقيق الشفرتين: السيف المطبوع من حديد الهند ، المصدر السابق
(ص ٩٩٧) «هَنَّدَ» .

يقول الطبري: هذا وقد كان مع الجيوش المجاهدة نساؤهم فكان مع قبيلة بجيلة
ألف امرأة ومع قبيلة النخع سبعمئة امرأة. لقد كان نصيب المرأة من النصر يومذاك
عظيماً جداً. الطبري: (٨٣/٣).

وإنَّ الرجولة الطافحة في بلاد العرب مدينةٌ بالشَّيء الكثير للمرأة إنَّ لم تكن مدينة لها وحدها بكل صفاتها من مروءة ، وشجاعة ، وكرم ، ونجدة ، وأصبح اختيار الأمهات أول ما يفكر فيه الجاهلي إذا ابتغى النجاة لأبنائه ، حتى صَحَّ أن يكون رأس ما يَمُنُّ به الرَّجل على أبنائه هو حُسن اختياره لأمههم :

وأوَّل إحساني إليكم تَخْييري لِماجدة الأعراق بادِ عفافها^(١)
كراهة تسخُّط البنات :

إن الإسلام كره أن تكون معاملة البنات أدنى من معاملة الأهل للصبي ، وبين القرآن الكريم في كثير من آياته الشريفة أن الذَّكر والأنثى صنوان ، فإذا كان ربُّ العزَّة جل جلاله لم يفرِّق بينهما فلماذا يبتدع الإنسان الجاهل بأمر ربِّه نظاماً خاصاً به يقدِّم ويؤخر ، ويحب ويكره ، حسب مزاجه ، والأحرى به أن يُطيع ربَّه سبحانه ويتبع نصائح رسول الله ﷺ بالعطف على البنات وعدم تمييز الصبيان عليهنَّ ، قال الله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۚ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٤٩ - ٥٠] .

«فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود ، وأخبر أن ما قدَّره بينهما من الولد ، فقد وهبهما إياه ، وكفى بالعبد تعريضاً لمقته أن يتسخط ما وهبه ، وبدأ سبحانه بذكر الإناث ، فقل : جبراً لهنَّ لأجل استئصال الوالدين لمكانهنَّ ، وقل : إنما قدَّمهن ، لأن سياق الكلام أنَّه فاعلٌ ما يشاء ، لا ما يشاء الأبوان ، فإنَّ الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً ، وهو سبحانه قد أخبر أنَّه يخلق ما يشاء ، فبدأ بذكر الصَّنْف الذي يشاء ، ولا يريد الأبوان .

وأيضاً : أنَّه سبحانه قدَّم ما كانت الجاهلية تؤخِّره من أمر البنات حتى كانوا

(١) انظر : الإسلام والمرأة (ص ١٦ - ١٩) .

يُثِدُونَهُنَّ. . فتأمل! كيف نكّر سبحانه الإناث وعَرّف الذكور فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص التأخير بالتعريف. . والله أعلم بما أراد من ذلك .

والمقصود: أن التسخّط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ٥٩ أَيُنْسِقُ عَلَىٰ هُوًّا ٥٨ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ ٥٩ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وهناك أحاديث كثيرة للنبي ﷺ في حث المسلم على إكرام البنت والإحسان إليها ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(١).

وقال أيضاً: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكُونُ لَهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحَبَهُمَا وَصَحْبَتَاهُ إِلَّا أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةُ»^(٢).

وقال تعالى في حق النساء: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وهكذا البنات أيضاً قد يكون للعبد فيهنَّ خيرٌ في الدنيا والآخرة . . . قال يعقوب بن بختان: «وُلِدَ لِي سَبْعُ بَنَاتٍ ، فَكَنتُ كُلَّمَا وُلِدَ لِي ابْنَةٌ دَخَلْتُ عَلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، فَيَقُولُ لِي: يَا أَبَا يَوْسُفَ! الْأَنْبِيَاءُ آبَاءُ بَنَاتٍ ، فَكَانَ يُذْهِبُ قَوْلُهُ هَمِّي»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَالَ جَارِيتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ وَضُمَ أَصَابِعُهُ» رواه مسلم^(٤).

(١) [البخاري (٥٩٩٥) ومسلم (٢٦٢٩)].

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٠) وأحمد (٢٣٥/١) والبخاري في الأدب المفرد (١/٧) وابن أبي شيبة (٥٤٨٩) . . . وغيرهم.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (ص ١٨ - ٢١).

(٤) [مسلم (٢٦٣١) والترمذي (١٩١٧)] عال: أي أقام عليهما بالمؤونة والتربية =

ومما سبق نلاحظ الصفات النبيلة التي تحملها المرأة العربية في الجاهلية والإسلام وأن منزلتها عند الرجل تتفاوت بين قبيلة وأخرى ؛ ومن هذه القبائل من احترمتها وقدرتها ، ومنها من ظلمها ، وقسا عليها ، وامتهنها ، واعتبرها أداة شرّ .

مظالم الجاهلية للمرأة :

وكان البلاء الأكبر أن تلد لرجلها أنثى ، ولقد علّوا في كُرهِهم الأنثى حتى كان ما قصه الله علينا من أمرهم من شهوتهم للبنين وكرههم للبنات :

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : ٥٧] .

وقال تعالى واصفاً حالهم معرّضاً بهذا المثل الذي جعلوه لله :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف : ١٧] .

هذا الغلو في كره الإناث أدى إلى العادة المشؤومة وهي «وَأَد البنات» ، فكانت بعض قبائل العرب لـ «ربيعة ، وكندة ، وتميم»^(١) تند بناتها خوف أن يجرحن الفتر إلى العار والفضيحة ؛ بل إن بعض العلماء ذهب إلى أن وأد البنات كان في عادة قبائل العرب .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۚ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ - ٥٩] .

وهذا يدل على أن الوأد كان فيهم بنسبة واسعة هائلة ، بحيث تصبح الجزيرة مسرحاً لمجازر بشرية بحق البنات ، وقد ذكروا أن رجلاً واحداً هو

= ونحوهما ، «جارتين» : أي بنتين . رياض الصالحين ، الكتاب الأول باب : ملاطفة اليتيم والبنات .

(١) بلوغ الأرب (٣/ ٤٢) وانظر : الإسلام والمرأة : سعيد الأفغاني (ص ٢١ - ٢٣) .

«قيس بن عاصم المنقري» وأد بضع عشرة من بناته في الجاهلية ، فلما أسلم قال يوماً للنبي ﷺ: «إني وأدت اثنتي عشرة بنتاً أو ثلاث عشرة بنتاً» .

ومع أن الإسلام يجب ما قبله ، لم يشأ النبي ﷺ إلا أن يعظم عليه ما أتى ، وأن يفرض عليه كفارة تقابل فعلته فقال له: «أُعْتِقَ عن كلِّ واحدةٍ نَسَمَةً»^(١) .

ولأمر ما ، كان من جملة ما بايع عليه النبي ﷺ النساء يوم فتح مكة: ألا يقتلن أولادهن^(٢) . وعن المغيرة ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عَقُوقَ الْأُمَهَاتِ وَمَنْعاً وَهَاتِ وَوَادَ الْبَنَاتِ»^(٣) .

وهذا المنكر وإن كان مصدره الإغراق في فضيلة العفة ، تعافه الطبيعة البشرية وتبشراً من قساوته وشناعته ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ - ٩] .

شاعت هذه العادة الذميمة . . وكم ذهب ضحاياها من البريئات ، وكم اقشعرت لِهَوْلِها قلوب وأكباد ، حتى أدرك الله تلك القبائل بالإسلام .

الإحسان إلى البنات :

خير من أحسن إلى البنت وكرّمها وأنزلها منزلة عظيمة: الإسلام! لقد أوصى برعايتها وحمايتها لأنها أمّ المستقبل التي تحتضن القادة والحكماء والأدباء والبلغاء والعلماء؛ فالبنت إذا كانت العناية بها كما أمر به الشرع الحنيف ستبني لنا مجتمعاً فاضلاً فيه كل الخير ، ولو لم يعرف الإسلام أنها هي أساس بناء صرح الحياة الكريمة؛ لما أعطاهم الحق في حضانة وكفالة طفلها - ولو طلقها زوجها - وخصّصها الإسلام بتربية الأولاد في المرحلة الأولى ، وفي الأحاديث الشريفة الكثيرة التي توصي بالإحسان إلى البنات .

(١) أسد الغابة (٤/ ٢٢٠) .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٢٨) وانظر الإسلام والمرأة .

(٣) [البخاري (٥٩٧٥) كتاب: الأدب ، باب: عقوق الوالدين من الكباير ، ومسلم

(٥٩٣) كتاب الأفضية باب: النهي عن كثرة المسائل] .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئا غير تمر ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته ، فقال: «من ابنتي من هذه السات بشيء كُرَّ لَهُ سِرّاً مِنَ النَّارِ»^(١).

وعن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ وَلِدَ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يَنْدُهَا ، وَلَمْ يُهْنِهَا ، وَلَمْ يُؤَيِّزْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا - يعني الذكور - أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ»^(٢).

وعن عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَتْ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَّرَ عَلَيْهِنَّ ، فَأَطَعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ كُرَّ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ»^(٣).

وعن موسى بن علي بن رباح قال: سمعت أبي يحدث عن سُرَاقَةَ بن جُعْثَمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا سُرَاقَةُ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَعْظَمَ ، أَوْ قَالَ أَعْظَمَ الصَّدَقَةِ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «ابْتِئْكَ مَرْدُودَةً إِلَيْكَ ، لَيْسَ لَهَا كَاسِبٌ غَيْرُكَ»^(٤).

وعن سفيان بن عُيَيْنَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا طَافَ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا رَبَّ حَسْبِيَ بُنَيَاتِي حَسْبِيَ
أَذْهَبْنَ مُخَيٍّ وَأَكَلْنَ كَسْبِيَ
إِنْ زِدْتَنِي أُخْرَى قَطَعْتَ قَلْبِي

(١) [البخاري (١٤١٨) ومسلم (٢٦٢٩)].

(٢) [أبو داود (٥١٤٦) ، والحاكم (١٣٣/٤)].

(٣) أخرجه المصنف من طريق ابن المبارك ، وهو في كتاب «البر والصلة» برقم (١٥٣) ، وابن ماجه برقم (٣٦٦٩) والبخاري في الأدب المفرد (٧٦) وأحمد (١٥٤/١) ، والطبراني في الكبير (٨٢٦/١٧-٨٢٧).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «البر والصلة» [(١٥٢)] وابن ماجه (٣٦٦٧) كتاب: الأدب ، باب: بر الوالد والإحسان إلى البنات.

فَسَمِعَهُ عَمْرٌ فَقَالَ: كَمْ بَنَاتُكَ؟ قَالَ: أَرْبَعُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَمَرَ لَهُ عَمْرُ
بِأَجْرِ دِرْهَمَيْنِ فِي الْيَوْمِ .

وقال عيسى الحبطي :

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حُبًّا بَنَاتِي إِنَّهُنَّ مِنَ الضَّعَافِ
مَخَافَةً أَنْ يَذُقْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صَافٍ^(١)

سابعاً: التربية والتوجيه من الصَّغَر

غرس القيم الدينية والعادات الإسلامية الصحيحة :

إن من أهم واجبات الأبوين تجاه الأولاد ، تربيتهم تربية فاضلة حسب
المنهج التربوي الإسلامي ، وهذا لا يكون إلا باتباع السُّبُل القويمية في
محاولة غرس المبادئ والقيم الدينية التي تلتزم بما جاء به الشرع الحنيف ،
ولا يقتصر هذا المنهج في التربية الإسلامية على البيت فقط؛ بل وعلى
المدرسة ؛ وتدعم هذا وسائل الإعلام وأدوات الثقافة والتوجيه في كل جوانب
الحياة ، ومع هذا تقع المسؤولية الأساس على عاتق الأسرة أولاً ، لأن
الأسرة هي الحاضن الأول والأهم في حياة الطفل .

ف«الأسرة هي البيئة الطبيعية التي تتعهد الطفل بالرعاية الكاملة ، فهي
تغرس في الطفل القيم الإسلامية من خلال التربية الإسلامية ، ففي الأسرة
تكمن مسؤولية الوالدين في رعاية الطفل ، وتكوين العادات السليمة ،
والاهتمام بصحته الجسمية والنفسية ، وعليها يقع عبء الاهتمام بالنواحي
العقلية وطريقة التفكير ، والاهتمام بالناحية الانفعالية ، وكان يوصي ﷺ
بإظهار العطف والحنان للأطفال ، وقد كان يعامل الحسن والحسين رضوان

(١) انظر: العيال: الإمام عبد الله بن أبي الدنيا القرشي البغدادي تحقيق: سعد عبد
الحميد السعدني مكتبة القرآن ، القاهرة ، ١٩٩٤ م (ص ٣٢ - ٣٧) ، رنقاً: الرنق:
الكدر (مختار الصحاح).

الله عليهما بمنتهى الرفق والحنان وقد أطال السجود مرة لأن الحسن - رضي الله عنه - كان متعلقاً بكتفه فلم يحب أن يفرعه ، وقد أوصى بالمساواة بين الأبناء في العطف والحنان حتى لا تتأثر نفسيّة الطفل فيتأثر سلوكه .

ومن هنا تبرز أهمية القدوة في عملية تربية الطفل وخاصة في المراحل الأولى . . إن مهمة الأسرة هي تنقية وتصفية الأنماط السلوكية غير اللائقة بشخصية الطفل ، حيث إنّ الأسرة تربي ضمير الطفل ليصبح رقيباً على أعماله في سرّه وعلايته^(١) .

إنّ الأسرة هي الملجأ الأمين للطفل ، وتحقيق هذا الأمان يتطلب نهجاً تربوياً إسلامياً تتبعه الأسرة وتنفذه ، وتظهر من شخصية الطفل جانبها الإيماني المرتبط بالتعاليم الدينية ليزداد هذا الحيز قوة ورسوخاً في كيان الطفل ويتدرج مع نموه في عُمره ودراسته ونشاطاته ، فحبّ الله سبحانه وحبّ نبيه ﷺ من أوليات بذور الغرس في شخصية الطفل ، فينمو بدنه وينمو معه إيمانه وتزداد تقواه ، والمربي في البيت أو المدرسة يبدأ بتوجيه الطفل إلى ممارسة العبادات وأولها الصلاة ، وإن لم يبلغ السابعة فالتمهيد بالقصة الطفولية التي يكون محورها الصلاة وممارسة أطفال لها ، ومع التمهيد للصلاة ثم ممارستها توجهه إلى تأدية الصلاة بخشوع ، ونشرح له هذا الفرض التعبدى بأسلوب محبّب يرغبه بأيّ عمل نطلب منه تأديته .

وفي ترغيب الطفل بالعبادات نركّز على تعويده عليها ، وتصحيح كل خطأ ممكن أن يحصل منه أثناء التأدية ، وذلك بالحسنى ، فالوقوف بين يدي الله وتدريب الطفل على الخشوع ينعكس على تصرفاته ، ويبعث في نفسه محبة الله تعالى وارتباطه به ، وتجعل منه إنساناً هادئاً ، حسن المعشر ، ومحبه لله ورسوله ستبعده عن كلّ سوء ، فما هي غاية التربية الإسلامية؟

لاشكّ أنّ غاية التربية في الإسلام ، تتمثل في إخلاص العبوديّة لله

(١) الطفولة في الإسلام (ص ٤٦٠ - ٤٦١) .

تعالى ، وغرس العقيدة الصافية في نفوس الناشئة .

وسوف نتحدث عن أفضل وسائل تلقين الطفل العقيدة الصحيحة ، عقيدة التوحيد: الإيمان بالله تعالى ، وملائكته ، والإيمان بالقدر ، وضرورة محبة الله ورسوله . . . بالشكل المبسط الذي يدركه الطفل .

ونتحدث عن تهيئة الطفل لأجواء العبادة حسب طاقته . . من تعليمه الوضوء ، وما يستطيع حفظه من القرآن الكريم . . الخ .

«وقد ورد في القرآن الكريم مصطلح جامع شامل ، يريد به نظاماً للحياة يُدْعَن فيه المرء لسلطةٍ عليا لكائن ما ، ثم يقبل إطاعته واتباعه ، ويتقيد في حياته بحدوده ، وقواعده ، وقوانينه ، ويرجو في طاعته العزة والترقي في الدرجات ، وحُسن الجزاء ، ويخشى في عصيانه الزلة والخزي وسوء العقاب»^(١) .

« . . هذه المعاني هي التي نريد أن نغرسها في نفوس أبنائنا ، فالإسلام ليس ديناً كنسياً يفصل بين الدّين والحياة ، وإنما هو دين الحياة ، وكل ما هو من الدّين يُصلح الحياة ويرقى بها ، وكل ما هو للحياة ، فهو من الدّين ، وعبادة إذا احتسبها صاحبها .

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يتميّزون بأنهم كانوا يجمعون بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشُعَبِها ومحاسنها المتفرقة في قادة العالم»^(٢) .

«ويتعيّن على الآباء الذين يريدون الصحة الإسلامية ، أن يعلموا ، أنّ الخلايا الحيّة لهذا البعث وديعة في أيديهم ، وأنّ عليهم أن يتوجّهوا إليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أيّ أحد آخر ، وأن يستجيبوا لله وهو

(١) المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى المودودي (ص ٢٦) .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي (ص ١٦٧) .

يدعوهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(١).
[التحریم : ٦]

من هنا نعرف أنَّ العقيدة الصحيحة وغرسها في نفوس الصغار أمر عظيم وهام في المنهج التربوي الإسلامي ، وليس فيه أي صعوبة أو تعقيد ، وكله ينصب على الأخذ بيد المسلم إلى الخير .

فالله سبحانه وتعالى قد تفضل على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة . . .

أحدهما: أن كل مولود يولد على الفطرة كما في الصحيحين^(٢) ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطَرْتَهُ اللَّهُ إِلَهًا مُّطَهَّرًا﴾^(٣) .
عَلَيْهَا . . . [الروم : ٣٠] .

الثاني: أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة ، بما جعل فيهم بالفطرة ، من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل عليهم من الرسل^(٤) ولذلك اهتم الإسلام بتربية الأطفال (على عقيدة التوحيد) منذ الصغر ، ومن هنا جاء استحباب التأذين في الأذن اليمنى ، والإقامة في أذن الطفل اليسرى . . كما ذكرنا في فصل رعاية الوليد لسمع كلمات التكبير والتوحيد وإعلان العبادة لله الواحد وهو في أول عهده بالحياة^(٥) .

ومن معرفتنا وإدراكنا لما جاء في الآية الكريمة والحديث الشريف وارتباطهما بفطرة الإنسان التي فطره الله عليها ، وتحذير المؤمنين من التقصير والإهمال في تربية أولادهم ، تبين أن الطفل أرض خصبة صالحة لزرع أي

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٦/ ٣٦٢٠) .

(٢) «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» متفق عليه .

(٣) الفتاوى لابن تيمية (١٤/ ٢٩٣ - ٢٩٤) .

(٤) تربية الأطفال في رحاب الإسلام (ص ٢١٤ - ٢١٥) .

بذرة وُضعت فيها ، وستنبت نباتاً نامياً كالأصل المغروس ، طيباً حلو الطعم أو سيئاً مراً المذاق . .

غرس العادات :

تعريف العادة: العادة هي ميلٌ مكتسب يدفع المرء إلى تكرار العمل الجسماني أو العقلي المألوف كلما دعت إليه الظروف بسرعة وإتقان دون أن يحتاج إلى تفكير ، ولكل منّا عادات كثيرة ، بعضها حسنٌ وبعضها قبيح ، نقوم بها دون أن نشعر ، وإذا فكّرنا في الأعمال التي نأتي بها أثناء سيرنا ونومنا وطعامنا ، لوجدناها مؤلفة من مجموع عادات اكتسبناها بالذّربة والمِران .

فائدة العادة: العادات النافعة مفيدة جداً ، فهي توفر على المرء زمناً طويلاً؛ خُذ مثلاً على ذلك: ركوب الدراجة ، تجد الطفل يقاسي تعباً عظيماً في كيفة الركوب عليها ، وطريقة وضع رجله ويديه ، وبمرور الزمن يُصبح هذا العمل سهلاً عليه بفضل الخبرة والتمرين ، لذلك كان من الضروري أن نعوّد طفلنا على عددٍ من العادات المفيدة كغسل اليدين قبل الطعام وبعده ، والنظافة والترتيب والنوم باكراً ، والاستيقاظ باكراً ، والقيام بالتمارين الرياضية كلّ صباح ، وأداء الصلوات في أوقاتها والوضوء قبلها .

ومن فوائد العادة أنّها تزيد السرعة ، وتقلّل الأخطاء ، وتكسب المهارة ، وتخفّف من أثر التعب ، وتحفظ للإنسان كثيراً من وقته ، وأهمّ ما يجب علينا عمله هو الانتباه إلى سلوك طفلنا كي لا يعتاد العادات السيئة التي تدفعه للقيام بأمور ضارة به وبغيره^(١) .

وحُسن التوجيه بالكلمة الجميلة تشد الطفل إلى جذب انتباهه وجعله يتقبل النصيحة والإرشاد بسهولة أكثر ، والعادة المفيدة والمجدية التي يكون الطفل تعلقه بها أكثر من غيرها ، هي مشاهدته ، من حركة وعمل وكلمة موحية بصورة غير مباشرة من الأب والمربي .

(١) كيف نربي أطفالنا (ص ١٢٣) .

أفضل مرحلة لغرس العادات النافعة :

إن مرحلة الطفولة هي أحسن مرحلة لذلك ، حيث يكون الجهاز العصبي مرناً سريع التأثير والاحتفاظ بالمؤثرات ، وفي هذا الزمن نستطيع أن نقمع العادات السيئة التي اعتادها الطفل في غفلة منا ، نقول في غفلة والأجدر أن نقول : الإهمال ، لأن الوالدين الصالحين لا يغفلان عن هذه الوديعة الثمينة التي تحمّلا معاً تبعة قدومها إلى هذه الدنيا .

ونستطيع غرس العادات في الطفل بالمحاكاة كأن نتركه يقلدنا في أعمالنا ، أو بالإيحاء وهو أن نلقي في ذهنه القيام بأعمال دون معارضة . . ولنوجه اهتمامنا في بدء غرس عادة من العادات أن تكون التلبية الأولى صحيحة يصحبها انتباه الطفل لئلا يرتكب الخطأ ، ويعتاده .

أمّا قمع العادات السيئة فهو يحتاج إلى جهد وعناء من قِبَل المربي والطفل ، لئلا يقع في شركها ، قال أحد العلماء : إنّ العادة تبتدىء بصورة هنيئة لطيفة ثم تُرسّخ قدمها رويداً رويداً . . لا نستطيع التغلب عليها فيما بعد^(١) .

لذا يتوجب على الآباء والمربين الحرص التام من كل عادة يريدون غرسها في نفوس الناشئة ، ففي حالة غرس العادة الفاضلة الطيبة الخيرة تكون بإثارة أفكار محببة لدى الطفل تجاه العادة المتوخاة ، ومن ذلك ينشأ جذبٌ وميلٌ نحو تلك الفضيلة ، والطفل حافظ جيد لكل ما يسمعه ويراه ، فإذا روينا قصة فيها ما يثير الشفقة والحنان نحو الأيتام والفقراء والمعاناة التي يتعرضون لها ، وأن من واجب الأغنياء والذين باستطاعتهم تقديم العون ألا يقصروا في تخفيف وطأة البؤس ، فمن المؤكّد أنّ ذلك سيثير انتباه الطفل ، ويُحرّك مشاعره بالعطف والحنان .

وكذلك لإبعاد الطفل عن المساوىء والسلوك الشاذ والعادات القبيحة

(١) كيف نربي أطفالنا (ص ١٢٣) .

علينا أن نحرك دوافعه لينفر من هذه العادات السيئة ، ونبين ما يقابلها من العادات الحسنة لإبدالها وتغييرها ، فالغضب يقابله الحلم ، والحب مضاد للكره ، والكرم ضد البخل والشح ، والعلم ضد الجهل ، وكما يقال: «وبضدها تتميز الأشياء» فالقصة المناسبة والحديث الشيق سيربط الطفل بكل ما نريده ، فباب الفضائل واسع ، وكتاب الآداب متعدد الصفحات ، وإذا أردنا أن نورد ما فيها فلا يمكن إحصاؤها ، منها: الصدقة ، الإحسان ، التعاون ، الصدق ، عدم الأذى ، مراعاة الصديق ، والجار ، والقريب ، وأهم من كل هذا البر بالوالدين ، بالمحبة والطاعة والاحترام ، ومحبة العلم ، وغير ذلك كثير .

ثامناً: طريقة تكوين العاطفة الدينية

الأسرة المسلمة في المجتمع المسلم هي التي تغذي هذا المجتمع بأفراد - إن أحسن مربوهم - صالحين فاضلين يسعون إلى السير بالأمة في مدارج الرقي والفلاح ، وهنا نتساءل: كيف يصل الفرد المسلم إلى التحلي بالخُلُق الكريم ، والصفات الفاضلة ، والتمسك بتأدية الفروض المشروعة في الدين الحنيف بإيمان قوي ، وعقيدة راسخة؟

لا بدّ لهذا كله من بناء لشخصية المسلم منذ أن درج في هذه الدنيا ، وهذه مسؤولية الآباء والمربين بتوجيه الطفل منذ نعومة أظفاره إلى حب الله ودينه ورسول الله وسنته ، وشيئاً فشيئاً يتكوّن عند هذا الطفل مِثْلٌ وشوقٌ إلى استزادة المعرفة بدينه وتعاليمه ، وكما قال ابن خلدون في مقدمته: «إنما العلم بالتدريج» .

فالدين الصحيح له قدرة فائقة في توجيه الإنسان ، لا غنى عنها في هذه الحياة طالما كان العقل عاجزاً ويتأثر بالهوى على الغالب ، قال أحد الفلاسفة: «الإنسان دون عقيدة دينية خطر على نفسه وعلى المجتمع» .

كيف نكون العقيدة الدينية عند الأطفال ؟

لقد وضع العلماء لتكوين العواطف والعقائد ثلاث مراحل وهي^(١) :

١ - التفهيم والإقناع :

وهي توليد أفكار وآراء مقنعة عن العقيدة المراد تكوينها وبيان فوائدها للمجتمع ، وما يؤدي إهمالها من محاذير ، ودعوة الأطفال للتأمل في الكون والإيمان بوجود خالقه وعظمته .

٢ - التحبيب والترغيب :

ويكون في بعث ميل وحبّ نحو العاطفة المراد تكوين عقيدة نحوها .

٣ - التدريب والتكرار :

ويكون ذلك بتعويد الطفل على العادات الفاضلة وممارستها ، وتنفيذ هذه العادات وتكرارها ، يزداد ميل الطفل نحو الصفات التي نسعى إليها فتقوى عاطفته الدينية ، ويطلب المزيد من التعرف على أمور دينه ، كما يزداد شغفه بحبّ هذا الدين ، وتبدأ مع الطفل بالتحدّث عن هذا الكون الذي نعيش فيه . سمائه وأرضه ، وهوائه وبحاره ، وجباله ونباتاته ، الشمس والقمر والنجوم والأمطار ، ثم الحيوانات بأشكالها ، والإنسان الذي أنعم الله عليه بكل هذا وجعله في خدمته ؛ والدين الحنيف دعا إلى رعاية الطفل والإشراف على تربيته إشرافاً مباشراً ، وتوجيهه توجيهاً يتفق مع الدين الإسلامي .

كيف ننمي الشعور الديني عند الأطفال ؟

إنّ الإنسان المعتزّ بخالقه عزوجل ، يجعل من نفسه مترفعاً عن ممارسة أيّ عمل من شأنه غضب الخالق عزّ وجل ، ويقوي في ذلك إيمانه محاولاً التقرب أكثر من خالقه ، فهل يرضى لشخصه بعد هذا السموّ أن يحطّ من رفعة التي كرمه الله بها؟ فحبّ هذا الإنسان لربّه ولنبيّه يجعله دائم الإحساس

(١) نقائص الأطفال (ص ٤٣ - ٤٤) باختصار وتصرف .

بأنَّ الله تعالى يُعرف أقواله وأفعاله سرّاً أو جهرّاً ، وبهذا ندفع الأطفال إلى محبة الله الذي كَرَّمَ الإنسان وأنعم عليه بما يتمتع به من نِعَم ومحبة الله واحترام أمره وتمسّكه بأحكام دين الله تعالى ، وسنة نبيه المصطفى ﷺ ؛ وحتماً سيدرك الطفل أنَّ الحب لله ، والسعادة والرحمة والمغفرة منه .

قال سيد قطب : « . . نروّض الطفل على محبة الله واحترام ما أمر به ، وارتباطه بعقيدته ، فإذا به شابٌّ ينشأ في رضوان الله ، لا يعرف غير الإسلام شريعة ومنهاجاً ، نشعر أن الله يحبُّنا فلا يكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا أمرنا بشيء ، فالواجب أن نأتي منه ما نستطيع ، أما الحرام فلا نقر به مطلقاً .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

وتردّد المبدأ السليم على مسمع الأطفال ؛ يغرس في قلوبهم ، فتنمو في نفوسهم مشاعر الأخوة الإيمانية ، والرابطة الإسلامية ، والمفاصلة مع أعداء دين الله الكافرين ، وهذا مطلب تربوي هام وديني قبل كل شيء . . . »^(١) .

لقد آمن الإسلام بفطرة الطفل واعتبره صفحة نقية بيضاء نستطيع أن ننقش فيها ما نبغي ، وبهذا كانت التربية التي يكتسبها الطفل من بيئته أكدها الإسلام ، واعتبر أنَّ الأسرة هي نواة تربية الفرد وفي هذا قال رسول الله ﷺ : « ما مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ ، أَوْ يُنَصْرَانِهِ ، أَوْ يُمَجَّسَانِهِ »^(٢) .

لقد طلب الإسلام للطفل العناية التامة والرعاية الصحيحة والتربية الفاضلة ، وجعل هذا كله أمانة في عنق والدّيه ، وليس أمام المربي إلا النهوض بهذه المهمة وتأديتها بعون الله تعالى والدعاء له ، والقرآن الكريم يبيّن لنا أنَّ الأنبياء عليهم السلام ، وهم القدوة في الخلق القويم والسمات

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب (٥/ ٢٧٨٨) .

(٢) سبق تخريجه .

الرفيعة ، قد طلبوا بدعائهم إلى الله تعالى أولاداً صالحين ونسلاً طيباً ، وفي القرآن الكريم قال سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨] ، وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يقول : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ [إبراهيم: ٤٠] .

إن تنمية الشعور الديني عند الأطفال يتطلب من المربي أن يلفت نظر صغيره إلى أن أحسن ما يربط الإنسان المسلم بربه أن يأخذ بما يسمعه من كلام الله في كتابه العزيز ، حيث قال لقمان في وعظه لابنه : ﴿ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۚ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهِ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۚ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۚ ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٥] (١) .

تاسعاً: تعويد الأطفال حب رسول الله وتوقيره

لا يكون المرء المسلم مؤمناً إلا إن ملاً قلبه بحب الله تعالى وحب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهذه المحبة يلقيها للطفل ويغرسها في نفسه : والداه ومرؤوه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » (٢) .

وفي التنزيل العزيز قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

« . . . وعلينا أن نفهم الطفل بعض السمائل الطيبة ، ونقتبسها من السيرة النبوية ، ومن صفاته ﷺ مثل : الرحمة بالصغار ، وبالحيوان ، وبالخدم ،

(١) ﴿ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ أي : كلما عظم في بطنها ، زادها ضعفاً على ضعف . مفردات ألفاظ القرآن (٨٨٧) .

(٢) [البخاري (١٤) ومسلم (٤٤)] .

وأن نحكي له بعض القصص المحببة في هذا الشأن من سيرته ﷺ ومن سيرة أصحابه الكرام ، وذلك حتى يتخلق الطفل بخُلُق رسول الله فينشأ وقد تأسّى بالرسول عليه الصلاة والسلام برحمة الصغار ، والعجز ، ويُرفق بالحيوان ولا يؤذيه ، . . كما نبين للصغير أثر تطبيق الدين في السلوك والعبادة . . ومن ذلك نصل بالطفل إلى تحريك مشاعره بحبّ الرسول ﷺ ، وحب شمائله والافتداء بها . .»^(١).

ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام: طاعته بكل ما أمر به ، والعمل بسنّته والافتداء به في القول والعمل ، فإذا استطعنا أن نجعل الطفل يتفاعل مع هذه المفاهيم ، ويحرك مشاعره بحب الله وحب رسوله نضمن أننا أعطينا للمجتمع فرداً مسلماً مؤمناً ، حسنَ الأخلاق والسلوك ، باراً بمجتمعه ، حريصاً على الالتزام بعقيدته . قال الدكتور البوطي: « . . لو علمنا مدى المحبة التي كانت تنطوي عليها أفئدة الصحابة لرسولهم ﷺ لتأكدنا ولا ريب ، أنّ هذه المحبة من أهمّ الأسباب التي حبّبت إلى قلوبهم كلّ تضحية وبذل في سبيل دين الله تعالى والدفاع عن رسوله ، ومهما بلغ المسلم في إيمانه فإنه دون مثل هذه المحبة لرسول الله ﷺ يُعتبر ناقص الإيمان»^(٢).

المحبة في الاتباع:

يحبُّ الرجل عملاً فيمارسه ويكرره ويتعوّد عليه ، ويحبّ صديقاً فيرى فيه الثُّبُل والأخلاق الكريمة والشمائل الطيّبة ، يحبّ أن يقدم ما يرضي صديقه ، فيتبعه ، ويسأل عنه إذا غاب ، فكيف إذا كان المعلم الأول الذي هدانا إلى السبيل السوي ، وأنار لنا طريق الهدى ، وعلمنا كل ما يُسعدنا في دنيانا وآخرتنا ، ألا نحبّه؟ ألا نتبعه؟ ألا نسير على هديه؟ ألا نعمل بوصاياه؟

(١) تربية الأطفال في رحاب الإسلام (ص ٢٢٤).

(٢) فقه السيرة: محمد سعيد رمضان البوطي دار الفكر ط ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م (ص ٢٥٧).

إنَّه المصطفى المختار عليه الصلاة والسلام ، فإمامنا القرآن الكريم ، وسنة الرسول ﷺ الذي جعلها الله سبحانه واجبة الاتباع ، فكأن الذين لا يتبعون سنة رسول الله ﷺ ويقولون: لا نقوم بها وليس عليها عقاب ، فلماذا نفعلها؟ . . قد أعلنوا بادية ذي بدء أنهم لا يحبُّون الله ، وبالتالي فالآية الكريمة تقول: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] . . وما داموا هم يأبون أن يتبعوا رسول الله فإنَّ الله لا يحبُّهم .

هذا هو حكم القرآن فيمن يقف من رسول الله ﷺ موقفاً شبه معادٍ قائلاً: أنا لن أفعل شيئاً من السنة ، ولا أريد ثوابها ، ولا أرتكب حراماً بتركها ، نقول له: وهل تريد حراماً أكثر من أن يبغضك الله؟!

إنَّ الذي لا يتمسك بسنة رسول الله ﷺ ، ضالٌّ . . والذي يتمسك بها هو الذي يصل إلى درجات عالية»^(١) .

فمحنة رسول الله ﷺ وبرهانها يكون باتِّباع سنته وحب آل بيته وتوقيرهم واحترامهم ، ومحبة قراءة السيرة النبوية ومعرفتها منذ ولادة الرسول ﷺ ، ورضاعته ، ونموه ، وصباه ، وشبابه ، وكيف كانت أخلاقه ﷺ ، وأن قريشاً سمته «الأمين» لأنهم لم يعرفوا عنه كذباً ، أو سلوكاً غير حسن ، ثم لما اكتمل رسول الله ﷺ جاءه الوحي ، ثم هجرته وغزواته ، وزوجاته وبناته ، وسيرته العطرة ، كل ذلك على المربي أن يقصّه لأولاده؛ والسيرة النبوية تملأ صفحات المجلدات بأساليب شتى وكل شريحة من الناس باستطاعتها الاطلاع على سيرة المصطفى ﷺ ، ونقلها إلى الأسرة .

«ولمّا كانت السنة النبوية منهجاً تربوياً عظيماً نستقي منه الكثير من الفضائل والآداب الإسلامية ، لهذا فإن من الضروري أن يعرف معلّم التربية الإسلامية مسؤولياته وواجباته ليعرف كيف يرغب تلاميذه في معرفة سنة

(١) الحلال والحرام: محمد متولي شعراوي ، مؤسسة أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩١ م (ص ١٠٥ - ١٠٦) .

الرسول ﷺ وليمكنهم من التمسك بها قولاً وفعلاً.. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رُسُلًا فَحُذُّوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧] ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] ، وينبغي أن يعمل المعلم على استثارة اهتمام التلاميذ^(١) ليدركوا «أن الحديث مليء بالقيم ، زاهر بالفضائل ، تتعدد فيه الحلول لكثير من مشكلات الحياة والناس والكون ، وفي هذا راحة للنفس واطمئنان للقلب»^(٢).

عاشراً: التربية الأخلاقية وتكوين شخصية الطفل

من الطبيعي أن يبذل الآباء والأمهات كل ما في وسعهم لتربية أبنائهم التربية الفاضلة ، ويوجهوهم للسير في تطبيق المنهج الإسلامي في الحياة متمثلين بكل ما أمر به ﷺ ، وما نهى عنه ، والتقيد بالتعاليم الصحيحة^(٣) ، ومنها أداء الصلوات المفروضة ، ودفع الأولاد للتعود عليها.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

يقول مصطفى فهمي: «.. إن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون مدة الطفولة للوليد البشري هي أطول مدة بحيث يتعذر على الطفل الاستغناء عن حوله ، كما هو المألوف في عالم الكائنات الحية الأخرى ، وبالتالي يكون ملتصقاً بوالديه؛ لا ليتعلم الجانب البيولوجي فقط ، ولكن ليتعلم الخلق ، والقيم الأصلية المرتبطة بالخلق الإسلامي ، ولما كانت الأخلاق هي مجموعة العادات والآداب المرعية ، ونماذج السلوك التي تطابق المعايير

(١) تدريس التربية الإسلامية: محمد صلاح الدين علي مجاور ، الكويت ، دار القلم ١٩٧٦ م (ص ٣٢٣).

(٢) التربية الإسلامية وكيف نربها لأبنائنا: سراج محمد عبد العزيز الوزان ، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة ، سلسلة دعوة الحق عدد ١١٢ السنة العاشرة ١٤١١ هـ ١٩٩١ م (ص ٣٢٣).

(٣) انظر: تربية الأطفال في رحاب الإسلام (ص ٢٢٤).

السائدة في مجتمع ما؛ فإنَّ اكتساب هذه الأخلاق يؤدِّي دوراً هاماً في التوافق النفسي ، والعلاج الاجتماعي»^(١).

والتربية الأخلاقية عنصر هام في تكوين شخصية الطفل ، وهذا يرتبط بمدى وعي الآباء والمربين ليحقِّقوا دوام أثر هذه التربية ، فالآباء الذين يسعون في إنجاب ذرية صالحة تمثِّل النموذج الفاضل في التربية والمؤثِّر في حياة المجتمع الإسلامي نحو مستقبل مشرق ، وهذا النسل الصالح ، يتوقَّف على معرفة الآباء في كيفية مراعاتهم للقواعد الأساسية لهذه التربية.

أما المربِّون ، فدورهم في التربية الأخلاقية ، السَّير مع الطفل حسب مراحل عمره وسبر استعداداته لتقبُّل ما يُطلب منه تنفيذه ، ونستطيع أن ندفع الطفل ونحبِّبه في السلوك الأخلاقي «عن طريق استغلال اهتماماته الحسَّية والعاطفية في الأفعال الأخلاقية ، وذلك بوضع منافع السَّارة في الفضائل ، ووضع آلامه في الرذائل باستمرار لتتكوَّن عنده عاطفة حبِّ الفضائل ، وعاطفة كره ومَقْتِ الرذائل من الصَّغر ، وهذا مهمٌّ جداً في المراحل الأولى من التربية الأخلاقية ، ومن الصَّعوبة بمكان تكوين ذلك في المراحل الأخيرة ، لأنَّ عاطفة الحبِّ للأفعال لا تتكوَّن عند المرء إلاَّ إذا كانت خبرته فيها سارت على التوالي . . كما يقرر ذلك علماء النفس والتربية»^(٢).



(١) سيكولوجية الطفل: مصطفى فهمي ، مكتبة مصر ، القاهرة (ص ٢٨٧).
(٢) الصحة النفسية: د. مصطفى فهمي (ص ٢٣٣) ، وانظر: التربية الأخلاقية: مقداد يالجن (ص ٤٩٦).

الفصل الثاني

بناء الفكر والعقيدة والجسم عند الطفل

أولاً: التعريف بالقرآن الكريم والسنة النبوية وأخبار الصالحين:

القرآن الكريم كلام الله المعجز وهو الكتاب المقدس في الإسلام ، والمصدر الأول والأساسي لأحكام الشريعة الإسلامية ، ودستور الأمة الإسلامية في جميع نواحي الحياة؛ في العقائد والعبادات والمعاملات ، في التربية والاقتصاد والاجتماع ، وفي كل أمر من أمور حياتها ، قال تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، وإن الاعتماد على القرآن الكريم في التربية الإسلامية يرجع في المقام الأول إلى ما وعد به الحق تبارك وتعالى في الحفظ له وتبيين كل شيء فيه . يؤكد ذلك السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وقوله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٩٧] ، وإضافة إلى ذلك نجد أن القرآن الكريم «ينتهج في تربية الإنسان مناهج يجب تمييزها إجمالاً وتفصيلاً ، فقد خاطب العقل ، وناجى العواطف ، وحاسب السرائر ، وأدب الحواس ، وهذب الملكات»^(١).

والقرآن الكريم لا يجد المسلم أفضل وأكرم وأصدق رفيق منه ، في حله وترحاله ، في ليله ونهاره ، والقرآن الكريم كما فهمنا مما سبق أنه جمع وحوى كل ما يهم الإنسان من أمور دنياه وآخرته ، فهو نبراس لكل شيء ، وهو المصدر لكل مسألة ، وهو الجواب لكل تسأل ، فالمسلم المؤمن

(١) التربية الإسلامية وكيف نرغبها لأبنائنا: (ص ٩١ - ٩٢).

المتعبّد يرى في القرآن الكريم ملاذاً لكل ضائقة ، وهو المرجع الأساس في العلم والمعرفة ، وفي الحياة الأسرية ، وفي العلاقات الاجتماعية ، وفي العمل ، وفي الحديث . . . وفوق هذا كله ، فهو دستور العبادات ، والواسطة للصلة بالله سبحانه وتعالى .

فضل قراءة القرآن وحفظه :

وردت أحاديث نبوية كثيرة تتحدث عن فضل قراءة القرآن ، ومن تلکم الأحاديث ما رواه أبو موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال : «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْثَمَرَةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا»^(١) .

وفي حديث شريف آخر يوضح لنا رسول الله ﷺ منزلة من يتعلّم القرآن ويعلمه ، فعن عثمان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «مَا أَدْنَى اللَّهِ لَشَيْءٍ مَا أَدْنَى لِنَبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»^(٤) .

وفي فضل قراءة القرآن الكريم أحاديث أخرى تدعو المسلم إلى الإمعان

(١) [البخاري (٥٠٢٠) ومسلم (٧٩٧)] .

(٢) [البخاري (٥٠٢٧)] ، كتاب فضائل القرآن : باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

(٣) [البخاري (٥٠٢٥) ومسلم (٨١٥)] .

(٤) [البخاري (٥٠٢٣) ومسلم (٧٩٢)] .

بما جاء فيها من معانٍ تدل الإنسان على ما في قراءة القرآن من فائدةٍ وتقربٍ
محبته لله تعالى ولرسوله ﷺ ومنها :

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اقرأوا
القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «الذي يقرأ القرآن
وهو ماهرٌ مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعنت فيه وهو عليه
شاقٌّ له أجران» متفق عليه^(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الله يرفعُ بهذا
الكتاب أقواماً ويضعُ به آخرين» رواه مسلم^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الذي ليسَ
في جوفه شيءٌ من القرآن كالبيت الخرب» رواه الترمذي ، قال : حديث حسن
صحيح^(٤).

والنبي ﷺ حذرنا من تعريض القرآن للنسيان ، وأمر بتعاهده ، وفي
الحديث الشريف ما يوضح ذلك .

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «تعاهدوا هذا القرآن ،
فوالذي نفسي مَحْمَدٌ بيده لهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتاً من الإبل في عُقْلِهَا!» متفق
عليه^(٥).

(١) [مسلم (٨٠٤)].

(٢) [البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨)].

«الشفرة» : الرسل . «الكرام» : لعصمتهم عن دَسِ الآثام .

(٣) [مسلم (٨١٧)].

(٤) [الترمذي (٢٩١٤)].

(٥) [البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١)] «تعاهدوا القرآن» : أي : حافظوا على قراءته

وواظبوا على تلاوته ، «تفلتاً» : تخلصاً . «عقلها» : جمع عقال : وهو جبل يُسَدُّ به
البعير وسط الذراع .

وفي حديث آخر: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الْإِبِلِ الْمَعْقَلَةِ ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أُمْسَكَهَا ، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ» متفق عليه^(١).

وفي استحباب تحسين الصوت بالقرآن والاستماع لصاحب الصوت الحسن الحديث التالي: عن أبي لبابة بشير بن عبد المنذر رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا» رواه أبو داود بإسناد جيد^(٢).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ قرأ في العِشَاءِ بالتين والزيتون ، فما سَمِعْتُ أحداً أَحَسَّنَ صوتاً منه . متفق عليه^(٣).

ومن الاستحباب الاجتماع على قراءة القرآن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» رواه مسلم^(٤).

ثانياً: أخبار الصالحين:

عَبَّوْا التاريخ الإسلامي وأريجه يملأ الدنيا بالطيب والفخر ، بالمجد والمجد ، بروائع القصص ، ومفاتيح السَّير ، ومن واجب كل مسلم أن يعرف قِصَصَ السلف الصَّالح برجاله ونسائه ، وهل هناك أَجَلٌ وأعظم بعد سيرة رسول الله ﷺ من سيرة صحابته من المهاجرين والأنصار؟ وسنجد في كل قصة أجمل معنى وأروع وأعظم فائدة يتأسى بها المسلمون ، ويقتدي بها شبابنا وأطفالنا.

(١) [البخاري (٥٠٣١) ومسلم (٧٨٩)] «المعقَّلة»: أي: المربوطة بالعقال.

(٢) [أبو داود (١٤٧١)] «يتغنى»: يُحَسِّنُ صوته بالقرآن.

(٣) [البخاري (٧٦٩) ومسلم (٤٦٤) (١٧٧)].

(٤) [مسلم (٢٦٩٩)] غشيتهم الرحمة: أي: غمَّتْهم. حَفَّتْهم: أحاطت بهم ، وانظر رياض الصالحين ، كتاب الفضائل ، باب: استحباب الاجتماع على القراءة.

أصحاب النبي ﷺ وفضلهم:

وَمَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ رَأَاهُ فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ . وهؤلاء لهم فضل كبير .

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، يَغْزَوْنَ فِتْنًا مِنَ النَّاسِ ، فيقولون: فيكم مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فيقولون: نعم ، فيُفْتَحُ لَهُمْ ، ثم يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، فيَغْزَوْنَ فِتْنًا مِنَ النَّاسِ ، فيقال: هل فيكم مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فيقولون: نعم ، فيُفْتَحُ لَهُمْ ، ثم يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، فيغزو فِتْنًا مِنَ النَّاسِ ، فيقال: هَلْ فيكم مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فيقولون: نعم فيُفْتَحُ لَهُمْ»^(١) .

وفي مناقب المهاجرين وفضلهم بما قاسوه من ترك الوطن ومعاناتهم في الغربة وتحملهم المشاق في سبيل نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، قال الله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] .

وقال: ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

قالت عائشة وأبو سعيد وابن عباس رضي الله عنهم: وكان أبو بكر مع النبي ﷺ في الغار .

وفي فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ ، جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما:

قال: كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم^(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا ، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي»^(٣) .

(١) [البخاري (٣٦٤٩) ومسلم (٢٥٣٢)] .

(٢) [البخاري (٣٦٥٥)] .

(٣) [البخاري (٣٦٥٦)] .

في فضل عمر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كَانَ فيما قَبْلُكُمْ من الأُمَمِ مُحَدِّثُونَ ، فَإِنْ يَكُ في أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ»^(١).

.. وعن عبد الله بن هشام قال: كُنَّا مع النَّبِيِّ ﷺ ، وهو آخِذٌ بيد عمر بن الخطاب^(٢).

في مناقب عثمان: وقال النبي ﷺ: «مَنْ يَحْفِرْ بئر رومَةَ فله الجنة» فحفرها عثمان ، وقال: «من جَهَّز جيش العُسْرَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ» فجهَّزه عثمان^(٣).

عن أبي موسى رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دخلَ حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط ، فجاء رجلٌ يستأذن ، فقال «ائْذَنْ لهُ ، وبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ» فإذا أبو بكر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فقال: «ائْذَنْ لَهُ وبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ» فإذا عمر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فسكن هنيهة ثم قال: «ائْذَنْ لَهُ وبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ ، على بلوى ستصيبُهُ» فإذا عثمان بن عفان^(٤).

إنَّ مناقب الصحابة الكرام وفضائلهم كثيرة ، وأعمالهم الصالحة جمَّة ، ومن الخير والمفيد أن نحاول معرفة لمحة عن بعضهم :

مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه : قال النبي ﷺ لعليّ : «أنت مني وأنا منك»^(٥).

وقال عمر رضي الله عنه : توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ^(٦).

(١) [البخاري (٣٦٨٩)].

(٢) [البخاري (٣٦٩٤)].

(٣) [البخاري (٢٧٧٨)].

(٤) [البخاري (٣٦٩٥) ومسلم (٢٤٠٣)].

(٥) [البخاري (٤٢٥١)].

(٦) [البخاري (١٣٩٢)].

عن سعد قال: سمعت إبراهيم بن سعيد ، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ
لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟»^(١).

عن عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه: أن رجلاً جاء إلى سهل بن سعد
فقال: هذا فلان ، لأمر المدينة ، يدعو علياً عن المنبر ، قال: فيقول: ماذا؟
قال: يقول له: أبو تراب ، فضحك ، قال: والله ما سماه إلا النبي ﷺ ، وما
كان له اسم أحب إليه منه ، فاستطعمت الحديث سهلاً ، وقلت: يا أبا
عباس ، كيف ذلك؟ قال: دخل عليّ على فاطمة ثم خرج ، فاضطجع في
المسجد ، فقال النبي ﷺ: «أين ابن عمك؟» قالت: في المسجد ، فخرج
إليه ، فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل
يمسح التراب عن ظهره ، فيقول: «اجلس يا أبا تراب» مرتين^(٢).

ومن الصحابة الذين يحبهم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب:

مناقب جعفر بن أبي طالب: الهاشمي رضي الله عنه قال له النبي ﷺ:
«أشبهت خلقي وخلقي» ، وهذه قصة جعفر رضي الله عنه حتى استشهاده:

كان في بني عبد مناف خمسة رجال يشبهون رسول الله ﷺ أشد الشبه حتى
إن ضعاف البصر كثيراً ما كانوا يخلطون بين النبي وبينهم . . . إنهم: أبو
سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عم الرسول وأخوه من الرضاع .

وقثم بن العباس بن عبد المطلب ، وهو ابن عم النبي أيضاً.

والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم جد الإمام الشافعي رضي الله
عنه .

والحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ وكان أشد الخمسة شهماً بالنبي ﷺ.

(١) [البخاري (٣٧٠٦) ومسلم (٢٤٠٤)].

(٢) [البخاري (٣٧٠٣) ومسلم (٢٤٠٩)].

وجعفر بن أبي طالب ، وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

كان أبو طالب - على الرغم من سُمُو شرفه في قريش ، وعلو منزلته في قومه - رقيق الحال كثير العيال .

... ولم يكن في بني هاشم يومئذ أيسر من محمد بن عبد الله ، ومن عمه العباس .

فقال محمد للعباس : يا عم ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من شدة القحط . فانطلق بنا إليه حتى نحمل عنه بعض عياله ؛ فأخذ أنا فتى من بني ، وتأخذ أنت فتى آخر فنكفيهما عنه ، فقال العباس : لقد دعوت إلى خير وحضضت على بر ، ثم انطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك بعض ما تحمله من عبء عيالك حتى ينكشف هذا الضر الذي مس الناس ، فقال لهما : إذا تركتكما لي «عقيلاً»^(١) فاصنعا ما شئتما . . .

جعفر عند العباس : فأخذ النبي محمد علياً وضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرأ وجعله في عياله .

فلم يزل علي مع محمد ﷺ حتى بعثه الله بدين الهدى والحق ، فكان أول من آمن من الفتيان .

وظل جعفر مع عمه العباس حتى شب وأسلم واستغنى عنه .

انضم جعفر بن أبي طالب إلى ركب النور هو وزوجه «أسماء بنت عميس» منذ أول الطريق ، فقد أسلما على يدي الصديق رضي الله عنه قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم^(٢) ولقي الفتى الهاشمي وزوجه الشابة من أذى قريش

(١) «عقيل» : هو عقيل بن أبي طالب أخو علي رضي الله عنهما وهو أكبر منه .

(٢) دار الأرقم : دار بمكة ، كان الرسول ﷺ فيها يدعو الناس إلى الإسلام .

ونكاليها ما لقيه المسلمون الأولون ، فَصَبَرَا عَلَى الْأَذَى لِأَنَّهُمَا يَعْلَمَانِ أَنَّ
طَرِيقَ الْجَنَّةِ مَفْرُوشٌ بِالْأَشْوَاكِ مُحْفُوفٌ بِالْمَكَارِهِ^(١) .

هجرته للحبشة : مضى ركب المهاجرين الأولين إلى أرض الحبشة ،
وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه واستقروا في كنف النجاشي^(٢)
ملكها العادل الصالح .

لكنَّ قريشاً . . . هبَّتْ تَأْتِمِرُ^(٣) بهم لتقتلهم أو تسترجعهم إلى السجن
الكبير .

وتروي «أم سلمة» قصة الهجرة في أرض الحبشة فتقول : لما نزلنا أرض
الحبشة لقينا فيها خير جوار فأمتنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ربنا من غير أن
نؤذَى . . . فلما بلغ ذلك قريشاً أرسلت من رجالها الأقوياء ، عمرو بن العاص
وعبد الله بن أبي ربيعة محمّلين بالهدايا إلى النجاشي وبطارقته^(٤) . . . وقالوا
للبطارقة : إنّه قد حلّ في أرض الملك غلمان من سفهائنا ، صَبَّؤُوا^(٥) عن دين
آبائهم وأجدادهم وفرّقوا كلمة قومهم ؛ فإذا كلّمنا الملك في أمرهم فأشيروا
عليه بأن يسلمهم إلينا دون أن يسألهم عن دينهم ؛ فإنّ أشراف قومهم أبصر
بهم وأعلم بما يعتقدون .

فقال البطارقة : نعم .

قالت أم سلمة : ولم يكن هناك شيء أكره لعمرى وصاحبه من أن يستدعي
النجاشي أحداً مِنّا ويسمع كلامه .

(١) محفوف بالمكاره : محاط بالمصاعب والآلام .

(٢) كَنَفِ النجاشي : حماه ورعايته .

(٣) تأتمر بهم : يأمر بعضها بعضاً بقتلهم .

(٤) البطارقة : ج بطريق ، وهو رجل الدين عند النصارى .

(٥) صَبَّؤُوا عن دينهم : ارتدوا عنه .

جعفر والنجاشي: ثم أتيا النجاشيَّ وقدَّما إليه الهدايا فاستطرفها^(١) ، وأعجبَ بها ثم كلَّماه وقالَا: أيها الملك! إنه قد أوى إلى مملكتيك طائفةٌ من أشرارِ غلماننا ، قد جاؤوا بدينٍ لا نعرفُهُ نحنُ ولا أنتم؛ ففارقوا ديننا ، ولم يدخلوا في دينكم . . فنظر النجاشي إلى بطارقتِه ، فقال البطارقة: صدَقا . . فغضب الملك غضباً شديداً من كلام بطارقتِه وقال: لا والله لا أسلمهم لأحدٍ حتى أدعوهم وأسألهم عما نُسِبَ إليهم . . قالت أم سلمة: ثم أرسل النجاشي يدعونا للقائه ، فاجتمعنا قبل الذهاب إليه وقال بعضنا لبعض: إنَّ الملك سيسألُكم عن دينكم فاصدعوا^(٢) بما تؤمنون به وليتكلم عنكم جعفر بنُ أبي طالب ، ولا يتكلَّم أحدٌ غيرُه ، قالت أم سلمة: . . . فلما استقر بنا المجلس عند النجاشي وكان عنده عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، التفت إلينا النجاشي وقال: ما هذا الذين الذي استحدثتموه لأنفسكم وفارقتم بسببه دين قومكم ، ولم تدخلوا في ديني . . فتقدم جعفر بن أبي طالب وقال: أيها الملك ، كنَّا قومًا أهلَ جاهليةٍ ، نعبدُ الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيءُ الجوار ، ويأكل القويُّ منَّا الضعيف ، وبقينا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرفُ نُسبَه ، وصدقَه ، وأمانتَه ، وعفافه .

فدعانا إلى الله؛ لنوحِّده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبدُه ، من الحجارة والأوثان . . وقد أمرنا بصدقِ الحديث ، وأداء الأمانة ، وصِلَةِ الرَّحِمِ ، وحُسْنِ الجوار ، والكفِّ عن المحارم ، وحَقْنِ الدِّماءِ^(٣) ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزَّور ، وأكل مالِ اليتيم ، وقَذْفِ المحصناتِ^(٤) وأمرنا أن نعبدَ الله وحده ولا نشركَ به شيئاً ، وأن نقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، ونصوم

(١) استطرفها: استحسناها.

(٢) فاصدعوا: فاجهروا.

(٣) حقن الدماء: حفظها وعدم إراقتها.

(٤) قذف المحصنات: اتِّهام النساء الطاهرات العفيفات.

رمضان . . . فصَدَّقناه ، وآمَنَّا به ، وأَبْعَنَاهُ على ما جاء به من عندِ الله ، فحلَّلنا ما أحلَّ لنا ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، فما كان من قومنا أيها الملك إلا أن عَدَّوا علينا ، فعَذَّبونا أَشدَّ العذاب ؛ ليفتنونا عن ديننا^(١) ، ويردُّونا إلى عبادة الأوثان . . فخرجنا إلى بلادك ، واخترناك على مَنْ سواك ، ورغبنا في جوارِك ، وَرَجَوْنَا لَأَنْ نُظَلَّمَ عندك .

قالت أم سلمة : فالتفت النجاشي إلى جعفر وقال : هل معك شيء ممَّا جاء به نبيُّكم عن الله؟ قال : نعم : فاقْرَأْهُ عليَّ ، فقرَأَ عليه : ﴿ كَهَيْعَتِ ۚ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ۚ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۚ ﴾ [مريم : ١ - ٤] ، حتى أتم صدرًا من السورة قالت أم سلمة : فبكى النجاشي حتى اخضَلَّت^(١) لحيته بالدموع ، وبكى أساففته حتى بلَّلوا كُتُبَهُمْ ، لما سمعوه من كلام الله . . . وهنا قال النجاشي : إنَّ هذا الذي جاء به نبيُّكم والذي جاء به عيسى ليُخرج من مشكاة^(٢) واحدة ، ثم التفت إلى عمرو وصاحبه وقال لهما : انطلقا ، فلا والله لا أسلِّمُهُم إليكما أبدًا .

قالت أم سلمة : فلما خرجنا من عند النجاشي توعدنا^(٣) عمرو بن العاص وقال لصاحبه : والله لَا تَتَيْنَ الملك غدًا وأملأ صدره غيظًا منهم . . . لأقولنَّ إنهم يزعمون أنَّ عيسى ابن مريم عبد . . . فلما كان الغد دَخَلَ عمرو على النجاشي وقال له : أيها الملك ، إنَّ هؤلاء الذين آوَيْتهم وحميتهم ، يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرْسِلَ إليهم ، وسلِّمهم عمَّا يقولونه فيه ، قالت أم سلمة : فلما عرفنا ذلك ، نزل بنا من الهمِّ والغمِّ الكثير . . . ثم اتفقنا على أن يتولَّى الكلام عَنَّا جعفر بن أبي طالب أيضاً .

(١) ليفتنونا عن ديننا : ليرجعونا إليه .

(٢) المشكاة : ما يوضع عليه المصباح . والمراد يخرجان من نور واحد .

(٣) توعدنا : هذدنا .

في رعاية النجاشي :

فلما صرنا بين يدي النجاشي بأدركنا بقوله : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر : إنما نقول فيه ما جاء به نبيُّنا ﷺ . فقال النجاشي : وما الذي يقوله فيه؟ فأجاب جعفر : يقول عنه : إنه عبدُ الله ورسولُه ، وروحُه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول^(١) . فما أن سمع النجاشي قولَ جعفر حتى ضربَ بيده الأرضَ وقال : والله ، ما خرَّج عيسى ابن مريم عما جاء به نبيكم مقدار شعرة .

ثم التفت وقال : اذهبوا فأنتم آمنون . . . من سبكم غم ، ومن تعرَّض لكم عُقوب . . . والله ما أحبُّ أن يكون لي جبلُّ من ذهب ، وأن يُصاب أحدٌ منكم بسوء . ثم نظر إلى عمرو وصاحبه وقال : ردّوا على هذين الرجلين هداياهم ؛ فلا حاجة لي بها . . . فخرج عمرو وصاحبه مكسورين مقهورين . . . يجران أذيال الخيَّبة ، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دارٍ مع أكرم جار .

قضى جعفر وزوجته في رحاب النجاشي عشر سنوات آمنين ، وفي السنة السابعة للهجرة غادر الحبشة مع نفرٍ من المسلمين متجهين إلى يثرب^(٢) ، فلما بلغوا كان رسول الله ﷺ عائداً لتوّه من خيبر^(٣) بعد أن فتحها الله له ففرَّح بلقاء جعفر فرحاً شديداً حتى قال : ما أدري بأيهما أنا أشدُّ فرحاً!! أفتفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟! .

جعفر وقتال الروم : لم يطلْ مُكثُ جعفر بن أبي طالب في المدينة ، ففي أوائل السنة الثامنة للهجرة جهَّز الرسول ﷺ جيشاً لمنازلة الروم في بلاد الشام وأمرَ على الجيش «زيد بن حارثة» وقال : «إن قُتِلَ زيدٌ أو أصيب فالأمير جعفر

(١) البتول : المنقطعة لعبادة الله .

(٢) يثرب : المدينة المنورة .

(٣) خيبر : حصون لليهود فتحها الرسول ﷺ سنة سبع للهجرة وغنم منها معانم كثيرة .

ابن أبي طالب ، فإن قُتِلَ جعفرٌ أو أُصِيبَ ، فالأمير عبد الله بن رَوَاحَةَ فَإِنْ قُتِلَ عبد الله بن رَوَاحَةَ أو أُصِيبَ فَلْيَخْتَرِ المسلمون لأنفسهم أميراً منهم» .

فلَمَّا وصل المسلمون إلى «مؤتة» في الأردن وجدوا أنَّ الروم قد أعدوا لهم مئة ألف ، تُظَاهِرُهُمْ^(١) مئة ألفٍ أخرى من نصارى العرب من قبائل لَحْمٍ وجُذَامٍ وقُضَاعَةَ وغيرها .
أَمَّا جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف .

وما أن التقى الجمعان ودارت رحى المعركة حتى خرَّ زيد بن حارثة صريعاً مُقبلاً غير مُدبر .

فما أسرع أن وثب جعفر بن أبي طالب عن ظهر فرسٍ كانت له شقراء ، ثم عَقَرَهَا^(٢) بسيفه حتى لا ينتفع بها الأعداء من بعده ، وَحَمَلَ الراية وأوغل^(٣) في صفوف الروم وهو يُنْشِدُ :

يَا حَبِذَا الْجَنَّةُ واقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رَوْمٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إِذْ لَاقَيْتَهَا ضِرَابُهَا

وظل يحول في صفوف الأعداء بسيفه ويصول حتى أصابته ضربة قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، فما لبث أن أصابته أخرى قطعت شماله ، فأخذ الراية بصدره وعضديه ، فما لبث أن أصابته ثالثة شَطَرْتُهُ شَطَرَيْنِ ، فأخذ الراية منه عبد الله بن رَوَاحَةَ فما زال يقاتل حتى لحق بصاحبيه .

جعفر الطيار الشهيد : بلغ الرسول ﷺ مصرع قواده الثلاثة فَحَزِنَ عليهم أشدَّ الحزن وأَمْضَاهُ^(٤) وانطلق إلى بيت ابن عمه جعفر فألفى^(٥) زوجته أسماء

(١) تظاهروا بهم : تساندوهم وتدعمهم .

(٢) عَقَرَهَا : ضرب قوائمها بسيفه .

(٣) أَوَغَلَ : دخل بعيداً .

(٤) أَمْضَاهُ : أوجعه .

(٥) أَلْفَى : وَجَدَ .

بنت عُمَيْسٍ تَتَأَهَّبُ لَاسْتِقْبَالِ زَوْجِهَا الْغَائِبِ .

فهي قد عَجَنْتْ عَجِينَهَا ، وَعَسَلَتْ بَيْنَهَا وَدَهَنَتْهُمْ وَأُلْبَسَتْهُمْ . . . قالت أسماء : فلما أقبل علينا رسول الله ﷺ رأيتُ غُلاَلَهُ^(١) من الحُزْنِ تَوْشَحُ^(٢) وجهه الكريم ، فَسَرَتِ المخاوف في نفسي غير أنني لم أسأله عن جعفرٍ مخافةً أن أَسْمَعَ ما أكره . فحَيَّا وقال : «اثْنيني بأولاد جعفرٍ» فدعوتُهم له ، فهَبُوا نحوه فرحين مزغردين وأخذوا يتزاحمون عليه ، فأكَبَ عليهم ، وجعل يشمُّهُمْ ، وعيناه تذرفان من الدمع . فقلت : يا رسولَ الله ! بأبي أنت وأمي ! ما يبكيك ؟ ! أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء ؟ قال : «نعم . . . لقد استشهدوا هذا اليوم» . . . عند ذلك غاضت البسمة من وجوه الصغار لما سمعوا أمَّهُم تبكي . . . أما رسول الله ﷺ فمضى وهو يكفكف عبراته ويقول : «اللهم اخلف جعفرًا في ولده . . . ! اللهم اخلف جعفرًا في أهله» ثم قال : «لقد رأيت جعفرًا في الجنة له جناحان مضرَّجان بالدماء ، وهو مصبوغ القوادم»^(٣) .

المهاجرون الأنصار :

في تاريخنا الإسلامي المجيد نجد مجلدات كثيرة وأسفاراً كبيرة كلها تتحدث عن عظمة الإسلام ورسوله ﷺ وصحابته الكرام ، ومهما طال بحثنا وتنقيبنا عن أخبار الصالحين . . . وهم كثر ، غير أنَّ صحابة رسول الله ، لهم المكانة الأعزُّ ، والسيرة الأحبُّ إلى قلوب المسلمين ، وقصة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه كان مثلاً يُحتذى في إيمان الشباب وصبرهم على المكاره

(١) الغلالة : ثوب رقيق شفاف .

(٢) تَوْشَحُ : تَغْطِي .

(٣) انظر : صَوْر من حياة الصحابة : د. عبد الرحمن رأفت الباشا . دار النفائس - مؤسسة

الرسالة ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧) (ص ٥٧ - ٨٥) باختصار ، وللاستزادة من أخبار

جعفر انظر : الإصابة (١/٢٣٧) . صفة الصفوة (١/٢٠٥) حلية الأولياء (١/١١٤)

طبقات ابن سعد (٤/٢٢) تهذيب التهذيب (٢/٩٨) والسيرة النبوية لابن هشام . =

وحرصهم على رفع راية الإسلام في كل مكان .

في الصفحات التالية سنتعرف على بعض الصالحين من خلال شخصياتهم وما قدّموا من توضيحات للذين الحنيف ، وكيف كانوا يسيرون على محبة الله ورسوله .

وستتعرّف على شخصياتٍ من الأنصار بعد أن تكلمنا عن بعض المهاجرين ؛ وكلهم أخیار . .

مناقب الأنصار :

يقول الله سبحانه في القرآن العزيز : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُذُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ [الحشر : ٩] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « لَوْ أَنَّ الْأَنْصَارَ سَلَكَوا وادياً ، أو شِعْباً ، لسَلَكْتُ في وادي الأنصار ، ولولا الهجرة لَكُنْتُ امرأً من الأنصار »^(١) .

وفي تكريم النبي ﷺ ومحبة الأنصار . . قال البراء رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْأَنْصَارُ لَا يَجِبُهُمْ إِلَّا مَوْءِنٌ ، وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا مَنَافِقٌ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ »^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ »^(٣) . . . وعن عمرو بن مُرَّة قال : سمعت أبا حمزة - رجلاً من الأنصار - : قَالَتِ الْأَنْصَارُ : إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ أَتْبَاعاً ، وَإِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَاكَ ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ أَتْبَاعَنَا مِنَّا ، قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَتْبَاعَهُمْ مِنْهُمْ »^(٤) .

(١) [البخاري (٣٧٧٩)] كتاب : مناقب الأنصار .

(٢) [البخاري (٣٧٨٣)] ومسلم (٧٥) .

(٣) [البخاري (٣٧٨٤)] ومسلم (٧٤) .

(٤) [البخاري (٣٧٨٨)] .

وقام النبي ﷺ بأول عمل حين وصوله المدينة المنورة أن آخى بين المهاجرين والأنصار ودعا لهما ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»^(١).

وفي حديث آخر : عن أنس أيضاً : قال : كانت الأنصار يَوْمَ الْخَنْدَقِ تَقُولُ : نحن الذين بايعوا مُحَمَّدًا على الْجَهَادِ مَا حِينَا أَبَدًا فَأَجَابَهُمْ :

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فازحِمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»^(٢)

معاذ بن جبل

معاذ بن جبل من أبطال الأنصار ومن أهل «يثرب» ومن مناقبه ما جاء في الحديث التالي :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : سمعت النبي ﷺ يقول : «اسْتَقْرُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ : مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ، وَأُبَيٍّ ، وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ»^(٣).

ولما أشرقت جزيرة العرب بنور الهدى والحق كان الغلامُ الثريبي معاذ بن جبل فتى يافعا وكان يمتاز من بين أترابه بحِدَّةِ الذِّكَاءِ ، وَقُوَّةِ الْعَارِضَةِ^(٤) ، وروعة البيان ، وعلوِّ الهمة ، وكان إلى ذلك قسيماً وسيماً^(٥) أَكْحَلَ الْعَيْنِ

(١) [البخاري (٣٧٩٥) ومسلم (١٨٠٥) مطولاً].

(٢) [البخاري (٣٧٩٦) ومسلم (١٨٠٥)].

(٣) [البخاري (٣٨٠٦) ومسلم (٢٤٦٤)].

(٤) قوة العارضة : قوة البديهة والبيان.

(٥) قسيماً وسيماً : بهي الطلعة جميلاً.

جَعَدَ الشَّعْرَ بَرَّاقِ الثَّنَايَا ، يَمْلَأُ عَيْنَ مَجْتَلِيهِ^(١) وَيَمْلِكُ عَلَيْهِ فَوَّادُهُ .

أَسْلَمَ الْفَتَى مُعَاذٌ عَلَى يَدَيِ الدَّاعِيَةِ الْمَكِّيِّ «مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ» وَفِي لَيْلَةِ الْعُقْبَةِ امْتَدَّتْ يَدُهُ الْفَتِيَّةُ فَصَافَحَتْ يَدَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَبَايَعَتْهُ .

وَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ مَهَاجِرًا لَزِمَهُ الْفَتَى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ مُلَازِمَةَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ ، فَأَخَذَ عَنْهُ الْقُرْآنَ ، وَتَلَقَّى عَلَيْهِ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ ، حَتَّى غَدَا مِنْ أَقْرَأِ الصَّحَابَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَعْلَمَهُمْ بِشَرْعِهِ^(٢) .

وَكَانَ شَبِيهَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي اسْتِنَارَةِ عَقْلِهِ ، وَشَجَاعَةِ ذِكَايِهِ . . . وَلَعَلَّ قُدْرَةَ مُعَاذٍ عَلَى الْاجْتِهَادِ ، وَالشَّجَاعَةِ فِي اسْتِعْمَالِ الذِّكَاةِ وَالْعَقْلِ ، هُمَا اللَّتَانِ مَكَّنَتَا مُعَاذًا مِنْ ثَرَايِهِ الْفَقْهِيِّ الَّذِي فَاقَ بِهِ أَقْرَانَهُ وَإِخْوَانَهُ ، وَصَارَ كَمَا وَصَفَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : «أَعْلَمَ النَّاسَ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ» .

عَقْلُ جَازِمٍ يَحْسِنُ الْفَصْلَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ . . . فَوَلَّاهُ مُعَاذٌ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَلَسَنَتَهُ رَسُولُهُ لَا يَحْجُبُ عَقْلُهُ عَنْ مُتَابَعَةِ رِوَايِهِ . . . وَفِي أَوَّلِ خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، دَخَلَ «عَائِذُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ» الْمَسْجِدَ يَوْمًا مَعَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ . . . قَالَ : فَجَلَسْتُ مَجْلِسًا فِيهِ بَضْعٌ وَثَلَاثُونَ ، كُلُّهُمْ يَذْكُرُونَ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَفِي الْحَلْقَةِ شَابٌ شَدِيدُ الْأُدْمَةِ^(٣) ، حَلَوُ الْمُنَطَّقِ ، وَضِيءٌ ، وَهُوَ أَشْبُ الْقَوْمِ سِنًا ، فَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ شَيْءٌ رَدُّوهُ إِلَيْهِ فَأَفْتَاهُمْ ، وَلَا يَحْدُثُهُمْ إِلَّا حِينَ يَسْأَلُونَهُ ، وَلَمَّا قُضِيَ مَجْلِسُهُمْ دَنَوْتُ مِنْهُ وَسَأَلْتُهُ : مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَنَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ .

وَهَذَا أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ يَقُولُ : دَخَلْتُ مَسْجِدَ «حُمَصٍ» فَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْكُهُولِ يَتَوَسَّطُهُمْ شَابٌ بَرَّاقِ الثَّنَايَا ، صَامِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ . . . فَإِذَا امْتَرَى^(٤) الْقَوْمُ

(١) مجتليه : الناظر إليه .

(٢) انظر : صور من حياة الصحابة : عبد الرحمن رأفت الباشا (ص ١٢٥ - ١٣٠) .

(٣) الأدمة : باطن الجلد الذي يلي اللحم والتبشرة ظاهرها .

(٤) امترى القوم : الشيء تجاذبوه [المعجم الوسيط (متر) (ص ٨٥٢)] .

في شيء توجَّهوا إليه يسألونه... فقلت لجليس لي: مَنْ هذا...؟ قال:
معاذُ بن جبل... فوقع في نفسي حُبُّه...

وقال المؤرِّخون «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدَّثوا وفيهم معاذ بن
جبل، نظروا إليه هيبةً له... ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
رضي الله عنه يستشيرُه كثيراً... وكان يقول في بعض المواطن: لولا معاذ
لَهلكَ عمر...، ولقد بلغ معاذ هذه المنزلة في علمه، وفي إجلال
المسلمين له أيام الرسول وبعد مماته وهو شاب... فلقد مات معاذ في خلافة
عمر ولم يجاوز من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة»^(١).

ثالثاً: صحابيَّات جليلات

تعرفنا على مناقب عدد من أصحاب رسول الله ﷺ من الخلفاء الراشدين
ومن أصحابه في الهجرة، وأيضاً عن أصحابه من الأنصار، وعرفنا أيضاً
المناقب الكثيرة عن هؤلاء وأولئك من الرجال الأبطال، وحرِّياً بنا أن نذكر
من الصَّحابيات الفاضلات اللواتي لم يُقَصَّرَنَّ في دعم الدعوة، وكنَّ خير
رفيقات في الجهاد، وفي مساعدة المسلمين في الحرب والسلام؛ وإذا أردنا
أن نسرد قصصَ أمهات المؤمنين فقط لضاقَ في ذلك كلُّ الكتاب، وسنذكر
اثنتين من المؤمنات اللواتي عشنَّ في زمن الرسول ﷺ، وذلك ليس من باب
التَّفضيل؛ فكلهنَّ فاضلات وجميعهنَّ صالحات، ويتمنَّى كل إنسان مسلم
أن يُلمَّ بكل شاردة وواردة عن قصة كلِّ صحابيٍّ وصحابية، لأن في قصصهم
التَّهجد التربوي الإسلامي الذي يجب أن يكون قدوة لنا ولبناتنا وأبنائنا
وبنائنا، ونرى في كل قصة كيف كانت تربيتهم وتربيتهن على يدي
رسول الله ﷺ لتكون سيرهم دستوراً كاملاً في أسس بناء المجتمع الإسلامي
الذي نسعى إليه.

(١) انظر: رجال حول الرسول: خالد محمد خالد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
(ص ١٣٦ - ١٣٨).

ولتتعرف على صحابية جلييلة هي أول طعينة دخلت المدينة مهاجرة:

أم سلمة «أَيُّمُ الْعَرَبِ»

أم المؤمنين هند بنت أبي أمية رضي الله عنها:

«قالت السيدة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «لما تزوج الرسول ﷺ أم سلمة» حَزَنْتُ حزناً شديداً لما ذُكِرَ لنا من جمالها ، فتلطفت حتى رأيتهَا ، فرأيت أضعاف ما وُصِفَتْ بِهِ».

«أم سلمة... أبوها من سادات مخزوم المرموقين وجواذ من أجواد العرب المعدودين حتى إنَّه كان يقال له: «زأُدُ الراكب» لأنَّ الركبان كانت لا تتزوّد إذا قصدت منازلهُ أو سارت في صحبته.

وأما زوجها: فعَبَدَ الله بنُ عبد بن عبد الأسد بن عبد الله بن مخزوم^(١) ، من السابقين إلى الإسلام؛ إذ لم يُسَلِّمْ قبله إلا أبو بكر الصديق ونفر قليل لا يبلغ أصابع اليدين عدداً ، وأمها: عاتكة بنت عامر الكنانية من بني فراس.

وأما اسمها فهو: «هند» لكنّها كُنِّيَتْ بأم سلمة ، ثم غلبت عليها الكنية. أسلمت أم سلمة فهو مع زوجها فكانت هي الأخرى من السابقات إلى الإسلام أيضاً.

وما إن شاع نبأ إسلام أم سلمة وزوجها حتى هاجت قريش وماجت وجعلت تصبّ عليهما من نكالها^(٢)... ، فلم يَضْعُفا ولم يهنا ، ولم يتردّدا ، ولما اشتدّ عليهما الأذى وأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة كانا في طليعة المهاجرين.

مضت أم سلمة وزوجها إلى ديار الغربة وخلفت وراءها في مكة بيتها

(١) عبد الله بن مخزوم: صحابي جليل ، هاجر الهجرتين .

(٢) النكال: الأذى الشديد الذي يجعل المصاب به عبرة لغيره .

الباذخ^(١) ، وعِزَّها الشامخ ، ونسبها العريق ، مُحْتَسِبَةً ذلك كله عند الله . . . وبالرغم من حماية النجاشي لها ولصحبها فقد كان الشوق إلى مكة مهبط الوحي ، والحنين إلى رسول الله ﷺ مصدر الهدى يَفْري كبدها وكبد زوجها فرياً.

وكثر عدد المسلمين في مكة . . . وإن إسلام حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب قد شدَّ أزرهم ووصلت الأخبار إلى الحبشة . . . فعزم فريق من المهاجرين على العودة إلى مكة ، فكانت أم سلمة وزوجها في طليعة العائدين^(٢).

كانت السيدة هند خير زوجة وفاء وطاعة وقياماً بحقوق الزوج حقَّ القيام . . . سافرت إلى الحبشة فراراً بدينها - كما ذكرنا - تاركة خلفها الأهل والمال والوطن رافضة الاستسلام للظلم والطغيان . . .

وولدت في المهجر ابنها سلمة ؛ بعد عودتها وزوجها إلى مكة بفترة . . . أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد بيعة العقبة الكبرى ، فأجمع أبو سلمة أمره بالهجرة إلى المدينة بأهله ، فكانت قصة خروجها مأساة بالغة . . . فقالت أم سلمة رضي الله عنها: لما أزمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيه ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة في ججري ، ثم خرج يقود بعيه ، فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟.

قالت: فترعوا خطام البعير من يده وأخذوني فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد وأهواوا إلى ولدنا سلمة.

(١) الباذخ: العالي ، الرفيع.

(٢) انظر: صور من حياة الصحابة (ص ٦٧ - ٦٩) ، وتهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون. المكتبة الأموية بدمشق - ١٣٧٤ هـ (١/ ٧٣ - ٧٧).

وقالوا لرهط زوجي: لا والله لا نترك ابنتنا عندها... فتجاذبوا ابني «سلمة» حتى خلعوا يده، وانطلق به رهط أبيه، وحبسني بنو المغيرة عندهم.

ومضى زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة فراراً بدينه ونفسه... وفي لحظات وجدت نفسي ممزقة الشمل وحيدة فريدة حيث فُرق بيني وبين زوجي وبين ابني في ساعة... ومنذ ذلك اليوم أُخرجُ كل غداة فأجلس في المكان الذي شهد مأساتي وأستعيد صورة اللحظات التي حيلَ بيني وبين زوجي وبين ولدي، وأظُلُّ أبكي حتى يخيم عليّ بالليل، وبقيت على ذلك سنة تقريباً حتى رَقَّ لحالي رجل من بني عمي وقال لبني قومي: ألا تُخرجونَ هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها؛ وما زال بهم يستلين قلوبهم حتى قالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت... ورد عليّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني، فرحلت بعيري، ووضعت ابني في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم^(١) لقيت عثمان ابن طلحة^(٢)، فقال: إلى أين يا بنت زاد الراكب؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله ثم ابني هذا. فقال: والله مالك من مُترك. وأخذ بخطام بعيري فانطلق معي يقودني، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه ولا أشرف... وفي الطريق إلى المدينة نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء وكان بها منزل أبي سلمة في مهجره، قال: إنَّ زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة... وهكذا كانت أم سلمة أول ظعينة^(٣) دخلت المدينة، كما كانت من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة.

(١) التنعيم: مكان على ثلاثة أميال من مكة.

(٢) عثمان بن طلحة: كان يوم رافق أم سلمة مشركاً، أسلم في هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد، فلما فتحت مكة، دفع النبي ﷺ مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبه، استشهد في خلافة عمر.

(٣) ظعينة: المرأة ما دامت في الهودج (مختار الصحاح: ظَعَنَ).

وفي المدينة المنورة عكفت على تربية صغارها . . . وتفرغ زوجها للجهاد فشهد بداراً وأحداً ، وبعد شهرين عقد له الرسول ﷺ لواء سرية حارب بها بني أسد ومعه مئة وخمسون رجلاً منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وتم له النصر . . . وفي هذه السرية انتكأ الجرح الذي أصابه يوم أحد فألزمه الفراش . . . وذات صباح عادته الرسول ﷺ ، ولم يكد ينتهي من زيارته حتى فارق أبو سلمة الحياة ، فأغمض النبي ﷺ بيديه الشريفتين عيني أبي سلمة^(١) ودعا له قائلاً : «اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهدتين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ! وافسح له في قبره ، ونور له فيه» رواه مسلم^(٢) .

وبعد وفاة أبي سلمة تذكرت أم سلمة ما رواه لها زوجها عن رسول الله ﷺ فقالت : اللهم عندك أحسب مصيبي هذه ، لكنها لم تطب نفسها أن تقول : اللهم أخلفني فيها خيراً منها ، لأنها كانت تتساءل : ومن عساه أن يكون خيراً من أبي سلمة ؟ لكنها ما لبثت أن أتمت الدعاء . . . حزن المسلمون لمُصاب أم سلمة كما لم يحزنوا لمُصاب أحد من قبل ، وأطلقوا عليها اسم «أُمّ»^(٣) العرب .

شعر المهاجرون والأنصار معاً بحق أم سلمة عليهم ، فما كادت تنتهي من حدادها على أبي سلمة حتى تقدّم منها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبها لنفسه ، فأبت . . . ثم تقدم منها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فردته أيضاً ، ثم تقدّم منها رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله ، إن فيّ خللاً ثلاثاً : فأنا امرأة شديدة الغيرة فأخاف أن ترى مني شيئاً يُغضبك فيعذبني الله

(١) انظر : نساء حول الرسول ؛ بسام محمد حمامي ، دار دانية ، دمشق - بيروت ط ١ .
(١٤١٣ هـ - ١٩٩٣) (ص ١٢٩ - ١٣٣) ، وانظر : صور من حياة الصحابة (ص ٧٠ - ٧٧) .

(٢) [مسلم (٩٢٠)] .

(٣) أُمّ : ج أيامي ، وهم الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، مختار الصحاح (أيم) .

به ، وأنا امرأة قد دخلتُ في السنِّ ، وأنا امرأة ذات عيال^(١) . فقال ﷺ : «أما قولك : إنك امرأة مسنةٌ ، فأنا أسنُّ منك ! ولا يُعاب على المرء أن يُقال : تزوج أسنَّ منه . . . وأما قولك : إني أم أيتام ، فإن كلَّهم على الله ورسوله . . . وأما قولك : إني شديدة الغيرة ، فإني أدعو الله أن يُذهب عنك ذلك . . . »^(٢) .

وتزوَّجت رسول الله ﷺ وقالت : لقد أبدلني الله بأبي سلَمة خيراً منه رسول الله ﷺ وتم الزواج في شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة على الصحيح^(٣) .

وتكلَّفت السيدتان عائشة وحفصة رضي الله عنهما ما استطاعتا من شجاعة وطلاقة لتستقبلا الزوجة الجديدة بشيء من الصبر والمجاملة ، وذلك إكراماً للزوج ﷺ .

وذكر ابن سعد عن الواقدي ، حديث عائشة رضي الله عنها :

لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة ، حزنْتُ حُزناً شديداً لِمَا ذُكِرَ لَنَا مِنْ جَمَالِهَا ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى رَأَيْتُهَا ، فَرَأَيْتُ وَاللَّهِ أَضْعَافَ مَا وُصِفَتْ بِهِ . . . وَلَمْ تَبَقْ أَمْ سَلَمَةَ أَمْ لَسَلَمَةَ وَحْدَهُ وَإِنَّمَا غَدَتْ أَمَّا لَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ . . . »^(٤) .

وكانت أم سلمة رضي الله عنها تروي الحديث عن رسول الله ﷺ : . . . قالت : فلما مات أبو سلمة ، أتيتُ النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إنَّ أبا سلمة قد مات ، قال : «قولي : اللهم اغفرْ لي وأعقبني منه عُقبى حَسَنَةً» فقلت ، فأعقبني الله مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ : محمداً ﷺ^(٥) .

(١) صور من حياة الصحابة (ص ٧٧ - ٧٩) .

(٢) السمط (٨٩) ، والمجبر (٨٥) ، وعيون الأثر (٣٠٤/٢) وكذلك في الإصابة والاستيعاب .

(٣) الإصابة وعيون الأثر .

(٤) نساء حول الرسول (ص ١٣٤ - ١٣٥) .

(٥) [مسلم (٩١٩) وأبو داود (٣١١٥) والترمذي (٩٧٧) وابن ماجه (١٤٤٧) . . . =

وعنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أوجزني في مصيبتى ، وأخلف لي خيراً منها ، إلا أجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيراً منها» قالت: فلما توفي أبو سلمة ، قلت كما أمرني رسول الله ، فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ^(١).

وكانت أم سلمة من العاقلات النبيهات ، اللواتي يأخذ رسول الله ﷺ برأيهن ، كما حدث يوم الحديبية حين أمر رسول الله أصحابه أن ينحروا بعد توقيع الصلح مع وفد قريش ، ولكن الصحابة لم يستجيبوا لأنهم رأوا أن هذا الصلح فيه هضم لحقوق المسلمين فدخل ﷺ على أم سلمة وهو حزين فذكر لها ما كان من أمر المسلمين فقالت رضي الله عنها: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج ولا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُذْنُكَ وتدعو حالِكُكَ فيحلقك ، وعمل الرسول ﷺ برأيها ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً... وتقدم العمر بأم سلمة وتوفيت عن أربع وثمانين سنة وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن^(٢).

الصحابة: أسماء بنت أبي بكر

رضي الله عنها ذات النطاقين

من الصحابات الجليلات ، صحابة مشهورة في التاريخ الإسلامي هي: أسماء ذات النطاقين وأم عبد الله بن الزبير الذي سنذكر بُذْنة عن حياته وحواره مع أمه حين حاصره الحجاج في مكة وفي بيت الله الحرام ، ورغم

= و(١٥٩٨) [«أعقبنى»: أي: أبدلني وعوضني. وانظر: رياض الصالحين ، كتاب عيادة المريض .

(١) [مسلم (٩١٨) (٤)].

(٢) [البخاري (٢٧٣١) (٢٧٣٢)] جزء من حديث طويل في كتاب الشروط ، باب: الشروط في الجهاد.

حبها لابنها ، لم تفضله على نصرته الحق ضد الظالم .

«قال المؤرخون: عُمِّرَت أسماء مئةَ عام ولم يسقط لها سنٌّ ولا ضِرْسٌ ، ولم يَغِبْ من عقلها شيءٌ» .

صحابيتنا هذه جَمَعَتِ المجدَ من أطرافه كُلِّها فأبوها صحابي ، وجَدُّها صحابي ، وأُخْتُها صحابية ، وزوجها صحابي ، وابنها صحابي . . . وحَسْبُهَا بذلك شَرَفًا وفخرًا .

أما أبوها فالصَّدِيقُ خَلِيلُ الرسول الكريم في حياته ، وخليفته من بعد مماتِهِ .

وأما جَدُّها: فأبو عتيق والدُّ أبي بكر ، وأختها أم المؤمنين عائشة الطَّاهِرَةُ المبرَّأة رضي الله عنها ، وأما زوجها فحواريٌّ^(١) رسول الله ﷺ: الزبير بن العوام ، وابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين^(٢) .

«وأُمُّها: قتيلة بنت عبد العزى . . . العامرية صاحبة الشجاعة الفائقة ، الشاعرة النائرة ، وهي ذات منطق وبيان فصيح»^(٣) .

«كانت أسماء من السابقات إلى الإسلام ، إذ لم يتقدَّم عليها في هذا الفضل العظيم غيرُ سبعةَ إنساناً من رجل وامرأة .

وقد لُقِّبَتْ بذات النطاقين لأنَّها صنعت للرسول الله ﷺ ولأبيها يَوْمَ هاجرا إلى المدينة زاداً ، وأعدَّتْ لهما سِقَاءً^(٤) فَلَمَّا لم تَجِدْ ما تربطُهُما به ، شَقَّتْ نطاقها^(٥) شِقَّتَيْنِ ، فربطتُ بأحدهما المِزْوَدَ^(٦) وبالثاني السِّقَاءَ

(١) الحواري: النصير .

(٢) صَوْر من حياة الصحابة (ص ٥٧ - ٥٨) .

(٣) نساء حول الرسول (ص ٣٤٤) .

(٤) سقاء: قربة يوضع بها الماء .

(٥) النَّطَاق: ما تشدُّ به المرأة وسنطها .

(٦) المِزْوَد: ما يوضع به الزاد .

فدعا لها النبي ﷺ أَنْ يُبَدِّلَهَا اللَّهُ مِنْهُمَا نَاطِقِينَ فِي الْجَنَّةِ فَلَقِيَتْ لَذَلِكَ بِذَاتِ النَّطَاقَيْنِ^(١).

والحديث الشريف يوضح ذلك ، فعن أسماء رضي الله عنها قالت : صنعت سُفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ ، حِينَ أَرَادَا أَنْ يَهَاجِرَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، قَالَتْ : فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ ، وَلَا لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ : وَاللَّهِ مَا أَجِدُ شَيْئاً أَرْبِطُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي ، قَالَ : فَشُقِّيهِ بَاثْنَيْنِ فَارْبِطِيهِ : بِوَاحِدِ السَّعَاءِ وَبِالْآخِرِ السُّفْرَةَ ، فَفَعَلْتُ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ : ذَاتُ النَّطَاقَيْنِ^(٢).

«وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِهَا أَنَّ أُمَهَا «قَتِيلَةَ» قَدْ طَلَّقَهَا وَالدهَا الصَّدِيقُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَيَذَكُرُ أَنَّ «قَتِيلَةَ» قَدِمَتْ عَلَى ابْنَتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ الصَّدِيقِ ذَاتِ يَوْمٍ لَزِيَارَتِهَا ، تَحْمِلُ لَهَا هَدِيَّةً ، وَكَانَتْ «قَتِيلَةَ» مُشْرِكَةً عَلَى دِينِ قَوْمِهَا . وَكَانَ مَعَهَا ابْنُهَا الْحَارِثُ بْنُ مَدْرِكَ بْنِ عَمْرِ بْنِ مَخْزُومٍ ، فَأَبَتْ أَسْمَاءُ أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتِهَا حَتَّى تَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَسَأَلَتْهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] . فَأَدْخَلَتْهَا أَسْمَاءُ وَقَبِلْتُ هَدِيَّتَهَا . . . بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ»^(٣) وَالْحَدِيثُ : عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ : قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قُلْتُ : وَهِيَ رَاغِبَةٌ ، أَفَاصِلُ أُمِّي ؟ قَالَ : «نَعَمْ ، صِلِي أُمَّكَ»^(٤).

تزوجت أسماء الزبير بن العوام ، وكان شاباً مرملاً^(٥) . . . ليس له مالٌ يوسّع به على عياله غير فرسٍ اقتناها ، فكانت أسماء له نِعَمَ الزَّوْجَةِ

(١) صَوْرٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ (ص ٥٨ - ٥٩) .

(٢) [البخاري (٣٩٧)] كِتَابُ مَنَاقِبِ الْأَنْصَارِ ، بَابُ : هِجْرَةِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ .

(٣) انْظُرْ : نِسَاءٌ حَوْلَ الرَّسُولِ (ص ٣٤٤ - ٣٤٥) .

(٤) [البخاري (٢٦٢٠)] وَمُسْلِمٌ (١٠٠٣) .

(٥) مَرْمَلًا : فَقِيرًا .

الصَّالِحَةُ ، تَخْدِمُهُ وَتَسُوسُ فَرَسَهُ ، وَتُرْعَاهُ . . . حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَصَارَ مِنْ أَغْنَى أَغْنِيَاءِ الصَّحَابَةِ ، وَلَمَّا أُتِيَخَ لَهَا أَنْ تُهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ . . . كَانَتْ قَدْ أَتَمَّتْ حَمْلَهَا بِابْنِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ ، فَلَمْ يَمْنَعْهَا ذَلِكَ مِنْ تَحْمُلِ مَشَاقِّ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ ، فَمَا أَنْ بَلَغَتْ «قِيَاءً» حَتَّى وَضَعَتْ وَلِيدَهَا ، فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ وَهَلَّلُوا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الْمَدِينَةِ .

فَحَمَلَتْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَضَعَتْهُ فِي جِجْرِهِ ، فَأَخَذَ شَيْئاً مِنْ رِيقِهِ وَجَعَلَهُ فِي فَمِ الصَّبِيِّ ثُمَّ حَنَكَهُ^(١) وَدَعَا لَهُ . . . فَكَانَ أَوَّلَ مَا دَخَلَ فِي جُوفِهِ رِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَقَدْ اجْتَمَعَ لِأَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ خِصَائِلِ الْخَيْرِ وَشِمَائِلِ الثُّبُلِ وَرِجَاحَةِ الْعَقْلِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ إِلَّا لِلْقَلِيلِ النَّادِرِ مِنَ الرِّجَالِ . . . وَيَضْرِبُ بِجُودِهَا الْمَثْلُ : حَدَّثَتْ ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ قَالَ : مَا رَأَيْتُ امْرَأَتَيْنِ قَطُّ أَجُودَ مِنْ خَالَتِي عَائِشَةَ وَأُمِّي أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، لَكِنْ جُودَهُمَا مُخْتَلَفٌ .

أَمَّا خَالَتِي فَكَانَتْ تَجْمَعُ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ عِنْدَهَا مَا يَكْفِي قَسَمْتُهُ بَيْنَ ذَوِي الْحَاجَاتِ . . . وَأَمَّا أُمِّي فَكَانَتْ لَا تُؤَمِّسُكَ شَيْئاً إِلَى الْغَدِ . . . »^(٢) .

« » وَكَانَتْ هَجَرَةَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ بِصَحْبَةِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى غَارِ بِجَبَلِ ثَوْرٍ فَدَخَلَهُ . . . وَكَانَ لِأَسْمَاءَ وَأَخِيهَا عَبْدِ اللَّهِ الدَّوْرَ الْكَبِيرَ فِي إِيْصَالِ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمُؤْنِ كُلِّ لَيْلَةٍ . . . فَكَانَا يَذْهَبَانِ إِلَى الْغَارِ كُلِّ لَيْلَةٍ . . . أَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَكَانَ يَزُودُ الرَّسُولَ ﷺ بِالْأَخْبَارِ عَنْ قُرَيْشٍ وَتَحَرَّكَاتِهِمْ ، وَأَمَّا أَسْمَاءُ فَكَانَتْ تَزُودُ الرَّسُولَ ﷺ وَأَبَاهَا بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ^(٣) .

وَإِذَا نَسِيَ التَّارِيخَ لِأَسْمَاءَ مُوَاقِفَهَا كُلَّهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَنْسِي لَهَا رِجَاحَةَ

(١) حَنَكَهُ : مَضَغَ شَيْئاً وَوَضَعَهُ فِي حَنَكِهِ .

(٢) صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ (ص ٥٩ - ٦١) .

(٣) نِسَاءٌ حَوْلَ الرَّسُولِ (ص ٣٤٧) .

عقلها ، وشدة حَزْمِها ، وقوة إيمانها ، وهي تلقى ولدها عبد الله اللقاء الأخير .

وذلك بعد موت يزيد بن معاوية ، حيث بُويع لعبد الله بن الزبير بالخلافة فدانت له الحجاز ومصر والعراق وخُراسان ، وأكثر بلاد الشام ، لكن بني أمية ما لبثوا أن سَيَرُوا لحربه جيشاً لجباً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ، فدارت بين الفريقين معارك طاحنة أظهر فيها ابن الزبير من ضروب البطولة والشجاعة الكثير ، غير أن أنصاره جعلوا ينفِضُونَ عنه شيئاً فشيئاً؛ فلجأ إلى بيت الله الحرام واحتتمي وَمَنْ معه في حِمَى الكعبة المعظمة . . . وقبيل مصرعه بساعات دخل على أمه أسماء وكانت عجوزاً فانية قد كُفَّ بصرها ، فقال: السلام عليك يا أمّه ورحمة الله وبركاته . فقالت: وعليك السلام يا عبد الله . . . ما الذي أقدمَكَ في هذه الساعة ، والصخور التي تقذفها منجنيقات الحجاج على جنودك في الحَرَم تَهْزُ دور مكة هزاً؟ قال: جئت لأستشيرك . . . لقد خذلني الناس وانحازوا عني رهبةً من الحجاج أو رغبةً بما عنده حتى أولادي وأهلي انفضّوا^(١) عني ، ولم يبق معي إلا نفر قليل من رجالي . . . فما تَرين؟ فعَلا صوتها وقالت: إن كنت تعتقد أنك على حقٍّ ، وتدعو إلى حقٍّ ، فاصبرْ وجالِدْ كما صبر أصحابك الذي قُتِلوا تحت رايتك . . . وإن كنت تُريد الدنيا فلبئس العبدُ أنت ، أهلكك نفسك ورجالك ، قال: ولكنني مقتول لا محالة ، قالت: ذلك خيرٌ لك من أن تُسلمَ نفسك للحجاج مختاراً . . . قال: أخاف أن يمثلوا بي . قالت: الشاة المذبوحة لا يؤلمها السَلْخُ . . . فأشرفت أساريه ، وقَبَلها . . . وقَبَلته ونزع درعه ودعت له: اللهم إني سلّمتهُ لأمرِكَ ، ورَضِيتُ بما قضيتَ لَهُ؛ فَأُثْنِي عليه ثوابَ الصابرين ، ولم تغرب الشمس إلا وقد لَحِقَ عبد الله بجوارِ رَبِّهِ^(٢) .

(١) انفضّوا: تفرّقوا .

(٢) صَوْر من حياة الصحابة (ص ٦٣ - ٧٠) باختصار (وبعد مصرعه ببضعة عشر يوماً لحقت أسماء بابنها) .

رابعاً: المعاملة باللطف والإيناس

المعاملة اللطيفة الحسنة مع الآخرين يكون مردودها طيباً ، ولا يمكن للمرء إذا أراد أمراً من آخر أن يصل لبغيته ، إلا باللين والإحسان ، ورحم من قال :

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فَلَطَّالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ
فالإحسان بالمعاملة ينم عن خُلُقٍ فاضل وسجيّة طيبة ، ويكون مردود هذه المعاملة الطيبة أجدي وأنفع مع الأطفال في تربيتهم ووعظهم وإرشادهم ، لأن الكلمة الطيبة لها موقعها الحسن عند المتلقّي .

«إنّ المربين المسلمين دعوا إلى أن يتعامل المعلم مع طلابه بروح المحبّة والتسامح ، لا بروح الإكبار ، والعنف ، والتسلّط ، لأن العنف قد يقابله عنف من الطالب نفسه ، وقد يغرس في نفس الطالب بذور الكراهية للمعلم ، لكنّ المعلم في المقابل ، عليه ألا يكون متهاوناً مع الطالب إلى درجة الضّعف ، بل عليه أن يكون ليناً في غير ضَعْف ، وحازماً في غير عنف .

ومما قاله ابن سحنون - أحد المربين المسلمين - في كتابه «آداب المتعلّمين» : «علّموا ولا تُعَنّفوا ، فإنّ المعلّم خير من المعنّف»^(١) .

وتوجيه المعلم في كيفية معاملة التلميذ ينسحب أيضاً على الوالدين في التربية داخل البيت ، ومن الممكن أن نحصل على ما نريد بالرّضا واللطف ، دون الغضب والعنف .

وقد يحتاج المربي أو المعلم إلى استعمال الشدّة في تحقيق المبادئ

(١) انظر: الطفولة في الإسلام ولمحة عن المراحل التي تليها: د. سليمان أحمد عبيدات - عمان الأردن ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م (ج١ : ١٤٠) .

التربوية وتعويد الأولاد على تنفيذها واستعمال طريقة الثواب والعقاب للوصول إلى الغاية المرجوة.

نظرة علماء الفكر الإسلامي إلى الثواب والعقاب :

تعريف الثواب: هو ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله ، فيسمى الجزاء ثواباً تصوراً أنه هو هو ، ألا ترى كيف جعل الله تعالى الجزاء نفس العمل في قوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧].

ولم يقل جزاءه . والثواب يقال في الخير والشر ، ولكن الأكثر المتعارف في الخير ، وعلى هذا قوله عز وجل :

﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] ^(١).

والعقاب : والعُقْبُ والعُقْبَى يختصان بالثواب نحو : ﴿ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف : ٤٤] . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٢] ، والعاقبة إطلاقها يختص بالثواب نحو : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ، والعقوبة والمعاقبة والعِقَابُ يختص بالعذاب ، قال تعالى : ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٤] ، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦].

وقد وردت كلمة «عقاب» ومشتقاتها في القرآن الكريم ستاً وعشرين مرة ، والثواب ومشتقاتها عشرين مرة ^(٢).

والعقوبة في القانون الوضعي هي عبارة عن «قدر مقصود من الألم يقرّره المجتمع مثلاً في مشرّعه ليوقع كرهاً على من يرتكب جريمة في القانون بمقتضى حكم يصدره القضاء» ^(٣) ، والعقوبة في الشريعة الإسلامية هي عبارة عن «مؤيد شرعي الغاية منه : ضمان نفاذ الأحكام الشرعية الأصلية التي

(١) مفردات ألفاظ القرآن : للأصفهاني (ثوب ص ١٨٠ وعقب ٥٧٥).

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٣) قانون العقوبات القسم العام : محمد زكي أبو عامر (ص ٣٧٠ - ٣٧١).

شُرِّعَتْ لتحقيق مصالح العباد على وجه يوفّر العدالة بينهم»^(١).

نظرة ابن خلدون إلى العقاب :

لقد نظر ابن خلدون إلى العقاب نظرة شموليّة ، واسعة ، حيث تناول الآثار المترتبة على العقاب ، وما يُعانيه المعاقَّب من : توتّر في النواحي النفسية والانفعالية .

لقد اعتبر ابن خلدون أنّ العقاب مضرٌّ بالإنسان ، والذي يُعاقَّب قد تهتّر شخصيّته ، ويعيش حياة الذلّ والمهانة ، وقد يثور على مَنْ عاقَبه ، وفي ذلك يقول : «فإن المملِك إذا كان قاصراً باطشاً بالعقوبات ، منقّباً عن عورات الناس ، وتعداد ذنوبهم ، شملهم : الخوف والذلّ ولاذوا منه بالكذب ، والمكر ، والخديعة ، وفسدت بصائرهم ، وأخلاقهم ، وربما خذلوه في مواطن الحروب ، والمدافعات ، ففسدت الحماية بفساد الثبات»^(٢).

يرى ابن خلدون أنّ اتخاذ العقاب وسيلة للإصلاح ، سواء في الصنائع ، أو في التعلّم ، أو من جانب الحاكم بالمحكومين ، تكون نتيجته نقصاً في الناس ، وعدم وجود قدرة للأفراد يدفعون بها عادية الزمن مع إصابتهم بالجنّ ، والخوف ، والضّعف في النفوس ، وعدم الثقة في ذاتيّتهم وفي غيرهم^(٣).

ويقول ابن خلدون : « . . . ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدّم به الرشيد لمعلّم ولده محمد الأمين فقال : يا أحمد إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصيّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، وكن له

(١) المدخل الفقهي : أحمد الحجي الكردي (ص ٩) وانظر : التربية الإسلامية عند الغزالي : أيوب دخل الله (ص ٢٤٤ - ٢٤٥).

(٢) مقدمة ابن خلدون : (٢/ ٥١٥).

(٣) المناهج وطرق التعليم عند القاسي وابن خلدون : عبد الله الأمين النعيمي (ص ٨٨).

بحيث وَضَعَكَ أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعَرِّفه الأخبارَ ، وروِّه الأشعار ، وعَلِّمه السُّنَنَ ، وبَصِّرْهُ بمواقع الكلام وبَدِّئْهُ وامْنَعْهُ من الضَّحِكِ إلَّا في أوقاته ، وَخُذْهُ بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تَمُرَّنْ بك ساعة إلَّا وأَنْتَ مغتنمٌ فائدة تفيدهُ إياها من غير أن تُحْزِنَهُ ، فتميتَ ذَهْنَهُ ، ولا تُطِلْ في مسامَحَتِهِ فيستحلي الفراغ ويألفهُ ، وقوِّمَهُ ما استطعتَ بالقربِ والملايئةِ ، فإنَّ أباهما ، فعليك بالشَّدة والغِلظة^(١).

إنَّ ابن خلدون يتبنَّى أسلوب الرشيد الذي أَرادَه لولده ، وفي الحقيقة إن هذا الأسلوب يوضِّح المنهج التربوي الصحيح ، ومتى يجب استعمال اللين واللطف ومتى يجب استعمال الشَّدة والعنف .

الثواب والعقاب في رأي القابسي :

القابسي يؤمن بالثواب والعقاب «فكما أنَّ المحسن يجب أن ينال جزاء إحسانه ، فإنَّ المسيء يجب أن ينال جزاء إساءته . . . والقابسي يعتبر العقاب على درجات: تتدرَّج من اللوم ، إلى الإنذار ، إلى التهديد ، إلى الوعد والوعيد ، فلا يجوز للمعلم أن يستعمل الضرب مع الطالب إلَّا إذا كانت جميع الوسائل التي استعملها قد فشلت في ردعه ، عندئذٍ يمكن للمعلم أن يلجأ إلى الضرب ؛ بغرض تغيير السلوك غير المرغوب فيه ، إلى السلوك الفاضل . . . وليس الغاية التشنِّي من الطالب . . .»^(٢).

والطريقة نفسها يجب أن يتبعها الأب في تربية ولده .

مداعبة الأولاد وتعليمهم الرياضة :

من أهم واجبات الأبوين : إدخال البهجة والسرور على قلب الطفل .

(١) مقدمة ابن خلدون: دار الفكر ، (ص ٥٤١) الفصل ٣٢ في أن الشَّدة على المتعلمين مضرَّة بهم .

(٢) الطفولة في الإسلام ولمحة عن المراحل التي تليها (ص ١٤٢) .

فتسلية الطفل تدخل في المنهج التربوي الإسلامي ، فالطفل الذي ينمو في جو من الغبطة والفرح يجعله يتعلّق بهذا الجو الذي يؤمّن له ما يُبعده عن المنغصات ، وهو جو البيت الذي يجعل ساعة فرحه وانبساطه حينما يكون في بيته بين والدّيه وإخوته .

«وقد كان عليه الصلاة والسلام يسعى جهده لإدخال السرور إلى نفوس أحفاده على الرغم من كثرة مشاغله ، فكان يداعب الأطفال ويحبّتهم ، وقد امتطاه بعض أحفاده ، وهو ساجد بجماعة المسلمين ، واستمر ساجداً حتى انتهى الطفل ، وظنّ أصحابه أنّه قُبِضَ ، وكان يداعب زينب بنت أم سلمة - زوجته - .

كما كان يدلّع لسانه للطفل - أي يخرجّه من فمه ويحرّكه - ليضحكه .

ويمكننا أن نقول: إنّ الأبوين مقصّران جدّاً في هذا المضمار ، وهما علاوة على إهمالهما إدخال السرور إلى نفوس أطفالهما ، يجعلان البيت بصرامتهما وقساوتهما وتدخلهما بما لا يعني: جحيماً لا يُطاق ، فيختلس الولد الفرصة للفرار منه والارتواء في أحضان الشارع حيث يجد فيه الحرية والفرح بين أولاد الأزقة الذين يُفسدون تربيته في كثير من الأحيان»^(١) .

وبما أن الرسول ﷺ يراعي الأطفال حاجتهم للمداعبة والمرح ، بالركض تارة ، وبالحمل تارة أخرى ، وبما أنّه ﷺ هو القدوة الحسنة للمسلمين ، فعلينا أن نسامر أطفالنا ، ونلاعبهم ، ونلاعبهم ، ونتصايّب معهم .

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ: أحسن الناس خُلُقاً ، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - وهو فطيم - كان إذا جاءنا قال: «يا أبا عمير ما فعل السُّغَيْر؟»^(٢) .

(١) نحو أسرة مسلمة: محمود مهدي الإستانبولي (ص ٨٤) .

(٢) [البخاري (٦١٢٩) ومسلم (٢١٥٠)] .

والسُّغَيْر: طائر منقاره أحمر . وهو تصغير: نغر .

وعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً أبناء العباس رضي الله عنهم ثم يقول: «مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ فله كذا وكذا» قال: فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم»^(١).

فما هي الآثار النفسية على الأطفال من مداعبة وممازحة ذويهم لهم؟
الجواب: «إن مصاباة الطفل وملاعبته تنمي في نفسه وتساعد على إظهار مكنونها... قال الحافظ ابن حجر معلقاً:

«وإن الممازحة بالقول والفعل مع الصغير إنما يُقصد به التأنيس ، والتقبيل من جملة ذلك»^(٢).

إن المشرع الإسلامي عندما يطالب المربين بالتصابي مع الأطفال أو بإغداق الحب والحنان عليهم وبتقبيلهم ، محتسباً بمشاعر الرعاية الكاملة في هذه المرحلة دون أن يصاحبها نمط ما من التدريب والأمر... وحين يطالبنا رسول الله ﷺ بالتصابي مع الأطفال ندرك سر ذلك ؛ لأنه يترك أثراً على مشاعر الطفل وبنائه النفسي^(٣).

أوصى النبي ﷺ أن يكون راعي البيت طيباً في معاملته مع أهل بيته ، ليتنا مع أولاده وأن يوسع على عباله قال ﷺ: «إذا أنفق الرَّجُلُ على أهله نفقةً يَحْتَسِبُهَا فهي له صدقة» متفق عليه^(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: (١/٢١٤).

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٣/٣١). وفي صحيح البخاري: أحاديث عدة من رقم: (٥٩٩٤ - ٥٩٩٨) كتاب الأدب ، باب: رحمة الولد وتقيله ومعانقته.

(٣) انظر: الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية: سهام مهدي حنا (ص ٤٦٢ - ٤٦٣).

(٤) [البخاري (٥٥) و(٥٣٥١) ومسلم (١٠٠٢) «يحتسبها»: أي: يقصد بها وجه الله والتقرب إليه ، وانظر رياض الصالحين ، باب: النفقة على العيال.

رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم^(١) وغيره. قال معقل بن يسار: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من عبد استرعه الله رعية، فلم يُخطِها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «علموا أولادكم السباحة والرمية، ومروهم، فليتبوا على ظهور الخيل وتباً».

ويأتي اهتمام الإسلام بمداعبة الأولاد وملء أوقات فراغهم بما ينفعهم، ويعود عليهم في المستقبل بالخير والبركة والقوة، فللجسم مطالب، وللروح حقوق، والوالد الصالح هو الذي يعتني بالأميرين، فلا إفراط ولا تفريط.

وللرياضة^(٣) دور هام في حياة المسلم، فهي تسد الفراغ، وتشفيه من الأمراض، وتعوده على القوة والتحمل والصبر، وقد تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ثم قال: «ألا إنَّ القوَّة الرمي، ألا إنَّ القوَّة الرمي»^(٤).

في الآية الكريمة التي جاءت بصيغة الأمر من الله تعالى بأن نعد ما استطعنا من قوة لمواجهة كل طارئ، والقوة ليست بالسلاح فقط، وإنما بالقوة الجسدية التي تكون بتربية الجسم تربية صحيحة ليصبح الجسم قوياً سليماً في صحته، قوياً في فكره وعقله؛ لتحقيق: «العقل السليم في الجسم السليم». وهذا الإمام الغزالي رحمه الله يقول:

(١) [مسلم (١٦٣١) وأبو داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) والنسائي (١٠٢/٦)].

(٢) [البخاري (٧١٥٠) ومسلم (١٤٢)].

(٣) انظر: حق الوالدين على الأبناء (ص ١٣٤ - ١٣٦).

(٤) رواه مسلم في الإمامة باب فضل الرمي حديث (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) في الجهاد باب: الرمي، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١٣).

«فالبَدَنُ مركبةٌ الذي يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه ، وإثما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك . . . إِنَّ كل عضو من أعضاء البدن خُلِقَ لفعل خاص به وإثما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خُلِقَ له . . . فمرض اليد أن يتعذر عليها البطشُ ، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار ، وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خُلِقَ لأجله . وهو : العلم ، والحكمة ، والمعرفة ، وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره ، وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه»^(١).

ويعتمد الغزالي في عملية رعاية الجسد على تعاليم الإسلام ، قال ﷺ :
«إِنَّ لجسمك عليك حقاً»^(٢).

فالحديث الشريف يؤكد على ضرورة مراعاة الجسم ، ويعتبر الرعاية الصحية وممارسة الرياضة من أبرز المجالات الحيوية^(٣).

وسائل اللهو المباح :

يسعى الدين الإسلامي إلى إنشاء المجتمع الصالح بتهيئة وتنشئة الفرد الصالح ، والإسلام أكد على التزام المسلمين بتوجيهات المنهج التربوي الإسلامي الذي غايته صالح الفرد ، وتكوين شخصيته الواعية والفاضلة ، وهذا لا يأتي إلا بتنفيذ ما دعا إليه القرآن الكريم والحديث الشريف من إعداد المرء لجسمه وفكره على أحسن وجه ، ولقد ذكرنا أَنَّ الرسول ﷺ كان يلعب الأطفال ويداعبهم ويدخل السرور على قلوبهم ، ولم يبق إلا أن يقتدي المسلم برسوله الكريم ويلعب أطفاله ، ويشيع الفرح والسرور في بيته ، ويوجه أطفاله لممارسة الألعاب المفيدة ، وشغل وقت الفراغ . وهناك

(١) الإحياء : الغزالي (٣/٦ و٧) و(٦٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الصوم حديث رقم (٥٥).

(٣) التربية الإسلامية عند الغزالي : أيوب دخل الله (ص ١٦٤ - ١٦٦).

وسائل متعددة يمارسها الطفل ، وهي من وسائل اللهو المباحة والمفيدة ، ومنها :

التسابق على الأقدام - الجري - سباق الدراجات . . . وغير ذلك .

وكان النبي ﷺ يسابق زوجته عائشة رضي الله عنها . قالت : سابقني رسول الله ﷺ ، فَلَبِثْتُ حَتَّى إِذَا أَرَهَقَنِي اللَّحْمَ - أي : سمنت - سابقني فسبقني ، فقال : «هَذِهِ بِتِلْكَ»^(١) .

ومن وسائل اللهو المباح «المصارعة» فقد صارع رسول الله ﷺ «رُكَانَةَ» فصرعه النبي ﷺ أكثر من مرة .

ومنه أيضاً : «اللعب بالسَّهَامِ وَالْحِرَابِ» فقال ﷺ : «ارموا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ»^(٢) .

وهناك بعض الناس يتخذون من الأنعام والطيور أهدافاً للصراع والسباق ، وأيضاً مصارعة الشيران ! وهذا لا يجوز لقوله ﷺ : «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئاً فِيهِ الرُّوحَ غَرَضاً»^(٣) . متفق عليه .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه ، وعن الوسم في الوجه^(٤) .

ومن ألوان اللهو المباح «الصَّيْدُ» .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٤]^(٥) .

(١) [أحمد (٢٦٤ ، ٣٩/٣١/٦) .]

(٢) صحيح البخاري [(٣٣٧٣)] .

(٣) [البخاري (٥٥١٥) ومسلم (١٩٥٨)] .

(٤) [مسلم (٢١١٧)] .

(٥) حق الوالدين على الأبناء : يوسف علي بديوي (ص ١٣٦ - ١٣٧) .

وهناك وسائل أخرى من اللهو البريء الذي أباحه الشرع ما دام لا يمنع المسلم عن أداء فروضه وعبادته .

اللَّعِبُ وَالطَّفْلُ :

لقد أحلّ الإسلام كلّ شيء من لهو أو غيره إلا إذا صدر نصٌّ بتحريمه وتركه ، ولكن هناك بعض أدوات اللهو أحدثت ويُمارسها الكثير من المسلمين ، فإذا لم تؤدّ في النتيجة إلى رهانٍ كانت مُباحة ، أمّا إذا كان من شروط اللعب دفع المال ، أي فيه رهان ، فهذا حرامٌ لأنّه يدخل في باب القمار .

ومن اللهو المباح «الشطرنج» وهو حلال بشروط :

- ألا يؤخّر اللاعب صلاةً عن وقتها .

- ألا يُشترط الرهان لكونه قماراً .

- أن يحفظ اللاعب لسانه من بداءة الكلام وفحش اللسان .

فكل هذا اللهو له أهداف صالحة من الترويح عن النفس ، وإعادة النشاط والحيويّة ، والتدريب على القوة في الجسم والعقل ، وكل ذلك ليكون المسلم - إضافة لقوّة إيمانه - قوياً في عقله وجسمه^(١) ، فالرياضة البدنية وألعاب الرياضة بمختلف أنواعها من ألعاب كرات ، وألعاب قوى ، والسير في الأماكن الفسيحة في الهواء الطلق بشكل منتظم كل ذلك يعود بالفائدة . والشرع الحنيف لم يحرم الطفل من إشباع رغباته البريئة في اللهو والمرح والضحك وقضاء أوقات فراغه في راحة واستجمام ، والنبي ﷺ شجّع على ذلك وحبّذه ، كي لا ندفع إلى المجتمع مضطرباً نفسياً ، عانى من الكبت والحرمان بتفريغ شحنات الجسم الحيوية ، وما دام كل لهو لا يدعو لأشياء خبيثة ؛ فهو مباح وحلال .

والإمام الغزالي التفت إلى أنّ اللعب حاجة أساسية بالنسبة إلى الطفل ،

(١) المصدر السابق .

وضرورة من ضروريات نموه الجنسي والعقلي والوجداني ، وأنَّ الحياة لا يمكن أن تكون للعلم وحده ، فالعمر كلّهُ لا يتسع لجميع العلوم . كما أنَّ إرهاب الطفل بالعلم يميّت القلب ، ويعكّر مزاجه وحياته ، ولذلك دعا الغزالي إلى تخصيص وقت يلعب فيه الطفل بعد أن يؤدي واجبه من الدرس : «فإذا انصرف الصبي ، فليؤذن له أن يلعب لعباً جميلاً يسترّيح إليه من تعب المكتب . . . فإنَّ منع الصبي من اللعب ، وإرهاقه بالعلم ، يميّت قلبه ، ويُبطل ذكاءه ، وينعّص عليه العيش»^(١) .

فالأب الواعي والمربي الجيد لا يحرم الطفل من أن يروح عن نفسه ويمارس مع زملائه في المدرسة أو مع رفاقه في الحيّ الألعاب المفيدة التي تجعله يمتلئ نشاطاً وحيويّة ، وهذا مما يساعد التلميذ في تفتيح ذهنه وتنشيط فكره .

خامساً: البناء البدني والصّحي

التربية الصحية مهمّة في بناء جسم الإنسان ، وفي التربية الصحيّة فوائد شتى ، فإنّها تمنح الجسم السّلامة لأعضائه ، والرّاحة النفسيّة لأفكاره ، والأتزان في حركاته ، وأهم ما يجب أن نفعله في بناء الجسم : ممارسة الرياضة البدنية ، وتعلّم السباحة ، والرّماية ، وركوب الخيل ؛ وهو ما حثنا على تعلّمه رسولنا الكريم ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم .

لقد أنعم الله علينا بهذا الجسم الذي نملكه ، فكيف نهمله وقد وصّانا رسول الله ﷺ بالعناية به فعلينا أن نعطيّه حقّه ، قال ﷺ : «فإنَّ لجسديك عليك حقّاً ، وإنَّ لعينيك عليك حقّاً ، وإنَّ لزوجك عليك حقّاً ، وإنَّ لزورك عليك حقّاً»^(٢) .

(١) مجلة الفيصل السعودية عدد ٥٢ (ص ٢١) .

(٢) [البخاري (١٩٧٥) ومسلم (١١٥٩)] .

إنَّ التربية الجسدية «تهدف إلى تمكين التكوين العضوي في الإنسان من القيام بوظيفته»^(١) . . . من أجل ذلك دعا الإسلام إلى تعلّم السَّباحة والرَّمي وركوب الخيل ، وذلك في التوجيهات النبويّة الآتية :

١ - السَّباحة : تُعتبر السَّباحة «وسيلة رائعة ذات تأثير مثير في نموّ الطفل وخبرة يعوّل عليها كثيراً في الحياة العملية ، وبالإمكان البدء بها في السنة الرابعة - الخامسة للطفل على أن يتمّ تعلّمها بشكل تدريجي . . .»^(٢) . وهذا نبيُّ الهدى عليه الصلاة والسلام ، سَبَحَ وهو صغير في بستان أخواله بني النَّجار ، ولعب مع الصبيان^(٣) .

وقد كتَب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الولاة ما يلي :
«أما بعد فعلموا أولادكم الرِّماية والسَّباحة وركوب الخيل . . .»^(٤) .

٢ - الرماية وركوب الخيل : قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

والنبيُّ ﷺ : عَرَفَ أَنَّ القوة هي الرمي . . . كما ذكرنا سابقاً - والرماية هي الآن كل ما نستطيعه من عمليات حربية في السلاح لرمي العدو من الرِّصاصة إلى الصَّاروخ - ومن الفوائد في الرِّماية : «نمو الحركة الحيويّة في الجسم ، وتوفير القوى البدنية التي يحتاجها المحارب القوي المؤمن ، وتقوية الإرادة عند المسلم وتعويد الاعتماد على الله سبحانه وتعالى ثم على نفسه وقدرته»^(٥) .

(١) الوجيز في الطب الإسلامي : هشام إبراهيم الخطيب (ص ١١٤) ، دار الأرقم ، عمان ط ١ : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٢) صحة وتربية الأطفال من مرحلة الحمل حتى المراهقة : د . م . ياسنودينيكيين (ص ٢١٣) .

(٣) منهج التربية النبوية للطفل : محمد نور سويد (٢١١) .

(٤) تربية الأولاد في الإسلام : عبد الله ناصح علوان (٨٨٨/٢) .

(٥) علم النفس التربوي في الإسلام : يوسف مصطفى القاضي وآخر (ص ٤٢١) . =

وركوب الخيل من أنواع الرياضة الجميلة والمفيدة ، وفيها تربية للجسد وتقويته . فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال : «إن رسول الله ﷺ سَابَقَ بين الخيل التي أضمرت ، من الحفيا ، وأمدّها ثنية الوداع ، وسابق بين الخيل التي لم تَضْمَر من الثنية إلى مسجد بني زريق»^(١) . وقال ﷺ : «لا سَبَقَ إلّا في خَفٍّ أو حافِرٍ أو نَضَلٍ»^(٢) . وحث الرسول ﷺ على تعلّم الفروسية لما لَهَا مِنْ أثر في تربية الجسد وقوته فيقول : «الخيّل معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامةِ والأجرُ والمغنمُ»^(٣) .

وهناك أنواع أخرى للرياضة البدنية منها: المشي ، والركض ، والمصارعة والصيد وجميع ألعاب القوى ، وأيضاً رياضة اللعب بالكرة بأنواعها .

فالرياضة البدنية بأنواعها هي القوة التي يجب أن يمارسها لتقوية جسمه ليكون مستعداً لملاقاة أعداء أرضه وحقّه ، ونُصرة المظلومين . ومن أنواع الرياضة التي ما زالت منذ القدم تمارس لأنها تحرّك عضلات الجسم وهي «رماية السّهام» فشُدّ السهم عن القوس والسعي لانتزاع السهم من الدريئة والعودة به إلى مكان التربّص ، كل هذه الحركات تنمّي القوة العضلية .

-
- = وانظر : الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية (ص ٤١٦ - ٤١٩) .
- (١) [البخاري (٢٨٧٠) و(٢٨٦٩) ومسلم (٤٢٠)] .
- «الضَّمَرُ» : بسكون الميم وضمها : الهزال وخفة اللحم وقد (ضَمَرَ) الفرس : صار ضامراً .
- الحفيا وثنية الوداع : مكانان ظاهر المدينة المنورة .
- (٢) سنن أبي داود (٢٩/٣) ، باب : في السبق .
- (٣) [البخاري (٢٨٤٩) مسلم (١٨٧)] كتاب الجهاد والسير ، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وانظر : الطفولة في الشريعة الإسلامية (ص ٤١٩) .

قال ﷺ: «سُفِّتِخْ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ وَيَكْفِيكُمْ اللهُ فَلَا يَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُلْهَوْ بِأَسْهُمِهِ»^(١).

ومن المسابقات الجميلة ذات المعنى الكبير ، المسابقة التي وصفتها الخنساء وجرت بين والدها عمرو السلمي وأخيها معاوية وهي في منعة الصبا ، وكان سباق الخيل هو رياضتهم المفضلة . . .

قيل للخنساء: لئن مدحت أحدهما فقد هجوت الآخر ، ولكن الخنساء المبدعة استطاعت أن تقول ما لم يتوقعه أحد ، وقد نجحت . . . قالت الخنساء:

جَارِي أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوِرَانِ مَلَائَةَ الْفَخْرِ
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ لَزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ
وَعَلَا هُتَافِ النَّاسِ: أَيُّهُمَا؟ قَالَ الْمَجِيبُ هُنَاكَ: لَا أَدْرِي
بَرَزَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهَ وَالِدِهِ وَمَضَى غُلُوقُهُ يَجْرِي
أُولَى فَأُولَى أَنْ يُسَاوِيَهُ لَوْ لَا جَلَالُ الشَّرِّ وَالْكَبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ خَطَا عَلَى وَخْرِ

وصفت الخنساء مشهدا حيا من مشاهد البيئة فإذا بنا نقف مع النظارة نحبس أنفاسنا لنعرف نتيجة السبق وليس بين تربين بل بين والد وابنه ، وقد كانت بارعة في التخلص من الموقف الشائك . . . فهي لم تحرم أخاها حقه في الفوز ، ولم يبخس أباه نصيبه من الاحترام والإجلال^(٢).

(١) [الترمذي (١٦٣٧)] في الجهاد ، وقال: حسن صحيح ، وانظر: الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود النسيمي (ص ٢٣١).

(٢) الخنساء شاعرة الرثاء والبوق: نزار نجار ، دار الإرشاد بحمص ط ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م (ص ١٥ - ١٧).

"برا": وتب. "لَزَّتْ": شَدَّ وَأَصَق. «الغلواء»: سرعة الشباب وأوله ، مختار الصحاح.

سادساً: تربية الطفل عند البلوغ

ذكرنا في فقرات سابقة تربية الطفل في سنّيه الأولى في البيت ثم انتقاله إلى دور الحضانة ورياض الأطفال. وطبعاً تتدرّج التربية حسب المرحلة العمرية للطفل ، وكل المراحل تكون حسب المنهج التربوي الإسلامي ، وستتعرّض بشكل واسع للحديث عن البلوغ والمراهقة عند الكلام عن مشاكل الطفولة والمراهقة ، غير أننا الآن لا نتعرّض للمشاكل التي قد تُصاحب فترة البلوغ ، بل سنتكلم عن التربية في هذه المرحلة والأسلوب الواجب اتّباعه ، لأن الطفل يصل فيها إلى مرحلة حسّاسة ومعقّدة ، فالآباء والمربّون سيجدون في هذه المرحلة نتيجة ما غرسوه في المراحل السابقة ، وقد تواجههم بعض الصعوبات لأنّ نفسية الطفل الذي أصبح يافعاً ، والبنت التي صارت صبيّة ، والتغيرات البدنية والنفسية تكون ظاهرة بوضوح ، وأيضاً نوع السلوك قد يتغير إلى ما يشغل بال الأهل والمربّين .

لقد حدّد بعض المربين السنين الأولى من العمر مرحلة حسّاسة ومصيرية ، ونلاحظ فيها ثلاث مراحل مهمة هي الفتوة ، والبلوغ ، والشباب .

السنّتان الأوليتان من هذه المرحلة متممتان لمرحلة الفترة التي هي مقدمة لدخول الذكور إلى عالم البلوغ ، وهي عين البلوغ بالنسبة للإناث ، وترافقها بعض الخصائص .

والعامان التاليان يمثلان عالم البلوغ للأولاد ، وذروته للبنات وهو يؤدّي إلى تغييرات في الجسم والنفس ، أما جزؤها الأخير وهو سنّ ٢١ عاماً ، فيعتبر فترة الشباب .

وتتّضح إلى حدّ ما قابليات الإنسان في الأعوام السبعة من المرحلة الثالثة ، وتضعّف بعضها وتزول ، وهي حالة تحصل تدريجياً ، وينتج عن

السكون والثبات؛ الذي يظهر في أواخر هذه المرحلة استطاعة الأفراد السيطرة على ميولهم وأحاسيسهم ، وينبغي تعليمهم المقررات الاجتماعية ، وتعليمهم طريقة الحياة على طريق السلوك والعمل^(١) .

مقدمات البلوغ والدخول فيه :

تتغير شخصية الطفل من مرحلة إلى مرحلة ، وفي السن التي تقرب من سن البلوغ يكون الطفل أصبح ما بعد المدرسة الابتدائية ، وهنا يكون التغيير أشد من سابقه ، لأن الطفل في هذه السن يعتره إحساس مخالف بشكل أشد وأقوى ، وتظهر المشاكسة ، والأب الجاهل يداوي ذلك بالعنف والقسوة فيحصل معه غير ما يتوقعه .

ويجب أن يكون الأب والمربي كلاهما رحيماً بمن معه ، رفيقاً بما يدعوه ، ليناً هيناً ، لأن إيصال المعلومة أو النصيحة إلى الأولاد بحاجة إلى رفق ، ولين ، وتسامح ، وحلم ، وفي هذه المرحلة من عمر الأولاد تكبر الصعوبة عندهم في تقبل كل ما يوعظون به لنمو شخصيتهم وتغير نفسيتهم ، فالتربية بحاجة إلى نمط مغاير لما كان يُسَّع في المرحلة السابقة من عمرهم ، فالحاجة إلى سعة الصدر لمعالجة هذا التغير ، وقد يصاحبه جهل وضعف ونقص في كل ما هم بحاجة إليه ، فواجب الآباء والمربين الأخذ بيدهم ومساعدتهم في تخطي كل صعوبة في هذه المرحلة .

من المسؤول؟ :

تقع المهمة والمسؤولية في مرحلة بلوغ الطفل الذي نما عوده وقويت عضلاته وتغيرت أفكاره ونفسيته ، وشعر بأنه أصبح غير ما كان؛ هنا ، فالآباء والمربون ، هم الأساس في توعية الطفل النامي والفتاة الشابة ، وأن ما كان في الدراسة السابقة والتربية الأولى سوف تظهر نتائجها وثمراتها وفي هذه

(١) توجيه الشباب بين المعرفة والتوعية: علي القاشمي ، دار النبلاء - بيروت - لبنان (ص ٢٥٢).

المرحلة بالذات ، فالتربية تأخذ منحى أكثر ليونة ، لأنَّ الطفل الذي نخاطبه يجب أن نقدرُّ بأنه يمكن استخراج رأيه وسماع تطلّعاته ، ونكون له أصدقاء ، فالولد في هذه المرحلة تظهر عنده رغبة في المخاصمة والقيام بأعمال كبيرة ، ويتبدل تصوّره لوالديه ، حتى يظنّ بأنهما جاهلان وغافلان ، ويميل الأولاد في الجانب الأدبي إلى مطالعة القصص العلمية والخيالية ، وتميل البنات إلى القصص الخرافية ، وهذا الأمر قد يبعدهن عن الحياة الواقعية ، ثم يتغيّر هذا السلوك وهذه الحالات بالتدرّج ، ويصبح الفكر والعمل لديهم في صورة أخرى .

مشاورة الوالدين :

تؤكد كثير من الأنظمة التربوية على التشاور والتماثل الفكري مع الشخص في هذه المرحلة وذلك بشكل مباشر وغير مباشر ، فنقول إنّه لم يعد طفلاً ، ويجب أن يدخل تدريجياً ساحة الحياة ، ويجب أن يتزوّد بالاستعداد لهذا الدخول وهكذا فإنّ من الضروري القيام بعملين تجاهه :

١ - رفع الرقابة الشديدة نسبياً والتي نفّذت إزاءه في الأعوام السبعة الثانية ، وإعطائه الحرية إلى حدّ ما حتى يعمل ويكتسب التجارب .

٢ - مرافقته لوالديه ومعلميه كي يدرك بشكل عملي مسائل الحياة ويصبح عالماً بها .

ولاشك أن الشباب يعتبرون أنفسهم في كثير من الحالات أعلى من مستوى الأبوين وأصحّ رأياً منهم ، وذلك نتيجة الغرور والخيال ، إلا أنّ هذه الحالة تتغيّر وتتعدّل بالتدرّج من خلال تحمّل الأبوين ، وقد ذكر العالم والمؤرخ «مارك توين» : أنه كان في مرحلة البلوغ ، يعتبر أباه جاهلاً وصاحب أفكار بالية ، وأنه أكثر الناس جهلاً ، مع أنّ والده كان أستاذاً جامعياً ، لكنّه عند سنّ الحادية والعشرين ، أصابته الدهشة من كثرة

المعلومات ، والمستوى العلمي الذي كان عند أبيه^(١).

من ذلك تكون وظيفة الآباء والمربين في فترة البلوغ أشد حذراً ووعياً ومراعاةً لتطور شخصية الأولاد ، وهما من المجدي أن نذكر ما جاء في بعض قصص القرآن الكريم بما يناسب الموقف باعتمادهم على الرحمة والسماحة ، وليتمثلوا بما قاله رب العالمين جل جلاله لمحمد ﷺ:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

[آل عمران : ١٥٩].

فإذا كان سيد الخلق المعصوم من الخطأ ، والمبعوث بالرحمة يخاطبه الله عز وجل بهذه الكلمات ، فما بالنا بالإنسان العادي؟! يروى أنه دخل رجل على المأمون ذات يوم فوعظه ، وأغلظ له القول ، وهو يظن أنه يؤدي رسالته على الوجه الاكمل ، حتى إذا طفح الكيل ، استوقفه المأمون وقال له:

يا هذا! إن الله قد أرسل من هو خير منك إلى من هو شر مني ، أرسل موسى وهارون إلى فرعون ومع ذلك أمرهما الله سبحانه أن يلتنا له القول ، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ أَعْلَمُ بِتَذْكُرٍ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه : ٤٤]^(٢).

سابعاً: الحلال والحرام

تعليم الأولاد الحلال والحرام:

تعريف: كثيراً ما نسمع منذ أن كنا صغاراً: هذا حلال وهذا حرام ، دع هذا واترك ذاك ، لا تقل كذا ، لا تفعل كذا ، كل ذلك حرام ، ويسأل الولد

(١) توجيه الشباب بين المعرفة والتوعية (ص ٢٥٣ - ٢٥٤).

(٢) مجلة الرائد: العدد ١٥٣ ، محرم ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م تصدر عن الدار الإسلامية للإعلام - بون - ألمانيا - (ص ٢٨).

أباه: هل عمل ذاك العمل حلال أم حرام؟ وإذا قلنا: كذا وكذا، هل يعاقبنا الله عليه إذا كان حراماً؟

الأسئلة كثيرة والولد لا يفتأ أن يسأل ويستفسر عن كل شيء، فمن واجب الأسرة والمدرسة أن تسير على النهج الإسلامي القويم وتبين لمن ترعاهم: أين الحلال، وأين الحرام؛ كي تكون تصرفات الصغار على أساس سليم يتعودون على فعله ويعتادون ممارسته في كل تصرفاتهم؛ لأن قضية الحلال والحرام لا يستطيع الإنسان المؤمن أن يفتي بقول ما، تحسباً من الخطأ.

ولكي نعرف كيف نتصرف في هذه الحياة، علينا أن ندرك المبادئ التشريعية التي وضعها لنا الإسلام لتتبين ونتفهم ما هو الحلال وما هو الحرام، وما الذي نفعله صواباً، وما الذي يكون فيه الخطأ لتتجنبه، ونبتعد عن الزلل؛ وفي التعريفات التالية توضيح ما نبغي. يقول الأستاذ يوسف القرضاوي:

«الحلال: هو المباح الذي انحلت عنده عقدة الحظر، وأذن الشارع في فعله.

الحرام: هو الأمر الذي نهى الشارع عن فعله نهياً جازماً، بحيث يتعرض من خالف النهي، للعقاب من الله في الآخرة، وقد يتعرض لعقوبة شرعية في الدنيا أيضاً.

المكروه: إذا نهى الشارع عن شيء ولكنه لم يشدد في النهي عنه، فهذا الشيء يسمى «المكروه» وهو أقل من الحرام في رتبته، وليس على مرتكبه عقوبة كعقوبة الحرام، غير أن التماس فيه، والاستهتار به من شأنه أن يجريء صاحبه على الحرام»^(١).

بعد أن عرّفنا الحلال والحرام والمكروه وفهمنا أنّ هذه الأمور الثلاثة

(١) الحلال والحرام: يوسف القرضاوي: المكتب الإسلامي بيروت، دمشق، عمان ط ١٥ (١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م) (ص ١٧).

يتعرّض فاعلها إمّا إلى الرّضا وإمّا إلى المحاسبة والجزاء من قِبَلِ الشارع الحكيم؛ والحدّز في كل قول أو فعل واجب ، نبيّن ما يلي :

قضية الحلال والحرام :

يقول متولي شعراوي : « قضية الحلال والحرام هي أقدم القضايا مع الإنسان . . لقد بدأت معه قبل أن ينزل إلى الأرض . . بل هي بدأت معه كأوّل درس تلقّاه من ربه .

فهذه القضية يقوم عليها الكون كله . . ويقوم عليها ميزان الحياة . . .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان كي يؤدّي مهمّته كخليفة في الكون . . . والله الخالق يعلم ما يصون صنّعه وما يُفسدها . . . ولذلك فقد وضع لصنّعه القوانين . . لكي تظلّ صالحة دائماً لأداء مهمتها بتوفير وسائل استمرار الحياة ، كالطعام والشراب وغيره ، وتوفير وسائل استبقاء النوع بالتناسل ، وتوفير وسائل الحياة الطيّبة على الأرض . . . ولنعرف أنّ الله تعالى أحلّ الكثير وحزّم أقلّ القليل . . . ولكثرته لم يحصر لنا الله ما أحله ولكنه سبحانه أحصى ما حرّمه فقط »^(١).

والقرآن الكريم في آياته العديدة بيّن لنا المحرّمات من قول أو فعل ، وكذلك وضّح الحلال من الطعام والشراب والحرام منه ، يقول الأستاذ القرضاوي :

«الأصل في الأشياء الإباحة :

كان أول مبدأ قرّره الإسلام : أنّ الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع هو الجِلّ والإباحة ، ولا حرام إلا ما ورد نصٌّ صحيح صريح من الشارع بتحريمه ؛ فإذا لم يكن النصُّ صحيحاً - كبعض الأحاديث الضعيفة - أو لم

(١) الحلال والحرام : محمد متولي الشعراوي ، مؤسسة أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩١ م (ص ٦).

يكن صريحاً في الدلالة على الحرمة ، بقي الأمر على أصل الإباحة .

وقد استدل علماء الإسلام على أنَّ الأصل في الأشياء والمنافع الإباحة ،
بآيات القرآن الواضحة من مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾
[الجاثية: ١٣] ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ ﴾ [لقمان: ٢٠] ^(١) .

فالله أنعم على الإنسان نعماً لا تُقَدَّر ولا تُحصى ، وكلها لسعادة هذا
المخلوق البشري الذي كَرَّمَهُ ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

وبين سبحانه وتعالى عدداً من المحرمات في الآيات التالية : ﴿ قُلْ
تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَفِيلِ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلْ فَنَفسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾
[الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] .

«وفي هذه الآيات بعض ما ذكر من آيات التحريم ، وهذه الآيات تشمل
الوصايا العشر التي نزلت على موسى عليه السلام . . . ولكنك لن تجد في
القرآن الكريم أبداً آية تقول : تعالوا أتل ما أحل ربكم لكم .

. . . إنَّ فضل الله علينا أنَّه وضع في منهجه لنا ما يصون حياتنا ويجعلها
طيبة . . . لقد شاء عدله أن يخرج احتياجات الحياة الحيوية من حكم

(١) الحلال والحرام : للقرضاوي (ص ٢٢ - ٢٣) .

الإنسان... فالهواء - مثلاً - لا يستطيع الإنسان أن يصبر عليه إلا ثوان... لذلك لم يملكه الله لأحد... ولأن الماء يستطيع الإنسان أن يصبر عليه أياماً فقد جعل ملكيته محدودة... أما القوت فتصبر عليه أسابيع لذلك ملكه كثيراً من الناس.

التحليل والتحریم حق الله وحده:

الله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يملك أن يقول هذا حلال وهذا حرام... لأنه سبحانه هو الذي يصع المنهج ، وهو جلّ جلاله منزّه عن الهوى ، فلا يميل إلى أحد على حساب آخر... ولا يقنن لصالح أحد دون آخر ، لقد تدخل الكفار ومدعو الألوهية وعباد الأصنام وغيرهم... فيما أحلّ الله سبحانه وتعالى وفيما حرّم... وحاولوا أن يجعلوه على هواهم ، فوصفهم الله بالافتراء وتوعدهم بعذاب عظيم: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَسْرَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

إن الحلال والحرام هما أمران بقرّهما الله وحده... وليس لأحد من خلقه أن يتدخل إلا بالرجوع للقواعد التي وضعها الله...^(١).

وقبل أن نتوجه إلى أولادنا بتعريفهم الحلال والحرام ، يجب أن نفهم كل ما يتعلق بهذا الأمر لنستطيع التوجيه والإرشاد ، ونكون على بينة صحيحة في المحرمات التي حرّمها الله تعالى وأيضاً في الأمور المباحة دون قيد.

«... وإن أصل الإباحة لا يقتصر على الأشياء والأعيان ، بل يشمل الأفعال والتصرفات التي ليست من أمور العبادة ، وهي التي نسميها «العادات أو المعاملات» فالأصل فيها عدم التحريم ، وعدم التقيد إلا ما حرّمه الشارع ، وألزم به ، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٩] عام في الأشياء والأفعال.

(١) الحلال والحرام: للشعراوي: (٧-١٤).

وهذا بخلاف العبادة ، فإنها من أمر الدّين المحض الذي لا يُؤخذ إلا عن طريق الوحي .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أَخَذَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» (١) (٢) .

فإن أدرك المسلم معنى ما ورد من آيات كريمة وأحاديث شريفة ، واستطاع أن يميّز بين الحلال والحرام يكون قد سار على طريق واضحة المعالم ، لا جهل فيها ولا ضلالة ، وسيشعر بحلاوة الإيمان وتفقهه في دينه ، عند ذلك عليه أن ينقل هذه المعرفة التي وصل إليها إلى أفراد أسرته وخاصة صغارها لينشئوا على معرفة الصالح والطالح والنافع والمضر .

والنبي ﷺ يشرح لنا في حديث شريف آخر الحلال والحرام ، ويحذّرنا أن نكون على حذر من الوقوع بما حرّمه الله ونحن نظن أنّه حلال .

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه . . . » (٣) .

ومن الأمور المحرّمة ما ذكره «ابن تيمية» : «تحريم تطفيف المكيال والميزان ، ووجوب الصدق والبيان ، وتحريم الكذب والخيانة والغش ، وأنّ جزاء القرض الوفاء والحمد .

ومنه ما هو خفيّ ، جاءت به الشرائع . . . فإن عامّة ما نهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات : النهي عن الظلم دقّة وجلّة (٤) : مثل أكل المال بالباطل وجنسه من الرّبا والميسر ، وأنواع الربا والميسر التي نهى عنها

(١) [البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨)] .

(٢) الحلال والحرام : للقرضاوي (٢٤) .

(٣) [البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)] .

(٤) دقّة وجلّة : قليلة وكثيرة .

النبي ﷺ مثل : بيع الطَّيْرِ في الهواء ، والسَّمَك في الماء ، والبيع إلى أجل غير مسمى . . . وبيع الثمر قبل بُدْؤ صلاحه ، وما نهى عنه ، من أنواع المشاركات الفاسدة . . . والأصل في هذا أنَّه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دلَّ الكتاب والسنة على تحريمه ، كما لا يشرع له من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا ما دلَّ الكتاب والسنة على شرعه ؛ إذ الدين ما شرعه الله ، والحرام ما حرّمه الله ، بخلاف الذين ذمّهم الله ، حيث حرّموا من دون الله ما لم يحرمه الله ، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً ، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»^(١).

تعريف الأولاد بالحلال والحرام :

بعد معرفة الوالدين الحلال والحرام ، عليهم أن ينقلوا ذلك لأطفالهم فيقول د. محمد زحيلي :

«يجب على الآباء والأمهات أن يعرفوا أولادهم بالحلال والحرام في جميع التصرفات ، وأن يُنمّوا فيهم العقيدة السليمة ، وأن يُعلّموهم العبادات ، وأن يربّوهم على محاسن الأخلاق ، فيغرسوا في نفوسهم الإيمان بالله تعالى ، وحقّه بالشكر ، والمحبة لرسول الله ﷺ ، والافتداء بمواقف المصطفى عليه الصلاة والسلام في مختلف جوانب الحياة ، فتى وشاباً ، ورجلاً وقانداً ، وزوجاً وأباً ، وداعية ومعلّماً ، وصديقاً وجاراً ، وسياسياً ورجل دولة ، وأن يعتزوا بالصّحابة وتاريخ السّلف وتراجم القادة والعلماء والخلفاء»^(٢).

إنّ نقل المعرفة العبادية للأطفال وتفقيهم بأمور دينهم ، ذلك من أساس التربية ، ففهم المبادئ الإسلامية الصحيحة هي من أهم الوظائف التربوية

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية: ابن تيمية ، دار الكتب العربية ، بيروت ١٩٦٠ م (ص ١٣٤ - ١٣٥).

(٢) الإسلام وتربية الأطفال والشباب (ص ٣٦ - ٣٧).

التي تقع على عاتق الوالدين ، فكيف يتم إيصال ما نريده بشكل يتقبله الطفل ويرغب بالاستزادة منه والإقبال عليه؟

هذا ما دلّنا عليه د. محمد زحيلي ، فيقول :

«والطَّرِيق إلى ذلك يتمّ بالتعليم المباشر ، والتعليق على مواقف التاريخ ، وضرب الأمثلة الحيّة ، من القصص الإسلامي ، والقراءة الواعية؛ وإنّ التزوّد بالثقافة الإسلامية ضروريٌّ جداً ، ولكنّ المهمّ في الثقافة هو الجوانب الحيّة . . . وتبدأ هذه الثقافة بسيرة الرسول ﷺ لينشأ الشاب على حبّ الخير والفضيلة ، ويتجنّب الشرّ والرذيلة»^(١).

ولإيصال المفاهيم التربوية الإسلامية لأولادنا ، فالواجب أن نكون حذرين بما نعمله في حياتنا اليومية أو نلقّظ به ، فسيلتقطه أولادنا بطريقة مباشرة وبسرعة ، فالأب والأمّ هما الأستاذ الأوّل للطفل ، فالحذر واجب في القول والعمل ؛ يقول صاحب المستطرف : «على المرء أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلّا كلاماً تظهر المصلحة فيه . . . لأنّ بعض الكلام المباح قد يجرّ إلى حرام أو مكروه»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(٣).

تحليل الحرام وتحريم الحلال ، شرك :

قد يقوم أحدٌ يرى في نفسه القدرة على الفهم والاستيعاب لأوامر الله سبحانه بتفسيرها ، أو شرح ما جاء في الأحاديث الشريفة دون الرجوع إلى

(١) المصدر السابق.

(٢) المستطرف: شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي المتوفى سنة ٨٥٠ هـ ، منشورات دار مكتبة الحسيني ، بيروت (١٩٨٧ م) ، (١/١٢٨).

(٣) [البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧)] .

الكتاب والسنة ، فحلل وحرم ووقع في الخطأ ، وهذا ما نُهي عنه .

يقول الأستاذ القرضاوي : «إن التحليل والتحريم بأمر من الله تعالى كما جاء في القرآن العظيم أو ما جاء على لسان نبيه ﷺ ، وأنه يحرم على كل إنسان أن يحلل ويحرم كيفما اتفق دون الرجوع إلى سند شرعي إسلامي ، فمن خالف أمر الله في تحريم ما أحل الله لنا وتحليل ما حرّمه علينا ؛ كان ذلك قريباً للشرك ، وقد حارب النبي ﷺ نزعة التنطع والتشدد هذه بكل سلاح ، وذمّ المنتطعين ، وأخبر بهلكتهم .

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «هَلَكَ المنتطعون» قالها ثلاثاً . رواه مسلم^(١) .

وقد نعى القرآن الكريم على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين وضعوا سلطة التحليل والتحريم في أيدي أحبارهم ورهبانهم فقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

روى الإمام الشافعي في كتابه «الأم» عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة قال :

«أدركتُ مشايخنا من أهل العلم يكرهون للفتيان أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام إلا ما كان في كتاب الله عز وجل بيّناً بلا تفسير»^(٢) .

علل التحريم :

جعل الله التحليل والتحريم لعلل معقولة ، راجعة لمصلحة البشر أنفسهم ، فلم يحل سبحانه إلا طيباً ولم يحرم إلا خبيثاً... قال تعالى :

(١) [مسلم (٢٦٧٠)] كتاب : الأمور المنهي عنها ، باب : كراهة التقصير في الكلام... «المنتطعون» : المبالغون في الأمور .

(٢) الأم : الإمام الشافعي (٣١٧/٧) .

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤] . . . ومع ذلك أباح بعض المحرّمات للضرورة ، فبعد أن ذكر محرّمات الطعام . . . قال: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] ، ومن هذه الآيات وأمثالها قرّر فقهاء الإسلام مبدأ هاماً هو: «إنّ الضرورات تبيح المحظورات». ولكن الملاحظ أنّ الآيات قيّدت المضطرّ أن يكون (غير باغ ولا عاد) وفسّر هذا بأن يكون غير باغٍ للذة طالباً لها ، ولا عادٍ حدّ الضرورة متجاوز في التشبّع .

والإسلام بإباحته المحظورات عند الضرورات إنّما يُسائر في ذلك روحه العاقمة ، وقواعده الكلية التي هي روح اليسر الذي لا يشوبه عسر . . . قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ^(١).

المحرّمات كلّها ضَرَرٌ للمسلم وغير المسلم:

مسألة الحلال والحرام كبيرة ، ومعقدة ، ولكن المؤمن بكتاب الله تعالى وأقوال الرسول ﷺ يدرك أن التحريم كان لمصلحته ، وأنّ الله لا يريد الضرر بمن خلقه وكرّمه ، وليس الضرر في المحرّمات يطال المسلمين فقط بل يصيب جميع البشر ، لأنّ التحريم وُضِعَ لمصلحة بني آدم ، ولم يحلّ الله لهم إلا الطيبات ، ولم يحرم إلا الخبائث.

وبعض الناس يتساءلون: لماذا حرّم الله لحم الخنزير والنصارى يأكلونه ويُعتبر عندهم أطيب أنواع اللحم؟! وإذا بحثنا في طعام الخنزير ، فإنه يجمع طعامه من القاذورات ، وثبت علمياً أنّ الدودة الوحيدة وغيرها من الديدان يكون سببها أكل لحم الخنزير. قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ابن تيمية في ذلك:

«والحلال والحرام يتناول كل شيء في حياة المسلم الخاصة من طعام

(١) الحلال والحرام: للقضاوي (ص ٢٩ - ٤٠) باختصار.

وشراب وملابس ، وما يتبعها ، وما يتعلق بعمله وحياته الاجتماعية ،
 فالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة شملت كل مناحي الحياة الإنسانية
 ومثالها في الأطعمة قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ
 لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ
 عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْلَقِسُوهَا إِلَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكُمْ فَسُقُّ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا
 تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا
 فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣]
 والحكمة في تحريم أكل الذابة الميتة لعدم استساغتها ، وجميع الأديان
 الكتابية تحرّمها ، والآية الكريمة تفصل عشرة أنواع من المحرّمات ؛
 ومن المشروبات «الخمر» التي حرّمها الله على فترات ثم حرّمها بشكل تام
 فقال : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١] ، وكذلك
 المخدرات .

وقاعدة الشريعة أن ما تشتهيه النفوس من المحرّمات كالخمر والزنى ففيه
 الحد ، وما لا تشتهيه كالميتة ففيه التعزير^(١) .

ويقول متولي الشعراوي :

«... فالحلال هو لباس التقوى يخفي عورات المؤمنين ، والحرام يظهر
 هذه العورات ليراها المجتمع كله . فالإنسان الذي يحصل على مالٍ حرام
 بالرشوة أو بالسرقة أو بالتزوير أو بغير ذلك ، يُقبضُ عليه ويُقدّم للمحاكمة
 وتُنشرُ صورته في الصحف . . . ويقول المجتمع كله : هذا لصٌ . . . لقد انكشفت
 عورته لأنه لم يتبع طريق الإيمان ولم يلتزم بالأمانة ، ولو التزم ما بدّت هذه
 العورة أبداً .

ومثال آخر: رجل يزني مع زوجة غيره ، مجرّد أن يراه الناس يعرفون
 خُلُقَهُ السيء وتصبح فضيحةً يتناقلها الناس في مجالسهم حتى ولو لم يطبّق

(١) فتاوى ابن تيمية (٤/٢٦٢) وما بعدها .

فيها الحدّ . . . لقد انكشفت عورتهما وخاض الناس في سيرتهما . . . ، لو أن هذا الإنسان عاش حلالاً ، ودخلت عليه الدنيا كلها ومعه زوجته ما قال أحد شيئاً .

إنّ مراد الله من التحريم هو أن يخفي عوراتنا عن الناس ويجعلنا نعيش حياة طيبة . . هذا التحريم هو لمصلحتنا لأنّ الله سبحانه إذا قال لي : لا تسرق . . منعني أن أسرق مالَ غيري ، ولكنه في نفس الوقت منع الدنيا كلها من أن تسرق مالي وأنا فرد ، والله حرّم أن أنظر إلى محارم غيري لتُحفظ محارمي . .

إنّ هذا لهو أكبر دليل على أنّ ما حرّمه الله هو لصالح . . . » (١) .

المحرّمات في الإسلام :

المحرّمات متعددة ومتشعبة تطال كل أمر من أمر حياتنا : في معاملتنا مع الآخرين ، في المأكل والمشرب ، في اللباس ، في الزينة ، في العمل والكسب ، في الحياة الشخصية والأسرية ، في الزواج ، في علاقة الزوجين ، وكذلك العلاقة بين الأب وأولاده ، ثم هناك في المعتقدات والتقاليد ، وفي العلاقات الاجتماعية ، ثم الحلال والحرام في اللهو والترفيه ، ولذلك فالمؤمن الذي يضمن لنفسه عدم الوقوع في الحرام عليه أن يتفقه في الدين ، ويسأل أهل العلم والفقه عن كل صغيرة وكبيرة خوفاً من الزلل ، لأن من واجب الإنسان أن يكون قدوة لأولاده أولاً ، ولرفاقه ثانياً ، وخير قدوة لنا : رسول الله ﷺ ، المعصوم عن الزلل ، لأنّ الإنسان مهما اتقى الحرام كما يظنُّ ؛ فقد يخطئ عن غير قصد ، فيظلم نفسه ؛ فالواجب أن يسعى للتفقه في دينه ، وخير من يقتدي به هو رسول الله ﷺ الذي أمرنا ربنا باتباعه في كل حال ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا تَنبَهُوا لِعِقَابِ رَبِّكُمْ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] .

(١) الحلال والحرام : للشعراوي (ص ١٢ - ١٣) .

فانمؤمن يسمع كلام الله ، وينفذه ، ويمنع نفسه من المخالفة ، ويتجنبها ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴾ [ننازعات : ٤٠ - ٤١] ، وَقَبْلَهَا حَذَّرَهُ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ مَأْوَاهُ النَّارُ إِذَا ظَلَمَ ، وَطَغَى ، وَآثَرَ دُنْيَاهُ عَلَى آخِرَتِهِ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَهَنَّمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴾ [الننازعات : ٣٧ - ٣٩] ، فالإنسان نعيمه في يده ، وذلك جحيمه ، فاتباعه للرسول هو النهج السليم الذي يُبعده عن الحرام ، ويسعده في الحلال .

وسنذكر بعض المحرمات ومنها : الكذب ، السرقة ، ترك الصلاة ، وكذلك من المحرمات عقوق الوالدين .

ومن المحرمات في الحياة العائلية : المحرمات من النساء ، يقول الأستاذ القرضاوي :

«يحرم على المسلم أن يتزوج واحدة من النساء الآتي ذكرهن : زوجة الأب ، الأم ، البنت وفروعها ، الأخت ، العمّة ، الخالة ، بنات الأخ ، بنات الأخت ، والمحرمات بالرضاعة : أن تكون الرضاعة قبل تمام السنتين للرضيع وأن لا يقل عدد الرضعات عن خمس مشيعات ، والأخوات من الرضاعة . . .

وأُم الزوجة ، والجمع بين الأختين ، والمتزوجات حتى يطلقن وأن تستوفي العدة . . .

وزواج المسلمة من غير المسلم . . . وزواج المتعة من المحرمات قطعاً . . . وكذلك من المحرمات في الإسلام : التبيي . ومن المحرمات بيع الأشياء المحرمة كالخمر والاتجار بها ، والأصنام والصلبان والتماثيل ، والحسد ، واحتقار المسلمين ، وتحريم الرِّياء ، وتحريم تشبّه الرجال بالنساء ، وتحريم الخلوة بالأجنبية ، وتحريم مال اليتيم ، وتحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاث وتحريم الغدر والطعن في الأنساب ، وتحريم اللعن

للإنسان ، وتحريم امتناع المرأة عن فراش زوجها ، وتحريم الوصال في الصوم...»^(١).

ثامناً: الغيبة

قد يقول الإنسان كلاماً دون إدراكٍ بأنَّ كلامه يؤذي آخرين ، والإسلام حرّم عدم ضبط اللسان ، أو انحرافه ، وما يصدر عنه من ألفاظ قد تؤذي إلى الضرر والأذى ، وقد نهى القرآن الكريم عنها ، وربما قد تنتهي بمفسدة أو شرّ ، وهذا لا ينطبق على الأقوال فقط ، بل على الأفعال أيضاً ، وكثيراً ما يتناقل الناس أقوالاً وهي من المحرّمات ، ومثالها: ذكر الآخرين بأوصاف أو بسماتٍ تُعتبر من الغيبة ، فما هي الغيبة؟

مِنْ معاني الغيبة:

«.. إنَّ الغيبة هي شهوة الهدم للآخرين ، هي شهوة النهش في أعراض الناس وكراماتهم وحُرّماتهم وهو غائبون ، إنّها دليلٌ على الخسّة والجُبْن ، لأنها طعنٌ من الخلف ، وهي مظهرٌ من مظاهر السلبية ، فإنَّ الاغتياب جهدٌ مَنْ لا جُهدَ لَهُ ، وهي معولٌ من معاول الهدم ، لأنَّ هُواة الغيبة ، قلّما يَسْلَمُ من أَلَسْتَهُمْ أَحَدٌ بغير طعن ولا تجريح»^(٢).

لقد صورَ القرآن الكريم هذه الصفة الذميمة تصويراً تقشّراً له الأبدان... قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

هذه الآية تُبَيِّنُ أَنَّ الإنسان الذي يأنف من أكل اللّحم البشري ، كيف به وهو يأكل لحم أخيه؟ وأيضاً وهو جثة هادمة؟ وقال تعالى أيضاً محدّراً بأن كل ما يصدر عن الإنسان يكون مرصوداً من قبل جهاز مراقبة ، يسجّل عليه كل

(١) الحلال والحرام: للقرضاوي ، ورياض الصالحين: فقرات وعناوين متفرقة.

(٢) انظر: الحلال والحرام: القرضاوي (ص ٢٨٨ - ٢٨٩).

ما يتفوه به : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

و«ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام ، إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة ، فالسنة : الإمساك عنه ، لأنه قد يجزّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير في العادة ، والسلامة لا يعدلها شيء»^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢) متفق عليه .

وهذا الحديث صريح في أنه ينبغي ألا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً ، وهو الذي ظهرت مصلحته ، ومتى شك في ظهور المصلحة ، فلا يتكلم .

والإنسان في الأصل كرمه الله تعالى ، وإلحاق الأذى به مخالفة
لشريعة الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ
وَوَلَّيْنَاهُمُ الْبَحْرَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

فبعد تكريم الله تعالى للإنسان علينا أن نهتمّ بذلك ، ولا نسب له أي شرّ
في الفعل أو القول «والغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى
لا يسلم إلا القليل منهم وهي : ذكر الإنسان بما يكره ، ولو فيه : سواء كان في
دينه ، أو بدنه ، أو نفسه ، أو خلقه ، أو خلقه ، أو ماله ، أو ولده ، أو
زوجته ، أو خادمه ، أو ثوبه ، أو حركته ، أو بشاشته ، أو خلاعته . . . أو
غير ذلك . . . مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو كتابك . . . أو بالإشارة إلى
ذلك . . . فقولك : سارق ، خائن ، ظالم ، متهاون بالصلاة ، قليل

(١) انظر : المستطرف : للأبشيحي (١/١٢٨) وأيضاً : رياض الصالحين ، باب تحريم
الغيبة (ص ٤٧٥) .

(٢) [البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧)] ورياض الصالحين ، كتاب الأمور المنهي عنها ،
باب : تحريم الغيبة .

الأدب . . . وغيرها من الصفات التي تدل عليه . . .»^(١).

ما الغيبة؟ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول ، فَقَدْ اغْتَبَتْهُ ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته» رواه مسلم^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ وقاهُ اللهُ شَرَّ ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ ما بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن. **تَحْرِيمُ سَمَاعِ الْغَيْبَةِ وَرَدُّهَا :**

أحاديث كثيرة تتكلم عن الغيبة وآيات كريمة ذكرت ذلك . . . وكلها تؤكد على أن الغيبة صفة خبيثة ، شريرة ، ولِخَطَرِها العظيم في المجتمع الإسلامي وردت آيات في تحريم سماع الغيبة ، كما أن رسول الله ﷺ حرم ذلك وطلب منا ردها ، ومن لم يستطع ، فعليه أن يتعد عن المجلس الذي تُذكر فيه الغيبة . . .

آيات كريمة وأحاديث شريفة في تحريم سماع الغيبة :

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾^(٤) [القصص: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

(١) انظر: المستطرف (١/ ١٣٠).

(٢) [مسلم (٢٥٨٩) وأبو داود (٤٨٧٤) والترمذي (١٩٣٥)] «بَهْتُهُ»: أي: افتريت عليه الكذب.

انظر: رياض الصالحين: كتاب الأمور المنهي عنها - باب: تحريم الغيبة.

(٣) [الترمذي (٢٤١٠)] «ما بين لحييه» هو: اللسان.

(٤) «اللغو»: القول القبيح.

عَبْرَةٍ وَإِمَّا يُسَيِّتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾
[الأنعام: ٦٨].

هذه الآيات الكريمة وغيرها تأمر المسلم برّد الغيبة إذا سمعها ومغادرة المكان الذي تُذكر فيه ، وجميع أعضاء الإنسان مسؤولة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث الشريف ما يوضح ذلك أيضاً ، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ ، رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه الترمذي وقال : حديث حسن^(١).

ما يُباح مِنَ الغيبة :

«الغيبة تُباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها ، وهو ستة أسباب ، نلخصها فيما يلي :

الأول: التظلم: فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما... فيقول: ظلمني فلان بكذا...

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ، وردّ العاصي إلى الصواب ، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا ، فازجره عنه... والقصد التوصل إلى إزالة المنكر ، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء: فيقول للمفتي: ظلمني أبي ، أو أخي... أو فلان بكذا ، فهل له ذلك؟ وما الطريق لتحصيل حقي ودفع الظلم؟ فهذا جاتز للحاجة ، والأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو... كان أمره كذا ، من غير تعيين...؟

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ، وذلك من وجوه: منها

(١) «يخوضون»: أي: بالظعن والاستهزاء ، و«الذكرى»: التذكّر.

(٢) [الترمذي (١٩٣٢)]. وانظر رياض الصالحين ، كتاب الأمور المنهي عنها - باب: تحريم العيبة.

جَرَّحُ المجرّوحين من الرّواة والشهود . . . جائز وواجب للحاجة .

الخامس : أن يكون مجاهرًا بِفِسْقِهِ أو بدعته ، كالمجاهر بشرب الخمر ، وجباية الأموال ظلماً . . . وغيرها فيجوز ذكره بما يجاهر به .

السادس : التعريف ، إذا كان الإنسان معروفاً بلقبٍ ، كالأعمش ، والأعرج . . . ويحرّم إطلاقه على جهة التَّنْقِصِ^(١) .

تاسعاً: النميمة

محرمات كثيرة يتناقلها جلّ الناس ، منهم مَنْ يفعلها وهو عالم بأنّها محرّمة ، وآخر ينقّذها من غير دراية ، لكنّ المسلم عليه أن يسأل ويتفقّه في دينه ، ولا يقدم على فعلٍ أو قولٍ إلّا ويكون قد خبر شيئاً عنه ، وعرف مرماه .

فالكلام أو الفعل إذا صدر دون أن يُدرك صاحبه مداه ، قد يسبب مشكلة ، وأيضاً قد يؤدّي إلى ضرر وإساءة!

ومن المحرمات التي نهى الله عباده عنها ووصف فاعلها وصفاً غير محمود هي : النميمة!

فما هي النميمة؟ : هي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد .

وهي السعاية لما يسوء أخاك من كلام صِفْتُهُ التَّفَاق والكذب ، وهذه الصفة الذميمة التي أمرنا الله ألا نوافق صاحبها: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ هَمَازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ ﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمٍ ﴿[القلم: ١٠ - ١٣]﴾^(٢) .

(١) رياض الصالحين: كتاب الأمور المنهي عنها - باب: ما يباح من الغيبة .

(٢) مهين: حقير في الرأي والتدبير . هَمَاز: عَيَاب . أو مُغْتَاب للناس ، مَشَاء بِنَمِيم: بالسعاية والإفساد بين الناس . عُتِلَ: فاحش لثيم . زَيْنِم: دعيٌّ في قومه . انظر: كلمات القرآن: حسنين مخلوف ، مفردات: سورة القلم .

قال صاحب المستطرف: «وَحَسْبُكَ بالنمام حِسَّةٌ ورذيلةٌ ، سقوطُهُ وضِعُّهُ».

فالنَّمِيمَةُ داءٌ وبيلٌ^(١) ، ونقيصة خبيثة ، فاعلمها يُخَرِّبِ العلاقات الاجتماعية ويفسدها ، ويؤَلِّبُ الخَلْقَ بعضهم على بعضٍ .
عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة نَمَامٌ » متفق عليه^(٢) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « أَلَا أُنبِئُكُمْ ما الْعَضَةُ؟ هي النَّمِيمَةُ ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ » رواه مسلم^(٣) .

قال القرضاوي : « إِنَّ الإسلام في سبيل تصفية الخصومة وإصلاح ذات البين يبيح للمصلح أَنْ يخفي ما يعلم من كلام سَيِّءٍ قاله أحدهما عن الآخر ، ويزيد من عنده كلاماً طيباً لم يسمعه من أحدهما في شأن الآخر . . . »^(٤) .

وفي حديث لَأَمَّ كلثوم رضي الله عنها : أَنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيَنْمِي خيراً أَوْ يَقُولُ خيراً » متفق عليه .

زاد مسلم في رواية : قال ابن شهاب : ولم أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شيء مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إِلَّا في ثَلَاثٍ تعني : الْحَرْبَ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَحَدِيثَ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا^(٥) .

(١) داء وبيل : داء ثَقِيلٌ وخيم .

(٢) [البخاري (٦٠٥٥) ومسلم (١٠٥)] وانظر : رياض الصالحين كتاب الأمور المنهي عنها : باب : تحريم النَمِيمَةِ .

(٣) [مسلم (٢٦٠٦)] . الْعَضَةُ : النَّمِيمَةُ كما قال ﷺ وَالْعِضَّةُ : الْكَذِبُ وَالْبَهْتَانُ .

(٤) انظر : الحلال والحرام : للقرضاوي (ص ٢٩١ - ٢٩٢) .

(٥) [البخاري (٢٦٩٢) ومسلم (٢٦٠٥)] ، فَيَنْمِي خيراً : أي : يبلغ خيراً ، وانظر رياض الصالحين : كتاب الأمور المنهي عنها . باب : بيان ما يجوز من الكذب ، وأم كلثوم هي : بنت عقبة بن أبي معيط من المهاجرات الأول .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُلْغَنِي أَحَدٌ من أصحابي عن أَحَدٍ شَيْئاً ، فَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»^(١) رواه أبو داود والترمذي .

وفي المستطرف: «دفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد - من وزراء بني بُؤَيَّة - يحثه فيها على أخذ مال يتيماً ، وكان مალأً كثيراً ، فكتب إليه على ظهرها: التَّمِيمَةُ قَبِيحَةٌ وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً ، وَالْمَيْتَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَالْيَتِيمَ جَبَرَةٌ اللَّهُ ، وَالسَّاعِيَ لَعَنَهُ اللَّهُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢) .

فنقلُ الكلام مهما كانت صِفته إذا لم يكن هدفُ ناقله الإصلاح ، أو تجبُّبُ سوءٍ ، فتركه أسلم .

قال ابن المقفع: «صُنْ لِسَانَكَ لِأَنَّهُ أَدَاةُ مُضَلَّةٍ يَتَغَالَبُ عَلَيْهِ عَقْلُكَ وَغَضْبُكَ وَهَوَاكَ وَجَهْلُكَ . . . فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَحْتَفِظَ بِهِ وَتَصُونَهُ ؛ فَلَا يَكُونُ إِلَّا لَكَ ، وَلَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ أَوْ يَشَارَكَكَ فِيهِ عَدُوُّكَ ، فَافْعَلْ»^(٣) .



(١) [أبو داود (٤٨٦٠) والترمذي (٣٨٩٦)] .

(٢) المستطرف (١/١٣٣) .

(٣) الأدب الكبير: ابن المقفع (ص ٨٣) ، مُضَلَّةٌ: مُجَرَّدَةٌ .

الفصل الثالث

العبادات في حياة الطفل

أولاً: ترغيب وتدريب الأطفال على العبادات

لا يكون التَّربُّيع إلا بالموَدَّة والمحبَّة ، فيكون بالتَّواصل الرُّوحي والانسجام بين المرغَّب والمادَّة المقصودة للتَّربُّيع والتَّحبُّب بها ، وبين الذي نقصد ترغيبه وتقريبه إلى قبول ما نُريد بعد أن يُوجد المرَبِّي النواعي - أكان أباً أو معلِّماً - إلفَةً ووَدّاً^(١) بينه وبين المقصود إن كان طفلاً أو يافعاً ، ذكراً ، أو أنثى .

«والممتَّبِع للسَّنة النبوية المطهَّرة يجد أنَّ الرُّسول ﷺ قد حدَّد الغاية من بعثته في قوله : «إِنَّمَا بُعِثْتُ معلِّماً»^(٢) ورَّسول الله ﷺ يوضِّح لأبناء أمتِه أنَّه جاء ليعلِّم النَّاس أمور دينهم ، ومنهج حياتهم ، جاء ليعلِّمهم كيف يعبدون الله وحده لا شريك له ، وليرقِّى بهم إلى الفضائل الخُلُقِيَّة . . .»^(٣) .

والمسلمون لِحُبِّهم لرسول الله ﷺ ، يمثِّلون لِهُدْيِهِ محبَّةً ورغبةً في

(١) «إلفَةً ووَدّاً» الإلفة: الصداقة والمؤانسة . و«الوَدَّ» و«الوُدَّ» بكسر الواو رصمتهما: الحب ، والرجلان توادَّا: تحابَّا.

(٢) [ابن ماجه (٢٢٩)] المقدمة ، باب: فضل العلماء والحثُّ على العلم .

(٣) التَّربية الإسلامية وكيف رغبها لأبائنا: د. سراج محمد عبد العزيز النورَّان (ص ١٠٥ - ١٠٦) .

التقرب إلى الله تعالى ، وكذلك العلماء والقادة ، الذين نشروا تعاليم الدين الإسلامي الحنيف في مشارق الأرض ومغاربها ، تَمَيَّزُوا - أولاً - بِمَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ وَلِنَبِيِّهِ ، وأيضاً فقد عمرت قلوبهم بِمَحَبَّتِهِمْ لِلدَّعْوَةِ الْغَزَاةِ ، وتمسَّكهم بها .

بهذا يتِمُّ لهم نشر دين الله ، وترغيب العباد ، وتدريبهم على العبادات المفروضة على المسلمين «والعبادات التي شُرعت في الإسلام ، واعتُبرت أركاناً في الإيمان به ، ليست طقوساً مبهمه من التَّوَعُّد الذي يربط الإنسان بالغيب المجهول ، ويكلِّفه بأداء أعمال غامضة ، وحركات لا معنى لها ، كلاً ، فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه ، هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاقٍ صحيحةٍ وأنَّ يَظَلَّ متمسِّكاً بهذه الأخلاق مهما تغيَّرتِ الطُّرُوف»^(١) .

ما هي العبادات المفروضة ، وكيف نرتبي أطفالنا عليها؟

إنَّ العبادات التي يؤدِّيها المسلم ، هي : الفرائض التي عليه أن يقوم بها استجابة لأمر الله عزَّ وجلَّ ، وهي : فروض الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحجَّ مَنْ استطاع إليه سبيلاً .

وهناك أوامر ونواهٍ ، لا بدَّ من تنفيذها ، يَهْدِي رسول الله ﷺ في القول والعمل . فالأب أو المربي لا يمكنه إيصال أي معلومة للطفل بشكل إيجابي ، ويطمئنُّ على بلوغ مرامه ؛ إلا أن يكون قد درس نفسيّة طفله ، وفهمها ، وفهمَ ما يثيره ، وما هو الأسلوب المُجدي لتقبُّل الطفل ما يسعى الأب أو المربي إليه ، وهذا «يمثّل المواقع تأثيراً في الهندسة لشخصيّة الفرد . . . وهذا الأثر التربوي العميق ، إنّما يتِمُّ في صمتٍ راسخٍ ، عن طريق العلاقات المباشرة ، والمتبادلة الحيّة»^(٢) .

(١) خُلُقُ المسلم: محمد الغزالي ، دار القلم ، دمشق ١٩٧٨م (ص٧) .

(٢) الرسول العربي المربي/ عبد الحميد الهاشمي ، بحوث المؤتمر الأول لإعداد المعلمين بمكة المكرمة ١٣٩٤هـ (ص١٢٤) .

معنى العبادة؟!

قبل مباشرة أي نوع من التعليم مع الطفل ، حرّي^(١) بالمرّبّي تعريف ما يريد نقله إليه وبخاصة في أمور العبادة ، إذاً: لنعرّف العبادة والغاية منها ، والهدف من تعليمها الطفل ، وكيف أنّ المخلوق الذي يؤدّي العبادات ، سينال الثّواب والمحبة من الله تعالى ، أمّا من يتكاسل أو يجانبها سيُعاقب على ذلك ، وتعبّد الإنسان يخضع لشروط ، ليكون تعبده صحيحاً حسب المنهج الإسلامي .

و«العبادة معناها: العبودية لله وحده ، والتّلقّي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كلّها ، ثم هي الصّلة الدائمة بالله في هذا كلّها ، وهذه الصّلة في الحقيقة ، هي : منهج التربية كلّها ، تتفرّع منه جميع التفرّعات ، وتعود في النهاية كلّها إليه»^(٢) .

فالرابط للإنسان بخالفه هو : العبادة ، وهي التي تقرّب المؤمن من ربّه جلّ وعلا .

قال تعالى : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣) [الحجر : ٩٩] .

يأمرنا الله تعالى بأن نعبدّه حتّى نهاية الأجل المحتوم المؤكّد كما ورد في الآية السابقة ، ويبيّن عزّ وجلّ الغاية من خلق الثّقَلَيْنِ^(٤) في الآية التالية :

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

(١) حرّي: من (خزا) في الأشياء ونحوها . طلب ما هو (احرّى) أي اجدر وأخلق ، وحرّيّ: جدير .

(٢) منهج التربية الإسلامية / محمد قطب ، (١/ ٣٤) .

(٣) اليقين : الموت المتيقّن وقوعه .

(٤) انظر : العبودية لابن تيسية (مقتطفات) دار ابن المبارك للنشر والتوزيع (ص ١ - ٢) .

«الثقلين» : الجنّ والإنس .

«سئل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - عن قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فما العبادة؟ وما فروعها؟

أجاب رحمه الله :

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، وبزوال الدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان للجار واليتيم ، والمسكين ، والبهائم ، والدعاء ، ومن العبادة حب الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه . . . ذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التي خلق الخلق لها ، كم قال في الآية ٥٦ من سورة الذاريات السابقة - وبها أرسل جميع الرسل - قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] والآيات التي تُرشدنا إلى العبادة ومعناها ومغزاها ، كثيرة ، والذين يتضمّن معنى الخضوع يقال : فلان يدين الله ، أي يعبد الله ويطيعه ، ويخضع له ، لأنّ دين الله يعني : عبادته وطاعته والخضوع له ، لأنّ الأصول التي تقوم عليها العبادة: أن العبادة لله وحده بما أمر وشرّع .

ممارسة العبادة :

ليست العبادة بالقول فقط ، وإنّما بالفعل أيضاً ، وهذا ما نريده أن نعلّمه لأطفالنا ، وأول الأمور العبادية وأسسها: الصلاة ، والصلاة لا تكون بدون وضوء ، وقبل الوضوء الطهارة التي تجعل المؤمن بين يدي خالقه ، طاهراً ، مُطَهَّراً في بدنه ، وثوبه ، والمكان الذي يؤدي فيه عبادته . قال محمد الزحيلي في ممارسة العبادات : «وهي فرع من الحلال مع التّعويد على ارتياد المساجد ، وأداء الصلاة في البيت والمدرسة ، والتدريب على الصيام ، والصدقة ، والإحسان إلى الجار والفقير .

قال العلماء : وهكذا في الصوم وغيره حتى يتزن الأطفال ولكي يبلغوا

وهم مُسْتَمِرّون على العبادة والطاعة ، ومجانبة المعصية وترك المنكر»^(١).

ارتياذ المساجد:

المساجد بيوت الله ، يتوافد إليها المؤمنون لأداء فريضة الصلاة خمس مرات في اليوم واليلة ، وارتياذ المساجد دليل على الإيمان ، والاعتياذ على حضور الصلوات فيها من أجمل العادات وأجلّها. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] رواه الترمذي وقال: حديث حسن^(٢).

يقول عبد الله علوان: «إن المسجد في الإسلام من أهم الدعائم التي قام عليها تكوين الفرد المسلم وبناء المجتمع الإسلامي في جميع العصور السالفة عبر التاريخ ، ولا يزال المسجد من أقوى الأركان الأساسية في بناء الفرد والمجتمع في حاضر المسلمين ومستقبلهم إذ بغير المسجد لا يمكن أن يتربى ولدنا روحياً وإيمانياً ، وأن يتكوّن خُلُقياً واجتماعياً ، وبغير المسجد لا يُسمع صوت النداء العلوي «الله أكبر» يجلجل في سماء الدنيا ، فيهرّ المشاعر ، ويحرّك أوتار القلوب .

وبغير المسجد لا ينصت المسلم إلى سماع كلمة الموعظة والحق ، فتتفاعل بها روحه ونفسه ، وبغير المسجد لا يتعلم المسلم أحكام الدين وتنظيم الدنيا ، وأمور الحلال والحرام ، ومناهج الحياة ، ودقائق التشريع ، وبغير المسجد لا يتلقن المسلم تعليم القرآن الكريم ، ومعرفة أسباب النزول ، وفهم لطائف التفسير»^(٣) هذه الوظائف وغيرها مما يحتاجها المسلم

(١) حقوق الإنسان في الإسلام/ محمد الزحيلي ط ٢ دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ١٩٩٧هـ (ص ٢٤٨ - ٢٤٩).

(٢) الترمذي (٣٠٩٢) «يعتاد المسجد»: بمعنى التعهّد . أي معاودته إلى المسجد مرة بعد أخرى لإقامة الصلاة.

(٣) ترسة الاولاد في الإسلام: عبد الله علوان (ص ٨٢٢ - ٨٢٤).

ليصرفها في كيفية تسير في الأسلوب الإسلامي القويم ، فوظائف المسجد في زمن الرسول ﷺ تنير السبيل أمام المسلمين لبناء مجتمعاتهم الإسلامية في أنحاء المعمورة ، لتكون الأساس القوي الذي كان سبباً في اتساع رقعة الإسلام ، الذي وصل إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب ، وملاً الدنيا حضارة وعلماً.

إن ربط أولادنا ببيوت الله ، وشرح فائدة ذلك والأثر الطيب في بناء شخصياتهم ، وبيان حقيقة تاريخنا المجيد ، وكيف كان يخرج هذا المسجد قاداته ، وعلماءه ، ومفكره ، حتى طبقت علومهم الدنيا. يجعل ارتياد المسجد كسباً كبيراً لشخصية الطفل المسلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ نَزْلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ» متفق عليه^(١).

وعنه قال: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ، ثُمَّ مَضَى إِلَى بَيْتِ مَنْ بُيُوتِ اللَّهِ؛ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ ، كَانَتْ خُطُوَاتُهُ ، إِحْدَاهَا تَحُطُّ خَطِيئَةً ، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً» رواه مسلم^(٢).

وفي استحباب الاجتماع في بيوت الله للقراءة ، قال رسول الله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» رواه مسلم^(٣).

هذه الأحاديث الشريفة والتوجيهات النبوية خير منهج تربوي إسلامي ليووجه الأب ولده ليطمئن بتقواه.

(١) [البخاري (٦٦٢) ومسلم (٦٦٩)] «غدا» سار قبل الزوال. «راح»: سار بعد الزوال.

(٢) [مسلم (٦٦٦)] والحديثان في رياض الصالحين ، كتاب الفضائل ، باب: فضل المشي إلى المساجد.

(٣) [مسلم (٢٦٩٩)] «غشيتهم الرحمة» أي: عمتهم. حفَّتْهم: أحاطت بهم.

ثانياً: الطهارة والوضوء وفضائلهما

عرفنا أن العبادات كثيرة في الدين الحنيف ، وعماده الصَّلَاة ، والصَّلَاة لا تصح إلا بالطَّهارة ، وهي وسيلة للصلاة التي لا تُقبل دون طهارة ووضوء .

الطهارة لغة وشرعاً :

«الطهارة في اللغة : مطلق النظافة .

وفي عُرْف الشرع : رفع الحَدَث وإزالة النجاسة أو ما في معناها ، كالثَّيْمَم ، وتجديد الوضوء ، والغسلة الثانية والثالثة في الوضوء . . . وقال مؤلف الفقه على المذاهب الأربعة : تنقسم الطهارة إلى قسمين : طهارة من الحَدَث ، وتختص بالبدن ، وطهارة من الحَبَث ، وتكون في البدن ، والثوب ، والمكان . والطهارة من الحَدَث ثلاثة أصناف : وضوءٌ وغُسلٌ وبَذْلٌ منهما ، وهو الثَّيْمَم . . . وذهب الأكثرون إلى معنى الطهارة في قوله ﷺ : «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»^(١) ومما ورد من ألفاظ الطهارة وأريد بها الطهارة من الحَدَث قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة : ٦] . أي فاغتسلوا وقال تعالى : ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة : ٧٩] أي أن المصحف الذي يضم القرآن الكريم لا يجوز لإنسان مسه إلا إذا كان طاهراً^(٢) .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَبْلُغُ - أَوْ فَيَسْبِغُ الْوُضُوءَ - ثُمَّ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٢) .

«شَطْرُ الْإِيمَانِ» : أي : شطر الصلاة أو جزء من الإيمان . وعمر عنه ناشر إيماء إلى تشريعه ، انظر رياض الصالحين (٣٦١) كتاب الفضائل .

(٢) الطب النبوي والعلم الحديث : الدكتور محمود النسيمي (١/ ١٥٨ - ١٥٩) .

الثمانية يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» رواه مسلم .

وزاد الترمذي : «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ واجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(١) .
والماء هو الأساس في الطهارة . قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾
[الفرقان : ٤٨] .

«وهناك بعض معانٍ مجازية للطهارة كما في قوله تعالى : ﴿ مَرْفُوعَةً مُطَهَّرَةً ﴾
[عبس : ١٤] أي منزّهة من مسّ الشياطين ، وقوله تعالى : ﴿ يَنْلَوْا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾
[البينة : ٢]^(٢) .

أقسام الطهارة :

«يدخل في مفهوم الطهارة ، الجانب المعنوي للطهارة ، كطهارة العفة
والأخلاق نقيض التّجاسة . والطهارة نوعان : طهارة حسية : كطهارة البدن
والثّياب من التّجاسة ، ومعنوية : كطهارة العبد من الذّنوب بالطّاعات
والالتزام ، وطهارة الكافر من كُفْرِهِ بالإسلام»^(٣) .

«وتدعى الطهارة عن الحدث بالطهارة الحكيمة ، كما تدعى الطهارة من
الخَبَث بالطهارة الحسّية .

١ - الطهارة الحكيمة :

اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الطهارة من الحدث ثلاثة أصناف : وضوءٌ وغسلٌ وبَدَلٌ
منهما وهو التيمم ، كما في آية ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا ﴾ [المائدة : ٦]
ولا تجوز الطهارة من الحدث إلا بماء طهور أي غير نجس ولا مستعمل .

(١) [مسلم (٢٣٤) والترمذي (٥٥)] . «فيلغ» من الإبلاغ ، أي : يكمل الوضوء بالإتيان
بواجباته ، ويحتمل : ومندوباته . «فيسبغ الوضوء» : هو بمعنى «يلغ» فيؤيد إرادة
مندوباته .

(٢) الطب النبوي ، المصدر السابق (١/١٦٢) . مطهّرة : أي من الباطل اللغوي
والشرعي .

(٣) انظر : أحكام العبادات : د . كامل موسى (ص ٢٧) .

ولا تنه الطهارة إلا ببلوغ الماء الجلد الذي يجب غسله .

٢- الطهارة الحسية :

وتدعى الطهارة من النجس أو من الخَبَث .

وما بتطهر به قسمان : أصلي كماء المطر والبحر مثلاً ، وعارض وهو الذي يحصل باستعمال المضطهرات الأخرى^(١) .

وهذا الشرح عن الطهارة وأنواعها وكيف يكون المسلم طاهراً ليتابع عباداته المفروضة ، ويبقى متصلاً بالله تعالى ؛ ضروري للمسلم ؛ لأنَّ عدم الطهارة تجعله بعيداً عن خائفه لعدم استطاعته تأدية بعض الفروض التي لا يمكن تنفيذها إلا بالطهارة الكاملة ، وبالطهارة يبقى جسد المسلم نظيفاً نقياً ، والنظافة هدفها المحافظة على صِحَّة الجسم ، وبها يتعدى عن الأمراض والأوبئة . وقد دعا الإسلام إلى العناية بصحة الجسم «ويعتمد الغزالي في عملية رعاية الجسد على تعاليم الإسلام ، ولذا فإنه يستقي من هذه التعاليم منهجه في التربية الجسدية ، ولقد كان الرسول الكريم القدوة في ذلك ، حيث يقول ﷺ : «إِنَّ لَجِسْمِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢) .

فالحديث الشريف يؤكد على ضرورة مراعاة حقوق الجسم بحيث تعتبر الرعاية الصحية ، وممارسة الرياضة ، والعمل ، والغذاء من أبرز محالاتها الحيوية^(٣) .

ولبست الطهارة الواجبة على الإنسان المسلم ، هي طهارة بدنه وثوبه ومكانه فقط ، لأن هذه أمور ظاهرية يقوم بها كل إنسان سواء كان متديناً أم غير متدين ، وإنَّما الطهارة الحقيقية هي : الطهارة الروحية من الضلال ويرى الغزالي أن للطهارة أربع مراتب :

(١) انظر : الغزالي : تنسيق (ص ١٥٩ - ١٦٠) .

(٢) [الخوارى (١٩٧٥) ومسلم (١١٥٩)] .

(٣) انظر : التربية الإسلامية عند الغزالي : أيوب دخل الله (ص ١٦٦) .

«المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات .

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

المرتبة الرابعة: تطهير السرِّ عمّا سوى الله تعالى ، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصدّيقين ، والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها»^(١) .

ويشير الغزالي إلى أنّ «الاشتغال بالطهارات يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات ، فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف»^(٢) .

وقد أكدت الدعوة الإسلامية أنّ المجتمع الإسلامي المثالي هو المجتمع النظيف ، التنظيف في جسمه ، وفي لباسه ، وفي موضعه ، وفي روحه ، وفي أفكاره ، وفي كلامه ، وفي أعماله ، وهذه الأعمال كلها اختيارية ، ومع ذلك فيها كل الفائدة الصحيّة للجسم والنفس والروح . وهناك نظافة إجبارية لمواضع من الجسم وهي شرط لصحة الصّلاة ، وهي المدخل الرئيسي لها ، إنّها فريضة الوضوء .

وفي الصلاة المفروضة نقف بين يدي الله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة ، ولا بد لأدائها من أن نتوضأ قبلها . قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا﴾ [المائدة : ٦] .

(١) الإحياء: للغزالي (١/٥٠) .

(٢) المصدر السابق (١/١٥٢) .

وانظر: التربية الإسلامية عند الغزالي: أيوب دخل الله (ص ١٦٧) .

ثالثاً: الوضوء

تأثيره النفسي :

يقول عفيف طيارة: «إنَّ عملية الوضوء تفيد صاحبها نشاطاً وهمّةً، وتزيل ما يعرض لجسده من الفتور والاسترخاء الذي يعقب خروج الفضلات، وما يعقب النوم من الكسل، كما يُشعر النفوس طمأنينةً وسكناً من تخلصها ممّا علق بها من أدران، وإضفاء نوع من الإحساس الرّوحي عليها يساعدها في ترهيف أحاسيسها التي هي المدخل إلى تذوق فائدة الصلاة والالتذاذ بالعبادة. ولهذا كان الوضوء مخفّفاً لحدة تؤثر الأعصاب والغضب»^(١) وعن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْبَلُ صلاة من أخذت حتى يتوضأ»^(٢) رواه مسلم.

فالوضوء: هو المدخل إلى الصلاة وهو مفتاحها. عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ» رواه مسلم^(٣).

فالوضوء إضافة لجعل نفس المؤمن مطمئنة، يشعره براحة نفسية، ويكسبه كثيراً من الفضائل. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَمَتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ، فَلْيَفْعَلْ» متفق عليه^(٤).

(١) انظر. روح الصلاة في الإسلام: عفيف طيارة، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٨٥م (ص ٧٤).

(٢) [البخاري (١٣٥) ومسلم (٢٢٥)].

(٣) [مسلم (٢٤٥)] وانظر: رياض الصالحين، كتاب الفضائل، باب: فضل الوضوء.

(٤) [البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦)]. «غُرّاً» جمع الأغَر، من الغرة، وهو بياض الوجه، يريد بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة (النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٣٥٤) «محجلين»: أي: يبيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام. استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي =

وعنه قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تَبْلَغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمَنِ حَيْثُ يَبْلَغُ الوضوءُ» رواه مسلم^(١).

الترغيب في الوضوء:

كما أمرنا الله تعالى بالصلاة؛ فرض علينا الطهارة كاملة، ومنها: الوضوء، لنستطيع تنفيذ فرض الصلاة وغيرها، ونوجه أولادنا إلى أنَّ الصلاة لا تُقبل دون الوضوء، وهنا نبدأ بتعليمهم كيفية الوضوء «ولا بدَّ لصحة كل صلاة من النظافة المعروفة في الإسلام بالوضوء، ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الصلاة في الدين الإسلامي ليست مجرد عبادة روحية فحسب، بل هي: نظافة، وتطهير، فقد اشترط لها الشارع الحكيم ضرورة الطهارة من كل مستقذر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]»^(٢).

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأً مثل وضوئي هذا ثم قال: «مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً» رواه مسلم^(٣).

يُعَلِّمُنَا رسول الله ﷺ كيف نتوضأ ونُحْسِنه، وبيَّن لنا قيمته الإيجابية وفضله لمن يتطهر ويحسن وضوءه. بعد هذا علينا نحن الآباء والمربين أن ندفع أولادنا ليتعرفوا على الوضوء وتنفيذه بشكل عملي وتطبيق صحيح، وهذا كله قدوة برسول الله ﷺ وصحبه الكرام رضي الله عنهم، ومن المستحسن أن نُرِي الأولاد صوراً توضَّح التطبيق العملي للوضوء من بدايته

= يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه (النهاية ١/ ٣٤٦).

(١) [مسلم (٢٥٠)]، «الحلية»: أراد بالحلية ها هنا التحجيل يوم القيامة من أثر الوضوء. يقال: حَلَيْتُهُ أَحْلَيْه تحلية؛ إذا ألبسته الحلية. (النهاية ١/ ٤٣٥).

(٢) التربية الإسلامية وكيف نرغبها لأبنائنا: سراج الوزان (ص ١١٠ - ١١١).

(٣) [مسلم (٢٢٩)] وانظر: رياض الصالحين، كتاب الفضائل، باب: فضل الوضوء.

حتى نهايته . وإظهار الحركات في ذلك بعد النيّة والسّمية .

ويكون التعليم أجدي إذا كان المربي يقوم بالوضوء أمام أبنائه وتنفيذه ، وشرح الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها المتوضّئ «ولا بدّ للمعلم أن يتابع تلاميذه أثناء قيامهم بالوضوء . . . وإذا كان التلاميذ يؤدون صلاة الظهر في المدرسة ، يكون التدريب عملياً»^(١) لأن الهدف تربية الروح الدينية عند الأولاد .

الوضوء استعداد للصلاة :

عندما يدخل وقت الصلاة المفروضة يهيئ المسلم نفسه ويستعد لأداء هذه الفريضة ، والوضوء هو الاستعداد للصلاة «ومن حَكَمَ الوضوء : الاستعداد للصلاة لأن جوهر الصلاة هو أن يتصور الشخص نفسه أمام الخالق خاشعاً ، ولكي يتهيأ ذهنه لذلك ويتخلّص من شواغل الحياة الكثيرة فُرض عليه الوضوء قبل القيام إلى العبادة .

فالذي يفكر في التجارة والصناعة - وأي أمر آخر من أمور الدنيا - ثم يقال له : قُمْ للعبادة يجد صعوبة في تأديتها ، وهنا كانت حكمة الوضوء ؛ لأنه يساعد على ترك التفكير الأول ، ويعطيه الوقت الكافي لبدء في تفكير عميق من نوع آخر»^(٢) .

فوائد صحيحة في الوضوء :

إننا نستعمل الماء في الوضوء خمس مرات كل يوم ، ونغسل به أعضاءنا الظاهرة المفروض غسلها ، ففي الوضوء : تنشيط حركات القلب والمبادلات الجسمية ، وتقوي الحركات التنفسية . وفي الوضوء حماية من رمد العين عند غسلها بالماء النظيف خمس مرات ، وكذلك كل حركة في الوضوء تعود

(١) فن التدريس للتربية الدينية : محمد صالح سمك ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٨م (ص ١٧٩) .

(٢) انظر : رَوَح الصلاة في الإسلام (ص ٧٦) .

بفائدة على المتوضىء . . . وفوائد أخرى كثيرة^(١).

في هذا الكلام تصديق لبيان الرسول ﷺ في تنقية جسم المؤمن الذي يهيم نفسه لأداء الصلاة وهو طاهر ونظيف من أدران الجسم ، كما أنه سينقى من الذنوب!

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ؛ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ؛ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ؛ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ». رواه مسلم^(٢).

رابعاً: كيف نعلم الطفل أداء الصلاة؟

تعريف الصلاة:

الصلاة في اللغة: الدعاء ، والصلاة من الله تعالى الرحمة ، والصلاة واحدة (الصلوات) المفروضة «وفي اصطلاح النحهاء هي: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة ، وهي فريضة قائمة ، وشرعية ثابتة بالكتاب والسنة»^(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٤).
[النساء: ١٠٣].

فتأدية الصلاة وغيرها من الفروض هي استجابة لأمره تعالى ، والصلوات

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) [مسلم (٢٤٤)]. وانظر: رياض الصالحين: كتاب الفضائل ١٨٥ - باب فضل الوضوء (ص ٣٦٠).

(٣) الإعجاز في القرآن / منيب الطحان. (ص ١٩٩ - ٢٠٠).

(٤) موقوتاً: محدد الأوقات مقدراً.

ليست فروضاً عاديةً يؤدّيها المصلي - كالبيعاء - دون فهم معناها ، ودون معرفة ما يرافقها من أمور غير ظاهرية ، فالمصلي عليه أن يكون خاشعاً في صلاته ، مرتبطاً بقلبه وروحه وفكره وجوارحه بربه ، وبذلك يكون قد أفلح في تنفيذ الفريضة كما أمر الله تعالى حيث قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ^(١) الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ^(٢) ﴾ [المؤمنون : ١ - ٢] .

كما أمر الله عز وجلّ المؤمنين بعدم التهاون في أداء الصلاة بأمر فيه الحزم ، فقال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ^(٣) [البقرة : ٢٣٨] .

وفي الصلاة محبة المؤمنين لرّبهم بطاعته . قيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : « يا داود ، كذب من ادّعى ^(٤) محبتي ، وإذا جن ^(٥) الليل نام عني ، أليس كل محبٍ يُحبُّ الخلوة بحبيبه؟ » ^(٦) .

ولكلّ عمل جزاء ، وكذلك المسلم المصلي ينال فضلاً لا يعادله فضل آخر ، والحديث الشريف يوضح ذلك . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أرايتم لو أن نهرأً بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يوم خمس مرات ، هل يبقى من درّنه ^(٧) شيء؟ » قالوا : لا يبقى من درّنه شيء ، قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا » ^(٨) متفق عليه .

(١) أفلح المؤمنون : فازوا ونجّوا .

(٢) خاشعون : متذلّلون خائفون .

(٣) قانتين : مطيعين خاضعين .

(٤) ادّعى الشيء : زعم أنه له حقاً أو باطلاً . وادعى الشيء : تمناه .

(٥) جنّ الليل : أظلم .

(٦) المستطرف / شهاب الدين الألبسيهي (١ / ١٤) .

(٧) درّنه : وسخه .

(٨) [البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧)] .

وإذا بلغ طفلنا من عمره سبعاً ، نأمره بالصلاة طاعة لله تعالى
ولرسوله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ
لِلنَّاقِؤِى ﴾ [طه : ١٣٢] يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية الكريمة : « فأول
واجبات المسلم أن يحوّل بيته إلى بيت مسلم ، وأن يوجّه أهله إلى أداء
الفريضة التي تصلهم معه بالله ، فتوحّد اتجاههم العلوي في الحياة ، وما أروع
الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله »^(١) .

الترغيب في الصلاة :

وجّه الدين الإسلامي الحنيف عنايته للصلاة ، ولقد فهمنا ذلك من الآيات
الكريمة والأحاديث الشريفة التي أكّدت عليها وما فيها من فضائل ، قال ﷺ :
« الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، كفارة لما بينهما ، ما لم تُغشَ
الكبائر »^(٢) ^(٣) رواه مسلم .

والقرآن الكريم شدّد على تأديتها في مواضع عدة ، قال تعالى : ﴿ يَبْنِئْ
أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ
الْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] وفي آية كريمة أخرى يدعو الله خليل الرحمن سيدنا
إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٤٠] وهناك عدد من الآيات القرآنية تؤكد أن
« للصلاة أهميتها البالغة في حياة المسلم الروحية ، والعقيدية ، والخلقية ،
والاجتماعية ، والتربوية ، وهي خير دائم للمصلّي »^(٤) .

ومن المؤكّد أنّ العبادات كلها خالصة لله تعالى ، وهي الوسيلة الناجحة

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب (٤/ ٢٣٥٧) .

(٢) ما لم تُغشَ الكبائر : أي : ما لم تُؤت . وفي مختار الصحاح : غشاه : غطاه .

(٣) [مسلم (٢٣٣)] .

(٤) التربية الإسلامية وكيف نرغبها لأبنائنا (ص ١١٤) .

لربط المخلوق بخالقه «ولما كانت الصلاة صلة بين العبد وربّه لهذا كان من الضروري الالتزام بالخضوع فيها ، والبعد عن كل ما يُبطلها ، وفي ضوء هذا الفهم فإنّ معلم التربية الإسلامية لكي يرعّب التلاميذ ، ويشوّقهم إلى الصلاة الصحيحة ، لا بدّ أن يعرف أساليب وطرائق متعددة ليستطيع من خلالها ترغيب التلاميذ في الخضوع في الصلاة إتماماً لأركانها ، ويوضح قيمة الخضوع ، والفائدة التي تعود على المصلي منه»^(١).

فضائل الصلاة وآثارها على المسلم:

ما من فريضة شرعها الله تعالى إلّا وكان خَيْر المخلوق هدفها؛ ليعيش بنفس مطمئنة ، وحياة هانئة. والعبادات كلها فيها السعادة للمؤمن ، فالصلاة التي تؤديها خمس مرّات في اليوم واللييلة ، نقف بين يدي الله عز وجلّ خاشعين ، فنشعر بطمأنينة لا تُوصف؛ لأننا في حماية ورعاية خالق الأكوان ، فنؤدي بأمانة ما أمرنا به ، ودلّنا عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فتصفو النفس ، وتهلأ الجوانح. ومن فضائل الصلاة وآثارها:

١ - الصلاة ضرورة نفسية للأفراد:

«مما لا ريب فيه أن النوع الإنساني يحتاج لأجل أن يحيا حياة طيبة إلى عامل أدبي ، يحدّ من نزعتة الوحشية ، ويصدّه عن الانقياد لطبيعته الحيوانية ، والصلاة هي التي تدفعه للتجرّد من الأحوال البهيمية ، والتخلّق بالأخلاق الإلهية في أرفع ما يتخيّله المرء من نزاهة وسموّ خُلقي.

أمّا من الناحية النفسية فالإنسان إذا لم تتصل روحه بمبدعها ظهرت عليه عوارض القلق والاكتئاب ، بسبب ما يلاقيه من مصائب وخيبة أمل ، فيحاول التغلب على ما يعانیه من قلق بتعاطي المخدّرات ، وشرب الخمر ، والمقامرة وركوب الشطط في إشباع الدافع الجنسي ، وهذه محاولة هروبية

(١) المصدر السابق (ص ١١٥).

مما يعانيه الإنسان من آلام نفسية ، وهذا كله يؤدي إلى إضاعة صحته ، وتبديد أمواله ، وإضعاف مواهبه العقلية .

بينما الصلاة تُتيح للمرء أن يسأل بآرائه كل ما يريد ، الأمر الذي ينفّس عن مشاعره ، ويخلق فيه عقيدة إطاعة أوامر الله الخيرة ، كالصبر ، والثبات ، كما تدعو إلى الالتجاء إلى الله عند تعاقب الكوارث لتستمدّ منه القوة وحُسن التصرف للقيام بأعباء الحياة ، فتشعر حينئذ نفس الإنسان بنفحة مشجعة ، وطمأنينة شاملة تعينه على التغلب على كل الأعباء التي ينوء بحملها^(١) .

وهذا يدلنا على أنّ الصلاة لها أثر نفسي على المؤمن حين يقف بين يدي ربّه عزّ وجل يناجيه بنفس مطمئنة هادئة .

٢- الأثر الخُلقي :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥]^(٢) .

إنّ الصلاة التي يؤديها المسلم هي تنفيذ لأوامر الله ، وطاعة له ، وأداء فريضة كُتبت عليه ، والآية الكريمة تدعو المسلم وتعهّذ : تقرّر أنّ صلاة المسلم الحقيقية هي التي تبعده عن المحرّمات التي نهى الله عن فعلها ، فالصلاة ربط للمصلّي بربّه ، تشعره بعلوّ مكانته في نفسه ، فيجئ عن إتيان أي عمل منكر يُغضب الله تعالى .

٣- الأثر الاجتماعي :

إذا كان المسلم مثابراً على أداء صلواته ، مطبّقاً لآيات القرآن الكريم في الأوامر والنواهي ، مبتعداً عن المحرّمات ؛ يكون قد قرّن العلم بالعمل ؛

(١) انظر: روح الصلاة في الإسلام: عفيف طيارة ، دار العلم للملايين . بيروت ١٩٨٥م (ص ٢٦-٢٧) .

(٢) الفحشاء: من الفحش ، وفحش: كل شيء جاوز حدّه فهو فاحش ، و«المنكر»: ما ليس فيه رضا الله من قول أو فعل .

فالصلاة كما بَيَّنَّت - الآية ٤٥ من سورة العنكبوت - أنها تنهى عن الفواحش والمنكرات ، غير أن تطبيق هذا المعنى يعود على أمانة المسلم بالتلبية الصادقة لأوامر الله عزَّ وجلَّ ، وتكون خطواته ثابتة في طريق الإيمان وانضمامه إلى مجتمع المؤمنين النافعين لأمتهم .

وأداء الصلوات جماعة هي إحدى الوسائل الرائعة لتقارب المؤمنين ، ممَّا يزيد الإلفة والتعاون ، ومنها يتعوَّد أطفالنا تأدية الصلوات جماعة في المسجد ، مع توجيهاتنا المستمرة لهم بالموءة والمحبة ، نَعِظُ ونوجِّه ونحذِّرهم من التقاعس عن أداء الصلاة أو التكاسل في ذلك ؛ لأن المقصَّر ينال عقابه من والديه في الدنيا ، وجزاءه من الله في الآخرة ، فالترغيب والترهيب واجب على الأهل ، وعليهم أن ينفذوا ما جاء في الحديث الشريف : قال ﷺ : «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع»^(١) .

والأمر بالضرب ليدرك الطفل بأن هذا الأمر يجب تنفيذه ، والضرب لا يكون مؤذياً للطفل ولو كان موجعاً . يقول ابن خلدون في مقدمته : «لا ينبغي لمؤدِّب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه لأنَّ إرهاف^(٢) الجسد في التَّعليم مضرٌّ بالمتعلِّم ولا سيما في أصاغر الولد ، فينبغي للمعلم في متعلِّمه ، والوالد في ولده ، أن لا يستبدَّ عليهما في التأديب»^(٣) .

وتدريب التلاميذ عملياً على العبادات يتم في ضوء قدرات الطفل ،

(١) حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن [أبو داود (٤٩٥)] وانظر : رياض الصالحين باب : وجوب أمر أهله . والإسلام وتربية الأطفال والشباب (ص ٣٩) . وفي مختصر مشكاة المصابيح : روى الترمذي في «جامعه» أن رسول الله ﷺ قال : «مروا الصبي بالصلاة لسبع ، واضربوه على تركها لعشر» .

(٢) إرهاف الحد : ترقيقه ، وأرهدف السيف : رققه .

(٣) انظر : مقدمة ابن خلدون : ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ت : ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م المطبعة الأدبية ط ٣ بيروت ١٩٠٠ م (ص ٥٤٠) .

واستعداداته ، وحاجاته ، فتخصيص غرفة تقام فيها الصلاة ، وتدريب التلاميذ على التوجه إلى غرفة الصلاة بعد سماع الأذان من إذاعة المدرسة يرافقتهم معلمهم ومؤدّبهم يراقبهم في الوضوء والصلاة ، وتصحيح ما يقع من أخطاء^(١).

وأداء الصلاة بإشراف المعلم في المدرسة والوالدين في البيت ، فيه تعويد للأولاد على تأدية الفرائض ، قال أحد المربين : «الطلبة الذين يُتاح لهم الصلاة في المدرسة يدركون بصورة أفضل معنى الانضباط والمساواة»^(٢).

يقول محمود شلتوت : «والصلاة ليست - كما يظن كثير من المسلمين - مجرد عبادة شخصية يقوم بها المؤمن فيما بينه وبين ربّه ، تقتصر فائدتها على تهذيب النفس ، وإنما هي - مع ذلك جعلت عن طريق الاجتماع لها - سبيلاً لتعارف المؤمنين - فرضاً كانت أم سنّة أم فضيلة - وتفاهمهم فيما يحتاجون إليه من خير في دنياهم ودينهم»^(٣).

ولا تتم هذه الأمور إلّا بطريقة تجعل الأولاد متشوّقين لمتابعة العبادات وأدائها.

يقول محمد الزحيلي : «والوسيلة التربوية لذلك أن يصحب الوالد أبنائه معه إلى المسجد ، وأن يشاركهم في تنفيذ الأحكام الشرعية في البيت والعمل ، وأن يكلفهم بها»^(٤).

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: محمود النسيمي ، دار العلم الحديث والشركة المتحدة للتوزيع دمشق ١٩٨٤ (١/٢٣٦).

(٢) المرجع في مبادئ التربية: أحمد أبو هلال ، دار الشروق للنشر ، عمان ط ١ ١٩٩٣ م (ص ٤٨٧).

(٣) الإسلام: عقيدة وشريعة. دار الشروق. بيروت ط ١٠ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م (ص ٨٧).

(٤) الإسلام وتربية الأطفال والشباب: د. محمد الزحيلي ، دار المكتبي بدمشق ، ١٩٩٨ م (ص ٤٠).

كيف نعلم الطفل أداء الصلاة ؟

على الوالدين تقع مسؤولية التوجيه الإيماني ، والتربية الإسلامية اقتداء بالرسول ﷺ حيث كان يُعطي لأصحابه النموذج الحي في أسلوب التربية والتعليم ، فقد روى البخاري حديثاً ذكر فيه أنه ﷺ صلى مرة بالناس إماماً وهو على المنبر ليرؤوا صلاته كلهم ، وليتعلّموا من أفعاله ومشاهدته ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « يا أيّها الناس إنّما صنعت هذا لتأتّموا بي ولتعلّموا صلاتي »^(١) . ولتنفيذ الأب للمسؤولية التربوية العبادية ، يقف مع ولده - بعد الأذان والوضوء - باتجاه القبلة ، ويبدأ بتوجيه ولده للقيام بتقليده بكل ما يفعله من قراءة ، وقِيَام ، وركوع ، وسجود .

فوائد مختلفة للصلاة :

فصلاة المسلم وما يسبقها من نظافة ووضوء ، وما يتخللها من حركات ، وما يجب فيها من تخلية الذهن عن مشاغله الدنيوية ؛ ليتم له الصفاء والحضور والوعي لما يقوله في صلاته ، وليتستنى له إقامة الصلاة على الوجه الأكمل ، فصلاته خير أنواع الراحة الإلزامية ، فمن كان له من طبيعة عمله أو دينه هذا التناوب من العمل والراحة ، كان بعيداً عن الإعياء^(٢) .

خامساً : الصَّيَام

تمهيد :

صوم رمضان من فرائض الإسلام وركن من أركانه ، شرع في السنة الثانية للهجرة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] وقد فرض الله الصوم في

(١) [البخاري (٩١٧) ومسلم (٥٤٤)] .

(٢) انظر : الطب النبوي والعلم الحديث : د . محمود النسيمي .

شهر رمضان فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وثبتت فرضيته - فضلاً عن النصِّ القرآني بنخب فرضه - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»^(١) متفق عليه.

من فوائد رمضان:

١ - تفتح أبواب الجنة ، وتغلق أبواب جهنم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء رمضان ، فُتِحَتْ أبواب الجنة ، وَغُلِّقَتْ أبواب النار ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ» متفق عليه^(٢).

٢ - بالصيام تُغْفَرُ الذُّنُوبُ وَيُكْسَبُ الْأَجْرُ. عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» متفق عليه^(٣).

٣ - يصقل السلوك ، ويهذب النفس ، قال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به ، فَلَيْسَ لَهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(٤) رواه البخاري.

ومن فوائده: يجعل الصائم من الأغنياء يشعر بالفقراء ، فيحتمل ما يتحملون ، وفي هذا رفع حاله عند الله . ومن فوائده ومحاسنه: اكتساب مكارم الأخلاق ، وأن الله تعالى وعد بالجنة المتقين بقوله سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(١) [البخاري (٨) ومسلم (١٦)].

(٢) [البخاري (١٨٩٨) ومسلم (١٠٧٩)]. «صُفِّدَتْ»: أي: شُدَّتْ وأوثقت بالأغلال ، والصَّفْدُ ، والصفاد: القيْدُ.

(٣) [البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠)].

(٤) [البخاري (١٩٠٣) وأبو داود (٢٣٦٢) والترمذي (٧٠٧)] «قول الزور»: زور الكلام: زخرفه ومؤهه ، والزور: الكذب . المعجم الوسيط (٤٠٦).

تعريف الصوم:

الصوم في اللغة هو الإمساك مطلقاً ، سواء أكان عن طعام أم كلام أم سير أم غيره . والصوم: القيام ، يقال: صام النهار ، أي قام قائم الظهيرة
وأما في الاصطلاح فالصَّوم: هو ترك الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر الصادق إلى الغروب بنية^(١) .

والمراد بالإمساك عن المفطرات ، المعبر عنها بالأكل والشرب والجماع ، وإن كان يدخل فيها ما يُعتبر من المفطرات وإن لم يكن أكلاً أو جماعاً ، كالتقيؤ ، والدواء من المنافذ الطبيعية إلى الجوف .

والصوم فرض ، وهذا محصور في صوم رمضان اعتقاداً وعملاً ، أداء وقضاء .

وشروط وجوب الصيام هي :

- ١ - الإسلام .
- ٢ - العقل .
- ٣ - البلوغ .
- ٤ - العلم بالوجوب^(٢) .

أهداف الصيام:

آيات الصيام التي ذكرناها بيّنت فرض الصيام وميقاته ، والأحاديث الشريفة وضّحت قيمة الصيام وأهميته في حياة المسلم والفوائد التي يجنيها من الصوم ، وربط أداء الفرض بترك كل قول أو فعل قد يفسد الصوم .

«إن عبادة الصوم لم تُفرض على المسلمين فقط ، وإنما على أمم أخرى

(١) «بتية»: قيد يخرج به الصائم بلانية ، فهو عادة ، لا عبادة .

(٢) انظر: أحكام العبادات: د. كامل موسى ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط ١ ١٤٠٨ - ١٩٨٨ (ص ٣٤٣ - ٣٥٣) باختصار .

قبلنا كما ظهر من الآية الأولى ، وللصيام أهداف متعددة سنتعرّف على ما يتيسّر لنا منها:

١ - الهدف الأول من الصيام هو: أداء ركنٍ إيمانيّ عباديّ طاعةً لأمر الله تعالى.

٢ - الغاية والهدف الكبير من الصوم هو تربية المؤمن وتعوده على التقوى: «فالتقوى هي التي تستيقظ في القلوب بينما تُؤدّي هذه الفريضة طاعةً لله وإيثاراً لرضاه ، والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية»^(١).

يقول مصطفى السباعي: «ومن أسرار الصيام النفسية تربية الضمير ، فليس على الصائم رقيب إلا الله ، فيعتاد الأمان بعد ذلك في كل أمور الحياة ، وهذا من شأنه يورث خشية الله وينمي ملكة المراقبة ، ويوقظ الضمير ؛ ومن ثم اعتبره القرآن الكريم سبيلاً إلى التقوى بقوله تعالى ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ ومن ثم يخلج من الكذب والغش والإيذاء والعدوان على الناس في أعراضهم وأموالهم»^(٢).

٣ - للصيام هدف نفسي ، وآخر اجتماعي :

فالهدف النفسي هو تربية نفس الصائم بشكل إرادي وطوعي لتنفيذ الأمر الرباني بأداء فريضة الصيام ، وليدرك الصائم أنّ هناك من يجوع ويعطش بشكل إجباري فتتحرك أريحته بالإحسان إلى الفقراء ، فتتألف القلوب ، وتنتشر المحبة بين الناس ، فيكون الصائم قد نأى عن كل ما ينكره الدين في القول والعمل ، واعتاد على البرّ والإحسان .

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (١/١٦٨) وانظر: الطفل في الشريعة الإسلامية (ص ٢٨٠ - ٢٨١).

(٢) أحكام الصيام وفلسفته في ضوء الكتاب والسنة: مصطفى السباعي، دار القرآن الكريم، والمكتب الإسلامي ببيروت ط ٢/ ١٣٩٢ هـ (ص ٤٣).

وفي الصيام تربية اجتماعية لتساوي الأغنياء والفقراء في الحرمان ، وترك التمتع بالشهوات ، فرمضان «فقر إجباري يتساوى فيه الناس جميعاً ، فيشتركون في الآلام المنبعثة عن الشعور بالواقع ، لا عن التخيل بالفكر ؛ ومن الآلام تنشأ الرّحمة ، ومن الرّحمة تنبعث العدالة»^(١) .

تدريب الطفل على الصيام :

إنّ الصيام والصلاة وغيرهما من العبادات لها التأثير القوي في نفسية الطفل ، وهذه الأمور هي من المؤثرات الفعالة التي تقوّي إيمانه وارتباطه الروحي بالعبادات . ونحن بتعويد الطفل ممارسة العبادات نقربه كثيراً مما نريده ، ويعتبر أداء العبادات منذ الصّغر غرساً لا بدّ وأنّ نراه نما وأثمر خيراً ، فالعناية بتركيز اهتمام الوالدين والمربي بغرس بذور الفضائل منذ السنين الأولى للطفل ، أمر ضروري ، حتى إذا شبّ عن الطّوق ، وانتقل إلى مرحلة عمرية أكبر كان معه ما تعلّمه ، وتعزّد على إتيانه في صغره ، وكما يُقال : «العلم في الصّغر كالنقش في الحجر» فكلّ عبادة من العبادات يجب تدريب الأطفال عليها في سنّ مبكرة ؛ كالصلاة ، والصيام ، وما يتعلق بهما من وضوء ، وإمساك عن المفطرات . وقد لا يستطيع الطفل صيام اليوم كله ، فنعوّده الصبر على الجوع والعطش ولو بصوم ساعات قليلة من يوم الصوم .

عن الربيع بنت مُعوذ قالت : أرسل النبي ﷺ غداةَ عاشوراء إلى قرى الأنصار : «مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِراً فَلْيُسِّمْ بِقِيَّةِ يَوْمِهِ ، وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِماً فَلْيُسِّمْ» قالت : فكنا نعوّمه بعدُ ونصوّم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن^(٢) ، فإذا بكى أحدُهم على الطّعامِ أعطيناهُ ذاك حتى يكونَ عند الإفطار^(٣) .

(١) المصدر السابق (ص ٦٢) .

(٢) العهنُ : أي : الصوف المصبوغ .

(٣) [البخاري (١٩٦٠) ومسلم (١١٣٦)] .

أحكام الفقهاء في صوم الصبيان :

لكل إنسان طاقة محدودة ، لا يستطيع أن يتجاوزها إلا بصعوبة ، وقد تسبب له بعض المتاعب ، وكذلك ، فالأطفال يجب اختيار قدرتهم على أداء بعض المهام التي ننقلها إليهم لتنفيذها ، وهذا يكون أيضاً في أداء العبادة التي تحتاج إلى صبر واحتمال ، ومنها الصيام ، وللفقهاء آراء في ذلك :

«يقول الإمام الشافعي: إنهم يؤمرون به (الصيام) للتمرين عليه إذا أطاقوه ، وحده بالسبع والعشر كالصلاة.

ويقول الإمام الأوزاعي: إذا أطاق صوم ثلاثة أيام تباعاً لا يضعف فيهنّ ، حُمِلَ على الصوم»^(١).

ومن المعروف أنّ فريضة الصوم على من حاز الشروط التي ذكرنا سابقاً ومنها «البلوغ» والصبي إذا لم يكن بالغاً فهو غير مكلف ، ولكن ما عرفناه من رأي الفقهاء أنه واجب للتمرين ، وليعتاد على أدائه ، ويلازمه دون نَصَب.

الصوم لله عزّ وجلّ :

ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالَ اللهُ عزّ وجلّ: كُلْ عَمَلِي ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصَّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزِفُّتْ وَلَا يَصْحَبُ ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي أَمْرٌ صَائِمٌ»^(٢).

فوائد الصيام الصحية :

سبق وذكرنا أن الله تعالى لم يفرض فريضة إلا لإسعاد الإنسان سواء نفسية ، أو تربوية ، أو اجتماعية ، أو صحية ، وترك الصائم طعامه وشرابه

(١) الطفل في الشريعة الإسلامية (٢٨٤-٢٨٦) بتصرف.

(٢) [البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١)] جزء من حديث طويل. «جُنَّة»: أي: ترس ، فيكون مانعاً من النار والمعاصي كما يمنع الترس من الإصابة بالسهم. «يرفت»: يتكلم بكلام فاحش.

من الفجر إلى الغروب فيه فوائد صحيّة جمّة «وقد أثبت العلم الحديث ما في الصوم من فوائد عظيمة في إخراج الفضلات من الجسم ، وطرده السُّموم والمفرزات الضارّة من مجاري الدّم بطريقة الامتناع عن الأكل والشرب ، أي العلاج الطبيعي بدلاً من العقاقير . فهو بمثابة استجمام للجهاز الهضمي ممّا عاناه العبد طوال أيام السنّة من تتابع الطعام عليه في كل وقت»^(١) .

ويقول الدكتور «شخاشيري» - وهو طبيب - في حكمة الصّوم : «اعلم أن انتفاعك من الطّعام القليل الذي تأكله بانتظام يزيد على انتفاعك من الطّعام القليل الذي تأكله بغير انتظام . . . وحدّد الطبيب المذكور فوائد الصيام في نواح عدة :

- ١ - علاج اضطرابات الهضم واضطرابات الأمعاء ، وبالذات المزمنة منها .
- ٢ - علاج لزيادة وزن الجسم .
- ٣ - إقلال السُّكر في الدم والعمل على إخفائه من البول .
- ٤ - أمراض القلب المصحوبة بتورّم في القدمين والساقين وتضخّم حجرات القلب . . . «^(٢) .

عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ : الرِّيَّانُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، يُقَالُ : أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فيقومونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»^(٣) (متفق عليه) .

(١) انظر الإعجاز في القرآن طريق إلى الإيمان/ منيب الطحان/ دار سعد الدين دمشق ط ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م (ص ٢٠٧-٢٠٨) .

(٢) الإعجاز الطبي في القرآن/ د. سيد الجميلي ، دار ابن زيدون ، بيروت ، (ص ٦٢-٦٧) .

(٣) [البخاري (١٨٩٦) ومسلم (١١٥٢)] وانظر : رياض الصالحين كتاب الفضائل ، باب : وجوب صوم رمضان .

حكم الصوم وتدريب الأطفال عليه :

١ - لم يكن الحرمان من الطعام والشراب هو الهدف من افتراض الصوم على المسلمين بل هناك حكمة حقيقية ، وهي غرس خُلُق المراقبة والصبر والاستقامة . «يقول بعض المربين: المدرسة التي تشجع طلبتها البالغين على الصوم تطوعاً يوماً أو يومين في الأسبوع تهذب نفوسهم وتحثهم على الاستقامة ، بخلاف المدرسة التي تقف على الحياد من القيم الإسلامية ، أو تلك التي تقدّم لطلبتها نماذج هابطة من القيم الوضعية»^(١) فالمعلم المربي هو الأساس في المدرسة التي تنشئ الأجيال وتربيهم وتقودهم إلى نفع أنفسهم ونفع مجتمعهم وأمتهم ، وهذا لا يتأتى إلا من أناس عرفوا الله ، وساروا مخلصين لأداء واجبهم تجاه غرس القيم الإسلامية العظيمة التي تهتئ المسلم لقيادة بيته ، ومجتمعه ، وأمته إلى الفلاح .

٢ - يتعوّد النظام والطاعة والالتزام ؛ لأنّ العبادات تأتي في أوقات محددة ، حيث يخضع فيها لنظم ثابتة ، فلا تصحّ العبادة إذا أخلّ المؤمن بنظامها: «فالمسلم في رمضان يأكل بنظام ، وينام بنظام ، ويستيقظ بنظام ، والمجتمع الإسلامي في رمضان مجتمع يتحلّى فيه النظام بأروع مظاهره ، إنّه نظام لا مثيل له في أمة من الأمم ، نظام يستوي فيه الكبير والصغير ، والعالم والجاهل ، والحاكم والرعية ، والغني والفقير ، لا تمتاز فيه طبقة عن طبقة ، ولا فرد عن فرد»^(٢) .

٣ - في الصوم تربية للضمير ، فيتعوّد الصائم بأنّه دائماً تحت مراقبة الله تعالى ، وبذلك يتعلّم الأمانة في فعله وقوله ، في حركته وسكّنه ، متطلّعاً إلى تأدية فرائضه برغبة ومحبة بتنفيذ أوامر بارئه بعين قريرة ، ونفس مطمئنة ،

(١) بشير النوم: تدريس القيم الخلقية/ جامعة أم القرى . مكة المكرمة ١٤٠٣هـ
١٩٨٣م (ص ٢٣) .

(٢) مصطفى السباعي: أحكام الصيام وفلسفته في ضوء الكتاب والسنة (ص ٥١ - ٥٢) . =

ويكون صادقاً مع نفسه ، ومع ربّه ، ومع مجتمعه .

٤ - الصيام عبادة تقرب الناس من بعضهم بعضاً ، فتشعر الصائم بمدد يد العون للفقير والمحتاج «وتجعل صاحبه من الأغنياء يوافق الفقراء ، فيتحمّل ما يتحمّلون أحياناً ، وفي هذا رفع حاله عند الله . ولأنه إذا جاع علم حال الفقراء في جوعهم فيرحمهم ويعطيهم ما يسدّ جوعهم إذ ليس الخبر كالمعاينة»^(١) . وقد سبق معنا هذا القول .

سادساً: الصَّدَقَةُ:

تمهيد: النهج الإسلامي في التربية كلّهُ فضائل ، يدعو الآباء والمربين لفهمها ، ولنقلها إلى أسرهم وأولادهم ، ليتشربوا من المعين الصافي العادات والقيم الصالحة؛ وكل ذلك لفائدة المجتمع الإسلامي بكامله .

إنّ القاعدة الأساسيّة في الإسلام الحنيف أنّ يقوم الآباء بتربية أبنائهم في الدّين والأخلاق ، في البيت والمسجد وفي الحياة الاجتماعية ، فتدريب الطفل من صغره على القيام بالبرّ والإحسان ، يجعل الطفل ينمو وقد نما معه إحساسه بالآخرين ومشاركتهم ومساعدتهم في تخفيف ما يطرأ عليهم من مصاعب ، وفي الإحسان الذي يقدّمه الإنسان لأخيه يكسب ودّه ، وتتقارب القلوب ، وبتقديم صدقة إلى فقير تنعش نفساً ، وتواسي حزناً ، وتعوّد الطفل على ذلك ، وعندما يرى والده وهو يتصدّق على الفقراء والمعوزين تنطبع في نفسه هذه الأعمال الطيبة ، وبذلك يأتي الأب ويعطي ولده نقوداً ويرشده إلى فقير محتاج ليؤدّيها إليه ، وهذا تدريب على اتّباع أعمال البرّ والإحسان ، وهي أعمال يحبّها الله ورسوله .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

(١) كامل موسى: أحكام العادات ، (ص ٣٤٥ - ٣٤٦) وانظر: الطفل في الشريعة الإسلامية (٢٨٦ - ٢٨٧) بتصرف .

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [البقرة: ١٥].

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١) فالآيات التي تحدثنا عن الخير وفعله وثواب فاعله متعددة ، وكذلك الأحاديث الشريفة فإنها كثيرة ، فقد بلغ عدد الآيات التي تتكلم عن الخير ومشتقات هذه الكلمة (١٨٦) آية^(٢) ومنها: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠] ﴿وَتَكَزَّوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣] ﴿وَلِلَّذِينَ آمَنُوا خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩] و[القصص: ٨٤] ﴿... فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤].

وجميع الآيات التي ذكرت تدل الإنسان وتحثه وتحضه على فعل الخير؛ لأن فعله يعود عليه بالفعل الإيجابي .

ومن الأحاديث التي تدل على الخير :

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي النبي ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » رواه مسلم^(٣) . وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ معروفٍ صدقة »^(٤) .

فالصدقة والإحسان إذا تعود المسلم على فعلهما ، يعود ذلك على

(١) متفق عليه [البخاري (٦٠٢٣) ومسلم (١٠١٦) رقم (٦٧) و(٦٨)] والحديث جزء

من حديث طويل انظره في: رياض الصالحين الكتاب الأول، باب: بيان كثرة الخير .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي ، مادة «خير» .

(٣) [مسلم (٢٦٢٦)] .

(٤) [البخاري (٦٠٢١) مسلم (١٠٠٥)] .

مجتمعه بالود والمحبة ، وهي الأخوة التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] وهذه الأخوة لا تتحقق إلا بالعمل ، وإظهار المحبة والتعاون والتعاطف بكل ما فيه خير للمجتمع الإسلامي ، وتوضيح معنى حقيقة الأخوة للصغار بإدراكهم وملاحظتهم لما يقوم به الكبار مع إخوانهم المؤمنين ، فأحسن المؤمن لأخيه المؤمن يكسب أخوته ، ويربح مؤازراً ومشاركاً في أعمال البر .

في السخاء كمال الجود والكرم :

قال ابن المقفع : عود نفسك السخاء ، واعلم أنه سخاء إن : سخاوة نفس الرجل بما في يديه ، وسخاوته عما في أيدي الناس .

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة . وثرؤه ما في أيدي الناس أمخض^(١) في التكرم وأبرأ من الدنس وأنزله . فإن هو جمعهما فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم^(٢) .

يقول الأبشيهي : «والجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد ؛ وأنفقته ما صرف في وجه استحقاقه ، قال تعالى : ﴿ لَنْ نُنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] وأصل السخاء هو السماحة ، وقيل : من بذل أكثر فهو صاحب جود ، ومن أثر غيره بالحاضر فهو صاحب إيثار . وقال بعض الحكماء : أصل المحاسن كلها الكرم ، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام ، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام . وجميع خصال الخير من فروعها ، وقال بعض السلف : منع الموجود سوء ظن بالمعبود ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴾ [سبا : ٣٩] . وقال أكثم بن صيفي : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع جعل له متكأ .

(١) الأمحض : أي الأصدق ، ويقال : أمحض الحديث والنصيحة : صدقه ، المعجم الوسيط (محض) (ص ٨٥٦) .

(٢) الأدب الكبير : ابن المقفع (ص ٨٧) .

وقال علي رضي الله عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك ، وإنما أنت فيه خازن لغيرك . وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: مَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ عَيْشاً وَأَنْعَمَهُمْ بَالاً وَأَكْرَمَهُمْ طِبَاعاً ، وَأَجْلَهُمْ فِي النَّفْسِ قَدْراً؟ فسكت القوم . فقام فتى فقال: أَفْضَلُ النَّاسِ ، مَنْ عَاشَ النَّاسُ فِي فَضْلِهِ . فقال: صدقت^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ يَوْمٍ يَصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ ، فيقولُ أحدهما: اللَّهُمَّ أعْطِ مُتَّقِياً خَلِيفاً ، ويقولُ الآخر: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمَسْكاً تَلَفّاً» متفق عليه^(٢) . قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦] .

قال أبو فراس الحمداني:

سأتي جميلاً ، ما حييتُ ، فإنني إذا لم أُفدْ شُكراً أفدْتُ به أجراً^(٣)
وقال في الجود:

ليس جوداً عطيةً بسؤالٍ قد يهزُّ السؤالُ غير الجوادِ
إنما الجود ما أتاك ابتداءً لم تذقْ فيه ذلّة التردادِ^(٤)
فوائد الصّدقة:

من الأعمال الطيبة في الإسلام أن يتصدّق المسلم من ماله على الفقراء ولو كان فقيراً ، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»^(٥) والصدّق نوع آخر من تقارب الأفراد وإيجاد المحبة بينهم ، فالصدقة والإنسان في تمام صحته وكمال جسمه خيرٌ له مِنْ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَصْبَحَ عَجُوزاً فيسارع إلى الخيرات . وفي حديثه ﷺ عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى

(١) المستطرف: للأبشيهي (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥) .

(٢) [البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠)] .

(٣) شرح ديوان أبي فراس الحمداني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (ص ١٩١) .

(٤) المصدر السابق (ص ٢٨٢) .

(٥) صحيح مسلم [مسلم (١٠٠٥)] . كتاب الزكاة ، باب: بيان أنّ اسم الصّدقة يقع على كل نوع من المعروف .

النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» متفق عليه^(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى» رواه مسلم^(٢) وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(٣) متفق عليه.

وفي الصدقة والمتصدقين كثير من الأحاديث الشريفة والآيات الكريمة، وباب الصدقة واسع للمغفرة، ولتزكية النفس، وتهذيبها، وتعويدها خير عادة، بتقديم ما يدفع بؤساً، ويقلل عثرة، ويخفف ضيقاً، فالذي يُقدم الصدقة للمحتاج، كأنه يُقرض الله قرضاً حسناً؛ لأن الصدقة تزيد من حسنات المتصدق، والله تعالى يقبل الصدقة كما يقبل توبة التائب؛ وهذه آيات أخرى في هذا الباب:

قال تعالى: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ .
[التوبة: ٦٠].

وقال جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ .
[البقرة: ٢٦٤].

(١) [البخاري (١٤١٩) ومسلم (١٠٣٢)] الحلقوم: مجرى النفس.

(٢) [مسلم (٧٢٠)] السلامي: المفضل.

(٣) [البخاري (٢٥٦٦) ومسلم (١٠٣٠)]. قال الجوهرى: الفرس من البعير: كالحافر من الذابة، وربما استعير في الشاة.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ . . ﴾
[التوبة: ١٠٤].

آيات كثيرة في سور متعددة من القرآن الكريم ، وكلها تحت المسلم على التصدق والتخفيف عن آلام وبؤس الفقراء المساكين ، وقد وعد الله تعالى المتصدقين بالجزاء الأوفى ، وزيادة الحسنات ، وتخفيف السيئات بعفو الله ، فالزكاة تؤدى عن الأموال وغيرها وهي إجبارية لأنها من العبادات المفروضة على المسلمين ، أما الصدقة فهي إحسان وعمل اختياري وطوعي يقوم به المرء برغبة صادقة ، وبشهادة ومروءة .

وفي الأحاديث الشريفة التي مرّت تبينت قيمة الصدقة ومعناها الإسلامي ، وعرفنا جزاء المتصدقين ، وفي القرآن الكريم ورد ما يدل على الصدقة وفاعلها في آيات عديدة منها: قوله تعالى: ﴿ . . فَيَذِيهٖ مِّنْ صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ . . ﴾ [البقرة: ١٩٦] وفي آية أخرى: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُوْعُسْرِقٍ فَنَظَرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ . . ﴾ [البقرة: ٢٨٠] .

وقال تعالى: ﴿ . . وَذِيَّةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِيهِۦ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ [النساء: ٩٢] .
ويقول تعالى: ﴿ . . فَأَوْفٍ لَّنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: ٨٨] .

وقال أيضاً: ﴿ . . فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ . . ﴾
[المائدة: ٤٥] .

وقال تعالى: ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾
[المنافقون: ١٠] .

وقال تعالى: ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾
[البقرة: ٢٧١] .

الصدقة عمل طيب ، وفعل لا يفعله إلا من رسخ إيمانه ، وصدقت

مشاعره تجاه المحتاجين لقضاء حاجاتهم وإقالتهم من عثراتهم ، وبذلك يكفر الله عنهم سيئاتهم ، ويجزيهم خيراً لكل ما فعلوه ، وهناك أيضاً آيات أخرى عن الصدقات نوردها فيما يلي :

قال تعالى في سورة البقرة أيضاً: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وقال تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۗ ۖ ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿ خُذْ مِمَّنْ آمَنُوا صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ۗ ۖ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ ۗ ۖ ﴾ [المجادلة: ١٢] وقال في الآية التالية من سورة المجادلة: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَتْ؟ ﴾ [المجادلة: ١٣].

«فهنا من آيات الصدقة والمتصدقين كيف تؤدي هذه الصدقة ، وتقديمها سراً ، والصدقات كما تبين هذه الآيات: تطهر أصحابها وتركيبهم ، ويجزيهم الله تعالى عن ذلك بمحو قدر من ذنوبهم ، ويُعتبر المتصدق صاحب مروءة وإنسانية؛ لأنه يخفف من عسرة من ضاقت أموره ، والصدقة كفارة للمتصدقين»^(١).

سابعاً: الإحسان

يكون الإحسان بالقول والعمل متلازمين ، فالقول يجب أن يصدق به العمل ، وكذلك العمل يكون منسجماً مع القول ، والمحسن في قوله وعمله

(١) انظر: 'المنتخب في تفسير القرآن الكريم' / دار العربية ، بيروت ، ولجنة القرآن والسنة بالقاهرة . ط ٧ ، (بتصرف).

يتقرب إلى ربّه بإحسانه الذي يدلّ على أنّ هذا العمل منبعث من اعتقاد صحيح ، وإيمان قويّ.

قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فالإحسان في العمل ما جزاؤه إلا الإحسان في الثواب.

قال تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [البقرة: ١١٢] ما جزاء من يحسن في عمله وقوله؟ إنّ الله يدخر نعيم الجنة للمحسنين ويثيبهم يوم القيامة ، ويقيهم الخوف والحزن ، وهم الذين يخلصون لله ، ويتبعون الحق ، ويحسنون ما يؤدونه من أعمال.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

هم «الذين ينفقون أموالهم إرضاء لله تعالى في الرخاء ، واليسر ، والقدرة ، والضعف ، والعسر ، ويحبسون أنفسهم عن أن يؤدي غيظهم إلى إنزال العقوبة بمن أساءوا إليهم خاصة ، ويتجاوزون عن المسيء ، إنهم بهذا يعدّون من المحسنين ، والله تعالى يثيبهم ويرضى عنهم»^(١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

إن الله تعالى لا يضيع أجر من يقوم بالإحسان ويبقى مستمراً في إحسانه.

قال تعالى: ﴿... فَمَنْ عَفَا عَنْهُ فَإِنَّهُ مِنْ آبَائِهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ... ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالعفو عند المقدرة يجب أن يقابل بالإحسان وردّ الجميل ، وفي هذه الآية الكريمة «حكم بالتسامح لمن كان قد ارتكب جريمة قتل ، فأهل المغدور يتبعون قول الله بأنّ لهم الحق في القصاص أو العفو والرفقة

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص ٩٢).

بالجاني ، فالقاتل ظالم مهما تكن البواعث ، والعفو والتسامح منتهى الإحسان»^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ [النساء: ١٢٥].

«إن أساس عمل الخير منبعث من الاعتقاد السليم ، وأحسن الدين أن يُخلصَ لله تعالى . فيجعل وجهه وعقاه ونفسه لله ، لا يطلب سوى رضا الله سبحانه ، وبذلك تستقيم مداركه ، فيدرك رسالة الرسل ويستمر في الإحسان»^(٢).

الإحسان والعدل:

قال صاحب المستطرف: «إن الله أمر بالعدل ، ثم عَلِمَ سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تُصلَحُ على العدل ، بل تطلبُ الإحسان ، وهو فوق العدل . فقال تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠] فلو وسِعَ الخلائق العدلُ ، ما قرَنَ اللهُ به الإحسان ، والعدلُ ميزان الله تعالى في الأرض ، الذي يُؤخذُ به للضعيف من القوي ، والمحقوق من المبطل .

إن عدل الملك يوجب محبته ، وجوره يوجب الافتراق عنه . وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لتؤدَّنَ الحقوقُ إلى أهلها يومَ القيامةِ حتى يُقَادَ للشاةِ الجلحاء من الشاةِ القرناء» رواه مسلم^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ،

(١) المصدر السابق (ص ٤٠).

(٢) المصدر السابق (ص ١٣٢) بتصرف.

(٣) [مسلم (٢٥٨٢)] الجلحاء: هي التي لا قرن لها ، وعكسها القرناء أي ذات القرنين .

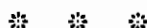
وقال أيضاً: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨].

وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل^(١) أيما أبلغ عندكم؟ الشجاعة ، أو العدل؟ قالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة ، ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان . وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالا يرّممها به فكتب إليه عمر: قد فهمت كتابك ، فإذا قرأت كتابي فحسّن مدينتك بالعدل ، وثقّ طرقها من الظلم فإنّه مرّمّتها ، والسلام .

ومن كلام كسرى: لا ملك إلا بالجند ، ولا جند إلا بالمال ، ولا مال إلا بالبلاد ، ولا بلاد إلا بالرعايا ، ولا رعايا إلا بالعدل^(٢) .

ثم إنّ الإحسان مقترنٌ بالعدل ، والعدل لا يتحقّق إلا أن يقوم به محسن إن كان حاكماً لشعبه ورعيّته ، أو أباً لأولاده ، أو معلماً لتلاميذه ، فالعدل بالأعمال التي تؤديها هي إحسان بأعلى مراتبه .

وخير ختام لهذه الفقرة ما قاله ﷺ في حديث: الإسلام والإيمان والإحسان والحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال جبريل: يا محمد فأخبرني عن الإحسان ، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»^(٣) .



(١) بابل: مدينة قديمة على نهر الفرات في العراق ، قرب مدينة «الحلة» فيها برج مشهور يدعى برج بابل ، ويقال: أن من بناه هم أبناء نوح عليه السلام ، حيث تبلبلت أنفسهم وتفرّقوا في البلاد .

(٢) المستطرف (١/١٥٨) .

(٣) [مسلم (٨)] .